داوود

من وحي القرآن والسنّة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

2017م

المحتويات

المقدمة.. 6

داوود 28

من وحي القرآن.. 28

من 33

صفات النبي داوود 33

1 ـ مقاتل في سبيل الله: 33

2 ـ مَالِك: 37

3 ـ حكيم: 45

4 ـ مُعلَّم: 52

6 ـ هادي مهتدي: 77

7 ـ مُحسن: 86

8 ـ مُفضَّل: 91

9 ـ تسخير الجبال والطير: 94

10 ـ شاكر: 97

11 ـ مُلان له الحديد:.. 101

12 ـ عامل السّابغات:....................................... 103

13 ـ عامل الصّالحات:...................................... 105

14 ـ أُوّاب:... 107

15 ـ صَنَّاع: 109
16 ـ فصل الخطاب:........................... 111
17 ـ العدل: 114
مجال العدل الاجتماعي:............................ 122
مجال العدل الإنتاجي:.............................. 124
مجال العدل السياسي:............................. 126
مجال العدل النفسي: 127
مجال العدل الذّوقي:............................. 130
مجال العدل الثقافي: 132
18 ـ مستغفر: 134
أسباب المغفرة: 142
19 ـ مُقربٌ وله حُسن المآب:................... 144
20 ـ خليفة:............................... 145
دور داوود:............................... 161
تسخير الجبال وحشر الطير:....................... 193
21 ـ مبتلى: 201
النبي.................................. 218
داوود من السنّة.............................. 218
داوود يأكل من عمل يده:......................... 221

بناء البيت:... 227
السجدة: 228
من صفات داوود في السنّة:............................. 229
موت داوود: 235
موت الموت: 235
من دعاء داوود: 248
حبّ الدّنيا:.. 251
خوف داوود: 252
الخوف بين الفطرة والغريزة:............................ 263
استنهاض الخوف: 269
الخوف ومنبّهاته على المخاطر: 273
الخوف شعور استطلاعي:............................... 278
الخوف مُنبّه لما يؤلم ولما يطمئن:......................... 284
الخوف واقٍ من الألم:................................. 289
داوود عبدا شكورا:.................................... 290
الشَّكُورُ لُغَةً: 292
الاسم في أصله: 296
أوجه الشّكر:... 304
الشكور من العباد:.................................... 321

حكمة داوود والاستخلاف في الأرض: 337

فوائد الصبر: 416

الصبور عليم: 419

الصبور حكيم خبير: 421

الصبور رحيم: 424

الصبور صمد: 429

أنواع الصبر: 443

المقدمة

أتناول بالبحث في هذا المؤلّف نبي الله تعالى داوود عليه الصّلاة والسّلام، مع توضيح بعض المفاهيم وتصحيح بعض الأخطاء التي علقت من قبل الذين تناولوا قضايا عُرضت في سيرة هذا النّبي الكريم من التي رسخت معانيها لدى كثير من المفكّرين والقرّاء على مدى الأطوار المتعاقبة في الزّمان والمكان، لذلك نجد بعض النتائج التي توصلّت إليها دراسة بعض القضايا أصبحت كأنّها مسلّمات فكرية وعقائدية احتاجت منّا إلى إعادة تقييم، ومن ثمّ تقويم جديد بما وقفنا عليه من أدلة غيّرت بعض النتائج التي لم تكن في مكانها الصّائب.

إنّ الموضوعات التي تضمّنها هذا المجلّد من موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، كان بعضها من مفردات العقيدة، والبعض الآخر من المسائل الفكرية والعقلية، إلّا أنّ تناولها شكّل لنا رؤية أخرى بما يقبله العقل ولا يتعارض مع الشّرع، فقد كان جلّ اهتمامنا في تناول هذه القضايا أن نقدّم الدليل على صحة الفكرة بالدليل الذي يقبله العقل بما لا يعارض النقل.

ولن نبالغ إذا قلنا أنّنا كنّا نتصوّر مدى أهمية مثل هذه الموضوعات التي نعالج بها قضايا كبرى جوهرية قبل أن نقدم على النّظر في مسائلها والكتابة فيها، لما تتناوله من أشياء تتعلّق بالإنسان جوهرا ومادّة، وتمتّ له بصلة في حياته وفيما بعد الموت، وإنّ كان الكلام في هذه الأوراق ينصبّ على أمور وقضايا منها:

قضايا جديدة لم تكن موجودة جاء بها أنبياء الله عليهم الصّلاة والسّلام.

قيم حميدة موجودة في المجتمع أقرّها الأنبياء وأكّدوا عليها.

قيم ذميمة موجودة في المجتمع رفضتها الأنبياء ورسالاتهم ونهوا عنها وبصرف النّظر عمّن آمن وأطاع، أو من كفر وعصى فإنّ الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة تبقى في المكانة العالية والمرتبة السامية أخذ بها من أخذ وترك منها من ترك.

ولذلك؛ فإنّ مثل هذه الموضوعات من القضايا الكبرى عند الأخذ من البعض والترك من البعض الآخر وكلاهما يوحّد بينهما الانتماء إلى المصدر، ويفرّق بينهما الاختلاف في الالتزام والتطبيق أدى ذلك إلى نشوء عقدة فكرية، أو تشويش فكري في أذهان طائفة من المثقفين والمفكرين، على اختلاف عقائدهم الفكرية ومواردهم الثقافية في توحيد موقفهم من خلال النفاذ من ثغرة الالتزام أو عدمه ليجعل ذلك دليلا على الادعاء بوجود التناقض في الفكر من خلال اختلاف التصرّف الصادر عن الأفراد، فيحكم على الفكر الذي يحمل القضية من خلال فرد أخطأ في التصرّف أو انحرف في السّلوك، ومن ثمّ فإنّهم يتخذون ذلك مطعنا على مصدر الفكر وإن علموا أنّ الخطأ ممّن تقمّص هذا الفكر قصدا أو سهوا، ثم يركبون سبيل رسل الغزو الفكري المشكك في كل محامد الأمّة وتاريخها وتراثها وحضارتها وثقافتها وصولا إلى الهدف من أجل هدم عقيدتها بناءً على خطأ لم يصحححه من أخطأ ولم يشر إليه من وقف عليه، بل جعلوا هذا الخطأ عماد فكر وأساس منطلق بنو عليه أدلتهم، لذلك كان من السهل علينا أن نفنّد تلك الأدلة، ونبرهن على صدق القضايا بالبراهين الداحضة لتلك الافتراءات، من أجل إظهار الحقّيقة الصّافية والرّؤية السليمة لجوهر القضية.

وقد تقف على كثير مِن آراء مَن اتخذ مثل هذه المواقف مادّة دراسية، ليس من المستشرقين فحسب، وإنّما تجدهم يُحسبون على الإرث

الثقافي الذي اتخذوه مادّة للاتهام من أجل الشهرة، ومخالفة من أجل الظهور، وينتمون إلى الفكر الذي يحرضون عليه، ساعتئذٍ يعلم المتتبع أنّ هذه الفئات التي أقبلت على دراسة هذا النّوع من القضايا بالطريقة التي تناولتها بها، وبنت على هفوات الآخرين مرتكزات فكرية انطلقت منها، أو من أخطاء البعض سُلّما تحاول أن ترتقي به إلى مصافّ المفكّرين في معارضة الثوابت ومحاولة تشويه الحقّائق، جهلا أم عمدا، فإذا وقف المتتبع على هذا علم هو وعلمنا نحن أنّ هذه الفئات ليست لها في دراسة هذا النوع من البحوث تجربّة سابقة. وليس عندها للإقبال عليها أيّ شغف أو تطلّع سوى أنّ المرحلة تتطلب هذا النّوع الرائج من البحث.

لذلك، عندما تناولنا القضايا التي عرضت لداوود عليه الصّلاة والسّلام، أو القضايا التي ثار الجدل حولها وكثر فيها الخلاف من قبل أهل الكتاب في موضوعاتها، كان لابدّ من التوسّع في بعض نقاط البحث، وتفصيل القول في بعض مجملاته، وهذا التوسّع وهذه الزيادات لاسيما في الوقوف على أدلة جديدة تدعم آراءنا ومواقفنا في دحض الافتراءات الكثيرة التي رُمي بها داوود عليه الصّلاة والسّلام وهو منها براء، فرأينا أنّ التوسّع مع زيادة الأدلة في بعض الجوانب المهمة يوصل إلى الهدف ويحقّق الغاية مع الانسجام التام في تسلسل الأدلة النقلية والعقلية التي ابتغينا لها أيسر سبل الاقتناء وأوجز العبارات في أبسط الأساليب، حتى يتسنى لطالب الحقّيقة والمعرفة، أن يفيد من موضوعات هذا البحث ولا يجد أيّ عثرة في طريق فهمها.

ونحن نقول: إنّ هذه الأنواع من الأبحاث بقطع النظر عن مدى التوفيق الذي يحالفنا في معالجتها ومستوى درجته. تتربّع على قمّة ما يحتاج إليه هذا الجيل من المعارف في توضيح المفاهيم بإظهار الحقّائق عن طريق الأدلة سواء أكانت هذه الحقّائق:

كونية

علمية

عقلية

ولسنا نزعم أنّ هذه المادّة البحثية بهذا الأسلوب السريع يغطي أهمية هذه البحوث تغطية كاملة، أو يشبع سائر تطلّعات الفكْر حولها. ولكنّنا نعتقد أنّه باب يلج منه صاحب الفكْر الحرّ إلى الإيمان به والالتفات إلى قيمته من خلال إظهار حقّائق ما خفي على من تناول هذه الموضوعات سهوا، وإبطال ما ادعاه المفترون عمدا، حتى إذا بقيت لأحد بقية أسئلة في هذا المجال أو استيضاحات متعلقة ببعض الجوانب التي:

لم يكن في بعضها اتهام.

لم يكن في البعض الآخر خلاف.

مثل:

. الحكمة

. فصل الخطاب

. الملك الذي لا ينبغي لأحد

لذا، كان لنا من الأهمية بمتابعة البحث والشعور بالمسؤولية تجاهه ما دفعنا إلى التوسّع الذي يوضح كلّ خافية ويزيل من الطريق كلّ التباس.

وسوف يقف القارئ الكريم على رؤى جديد لموضوعات قديمة ما نظن أنّ أحدا وقف عليها من قبل، ونحن لا نقول هذا من أجل مخالفة الآخرين فيما ذهبوا إليه من فهم بعض هذه القضايا، ولكنّنا قدمنا الدّليل

وتركنا القضية على مائدة المناقشة بعقل منفتح ليدلي كلٌّ بدلوه مقدّما دليله.

ومن هذه القضايا التي كانت لنا فيها نظرات وخرجنا منها بأحكام جديدة قائمة على الدليل:

إنّ الله تعالى آتى داوود الملك الذي لم نقف على أثر مادّي له لأسباب فصّلنا فيها القول عند الكلام عن سليمان، غير أنّ الذي أشرنا إليه باستفاضة وتوضيح هو أنّ سليمان ورث داوود قال تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ}[1].

إنّ قضية القضاء وبيانه من أنّه فتنة لداوود النبي الملك أم لا، حيث كان يخصّص بعض وقته للتصرّف في شؤون الملك وللقضاء بين النّاس، ويخصّص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحا لله في المحراب، ومن الطبيعي وهو نبي ملك أنّه إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لا يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى النّاس، وقد بحثنا هذه القضية بالتفصيل والبيان

إنّ داوود أوتي حكما وعلما، فبالضرورة أنّه حكم بما آتاه الله تعالى من الحكم والعلم، وأوتي سليمان فهما غير منصوص عليه لخصوصية القضية التي اختص في فهمها سليمان، وليس ذلك بالحجّة القائمة أو الدليل القاطع على عدم تفهيم داوود أكثر من سليمان في قضايا أخرى.

وقد يقف النّاس حائرين أمام ما وهب داوود ممّا أوردته الآية من نبأ داوود من أنّ الجبال الجامدة تسبح معه بالعشي والإشراق حينما يخلو إلى ربّه، يرتل ترانيمه في تمجيد الله تعالى والثناء عليه ومدحه وحمده وذكره،

---

[1] النمل 16.

لقد فصّلنا القول في هذه القضية في ثنايا بحثنا بما يستحقّ ذلك من استفاضة.

فداوود هو بن ايشا بن عويد بن عابر، إلى أن ينتهي النسب إلى يهوذا بن بعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وقد جمع الله تبارك وتعالى له بين النبوّة والملك وأنزل عليه الزبور. له من الصّفات الحميدة ما له، وله من التميّز ما له، وعلّمه الله من الآيات المعجزات الكثير، وقد وَرِثه من بعده أبنه سليمان عليهما الصّلاة والسّلام. عن وهب بن منبه "كان داوود عليه السّلام، قصيرا، أزرق العينين، قليل الشّعر، طاهر القلب نقيه، وهو الذي قتل جالوت؛ فأحبّته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم، فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك إلى داود عليه السّلام، وجمع الله له بين الملك والنبوّة[2].

قال تعالى: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الملك وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمّا يَشَاءُ}[3]؛ فقد ذكر ابن جرير في تاريخه: أنّ جالوت لما بارز طالوت؛ فقال له: أخرج إلى أو أخرج إليك؛ فندب طالوت النّاس؛ فانتدب داود، فقتل جالوت؛ فمال النّاس إلى داود عليه السّلام، حتى لم يكن لطالوت ذكر وخلعوا طالوت وولّوا عليهم داود. وقيل: إن ذلك عن أمر شمويل، حتى قال بعضهم: إنّه ولاه قبل الوقعة.

قال تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحقّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي

[2] المجالسة وجواهر العلم، 1، 310.

[3] البقرة 251.

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[4].

لقد تمّ تفسير هذه الآيات الكريمات في بداية هذا البحث، وقد أكّدنا على عصمة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام التي تقضي بعدم صحة ما ورد في بعض كتب التفسير والتاريخ من قصّة المرأة مع نبي الله داود عليه السّلام.

وهنا يقول أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السّلام، ولا أوتي برجل يقول: إنّ داود ارتكب الفاحشة إلّا ضربته حدّين أحدهما للقذف، والآخر لأجل النبوّة، لعظم ما ارتكب وجليل ما احتقب، يرمي من قد رفع الله محلّه، وأرسله من خلقه رحمة للعالمين وحجّة للمجتهدين"[5].

إنَّ تلبيس تلك التهمة لنبي كريم من أنبياء الله عليهم الصّلاة والسّلام لا يليق، وهو لا يزيد عن كونه مظلمة، فتدبير حيلة التخلص من الزّوج وقتله، لا يمكن أن يكون صفة لنبي من أنبياء الله. وهكذا هو مثل النعجة؛ فالمعنى الحقّيقي لها معروف أنّه في الغنم، وصرفه إلى المرأة معنى مجازي لم يقم عليه دليل، والقاعدة المطردة حمل الشيء على حقّيقته حتى يقوم دليل على إرادة المجاز.

---

[4] ص 21 . 26.

[5] قصص الأنبياء (عرائس المجالس)، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري: ٢٨١.

أمّا فزع داود عليه السّلام هو مجيئهما من غير الباب، فظن أنّهما أرادا به سوء حينما تسورا المحراب. أمّا الذّنب فلم يذكر الله تعالى ما هو ذنب داود عليه السّلام الذي استغفر منه؛ لذلك لا داعي لتحميلِ الآيات ما لا تحتمل. والتوبة ليست مقصورة على التوبة من الذنب، بل التوبة قد تكون من البعد عن ذكر الله مدّة من الزّمن كما يقول الخارج من الخلاء: (غفرانك)، وقد تكون التوبة في بناء بيته قبل بناء بيت الله، قال بعض المفسرين: "وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السّلام لم يذكره الله؛ لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنّما الفائدة ما قصّه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنّه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها"[6].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم: "كَانَ دَاوُدُ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"[7] ذلك هو داوود الذي ألان الله له الحديد، وعلمه صنعة الدروع، وكان يأكل من هذه الصّنعة؛ ولهذا قالوا: إنّ داود كان حدادا مع كونه ملكا، فهذا يدلّ على فضل أكل الإنسان من عمل يده.

ولأنّه العمل؛ فهو الذي يربّط الحاضر تدبّرا بالمستقبل تفكّرا، ولذلك؛ فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل فلا معنى للحياة؛ فالله خلق أبانا آدم في النّعيم ليعيش وبنيه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزائلة (الحياة المنقوصة) حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك؛ وجب العمل، وخير العمل ما يقوم به الإنسان بذاته، ووفقا لمقدرته، ذلك لأنّ عمل اليد يباركه الخالق.

---

[6] تفسير السعدي، ص 711.

[7] صحيح ابن حبان، محقّقا، 14، 119.

وعلى المستوى العام؛ فالعمل يقود إلى حلّ التأزّمات التي تواجه الكثيرين، كونهم لا يعملون، بل يعتمدون على جهد الغير.

ولسائل أن يسأل:

أيّ حلّ تعني؟

أقول: حلّ أزمة الحياة الدّنيا، التي تتطلّب العمل، بهدف النّهوض، وغرض الارتقاء، وغاية بلوغ القمّة (الحياة الباقية) حيث تُرتق الأرض في السّماء بعد أن فُتقت منها.

فيجب الإقدام على العمل المشبع للحاجات المتطوّرة بلا حدود، ذلك لأنّ الحدود عوائق أمام التقدّم تجاه بلوغ الأفضل والأعظم. ولهذا؛ فلا ينبغي أن يرتضي بنو آدم بالفقر؛ فالفقر مرض ينبغي القضاء عليه بالعمل المنتج؛ فلو عمل بنو آدم جميعهم، لما وجد الفقر مكان له على الأرض، ولأنّهم لا يعملون جميعا؛ فسيظلون فقراء مهما استغنى منهم من استغنى.

ولذلك؛ فالغناء رحمة؛ والفقر أزمة ومواجع، ولأنّهما كذلك، وجب على الأغنياء العمل إلى جانب ما يعملون ويجنون من مكاسب من أجل إزالة الألم عن الفقراء وتحويلهم إلى ميادين العمل المنتج ارتقاء.

فالغنى ارتقاء حقّ لا يكون إلّا نتاج العمل المرضي، أمّا الفقر ليس بحقّ، بل الفقر أوجدته أسباب وعلل ينبغي أن تزال. أمّا العجزة والقصّر؛ فحقّوق عيشهم المرضي على كواهل العاملين من ذويهم، ولكن إن كان ذووهم يعيشون اتكالا على الغير؛ فالعيب لا شكّ أنّه سيلاحقّهم ومن ورائهم سيلاحقّ المسؤولين في الدّولة.

إذا؛ فالارتقاء لا يمكن أن يكون على حساب الغير، بل يكون بجهودهم المشتركة حيث لا إقصاء ولا تغييب لأحد عن ممّارسة حقّوقه، أو أداء واجباته، أو حمْل مسؤولياته. وفي المقابل يحدث الانحدار والنّزول سُفلية لمن يتخلّى عمّا يجب التمسّك به حقّا وواجبا ومسؤولية.

ولذلك، ينبغي أن يعمل الجميع بهدف الاستغناء والحياة الرّاقية، وكلّما بلغ الجميع مستوى من العيش الرّفيع الرّغد يجب أن يفكّروا فيما هو أرفع وأرغد منه حتى تُرتق الأرض والسّماء بالعمل.

ولأنّ العمل ارتقاء يؤدّي إلى ما يُنقذ بني آدم من الألم، كما يؤدّي بهم إلى ما يُغرقهم فيه؛ فهم بين هذا وذاك بين ارتقاء فيه العمل يُتقن، وبين دُونية بها يُهمل وينحرف إلى ما لا يجب. ولذلك، كان الصّدق ارتقاء في مواجهة الكذب انحدارا، وكان العدل ارتقاء في مواجهة الظلم انحدارا، وهكذا كان الحقّ في مواجهة الباطل، والحرّيّة في مواجهة الاستعباد، والديمقراطية في مواجهة الدكتاتورية، والاستيعاب في مواجهة الهيمنة والإقصاء، وبين هذا وذاك يجب التحدّي بما يمكّن من الارتقاء قمّة.

ولأنّ بني آدم بين ارتقاء ودونية؛ فهم بينهما بين ما يرسّخ قيمة الإنسان رفعة ونهضة ومكانة، وبين ما يؤدّي إلى التخلّف والفاقة وتقليل الشأن.

ولذلك؛ فالعمل الصّالح ارتقاء لا يكون إلّا عملا منتجا ومتقنا ومبدعا ومرسّخا لقيمة الإنسان، وفي المقابل العمل الفاسد والرّغبة الفاسدة، لا يكونان إلّا على حساب القيم الحميدة، وعلى حساب مصالح الآخرين، ورغباتهم ومصائرهم وما يشبع حاجاتهم المتطوّرة والمتنوّعة، ومن ثمّ؛ فالعفّة والأمانة والنّزاهة وتحمّل أعباء المسؤولية ارتقاء، ستظل قيما

في مواجهة تلك القيم المؤدّية بأصحابها إلى السُفلية والدّونية التي تتمركز على الأنا.

وقد ضربَ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم مثلا لمرهفي الشعور بنبي الله داود عليه السّلام، واختاره من بين الأنبياء مع أنّ آدم كان حراثا، ونوحا كان نجّارا، وإدريس كان خياطا، وموسى كان راعيا وهكذا لبقية الرّسُل عليهم الصّلات والسّلام حرف متنوّعة، ولكنّ اختيار داوود جاء لاقتصاره في أكله على ما يعمل بيده، وهو لم يكن لاحتياجه لأنّه كان خليفة الله في أرضه. ومع ذلك اختار الأكل من الطريق الأفضل وهو عمل يده، وفي عمل داود عظمة أخرى، وهي أنه كان يعمل الّدروع من الحديد ويبيعها ويأكل من ثمنها، وقيل: "إنّه كان يعمل القفاف أو كان يعمل زرادا "حدادا" أو ضافر خوص"8.

عن ابْنُ سَمْعَانَ، قَالَ: "بَلَغَنَا أَنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ، مَرَّ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام، وَهُوَ يَصْنَعُ دِرْعًا، فَوَقَفَ عَلَيْهِ يَتَعَجَّبُ بِمَا يَصْنَعُ وَلَا يَدْرِي مَا هِيَ فَصَمَتَ عَنْ مَسْأَلَتِهِ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَلَبِسَهَا، فَعَرَفَ لُقْمَانُ مَا هِيَ عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، فَقَالَ لُقْمَانُ: الصَّمْتُ حِكْمَةٌ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ"9.

النبي داوود منذر، فعَنْ أَبِي الْجَلْدِ، أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام: "يَا دَاوُدُ أَنْذِرْ عِبَادِي الصِّدِّيقِينَ فَلَا يُعْجَبُنَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَلَا يَتَّكِلُنَّ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ عِبَادِي أَنْصِبُهُ لِلْحِسَابِ وَأُقِيمُ عَلَيْهِ عَدْلِي إِلَّا عَذَّبْتُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَظْلِمَهُ، وَبَشِّرِ الْخَطَّائِينَ أَنَّهُ لَا يَتَعَاظَمُنِي ذَنْبٌ أَنْ أَغْفِرَهُ وَأَتَجَاوَزَ عَنْهُ"10ن وعن أَبِي الْأَشْهَبِ جَنَازَةً بِعَبَّادَانَ

---

[8] المنهل الحديث في شرح الحديث، 2، 247.

[9] الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير، ص، 507.

[10] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 6، 57.

فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: "أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام: يَا دَاوُدُ حَذِّرْ فَأَنْذِرْ أَصْحَابَكَ أَكْلَ الشَّهَوَاتِ فَإِنَّ الْقُلُوبَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا عُقُولُهَا مَحْجُوبَةٌ عَنِّي، قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: فَكَتَبْتُهُ فِي رُقْعَةٍ وَارْتَحَلْتُ مَا مَعِيَ حَدِيثٌ غَيْرُهُ"11

وهو كذلك مُرسّخ حبّ الله فيه، سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي الْحَوَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ يَقُولُ: "أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام: إِنِّي إِنَّمَا خَلَقْتُ الشَّهَوَاتِ لِضُعَفَاءِ خَلْقِي فَإِيَّاكَ أَنْ تُعَلِّقَ قَلْبَكَ مِنْهَا بِشَيْءٍ فَأَيْسَرُ مَا أُعَاقِبُكَ بِهِ أَنْ أَنْسَخَ حَلَاوَةَ حِبِّي مِنْ قَلْبِكَ"12 وعن ثنا الْحَسَنُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: سَمِعْتُ بِشْرَ بْنَ الْحَارِثِ، يَقُولُ: أَوْحَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام: يَا دَاوُدُ لَا تَتَّخِذْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَالِمًا مَفْتُونًا، فَيَصُدَّكَ بِسِكْرِهِ عَنْ طَرِيقِ مَحَبَّتِي، أُولَئِكَ قُطَّاعُ طَرِيقِ عِبَادِي"13، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: "قَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السّلام: ربّ أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ، ربّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهِلِّي، وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ"14

ولقد اتصف داوود بصلاته مفضلة، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، أَنَّ عَمْرَو بْنَ أَوْسٍ، أَخْبَرَهُ: "أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَهُ: أَحَبُّ الصّلاة إِلَى اللَّهِ صَلاَةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا"15

---

11 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 9، 260.

12 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 10، 20.

13 المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي، ص، 335.

14 المستدرك على الصحيحين للحاكم، 2، 470.

15 صحيح البخاري، 2، 50.

ولقد تميّز صوته بالمزمارية؛ فعن ريدة بن الحُصَيب بن عبد الله الأسلمي المروزي رضي الله عنه (قال) بريدة (قال رسول الله: "إنّ (الأشعري) أبا موسى رضي الله عنه، أعطاه الله سبحانه وتعالى (مزمارا) أي صوتًا حسنًا (من) جنس (مزامير آل داود) – عليه السّلام – أي من جنس أصوات داود – عليه السّلام – حين يتغنى بالزبور والأذكار، شبّه حسن صوته وحلاوة نغمه بصوت المزمار، ثم حذف المشبّه واستعار له اسم المشبّه به على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، ثم جرّد له بذكر آل داود"16. وعن عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ الْعَلاَءِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعَ النَّبِيُّ قِرَاءَةَ أَبِي مُوسَى، فَقَالَ: "لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ – عَلَيْهِ السّلام"17.

لقد أتى ألله تعالى داوود الملك فكان مالكا بالحقّ، وآتاه الحكمة فكان خير حكيما بالحقّ، وآتاه علما فكان عالما بالحقّ ومؤيدا به فيما يقول ويفعل ويعمل ويسلك، قال تعالى: {وَآتَاهُ اللَّهُ الملك وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ ممّا يَشَاءُ}18.

داوود نبيا من أنبياء الله تعالى عليهم الصّلاة والسّلام يُصلح في الأرض ولا يُفسد فيها آتاه الله زبورا كتابا منه ليهدي به قومه للتي هي أحسن، ولكن قومه أضلوا السبيل ولم يؤمنوا بما آتاه الله من زبور وحكمة وعلم فكفروا فلعنهم اشد لعنة بقيت دَينا عليهم إلى يوم يبعثون، قال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ

---

16 الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم، 10، 123.

17 سنن ابن ماجه، 1، 425.

18 . البقرة 51.

مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ}[19].

داوود يؤل إلى إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام الذي جعل الله في ذريته وذرية نوح من قبله النبوة، لذا كان داوود نبيا من سلالة الأنبياء الكرام من إبراهيم مصداقا لقوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ ربّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ}[20].

تميّز داوود بصفات وخصائص كثيرة حميدة ومتعددة حتى أنّه وصف بها، لذا كان محسنا في تعاملاته ودعوته وقيادته ومُلكه وحكمته فنعم النبي الكريم ونعم العبد الصالح الذي أحسن كل شيء عمله، فجازاه الله خير جزاء مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[21].

داوود من الأنبياء المفضلين عليهم الصّلاة والسّلام، فقد فضّله الله تعالى بالملك والحكمة والعلم والكتاب (الزَبُور) وغيرها كثير ممّا فضله به على غيره من الأنبياء، وفي هذا التفضيل الإلهي تميُّز بما وهبه الله من آيات ومعجزات وحرف من صناعة وغيرها وكما ميَّز نوح بصناعة الفُلك كذلك ميز داوود بصفات كثيرة سيتم ذكرها تفصيلا لاحقّا، قال تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}[22]، وقال تعالى:

[19] . المائدة 78 . 80.

[20] . الأنعام 83، 84.

[21] . الأنعام 84.

[22] . الإسراء 55.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}23.

ولأنّ داوود متوليه الله بالإنباء والرّسالة والرّحمة والرعاية والعناية التي خصه بها تعالى كان على الحقّ وللحقّ كان مناصرا ومقاتلا في سبيل إحقّاقه وقهر كيد الطاغوت ومكره ومن تولاهم مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الملك وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}24، كان داوود من الذين قالوا (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

وقد يتساءل البعض:

متى قالت القلة المؤمنة ذلك القول الكريم؟

قالته في نفس الوقت الذي قالت فيه الفئة الكثيرة لطالوت الذي اصطفاه الله لهم ملكا {لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ}25، القائلون هم أولئك الكفرة والمشركون وضعاف النفوس والمنافقون من قوم داوود.

ولأنّ القتال في سبيل الله حقّ كان محمّدا من بعد داوود عليهما الصّلاة والسّلام خير مقاتل في سبيل الله عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى:

---

[23] . النمل 15.

[24] . البقرة 249 . 251.

[25] . البقرة 249.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[26].

ولأنّ القتال حقّ بقي على المؤمنين كتابا حتى يُحقّ الحقّ ويُبطل الباطل مصداقا لقوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الحقّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[27].

وعليه: أقول أنّ القتال على احتمالين:

أ. القتال في سبيل الحقّ وإحقّاقه حقّ يُتّبع.

ب. القتال في سبيل الطاغوت ظلم يُجتنب.

والقتال غير الاقتتال، فالقتال على الوجهين السابقين، والاقتتال داخلي بين الأخوة والأقاربّ حتى ولو كان الدين واحد، ولهذا الاقتتال بين الأخوة في غير مناصرة حقّ لله تعالى ومناصرة للمستضعفين من الرجال النساء والولدان المسلمين وجوههم لله ربّ العالمين فهو مُحرَّم وقتل النفس فيه كمن يقتل النّاس جميعا، مصداقا لقوله تعالى: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النّاس جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَاربّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي

[26]. التوبة 123.

[27]. التوبة 29.

الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}28.

وبناء على قاعدة الملك يؤتى إيتاء أُتي داوود مُلكا من مالك الملك مصداقا لقوله تعالى: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآَتَاهُ اللَّهُ الملك وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمّا يَشَاءُ}29، ما أعظم المالك وما أجمل الملك آتاه مُلكا من مُلكه المطلق وآتاه الحكمة وعلَّمه ممّا يشاء سبحانه ما أعظم شأنه به آمنت وعليه توكلت وأوليت أمري وما نأمل وأضمر في نفسي إليه إنّه السمع العليم المجيب باسمه الباقي أسأله.

المِلك في الحكم البشري نسبي، فمن يقول الحقّ: ويعدل يكون ملكا، ومن يقول زورا وبهتانا فلن يكون ملكا، فعلى سبيل المثال: إذا شهدوا شهودا أمام قاضٍ بمحكمة عدل، فمن يكتم الشهادة لن يكون ملكا ومن يقول شهادة زور لن يكون ملكا، فالملك في ذلك الموقف هو الشاهد الحقّ. ولذا فالمِلك لا يقتصر فقط على من يمتلك من الثروات، بل من يريد أن يتصف بصفة المِلك الحقّ، فعليه أن يقول الحقّ، ولا يقدم إلا على فعل الحقّ، أمّا من يمتلك ثروات كثيرة، ويمتلك أمر السياسة في البلاد ولا يقول الحقّ فلن ينال من الصفة إلا المسمى، أمّا من حيث الدلالة والمعنى سيظل فاقدا له.

المِلك في الأرض هو المواطن الحقّ، الذي لا يُسهم في تزوير الانتخابات، ولا يأكل أموال النّاس بالباطل، ولا يشهد شهادة زور، ولا يقتل النفس التي حرّم الله، ولا يعمل الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا يزني ولا يكذب ولا يغش ولا يُفسد في الأرض ولا يحاجج بباطل، وهو الذي لا ينسى نصيبه من الدنيا، ويؤمن بأنّه المخلوق الذي من ورائه خالق

28. المائدة 32. 33.

29. البقرة 251.

يملك الخلق والأمر {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي ربّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الملك إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبّ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}30.

وعليه: لا يمكن أن يكون في الأرض من يملك المطلق، فالأرض ومن عليها وما فيها والسماوات وكل ما خلق مُلكا لله تعالى، ولأنَّ الأمر كذلك فإن قانون النسبية كفيل بإثبات القصور فينا، ممّا يجعلنا نؤمن من غير شك بأن الكمال للمَلِك الحقّ وحده، وعندما نصل إلى هذه النتيجة الموضوعية، نعرف الحقّ ولا نقول غيره ولا نفعل غيره ما حيينا، وهذا الأمر هو الذي يُمكِّنا من أن نكون مُلوكا.

ولقد سخرت الجبال مع داوود وكذلك الطير، والتسخير من الله عزّ وجلّ كان إعانة ومناصرة لداوود على إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، ولهذا سخَّر معه الجبال والطير يسبحن أي يعملنَ تحت أمره طاعة لأمر الله ولذا فكل عمل خير في مرضاة الله هو فعل تسبيح له عزّ وجلّ، {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ}31، ولأنّ أفعال هذه الآية كانت متحقّقة على الأرض على يدي داوود قال تعالى: (وَكُنَّا فَاعِلِينَ)، ولذلك فأمر الله متى ما شاءه أن يكون كان مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}32.

ولأنّ التسبيح عبادة والعبادة عمل صالح كان داوود مع الجبال والطير في حالة عبادة متصلة صباحا ومساء مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ

---

[30] . البقرة 258.

[31] . الأنبياء 79.

[32] . البقرة 117.

وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ}33، أي كل الطير تتزاحم طاعة لأمره الذي ارتضاه الله وبرجوعها إليه في حركتها وتنقلها ولذا فهي لا تبرح إلا بأمره وبعلمه وهي مسخرة للعمل تحت أمره وهي تسبّح كما الجبال تسبح حمدا لله تعالى التي سخرها لأن تعمل مع داوود كل ما من شأنه أن يُسهم في إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، وقوله تعالى: (كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ) الكل طائعا لأمر داوود وذلك لعلم الأوابين من الطير بأن طاعة داوود هي طاعة لله وأمره الذي ألزمهم التأويب لداوود.

إذا التسخير لأجل العون، أي معونة الآخرين غير القادرين على إنجاز ما يجب إنجازه لأسباب الحاجة ومشبعاتها، أمَّا التسخير من عند الله كما هو حال الجبال والطير المسخرات لداوود فإن أمر التسخير جاء لتذليل الصعاب التي تواجه داوود في أداء رسالته التي اصطفاه الله إليها، ولذلك كان اختيار الجبال والطير ليلتفت داوود إليها ويعرف أهميتها ويعرف كيف ومتى يسخرها وفقا للمشيئة الإلهية التي خصه الله بها لأن يعمل ما لم يعمله غيره من قبله، ولذلك فالجبال والطير بالنسبة لداوود وسائل مسخرة له وهي القوّة التي تُسهم في إنجاح أعماله التي تُرضي الله .

وعليه: فالتسخير لأجل تذليل الصعاب المعلومة بالنسبة لله تعالى والمجهولة لداوود، وكذلك الجبال والطير مع أنّها لا تعلم الصعاب التي سُخِّرت لتذليلها إلا أنّها خُلقِت مهيأة لتذليلها بما يحقّق النّجاح لأعمال داوود المسخّرة له من الله، لذا كانت الجبال والطير خير طائعة لتنفيذ الأمر وإنجاز العمل المهيأة له.

داوود عليه السّلام عبدا شكورا؛ والشكر في مفهومه اقتراب في المعنى مع (الحمد) ونحن نقول: الشكر من حيث المفهوم، هو اعتراف

---

[33] . ص 17 . 19.

بالعطاء أو الإجابة أو الاستجابة أو الهبة مع فائق التقدير للمُعطي وهو الشكور المطلق، أمَّا الحمد فمترتبا على بلوغ غاية أو انتهاء من عمل كانت نتائجه مُرضية مع تحقّق السّلامة المطمئنة للنفس والقلب ممّا يجعله متجها إلى ربّه تعالى بالحمد والثناء.

الشاكر المعترف بالفضل كما اعترف داوود بحمد الله وتفضيله له وفضله عليه بالعلم الذي خصَّه به والحكمة، ولذا فالشاكر هو الراجع لله في كل أمر.

ويندرج تحت الاسم الشكور الاسم الشاكر ويعني في ذات الوقت: الخالق والمخلوق؛ فالله له الشكر على وجه الكمال والعبد له الشكر على وجه المثال، فيحاول العبد بكل جوارحه أن يشكر فيكون شاكرا ثم يجتهد في الشكر فيكون شكورا، ويتجلى الله على العبد بالتوفيق فيعمل شاكرا وشكورا وينال بذلك الرضا من الله الشكور.

وأَمَّا الشَّكُورُ من عباد الله؛ فهو الذي يجتهد في شكر ربّه طاعة قال الله تعالى {اعْمَلُوا آلَ داودَ شُكْرا وقليلٌ من عِبادِيَ الشَّكُورُ}[34]. العمل الصالح هو خير دليل على تقديم الشكر للشكور المطلق، وخير الأعمال الطاعة والهداية والعبادة لله وحده لا شريك له، ويقصد من الآية الكريمة السابقة بقوله تعالى: (آلَ داودَ) هم الذين يعودون إلى صُلب داوود، أي أنهم الذين ينتسبون إليه دما، ولأنهم من سلالة نبي كريم يُراد لهم أن يكونوا مسلمين وجوههم لله ربّ العالمين كما أسلم أبوهم داوود، ولأن في ذلك الزمن كان أكثر النّاس على ضلال وشرك بالله تعالى جاء قوله عزّ وجلّ (وقليلٌ من عِبادِيَ الشَّكُورُ) التي من احتمالات تحليل معانيها وما

[34] . سبأ 13.

تدل عليه من عبر هو مع أن الآية نزلت في آل داوود لتحرضهم على الطاعة والهداية شكرا لله تعالى إلا أنّ القيل منهم سيكونون من الشاكرين.

فالشكور اسم وصفة لله متأصلة، وفي عباده متحصله، بمعنى أنّ التجلي الأعلى للشكورية لله، والاقتباس والالتماس والتقيد بالاستغراق في التعبد قولا وعملا يورث هذه الرتبة في العبادة، وقليل من يتحصل عليها لقوله تعالى: (وقليل من عبادي الشكور). وأولئك الذين اختصَّهم الله بالخلافة ومن أراد أن يصل إلى منزلتهم من المؤمنين فعليه بالسير على نهجهم وطريقتهم في القول والفعل والنية الصادقة.

الشكر قيمة وفضيلة مترتبة على فعل محبب في مرضاة الله تعالى، وهو مجازاة مقابل اعتراف بأفعال التطابق مع الحقّ، ولأن الله عزّ وجلّ يريد للحقّ أن يُحقّ، ويُريد للباطل أن يُزهق، ويُريد للكافر أن يؤمن بإرادة، فهو بطبيعة الحال شكور لمن أزهق الباطل ولمن آمن وأسلم وجهه إليه واحدا أحدا لا شريك له سبحانه.

والله هو: (الشاكر، الشكور) "الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل ويعفو عن كثير. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره"[35].

وهنا، يتضح أن الاسم الشكور يشمل الاسم الشاكر وكلاهما من نبع الشكر الإلهي الذي يفيض مغفرة وعطاء وثوابا وسترا على من يتصف بهذه الرتبة الإيمانية من العباد، ولا تتأتى هذه الرتبة إلا بالصبر المطلق والصبر المطلق كما ورد في القرآن الكريم بصيغة (صبّار) والشكر المطلق الذي ورد في القرآن الكريم بصيغة (شَكُور) ولم يصل إلى الدرجة العلية في هذه المنزلة إلا القليل من عباد الله الذين وصفهم بقوله تعالى: (وقليل من

---

[35]. تفسير السعدي، ج 1، ص 948.

عبادي الشكور) وهؤلاء يتمم الله عملهم بالقبول ويزيدهم من فضله بالمغفرة والستر والشكر.

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}36، جاء الحمد والثناء شكرا لله تعالى على ما فضلهما به من نعم وعلم أي بما خصّهما به من آيات ومعجزات كريمة حقّقا بها نصرا عزيزا في وقت كانت القلة القليلة هي التي آمنت بما جاء به داوود وسليمان عليهما الصّلاة والسّلام.

لقد تناولنا في بحثنا هذا موضوعات كثيرة غير التي قدمنها على سبيل المثال، وقد انصبّ اهتمام كبير من الجهد على دحض الافتراءات والادعاءات على سليمان وداوود عليهما الصّلاة والسّلام ممّا ابتليا به.

وقد كان القرآن الكريم المصدر الرئيس ثم السنّة الكريمة التي ساهمت في إغناء البحث بالمعلومة من بعض كتب الحديث التي تعزز النتائج.

ونحن نأمل ممّن يرى اختلافا معنا وله رأي مغاير فيما توصّلنا إليه من نتائج وله حجّة علينا في ذلك، فليتقدّم بالحجّة المقنعة التي هي الحجّة المطلقة، حيث لا حجّة مطلقة إلا ما جاء من عند الله تعالى أو رسوله.

لقد اجتهدنا في أن يخرج البحث على هذه الصّورة بهذه النتائج التي توصّلنا إليها، ولكل مجتهدٍ نصيب، فمن اجتهد وأخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران، والله نسأل أن نكون من أصحاب الإصابة والله وليّ التوفيق وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

أ د عقيل حسين عقيل

[36]. النمل 15.

داوود

من وحي القرآن

تميَّزَ داوود بالقوّة والشجاعة في زمن قيادة جالوت الذي بعثه الله ملكا لبني إسرائيل فقاتل داوود تحت لوائه إيمانا بالحقّ ودفاعا عنه وعندما جاء يوم المواجهة مع جالوت وجنوده تحقّق النصر بقتل داوود لجالوت مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا ربّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ}37.

لقد أتى ألله تعالى داوود الملك فكان مالكا بالحقّ، وآتاه الحكمة فكان خير حكيما بالحقّ، وآتاه علما فكان عالما بالحقّ ومؤيدا به في ما يقول ويفعل ويعمل ويسلك، قال تعالى: {وَآتَاهُ اللَّهُ الملك وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمّا يَشَاءُ}38.

داوود نبيا من أنبياء الله تعالى عليهم الصّلاة والسّلام يُصلح في الأرض ولا يُفسد فيها آتاه الله زبورا كتابا منه ليهدي به قومه للتي هي أحسن، ولكن قومه أضلوا السبيل ولم يؤمنوا بما آتاه الله من زبور وحكمة وعلم فكفروا فلعنهم اشد لعنة بقيت دَينا عليهم إلى يوم يبعثون، قال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ

[37] . البقرة 250، 251.

[38] . البقرة 51.

مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ}39.

داوود يؤل إلى إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام الذي جعل الله في ذريته وذرية نوح من قبله النبوة، لذا كان داوود نبيا من سلالة الأنبياء الكرام من إبراهيم مصداقا لقوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ ربّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ}40.

تميّز داوود بصفات وخصائص كثيرة حميدة ومتعددة حتى أنّه وصف بها، لذا كان محسنا في تعاملاته ودعوته وقيادته ومُلكه وحكمته فنعم النبي الكريم ونعم العبد الصالح الذي أحسن كل شيء عمله، فجازاه الله خير جزاء مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}41.

داوود من الأنبياء المفضلين عليهم الصّلاة والسّلام، فقد فضّله الله تعالى بالملك والحكمة والعلم والكتاب (الزبُور) وغيرها كثير ممّا فضله به على غيره من الأنبياء، وفي هذا التفضيل الإلهي تميُّز بما وهبه الله من آيات ومعجزات وحرف من صناعة وغيرها وكما ميَّز نوح بصناعة الفُلك كذلك ميز داوود بصفات كثيرة سيتم ذكرها تفصيلا لاحقّا، قال تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}42، وقال تعالى:

---

39 . المائدة 78 . 80.

40 . الأنعام 83، 84.

41 . الأنعام 84.

42 . الإسراء 55.

{وَلَقَدْ آَتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}43.

داوود له حظ عظيم عند ربّه تعالى الذي آتاه ما آتاه من الملك وسخَّر معه الجبال والطير يُسبحنا بالعشيِّ والإشراق آيات عظيمة ومناصرة قوية لنبي من أنبياء الله المفضلين، قال تعالى: {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ}44.

يَعْلَم داوود بأثر النِعم والمكارِم التي أنعمها الله عليه وأكرمه بها فكان خير حامدٍ وخير شاكر لفضل الله عليه على تفضيله له على كثير من عباده المؤمنين، قال تعالى: {وَلَقَدْ آَتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}45.

لقد أُتي داوود الخير الكثير من ربّه تعالى وخير ما أُتي به الفضل العظيم الذي لا يُقدَّر بمقاييس وموازين العباد ولا يعرف حقّيقته إلا من آتاه وكذلك من أُتي إليه قال تعالى: {وَلَقَدْ آَتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا}46.

معجزات عظيمة تتعدد لداوود أُتيت إليه من ربّه تعالى ليس له بدّا إلا أنْ يشكر ويحمد فضله فكان خير الحامدين وكان خير الشاكرين، ومن هذه المعجزات ألَان له تعالى الحديد فأصبح بين يديه لينا مرنا يمكنه أن يصنع منه ما يشاء بتوفيق من مُلينه له، قال تعالى: {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}47.

---

43. النمل 15.
44. ص 18، 19.
45. النمل 15.
46. سبأ 10.
47. سبأ 10.

داوود كان عظيم الطاعة لله تعالى عاملا للصالحات قال تعالى: {وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}48، إنّه المكثر من عمل الصالحات إيمانا تاما بأن عملها هو إحقّاقا للحقّ وإزهاقا للباطل ولهذا فقد عمل وأحسن عمله أمام بصر الله له ولأعماله التي يعملها.

ولإيمان داوود بربّه تعالى كان أوابا في عباداته التي يعبد بها الله طاعة (أخذ بما أمر وإتباعا له وانتهاء عما نهى عنه تعالى) في القول والعمل، قال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ}49.

كان داوود متعلما على يدي الله تعالى ومن بين ما علَّمه العليم علَّمه كيف يصنع الملابس الخاصة بوقاية المقاتلين من سهام وضربّات الأعداء الذين كفروا بالله وبما أنزل وبمن أرسل من المرسلين عليهم صلوات الله وسلامه، قال تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ}50.

ولأنّ داوود قد أُتي الحجّة (الحكمة) من الله تعالى، فقد أُتي خيرا كثير مصداقا لقوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا}51، ومن الحكم التي أتاها الله تعالى لداوود فصل الخطاب، وذلك لإظهار البيّنة التي يحتكم بها ويحتكم إليها، قال تعالى: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}52.

ولأنّ الله تعالى شدَّ على مُلكه وآتاه الحكمة وفصل الخطاب، كان عادلا في حكمه كلما حكم بين العباد في شيء هم فيه مختلفون، ولأنّه نبيا

---

[48] . سبأ 11.

[49] . ص 17.

[50] . الأنبياء 80.

[51] . البقرة 269.

[52] . ص 22.

من أنبياء الله فلابد له أن يكون عادلا في حكمه طاعة لله في كل أمر ونهي ومخافة من العواقب التي لا تحمد إن لم يحكم عدلا، قال تعالى: {فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[53].

مع أنّ الله تعالى قد أتى داوود حكما وحكمة وشدَّ على مُلكه إلا انه كثير الحيطة مخافة من الوقوع في الخطأ وهو لا يدري، ولهذا، هو دائما يستغفر ربّه إيمانا وطاعة لأجل أن يبقى على التوبة التي بها يتحقّق الفوز في الدارين الاستخلاف في الأرض والفوز بالجنّة، قال تعالى: {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ ربّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ}[54]، يُفهم من هذه الآية الكريمة أن داوود لم يُفتن ولهذا قال (وَظَنَّ) والظن ليس بيقين، ولأنّه كذلك جاء قوله عزّ وجلّ في الآية الكريمة السابقة مُطمئِنا لداوود الذي مجرد أنّه ظن استغفر ربّ وخرَّ راكعا وأناب، أي مع أنّه غير متأكد من أنّه قد ارتكب مخالفة فقد استغفر ربّه .

ما أعظم تفضيل الله تعالى لداوود، فقد قربّه منه، وجعله خليفة في الأرض قال تعالى: {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ ربّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[55].

---

[53] . ص 26.

[54] . ص 24.

[55] . ص 24 . 26.

من

صفات النبي داوود

1. مقاتل في سبيل الله:

القتال في سبيل الحقّ حقّ ويدخل صاحبه الجنّة، والقتال في سبيل الطاغوت ظلم، ويدخل صاحبه النّار قال تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}56.

جاءت الآية الأولى من الآيتين السابقتين بصيغة التساؤل الاستغرابي: (وَمَا لَكُمْ) وهي بمعنى: ما الذي يؤخركم عن المقاتلة في سبيل الله؟ أو ما بكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين آمنوا وكفروا بالطاغوت؟ ولذلك، جاء المعنى حاملا للدلالة على المقاتلة أي قاتلوا في سبيل الله وقاتلوا في سبيل المستضعفين المؤمنين.

القتال فعل قد يُكتب على النّاس وهو كُرها لهم، وعندما يُكتب كرها، يصبح الإقدام عليه ليس باختيار، {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}57 إذا عندما يقاتلونكم كرها فلا بد من مقاتلة من يقاتلونكم، ولا خيار في ذلك فالقتال هنا دفاع عن النفس، أو عن البلد، أو عن الدين والشرف، فالقتال واحد والدفاع

---

[56]. النساء 75، 76.

[57]. البقرة، 190.

مختلف، والأسباب هي التي تحدد نوع الدفاع، الاعتداء على الوطن يستوجب الدفاع عنه، والاعتداء على الشرف والكرامة يستوجب الدفاع عنهما، وهكذا عندما تتعرض للسرقة، قد تدفعك الأسباب إلى مقاتلة المعتدي، وعندما يستنجد بك مستنجد فالنجدة هي الأخرى قد تجعلك في حالة مقاتلة مع من لا تعرفه على الإطلاق، وتجد نفسك في مواجهة قتالية لم تكن في الحسبان، وذات نتائج لا تحمد عقباها، ولذا لا تقلق وعليك أن تتبيَّن قبل أن تتخذ القرار حتى لا تندم وعليك أن تفكر جيدا فإذا لم تناصر المظلوم من أهل دينك قد تندم أيضا فلا تغفل.

القتل قد يكون عقاب على فعل، والقاتل بغير حقّ يُقتل، إذا عندما تَقتل ظلما ليس لك من مفر من أن تُقتل عقاب على ارتكابك الفعل المحرَّم، فالمقاتلة قد تكون واجبة عندما تكون لأجل إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، وقد تكون تنفيذ حكم المعاقبة، وقد تكون هكذا أمرا واقعا. وعلى المتحاورين أو القضاة أن يميزوا بين هذا وذاك، لكي يكون الحكم عادلا

وعليه: فالمؤمن الحقّ هو المقاتل في سبيل إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، ولذا فمناصرة المستضعفين من الرجال والنساء والولدان المؤمنين هو حقّ في مرضاة الله، والتخلي عنه باطل يُعزز مواقف الطواغيت في الأرض التي استخلفنا الله فيها لنُصلِح ولا نفسد فيها ولا نسفك الدماء بغير حقّ، ولهذا جاء قوله عزّ وجلّ مُعززا للمقاتلين في سبيل الله بقوله تعالى: (فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا).

القتال في سبيل الله حقّ، والقتال في سبيل الطاغوت كفر، ولهذا يتولى الله الذين آمنوا ويتولى الطاغوت الذين كفروا، فالذين يتولاهم الله برعايته ومودته ورحمته يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين يتولاهم الطاغون يخرجهم من النور إلى الظلمات مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ

الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}58.

ولأنّ داوود متوليه الله بالإنباء والرّسالة والرّحمة والرعاية والعناية التي خصه بها تعالى كان على الحقّ وللحقّ كان مناصرا ومقاتلا في سبيل إحقّاقه وقهر كيد الطاغوت ومكره ومن تولاهم مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا ربّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الملك وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ ممّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}59، كان داوود من الذين قالوا (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

وقد يتساءل البعض:

متى قالت القلة المؤمنة ذلك القول الكريم؟

قالته في نفس الوقت الذي قالت فيه الفئة الكثيرة لطالوت الذي اصطفاه الله لهم ملكا {لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ}60، القائلون هم أولئك الكفرة والمشركون وضعاف النفوس والمنافقون من قوم داوود.

ولأنّ القتال في سبيل الله حقّ كان محمّدا من بعد داوود عليهما الصّلاة والسّلام خير مقاتل في سبيل الله عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى:

---

58 . البقرة 257.

59 . البقرة 249 . 251.

60 . البقرة 249.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}61.

ولأنّ القتال حقّ بقي على المؤمنين كتابا حتى يُحقّ الحقّ ويُبطل الباطل مصداقا لقوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الحقّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}62.

وعليه: أقول أنّ القتال على احتمالين:

أ ـ القتال في سبيل الحقّ وإحقّاقه حقّ يُتّبع.

ب ـ القتال في سبيل الطاغوت ظلم يُجتنب.

والقتال غير الاقتتال، فالقتال على الوجهين السابقين، والاقتتال داخلي بين الأخوة والأقاربّ حتى ولو كان الدين واحد، ولهذا الاقتتال بين الأخوة في غير مناصرة حقّ لله تعالى ومناصرة للمستضعفين من الرجال النساء والولدان المسلمين وجوههم لله ربّ العالمين فهو مُحرَّم وقتل النفس فيه كمن يقتل النّاس جميعا، مصداقا لقوله تعالى: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النّاس جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي

61 ـ التوبة 123.

62 ـ التوبة 29.

الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}63.

وقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}64.

وعليه فمن تُسوّل له نفسه قتل أخيه فسيكون من الخاسرين مصداقا لقوله تعالى: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}65.

2 . مَالِك:

المالك مؤتى الملك الذي يستوجب حُسن التصرف، والملك على وجهين:

أ ـ الملك المطلق لله تعالى مالك الملك الذي خلق كل شيء من لا شيء خلقا.

ب ـ الملك النسبي يؤتى إيتاءً مؤقتا من مالك الُملك إلى مُملَّك في دائرة الممكن.

---

63 . المائدة 32 . 33.

64 . النساء 92، 93.

65 . المائدة 30.

وبناء على قاعدة الملك يؤتى إيتاء أُتي داوود مُلكا من مالك الملك مصداقا لقوله تعالى: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الملك وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}66، ما أعظم المالك وما أجمل الملك آتاه مُلكا من مُلكه المطلق وآتاه الحكمة وعلّمه ممّا يشاء سبحانه ما أعظم شأنه به آمنت وعليه توكلت وأوليت أمري وما نأمل وأضمر في نفسي إليه إنّه السمع العليم المجيب باسمه الباقي أسأله.

المِلك في الحكم البشري نسبي، فمن يقول الحقّ: ويعدل يكون ملكا، ومن يقول زورا وبهتانا فلن يكون ملكا، فعلى سبيل المثال: إذا شهدوا شهودا أمام قاضٍ بمحكمة عدل، فمن يكتم الشهادة لن يكون ملكا ومن يقول شهادة زور لن يكون ملكا، فالملك في ذلك الموقف هو الشاهد الحقّ. ولذا فالمِلك لا يقتصر فقط على من يمتلك من الثروات، بل من يريد أن يتصف بصفة المِلك الحقّ، فعليه أن يقول الحقّ، ولا يقدم إلا على فعل الحقّ، أمّا من يمتلك ثروات كثيرة، ويمتلك أمر السياسة في البلاد ولا يقول الحقّ فلن ينال من الصفة إلا المسمى، أمّا من حيث الدلالة والمعنى سيظل فاقدا له.

المِلك في الأرض هو المواطن الحقّ، الذي لا يُسهم في تزوير الانتخابات، ولا يأكل أموال النّاس بالباطل، ولا يشهد شهادة زور، ولا يقتل النفس التي حرّم الله، ولا يعمل الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا يزنى ولا يكذب ولا يغش ولا يُفسد في الأرض ولا يحاجِج بباطل، وهو الذي لا ينسى نصيبه من الدنيا، ويؤمن بأنّه المخلوق الذي من ورائه خالق يملك الخلق والأمر {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الملك إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

66 . البقرة 251.

فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} 67.

وعليه: لا يمكن أن يكون في الأرض من يملك المطلق، فالأرض ومن عليها وما فيها والسماوات وكل ما خلق مُلكا لله تعالى، ولأنَّ الأمر كذلك فإن قانون النسبية كفيل بإثبات القصور فينا، ممّا يجعلنا نؤمن من غير شك بأن الكمال للمَلِك الحقّ وحده، وعندما نصل إلى هذه النتيجة الموضوعية، نعرف الحقّ ولا نقول غيره ولا نفعل غيره ما حيينا، وهذا الأمر هو الذي يُمكِّنا من أن نكون مُلوكا.

المِلك الحقّ هو الذي يملك المشَاهد والمجرد، يملك الكائنات والمادة القابلة للمشاهدة، ويملك فوق ذلك السمع والأبصار غير القابلة للمشاهدة، قال تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} 68 له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات عُلويها وسُفليها أعيانها وأوصافها وأفعالها والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء وذلك يكون في دار القرار، وقال تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} 69 وإلا هل هناك من يرى السمع والبصر؟ نحن بني الإنسان الذين خُلقنا في أحسن تقويم، لا نرى ذلك، مع أننا نرى العيون المبصرة والآذان المنصتة، والفرق كبير بين السمع وبين الحاسة السمعية، وبين البصر والعيون المبصرة، فالحواس تشاهد ووظائفها لا يمكن أن تشاهد، ولهذا من حيث التقريب فالذي يمتلك

---

[67] . البقرة 258.

[68] . الأعراف 54.

[69] . يونس 31.

الحواس هو من خلقت له، والذي يملك السمع والأبصار هو خالقها، ولهذا فأمر مشاهدتها لم يكن على المستوى الحسي الذي عليه خُلقنا. ومن هنا، بدأ القصور يُرافقنا حتى النهاية، ولذا فمن الممكن لنا أن نكون ملوكا، ولكن من الصعب علينا أن نكون ملوك الحقّ. فالملك الحقّ هو الذي لا يرافقه القصور، ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يأخذه خوف ولا طمع وهو الغني المغني بالملك والحكمة والعلم وبكل قوّة وقدرة كما أغنى منها داوود.

الملك خير، والمِلك مالك الخير، وجاء على رأس الملك الخير الحياة والممّات والجنّة والنّار ويوم البعث العظيم، وجاء داخل الحياة والممّات خيرات حِسان، وجاء داخل الجنّة والنّار خيرات كثيرة، وجاء يوم البعث خير سرمدي.

وبما أنّ المِلك هو مالك الخير، إذا هو الذي بيده الملك، ومع أنّ الملك بيده، ولا تصرُّفَ فيه إلا بأمره، إلا أنه جعلنا الوارثون {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}70. العاقبة هي الأفعال المترتبة على ما تم فعله على الأرض، فإن كان عمل خير تكون العاقبة ثواب، وإن كان عمل شر تكون العاقبة عقاب. ولأن كل فعل يترتّب على فعلٍ جاء التوريث مترتبا على وجود الخليفة.

والسؤال الذي يُطرح مترتبا على ما سبق: كيف يكون الإنسان مَلِكا في الوقت الذي هو فيه عبدا لِمَلِكٍ؟

في اعتقادنا إنّ عبد المِلك الحقّ ملكا، وعبدَ العبدِ عبدا. وذلك لأنّ عبد الملك هو الذي لا يقبل أن يكون عبدا لعبدٍ، ولأنه لم يكن ولن يكون عبدا لعبدٍ، إذا فهو الملك {ضَرَبّ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ

---

70. الأعراف 128.

عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[71]. من هذه الآية نلاحظ أنّ للملك رزقا حسنا (الملك) وله حقّ التصرف فيه، وهذا يدل على أنّ الرزق غير الحسن لن يكون رزقا لملك، بل ربّما يكون لِمُفسدٍ في الأرض، وعندما يكون كذلك فبطبيعة الحال لن يكون مَلِكا {وَمِنَ النّاس مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ}[72].

إذن، من يريد أن يكون خليفة للملك الحقّ، فعليه أن يكون حرا، ومُصلِحا، أما من يَقبل بأن يكون عبدا ولا يُسهم في الإصلاح فلن يكون ملكا حتى وإن استولى على مقاليد البلاد والعباد فيها بالقوّة، ولذلك فالملك لم يكن عنوانا ومراسيم وتشريفات لإرهاب المواطنين، وتصرف في شؤونهم دون رضاهم، ولم يكن الملك بيع كلام كما يقول البعض، وإظهار ما لم يكن بالحقّ باطنا، بل الملك قول حقّ وفعل حقّ كما قال وعمل وفعل داوود.

المِلك الحقّ هو من لا يزول، ولا يزول مُلكه، وهذا يدلُّ على واسع الفضل، ولهذا من يُراد له أن يكون ملكا فعليه بالجُود من واسع فضله، {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الملك عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحقّ بِالملك مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[73] كأنه يقول الفقر فقر النفس أمّا المال فيأتي، ولهذا

[71]. النحل 75.

[72]. البقرة 204، 206.

[73]. البقرة 247.

زاده بسطة في العلم الذي به يتعرف على مكامن المال وبه يستثمر ما يتم كشفه والتعرف عليه، وبه دائما يُنقّب عن المزيد المفيد والنافع للعباد، وزاده بسطة في الجسم حتى يُظهر القوّة فيه، ويظهر مقدرة الله تعالى في سند من يبعثه ملكا للإصلاح.

وقد يتساءل البعض:

بما أنّ الملِك هو من لا يزول، ولا يزول مُلكه، فكيف يجعل الله طالوت ملكا؟

الله عزّ وجلّ هو الذي بيده الملك (بيده الأمر والنهي وهو على كل شيء قدير) ولهذا فهو فعّال لما يريد، ولأنه كذلك قال: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}74. هذه اعترافات المؤمن أمام مالك الملك، فسبحانه أنه على كل شيء قدير.

والملوك في الأرض هم الذين يقع ملكهم في دائرة النسبية ولا يدخل دائرة المطلق التي يتعلق أمرها بالملِك المطلق، ومع ذلك هناك ملوك انحرفوا عن منهج الله تعالى كفرعون وغيره وهناك ملوك استقاموا على منهج الله كداود وسليمان وذو القرنين، قال تعالى: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}75 فالله الملك المتعال هو الذي مكّن له في الأرض وآتاه من كل شيء، ولهذا يعد ذا القرنين أنموذجا للحاكم الذي

---

[74]. آل عمران 26، 27.

[75]. الكهف 84.

اظهر في حياته آثار اسم الله الملك، ومن معالم الملك والتمكين عن ذي القرنين الآتي:

1 . دستوره العادل: قال تعالى: {قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا}[76].

2 . منهجه التربّوي في إحياء الشعوب.

3 . اهتمامه بالعلوم المادية وتوظيفها للخير.

4 . أخلاقه القيادية: العبر، المهابة، الشجاعة، التوازن، كثير الشكر، العفة عن أموال الضعفاء.

5 . المساهمة في تفجير طاقات الشعوب المستخلفة.

ولذا، علينا أن نأخذ العبرة من الملك الذي آتاه الله تعالى إلى داوود وآزره مؤازرة الأقوياء ليتمكن داوود من إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، قال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}[77].

وعليه: المِلك الحقّ هو الذي يملك ما خلق، أمَّا المِلكُ الخليفة فلا يملك إلا ما أُتي له من مُلك الخالق، وهو لا يستطيع أن يتصرف في شيء خارج مُلك الخالق سبحانه وتعالى، ولذا فهو المتصرف في كل ما يؤتي له، ممّا جعله صانعا وفنانا وتاجرا، ومهندسا، ومفكرا ومتذكرا، وعالما يخطط

[76] . الكهف 87، 88.

[77] . ص 17 . 20.

للمستقبل ويعمل من أجل بلوغه، ومع أنّ الخليفة عالما، إلا أنه لم يؤت من العلم إلا قليلا.

الملك نعمة من الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء يعزُّ به من يشاء ويذل به من يشاء، ولذا فالمِلكُ على الأرض هو الذي يؤمن بأن الملك لله الواحد القهَّار

وختاما: سأطرح السؤال الذي طُرح مع إجابته في القرآن الكريم في سورة غافر ولم يُطرح بعد في مكانه وزمانه اللذين نعلم أنّهما سيأتيان في المستقبل، دون أن نعلم متى، حيت أنّ أمر متى علم الساعة، وأمر الساعة علم غيب. والسؤال هو:

{لِمَنِ الملك الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[78].

سؤال وإجابة، بالنسبة للمؤمن هذا السؤال سؤاله، وهذه الإجابة إجابته، وبالنسبة لغير المؤمن سيكون أمام هذا السؤال في وقتٍ لن يجد فيه إجابة غير هذه الإجابة الكريمة.

هذا السؤال لن يُطرح وكائن من كان غائبا، {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرّحمن عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحمن وُدًّا}[79]. أين الطغاة والجبابرة وأين الملوك من الورق، وأين الكفرة وما يملكون، وأين الجيوش والأسلحة النووية وأين كل من أعطيت له الفرصة الكاملة ولم يستجب؟، فهل هناك من يستطيع أن يفعل شيء؟ فإن ظن أنه يستطيع فليُرِنا، ولأنه لا أحد بإمكانه أن يفعل شيء، إذن (لِمن الملك

---

[78]. غافر 16.

[79]. مريم 93 . 96.

اليوم)؟ بطبيعة الحال لن يكون إلا (لله الواحد القهار) فالحمد لله ربّ العالمين.

3. حكيم:

الحكيم اسم من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته، وهو الذي تستمد الحكمة منه التي باستمدادها يصبح الإنسان خليفة، ولذلك فالخليفة الحكيم هو الخليفة المتدبر لأمره وأمر من له علاقة به.

الحكيم هو من يعلم بحال الشيء ويملك حقّ التصرف وفقا لميزان العدل دون مظلمة أو ميل لأحد على حساب آخر، ولذا فالحكيم يتصرف وفقا للزمان والمكان والظرف دون مخافة أحد في سبيل قول الحقّ أو فعل الحقّ.

والحكيم تعالى هو الخبير بحالنا وأحوال غيرنا، الذي جعل بحكمته لكل واحد منا خصوصية تميزه عن بقية خصوصيات بني جنسه وجعل بحكمته تعالى لكل نوع من أنواع خلقه خصوصية لا يعلمها إلا هو.

وعليه: من الحكمة أن نعرف أن الله واحد، وأن الحقّ واحد، وأن الظلم واحد فلا نغفل وعلينا أن نتبيَّن ونسأل حتى بلوغ المعرفة التي بها يحقّ الحقّ ويزهق الباطل وبها يتم اكتساب الحكمة.

الحكمة مؤسسة على تدبُّر والتدبُّر مؤسس على التذكُّر والتفكُّر، ولذا فإن أمر الحكمة يستوجب فطنة والفطنة تتطلب إيمانا لا شرك من بعده، واتباع وطاعة بإرادة لا إكراه فيها.

فبالحَكْمَةُ يتمكِّن الإنسان من معرفة أفضل الأشياء بأفضل المناهج والأساليب والطرق، وبها يُحسن التصرف والاختيار في أصعب الظروف وأشدها ويؤتي الحكيم المطلق من حكمته من يشاء من عباده كما أعطاها

لداوود، قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[80].

ولذا فالحكمة على احتمالين:

الاحتمال الأوّل: تؤتى الحكمة لمن يشاء كما أتيت لداوود.

الاحتمال الثاني: تُستمد الحكمة من مؤتيها استمدادا بطرق منها:

أ ـ العلم.

ب ـ المعرفة.

ج ـ الخبرة.

إذا الحكمة تُستَمد من الحكيم، وتؤتى منه لمن يشاء قال تعالى: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}[81]. الحديث موجّه لمحمّد والمثال المضروب له في الصبر هو داوود أي ما يقال فيك من الكافرين والمشركين قيل من قبل لغيرك من الأنبياء والرّسُل وخير مثال في ذلك ما جرى مع داوود (ذَا الْأَيْدِ) بمعنى صاحب القوّة التي بها كان قاضيا على جالوت وكان سببا في هزيمة قومه، بقوته وبما صنعت يداه من عدة للحربّ (ذَا الْأَيْدِ).

وقوله تعالى: (إِنَّهُ أَوَّابٌ) كثير التسبيح باسم ربّه تعالى وهو الطائع له بالمطلق إيمانا وودا صافيين، ولذا؛ فالتأوب تقربّ لله تعالى بما يحبه

---

[80] ـ البقرة 269.

[81] ـ ص، 17 ـ 20.

ويرضاه، ولأنّه كذلك فهو كثير القربّ منه وكثير الطاعة والمودة له، وهو كثير الذكر باسمه محبة وإخلاصا.

وقوله تعالى: (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ) فكما يسبح داوود في العشي والإشراق كذلك الجبال معه تسبح، وهذا يدل على مضاعفة التسبيح ممّا يضاعف له القوّة المتحصلة بالإيمان وهكذا كان داوود أوابا بزيادة التسبيح والذّكر الحكيم لله تعالى الذي به يطمئن قلبه ويستأنس، وبه يجتاز الصعاب ويحقّق الفضائل والقيم الحميدة على الأرض بالحكمة والموعظة الحسنة طاعة لله ربّ العالمين.

وقوله تعالى: (وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ) يعني أنّها طائعة لأمره وتحت سيطرته ولذ فله حقّ التصرف في الطير المحشورة له، و(مَحْشُورَةً) مسخَّرة له وتخضع لسيطرته كيفما يشاء من أجل الإصلاح في الأرض ومغالبة الباطل ودمغه وزهقه بلا تردد، والطير المحشورة هي الكثيرة جدا، أي المجموعة له دون فاقد وهي قوّة مضافة لما يمتلكه من قوّة ومضافة إلى ما وهب له من حكمة يمكنه أن يستخدمها متى ما شاء في تحقّيق مشيئة الله تعالى، (كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ) كل طائعة له يأمرها ويتصرف فيها فله القوّة التي تمكنه من السيطرة عليها ومحاسبتها ومعاقبتها وتكليفها.

وقوله تعالى: (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ) قوّينا مُلكه بما وهبنا له من حكمة وعلم وما سخرنا معه من الجبال والطير المحشورة والجند المناصرة للحقّ.

وقوله تعالى: (وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ) الحكمة حُسن التصرف في الوقت المناسب والمكان المناسب فمن أُتيها أُوتي خيرا كثيرا، (وَفَصْلَ الْخِطَابِ) القدرة على التمييز في الحكم بأسباب امتلاك الحكمة، ولذلك إن حكم داوود بين النّاس عدل وحقّ الحقّ.

وعليه الحكمة لا تستمد إلا من حكيم عليم، يعلم بالأمر وبحاله وبما يجب أن يكون عليه قبل أن يكون، ولذا فالحكيم مصدر لكل معاني الحكمة ودلائلها التي بها يتم الاتعاظ وأخذ ما يجب أخذه وترك ما ينبغي تركه في المكان والزمان المناسبين، ولذا فالحكيم هو من يعلم الأمور وأحوالها ويخبر الكيفية التي يجب أن يتم التعامل بها ويهدي إليها.

الحكيم هو من وضع الموازين لما ينبغي أن يقال ويدرك ويؤخذ به ويفعل بكل تفهُّم، وبهذا تكون الحكمة تقنينا للكلمة والجملة كي لا تخرج عن السيطرة المنطقية التي بها تعقل الحقّائق وتدرك وتتهيأ للامتداد من عقل لعقل وهي تاركة الأثر الطيب الذي يولد المعلومة من المعلومة ويرشد للحقّ باتزان.

والحكمة التي تستمد من الحكيم هي تضمين لما يُفيد بما يفيد به، وذلك لأخذ العبر التي تسهم في صناعة تاريخ الخليفة بالمعلومة المتمركزة في المحتوى الذي يحمله التعبير المنطوق لأجل تفطين العقل من الغفلة وتنويره بما يضيء دربّ الخليفة في إصلاح الأرض وأعمارها بما ينبغي أن تعمر به.

وعندما تقال الحكمة قد يظهر الاستغراب لدى البعض وقد يحدث الاستفهام ويطرح التساؤل وكأنها تحمل المفاجأة لأول مرة وبهذا يتم اقتباس الحكمة من قائلها ويُهتدى بها في صناعة المستقبل.

الحكمة تستوقف العقل لتمده بما يدرك الحقّيقة دون تغليف وهي تظهر الدلالة في المعنى وتفتح الآفاق أمام امتداد الفكرة من عقل لعقل.

والحكيم المطلق جعل في كل آية من آياته الكريمة حكمة تحتوي الإعجاز فيها حتى تستوقف العقل وتلفته لما كان غافلا عنه في الوقت الذي لم يكن يعتقد أن الأمر كان كذلك، ومن كل حكمة من حكم الحكيم المطلق تؤخذ حكم تغذي العقل وتطمئن النفس وتحفِّز الخليفة على

الإقدام تجاه ما يحقّق له الأمل. إنها المرشد للحقّ والناهي عن الظلال والموقظ من الغفلة.

والحكيم بالإضافة هو من يستمد حكمته من الحكيم المطلق، ويبقيها حية بالمعلومة في المنازل بين الأسر وفي المدارس والجامعات بين التلاميذ والطلبة ويبقيها آية بين الجيران أقاربّ وأباعد، وبين من تربّطه بهم علاقات دم وعرف ودين ومكان وزمان بين المشارق والمغاربّ وأثناء الحركة والسكون.

ولهذا؛ فالابن الحكيم يكون طائعا لوالديه في غير معصية الله، ويكون راعيا لأبنائه وراشدا لهم حتى الهداية التي تمدهم بالتقوى وتعزهم بالطاعة لله تعالى، وتقوي لُحمَتهم على إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل. والمدرس الحكيم هو من يشد المتعلمين إلى الدرس الذي يقدمه لهم حتى يتمكنوا من الوقوف على الحقّيقة التي يود توصيلها إليهم، والطالب الحكيم هو من لا يغفل أثناء الدرس، والمربّي الحكيم هم من يوعظ بالحكمة، والمتربّي الحكيم هو من يتعظ بها.

ومن حِكَم الحكيم المطلق ما هو معلوم وما هو مجهول، فالمعلوم منها هو المحمول في الآيات الكريمة في الكتاب الذي لا يدخله الباطل من خلفه ولا من بين يديه. والمجهول منها هو ما نستدل عليه استدلالا بالفعل لا بالكلمة، فنحن بنو آدم لا نعلم لماذا علَّم أبانا الأسماء كلها واستخلفه في الأرض ولم يُعلِّمها للملائكة الكرام ويستخلفهم في الأرض؟ ألا يكون في ذلك حكمة لا يعلمها إلا هو؟

ونحن ننتقل من حكمة لحكمة نستدل على أن خلق الإنسان من تراب حكمة، وفي هذه الحكمة إثبات لقوّة الأمر كن فكان أبونا آدم من التراب على أحسن التقويم حكمة، قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ

كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}82، وقال تعالى: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا}83.

بناء على ما تقدم فإن الحكيم لا يُعاقِب إلا عن حكمة، ولا يجازي إلا عن حكمة، ولا يغفر إلا عن حكمة، ولا يتوب على أحد إلا عن حكمة، ولهذا جاءت من وراء الزكاة حكمة ومن وراء الصّلاة حكمة ومن وراء الصوم حكمة ومن وراء الحج حكمة ومن وراء الجهاد حكمة. ولذا فالتسيير والتخيير حكمة.

وعليه: فالحكمة يمكن أن تُستمد من العلم الذي يَمنع عن ارتكاب الباطل، وتُكتسب من الخبرة التي تأسست على تجاربّ الحياة الفاضلة والقيم الحميدة بين النّاس، ويمكن أن تُستمد من المعرفة الواسعة التي المَّ الإنسان بها من تعلُّمه واطلاعه وعمله ويمكن أن تؤتى إيتاء كما أتيت لداوود ولقمان عليها الصّلاة والسّلام، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ}84، فالمراد بالحكمة من بين ما يُراد بها امتلاك الحجّة ورجاحة العقل المِمكّن من حُسن التصرف في المواقف التي يتعرض لها، والحكمة من الله تمام المعرفة في القول والعمل والفعل والسلوك.

ولأنّ الحكمة تؤتى أو تُستمد من الحكيم المطلق، فهي بطبيعة الحال تكون محتوية لكل الفضائل الرفيعة التي تحتويها أسماء الله الحسان ولذا؛ فمن يكون حكيما لابد وأن يكون رحيما وعزيزا وقويا وقادرا وكريما وكل الصفات الحسنى التي تستمد من أسمائه.

---

82 . آل عمران 59.

83 . الكهف 37.

84 . لقما31 .

وعليه: فمن يُريد الحكمة فعليه بها بالعلم الكريم وبالمعرفة الواعية والإيمان بالخالق وآياته العظام وبالخبرة التي بها يتم التمييز بين ما يجب والأخذ به وبين ما لا يجب وتجنه والابتعاد عنه، وفي كل أمر يتقي الإنسان ربّه حتى ينال الحكمة كما نالها داوود بالعمل الصالح.

ولا يكون الوصول للحكمة إلا بأمور منها:

الأوّل: التفكُّر في عظمة الله تعالى، وجلاله، وجبروته، وملكوته، وآياته في سماواته وأراضيه وهو أرفع أنواع التفكير وأجلها.

الثاني: التفكير بقلب سليم عند الأمر والنهي، فيمتثل لِما أمر به تعالى، ويترك ما نهى عنه.

الثالث: التذكُّر الذي يربّط الحاضر بالماضي حتى تستمد العبر من قصص الأولين وتجاربهم في الحياة.

وعلى الخليفة الحكيم أن يكون مستبصرا بما أمر ونهى الله كما كان داوود مستبصرا وأن يكون مستبصرا بما يدور من حوله فيصلح ما استطاع ولا يُفسِد في الأرض ولا يسفك الدماء بغير حقّ، وأن يفكِّر في المستقبل القريب والبعيد الذي له تُرسم السياسات أهدافا وغايات، ولذلك على الحكيم المستخلف في الأرض أن يعمل ويصلح وأن يكثر من الدعاء ليوفقه الحكيم المطلق في أعماله ودراساته الحالية والمستقبلية وأن يلهمه النظرة الصائبة لتحقّيق ذلك وكل خير في مرضات الله تعالى.

إذا فتعليم الحكمة يعني تعليم أساليب المعاملة الرفيعة في الأخذ بالأوامر والنواهي التي جاءت في الكتاب الحكيم وإتباع الرّسُل دون أن يُفرّق بين أحدٍ منهم عليهم صلوات الله وسلامه، قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ ربّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ربّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ

مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}85، كل آية من الآيات الكريمة السابقة مؤسسة على حكمة لا يعلمها إلا الله ولهذا فهي مؤسسة على الإعجاز.

4 . مُعلَّم:

لا تَعلُّم عن حقّ إلّا من العليم الذي يعلم الظاهر والباطن ويعلم الغيب، إنه مصدر العلم ومُعلِّم الأنبياء والرّسُل الكرام ما لم يعلمون، ولذا فالمعلَّم هو من يُعلَّم من قِبل من يمتلك العلم أو من قِبل من عُلِّمَ من علمه، ولأنّ علمه مطلق فلا يمكن أن يتم تعلمه بل يتم التعلُّم منه، ولأنّه مُطلق فعلمه مطلق ولذا فهو العليم الحكيم، قال تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}86، أي أنّ العلم المطلق للعليم والعِلم النسبي للمتعلَّم أو المعلَّم من العليم المطلق.

العليم: اسم صفة يمكن استمدادها من قِبل المستخلفين في الأرض ويمكن أن تُهب لهم هبة من العليم المطلق ممّا يجعلهم علماء في دائرة النسبية ويمكن أن تؤتى إيتاء كما أُتيت لداوود.

العليم: هو المدرِك لِما يَخلق قبل خلقه، والمدرك لأمره أثناء خلقه، وهو الذي لا تخفى عليه خافية فيما جرى قبل الخلق وأثنائه، وهو المذكِّر لمن أراد أن يتذكر أو يهتدي للحقّ الذي به هو أعلم. إنه مصدر العلم الناقل من الظلمة إلى النور، العلم الذي لا يقتصر على الأبصار فقط بل العلم الذي يمتد إلى البصيرة فيُدرك إدراكا؛ العلم الذي تستنبطه العقول وتستدل عليه بالحجّة والبرهان والآية الدالة على الإثبات بالمطلق.

---

[85] . النحل 125 . 128.

[86] . الإسراء 85.

العليم المطلق: هو السابق على العلم حيث لا علم إلا منه، ولذا لا يستمد العلم إلا من عليم، فالعليم هو السابق على كل سابق ولا سابق عليه، فهو الذي يعلم بما يحدث قبل أن يحدث، وهو الدائم الذي يَنهي ولا يُنهى.

أمّا العليم بالإضافة فهو المؤقت الذي لا يبقى مهما أَلمَّ من علم من علمه الواسع، ولذا فالعلم الدائم للحي الدائم والعلم المؤقت للمُعلَّم المؤقت الذي يُراد له أن يكون خليفة في الأرض يُصلح ولا يُفسد فيها ولا يسفك الدماء بغير حقّ، وعلى هذا الأمر كان داوود معلَّما خليفة في الأرض.

والعالم بالمطلق، هو المدرك لأمر الغيب والشهادة، وهو الذي يحيط بكل شيء علما، والمحتوي للكل والجزء والمتجزئ منه، فيسع كل شيء ولا شيء يسعه، أمَّا العالم في دائرة الممكن هو من يؤتى علما من علمه الواسع كما أُتي داوود علما.

ولأنّ داوود مؤتى العلم فهو المعلَّم من علم الغيب، وعلم الغيب هو ما يعلمه الله دون غيره، وفي هذا الأمر تساءل الشيخ الشعراوي عن علم الغيب بقوله: (ما الغيب الذي أراد الله أن نؤمن به؟)

يجيب على ذلك بقوله: إنّه الغيب الذي لا يكون مصدره إلا الله سبحانه وتعالى، ولهذا؛ فالإيمان لا يمكن أن يتعلق بشيء محسوس أبدا. فلا يقال على سبيل المثال: أنا أؤمن بأن الشمس ساطعة، أو أنا أؤمن بأنّ القمر يكون بدرا في منتصف الشهر العربيّ. فهذه حقّائق ماثلة وليس بغيب. ويقول في رواية عن سيدنا عمر رضي الله عنه قال ما معناه: بينما نحن جلوس عند رسول الله إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، وشديد سواد الشعر، ووضع ركبتيه على ركبتي رسول الله ووضع يديه على

فخذي رسول الله، وسأل السائل رسول الله: ما الإيمان؟ أجاب رسول الله: أن تؤمن بالله (وهو غيب)، وملائكته (وهو غيب)، ورسله (وهو غيب)، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره (وهو غيب) وأضاف السائل سؤلا لرسول الله: ومتى تقوم الساعة؟ أجاب الرّسول: (ما المسؤول بأعلم من السائل) وأنصرف الرجل، فقال الرّسول: أتعلمون من كان هذا الرجل؟ قلنا: لا نعلم يا رسول الله. أجاب الرّسول: (إنه جبريل جاء ليعلمكم أمر دينكم)"87.

وعليه نقول:

علم الغيب: هو العلم الذي لا تدري به عقول وأذهان من يُسألون أو يتساءلون، وهو العلم المتعلق بالزّمن وفقا للآتي:

ـ ما يتعلق بعلم الغيب بالزمن المستقبل: من حيث أنه العلم الذي لم يأتِ زمن ظهوره بعد، ولا شواهد له في الزمن الآن. إنه العلم الذي سيحدث وتظهر معطياته وبراهينه بقوّة علاَّم الغيوب في الزمن المستقبل دون أن يعلم بها أحد، قال تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُل فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}88. بطبيعة الحال بما أن يوم الجمع لم يأتِ بعد فهو يُعدُ علم غيب إلى أن يُنفى بعلمه يوم يأتي في الزمن الآتي.

ـ ما يتعلق بعلم الغيب بالزمن الماضي: فعلى سبيل المثال: زمن بداية الخلق مع أنه وقع في الزمن الماضي إلا انه غير معلوم بالنسبة لمن خُلق، ولذا فأمره أمر علم غيب الذي لا يعلمه إلا علاَّم الغيوب ؛ وكذلك ما وقع في الزمن الماضي مع أن الخالق أحصاه وعده عدا إلا أنّ العقل

---

87 محمد متولي الشعراوي، أسماء الله الحسنى. مرجع سابق، ص 240. ونص الحديث في صحيح مسلم، ج 1، ص 28.

88 . المائدة، 109.

البشري لا يُدرك منه إلا القليل، ولذلك فهو يجهل الكثير منه، ممّا يجعل المجهول منه في عِداد علم الغيب الذي لا تُخفى عليه تعالى منه خافية. قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}89. لقد علَّم العليم آدم الأسماء كلها، أي الأسرار كلها، ثم طلب من الملائكة التي لم تعلم بها أن تنبئه بها فعجزت عن ذلك.

الذي يتضح من هذه الآية الكريمة أن الأسماء لم تعد من علم الغيب بالنسبة لآدم بعد أن علَّمه وأعلمه الله بها، ولكنها علم غيب بالنسبة للملائكة التي لم تعلم بها بعد مثلما علم بها آدم صلوات الله وسلامه عليه. ولذا فعلم الغيب أصبح بالنسبة لآدم علما ظاهرا، ويعده كما نحن نعده من علم الماضي. ولكن الملائكة الكرام في الزمن الذي طلب الله فيه منهم أن ينبئوه بالأسماء التي سبق أن علَّمها لآدم يعد الأمر بالنسبة لهم علم غيب، وظل العلم الذي أنبائهم به آدم علم غيب خلال الفترة الممتدة من علم آدم به إلى زمن ما قبل إنبائهم وإظهارهم عليه.

ـ ما يتعلق بعلم الغيب في الزمن الآن (الحاضر): إنه العلم الذي يحتوي الآتي:

1 ـ ما لا نتذكَّره من أحداث وقصص وآيات قد وقعت في الزمن الماضي.

2 ـ ما لا نفكِّرَ فيه وسيحدث لا محالة في الزمن المستقبل.

---

[89] ـ القيامة، 31 ـ 33.

ولذا؛ فعلم الغيب في الزمن الآن هو العلم ألإعجازي الذي لا تدركه عقولنا ومعارفنا ولا تستوعبه ذاكراتنا ولا نحيط به شيء. وهو العلم الذي إن سؤلنا عنه لا تكون عندنا إجابة له بشيء برغم حدوثه في الماضي أو ظهوره الذي سيحدث في المستقبل.

والأصل في العلم هو الغيب، والاستثناء منه هو الظهور، وإلا ما معنى أن الله خلق الشيء من لا شيء؟ أنه يعني قد خلق الله ممّا لا نعلم شيئا نعلمه، أي أننا عُلِمنا ممّا لا نعلم علما. ووسيلة الاطلاع على علم الغيب هي الرسالات التي نزلت على الرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم، الذين بُعثوا لأقوامهم وقراهم وشعوبهم وأممهم مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاعلين للخيرات، فقد بدأ علمنا من العلم الذي أظهر الله عليه أبونا آدم الذي اصطفاه الله بالعلم ممّا خلق وخصَّه بالمعجزة التي جعلت الملائكة تسجد له طاعة لأمر الله في الاصطفاء.

وهكذا جاءت المعجزات ونزلت بعلومها على بقية الرّسُل الذين منهم داوود عليهم الصّلاة والسّلام الذي آتاه الله علما من علمه الواسع مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}[90]، لقد آتاهما وعلَّمهما الله تعالى علم الطير ومنطقه الذي بقواعده يفكِّر ويحاجج ولهذا كانت السيطرة على الطير من قبل داوود وسليمان عليهما الصّلاة والسّلام بعد أن تعلَّما علم الطير ومنطقه، وعلمهم ما لا يعلمون، ولذلك يتصف داوود بالمعلَّم أي معلم من قبل الله عزّ وجلّ، مصداقا لقوله تعالى: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الملك وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ ممّا يَشَاءُ}[91]، تعليم داوود كان تعليم مشيئة (ممّا يَشَاءُ) وهي على احتمالين:

---

[90] . النمل 15.

[91] . البقرة 251.

أ . ممّا يشاؤه داوود.

ب . ممّا يشاءه الله من العلم لداوود.

وفي كلا الحالتين فإن داوود هو مُعلَّم من قِبل الله تعالى علم لم يعلمه داوود من قبل لولا أن علَّمه الله إياه.

وبما أنّ علم الغيب هو الأصل، والظهور هو الاستثناء، إذن من حقّ الجميع أن يقولوا صدق الله العظيم فيما قال: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}92، وصدق الله العظيم فيما قال: {وَقُلْ ربّ زِدْنِي عِلْمًا}93. وبناء على هاتين الآتين الكريمتين، تتأكد المعطية التي تقول: (إن الاستثناء جزاء قليل من كل كثير) ولهذا فالاستثناء هو ما أُتينا من العلم إلا القليل، وهذا يدل على أن العلم الوفير هو علم غيب وهو القاعدة، ممّا يستوجب على المؤمن أن يسعى والأمل معه وهو ويقول: ربّي زدني علما من علمك الواسع يا العليم بأسرار الغيب يا السميع يا المجيب اللهم آمين.

والعلم: محتوى ومضمون لكامن وظاهر، يُعلَّم من عالِمٍ ويُستمد من العليم الحكيم.

وللعلم علاقة مباشرة بالحكمة، والسمع والخلق والعزة والقدرة والفتح والخبرة وفقا لما جاء في قوله تعالى في الآيات التالية:

1 . علاقته بالحكمة مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}94.

---

[92] . الإسراء 85.

[93] . طه 114.

[94] . البقرة، 32.

2 . علاقته بالسمع كما قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}95.

3 . علاقته بالخلق كما قال تعالى: {إِنَّ ربّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}96.

4 . علاقته بالعزة، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}97.

5 . علاقته بالقدرة، قال تعالى: {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِير}98.

6 . علاقته بالفتح، قال تعالى: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ربّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالحقّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ}99.

7 . علاقته بالخبرة، قال تعالى: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ}100.

وعليه فالمعلَّم هو الملِم إلماما بالعلوم التي أظهره عليها العليم المطلق، ممّا يجعله يعلم ما لم يعلمه غيره وفي هذه خصوصية لمن يصطفيهم الله لسرٍ من أسراره وحكمة من حِكمتهِ كما هو حال داوود ويوسف عليهما الصّلاة والسّلام، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ ربّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ

[95] . الأنفال، 61.

[96] . الحجر 86.

[97] . الزخرف 9.

[98] . الروم 54.

[99] . سبأ 26.

[100] . التحريم 3.

الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آَلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ ربّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}101. ولأنّ أمر الأسرار والحِكم التي من وراء العلم ليس هينا فيتولى الله اختيار وتفضيل من هم متهيئون لهذه المهمة العظيمة الصعبة فيصطفيهم لها، ويُعلِّمهم ما لم يعلموا إظهارا، فتصبح رؤاهم سابقة على حدوث الفعل، أي أن المعلومة التي تتعلق بأمرٍ سيحدث يتم اطلاع البعض عليها حتى يصبحوا أهل قدرة على الأنباء بها قبل حدوثها وإن حدثت فهم لها خير مفسرٍ.

وعليه: فالعليم هو مصدر العلم من الدقيق إلى الأدق إلى الأدق منه والأعظم، وهو الذي لا تخفى عليه خافية فأينما تكون لا تخفى عليه فهو خالقها وخافيها حتى يظهرها على من يشاء من عباده متى ما شاء. قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}102. علَّم آدم الأسماء كلها: أظهره على الأسرار وعرَّفه بمسمياتها دون لبسٍ أو غموضٍ حتى أنه المَّ بها إلماما وإدراكا تاما غير منقوص، ولإظهار عدم معرفتها خُضع حضور الملائكة للاختبار بطلبه أن ينبئوه بالأسماء إن كان لهم علم بها، (قَالُوا سُبْحَانَكَ)، وفي هذا القول كما قال القرطبي تنزيه الله تعالى عن أن يعلم الغيب أحد سواه103. وقوله (لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) أي لا علم لنا بشيء لم تُظهرنا أو تطلعنا عليه، فأنت سبحانك العليم بكل اسم ومسمى.

101 . يوسف 6.

102 . البقرة، 31، 32.

103 . القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الأول. ص 287.

وقوله (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) في هذه الآية تحديد لأسم الله الذي لا يحده حد ولا تحوطه نهاية بأنه هو العليم الحكيم، أي أن العلم والحكمة أسمين من أسمائه الحسنى وصفتين من صفاته الكريمة.

وكما علَّم آدم الأسماء علَّم داوود ما لم يعلم مصداقا لقوله تعالى: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآَتَاهُ اللَّهُ الملك وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمّا يَشَاءُ}104.

وعليه: فبأسباب العلم التي ميَّز بها العليم داوود جعله بها خليفة في الأرض مُعمرٍ لا مفسدٍ ولا سافك دماء فيها بغير حقّ، وبهذه الحجّة (حُجَّة العلم) كان الاستخلاف في الأرض، وعلينا أن نقول العلم الذي وهبهُ الله وعلَّمه لداوود هو سبب استخلافه فيها، ولذا فمن كان على علمه تعالى كان خليفة.

وقوله {إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}105 تحتوي هذه الآية على أربّع قضايا من علم الغيب:

. القضية الأولى علم غيب السماوات: السّماوات مليئة بالأسرار ولم يُكشف أمرها بالتمام، فنحن بنو آدم من المستخلفين في الأرض تمكنَّا من أن نلم بشيء من علوم الأرض ولم نتمكن إلا بالقليل القليل من علوم السّماوات التي لا نعلم إلا بعددها (سبع سماوات) وما يحيط بها من كواكب ومدارات فلكية ولكن أين بداياتها ونهاياتها بالتحديد الدقيق وعلى ماذا تحتوي وأين الحياة فيها؟ هذه في مُعظمها علم غيب لا يعلمه إلا العليم بأمر خلقها سبحانه عزّ وجلّ.

أمر السماوات أمر علو طبقي من السّماء الدنيا التي تحيط بكوكبنا وهي تحمل في مداراتها مالا يستطيع بشر إحصاءه من المصابيح العاكسة

---

104 . البقرة 251.

105 . البقرة 33.

للضوء ليلا حتى يتمكّن الإنسان من مشاهدتها وملاحظة حركتها وهي تتلألأ من اتجاه إلى اتجاه وذلك ليرينا بعض من آياته العظام.

إذا كان أمر السماء الدنيا هكذا فما بالنا بأمر السماوات التي لم يتم كشفها بعد؟، وكما سبق أن قلنا لا علم لنا إلا بعددها إبلاغا خبريا، أمَّا ما هي عليه وكيف هي بالتمام فهذا الأمر لا زال علم غيب، والحكمة من وراء إبلاغنا بالعدد دون أن يظهرنا على مكوناته هو لكي نفكر ونسعى ونبحث ونتعرف ونتطلع إلى ما خلق الخالق العظيم لنُجِلَّه ونعبده ولا نشرك به أحدا، وإلى أن يظهرنا الله عليها أو على بعض منها سيظل علمها علم غيب.

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}106. اللهم سبحانك ما أعظم شأنك أشهد أنك لم تكن في حاجة لمن يعبدك، وأشهد أن من يعبدك هو في حاجة إليك، لقد خلقت كل هذا ولا زلت تخلق فليؤمن من يؤمن وليكفر من يكفر لا إله إلا أنت.

أنت الذي خلقتنا وأنت الذي تعلم بحالنا، وأنت الذي يُتَودَّدُ إليه فنستغفره ونؤمن به ونفوز برحمته، ونحن منَّا من يعتقد بأنه لا ضرورة لذلك ويطغى، أولئك حالهم كحال الكتكوت في البيضة قبل أن يخرج منها، فهم يظنون كما هو يظن، أنّه لا عالم أكبر وأوسع وأعظم من العالم الذي يحوطه بجدار البيضة.

ولأجل أهمية التوضيح بالمقارنة بين من يدرك وبين من لا يدرك على مستوى ما خلقت يا واحد يا أحد يا من لا يقارن بأحد، أعيد على القراء الكرام كتابة جزءٍ من قصة عالم الكتكوت التي اقتبستها من كتابنا

---

[106] . نوح 15، 61.

المعنون بـ(البستان الحلم) والتي تطرقنا إليها في موسوعتنا (الأسماء الحسنى وأثرها على استخلاف الإنسان في الأرض).

قصة الدجاجة التي احتضنت بيضها بالدفء لتغرس في أفراخها حنان الأمومة الذي يملأها من احتضان أمها لها في الزمن الماضي، وقبل يوم واحد من اكتمال نضج الكتاكيت في البيض أخبرتهم الدجاجة الحاضنة بأنّ غدا ينتظرهم بخيرات كثيرة وسيتنقلون بأرجلهم في البستان تحت ظلال الأشجار نهارا وينامون على أغصانها ليلا، فسأل أحد الكتاكيت أمه: هل هناك عالم أوسع وأفضل من العالم الذي نحن نعيش فيه؟

فأجابته بنعم.

وما هو يا أمي؟

عالم الحياة الواسعة بين الكتاكيت والكائنات الأخرى وفي وسط الحظائر والبساتين تُقدَّم لكم الخدمة من أياد البشر المفضلين عليكم في الخلق.

أنه من الصعب التصديق يا أمي بأن المفضلين علينا هم الذين سيقدِّمون لنا الخدمة.

ها أنا يا أبنائي أحدثكم من العالم الواسع والعقلاء فيه هم الذين يوفِّرون لي الغذاء والمأوى والتدفئة اللازمة للبقاء.

ولكن يصعب علينا التصديق بما أننا لا نراك وإياهم.

إنكم سترون غدا بعد خروجكم إلى عالمنا الواسع ما لم يسبق لكم رؤيته، سترون الشمس والقمر والنجوم لتعرفوا المواقيت كغيركم من المخلوقات الأخرى، وستعرفون من يمشي سويا ومن يمشي مُكِبّا على

وجهه، وستميزون بين الطائر والزاحف كما تميزون بين اليابسة والماء، بعدها تعرفون أن ما قلته لكم هو الحقّ، وستسبحون لله تعالى.

ها نحن نسبح بحمده، ولكن نحن لا نُصدِّق ما تقولين ولا نرغب في الخروج إلى عالمكم الذي تدّعين بأنه أوسع من عالمنا الذي يملأنا بالاستقرار كما تملأنا الراحة والطمأنينة فيه.

أنتم وعالمكم الذي تدَّعون باتساعه كلكم من أحشائي، وأنا في هذا العالم لم نشبع نهم ثعلب.

ومن هو هذا الثعلب؟

عدوي وعدوكم.

بما أنّ الأمر هكذا، إذن يبدو أنكِ مُصرة على بيعنا بلا ثمن.

لا، لم أقصد يا أبنائي ولكن عليكم أن تعرفوا أن لكل بداية نهاية، حياتكم داخل البيضة لها بداية ونهاية، وحياتكم في عالمنا ستكون لها بداية ونهاية، ولكل أسباب، ومن بينها العداء الطبيعي بيننا وبين الثعالب.

ولهذا نحن لن نخرج حتى لا نكون تحت رحمة الثعالب وتكون لنا النهاية، ونحن على يقين أنه لا يمكن أن يوجد عالم أوسع وأفضل من العالم الذي نعيش فيه.

غدا سيأتي وخروجكم سيأتي إلا إذا وقعت لن.

وما هو سر لن هذه؟

أن تموتوا داخل البيض أو أن غدا لن يأتي عليّ وعليكم أو يحدث عالم الغيب أمرا.

في الفجر صاح الديك كعادته فاستمعت الفراخ في عالمها إلى صوته فتساءلت: وما هذا الصوت المدوي يا أماه؟

صوت أبيكم يعلن عن فرحته بموعد خروجكم من زنزاناتكم الانفرادية إلى الحياة الجماعية الطبيعية ليراكم بأم عينيه تأكلون الحَبَّ وتلتقطون الحشرات كما يفعل هو، وسأفرح أنا مثله.

أنه من الغرابة أن تفرحا بخروجنا من العالم الواسع الذي لا يشاركنا فيه أحد إلى عالمكم الذي تشارككم فيه الثعالب.

ستخرجون بالقوّة لا بالإرادة.

سنصرخ ونبكي.

الصراخ والبكاء لا يوقف قدوم المستقبل وصراخكم هذا هو سبب تكسير البيض الذي يخرجكم إليه (إلى المستقبل).

صُراخ... صُراخ... يُكسَّر البيض من شدة الصراخ، ما هذا النور؟ وما هذه الأرجل التي تحملنا؟ وما هذه المساحات الشاسعة؟ وما هذا الليل الطويل؟ ومن ذا الذي يُقدِّم لنا الخدمة ويسهر على راحتنا؟

بكاء... بكاء وفرحة... فرحة... صدقتِ يا أمنا صدقت، ولكن أين الغذاء؟

ها هو يملأ الأرض.

ولكن كيف يؤخذ؟

افعلوا مثل ما أفعل، اضربّوا مناقيركم في الأرض فأنا لا ارضع.

إنَّ ما نستنتجه من هذه القصة اللطيفة هو أنّ الذي يجهل الأمر لا يدرك عاقبته فحاله كحال الكتكوت في البيضة قبل أن ينضج للخروج،

وهؤلاء هم الذين لا يدركون ما يُلحظ وذلك لقصر عقولهم على ما يُحس به أو يُبصر؛ وهكذا حال الذين يظنون بأنّ ما على الأرض لا يساويه شيء آخر، ولا يوجد ما هو أعظم منه، بل أنّ بعضهم يظن لا وجود لشيء خارج الأرض والسماء الدنيا، فلا خالق ولا جنة ولا سماوات سبع ولا حساب ولا عقاب إلى أن يفاجئوا كما فوجئ الكتكوت يوم أن خرج بالقوّة من البيضة. والفرق بين أمرهم والكتكوت هو أن الكتكوت وجد العالم الواسع بمقارنة عالمه داخل البيضة مع العالم الذي تمتد الأرض فيه حتى تلامس السماء، أما أولئك البعض الذين عرفوا وأنكروا أو أنهم ظنوا ولم يدركوا أو أنهم عرفوا وأشركوا هؤلاء ومن هم على مثلهم ليس لهم مناقير ليضربّوا بها الأرض؛ فيوم أن تُطوى السماوات وتُنقص الأرض من أطرافها سيجدون كل ما فعلوه محضرا ولا تظلم نفس بذنب لم تقترفه.

ويومها يصبح الحقّ للذين آمنوا بأن يعيدوا على الذين أشركوا وكفروا ما قاله الله تعالى في كتابه العزيز: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)؟ يومها لا تنفعهم الإجابة وهم بما عملوا حطب في نار جهنم.

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}107. بطبيعة الحال خالق الأشياء لا تُخفى عليه خافية، ولهذا تُعد عملية الخلق معلومة للخالق ومجهولة لِمن سواه، ممّا يجعل أمر علمها أمر غيب على من لم يكن بخالق. قال تعالى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ}108.

---

107. آل عمران، 5.

108. الحجر 14 . 16.

علم الغيب مع انه حقّيقة إلا أن المشركين ناكرون له، وللمغالبة جاء بقوله: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا) أي لو جئنا بهم صعودا مع أبواب السماء المفتَّحة لصعودهم ورأوا بأمهات أعينهم الحقّيقة لأنكروها وكأن عيونهم فاقدة للبصر الذي به رأوا ملائكة السماء وشاهدوا معجزاته العظام لأنكروا وهم يصرون على الكفر. ومع أنّ في السماء علما معلوما ظاهرا كالكواكب والنجوم ومنازلها الواسعة التي تحتوي الشمس والقمر ومداراتها الفلكية، إلا أنّ معظم ما في السماء هو علم غيب ولم يؤتِ الخليفة منه إلا قليلا. قال تعالى: {يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب}[109] بناء على هذه الآية نحن بنو آدم المؤمنون حقّا نعتقد بأن لكل بداية نهاية، مصداقا لقوله تعالى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ}[110] ولذا فالأمر الطبيعي كما بُسطت الأرض وسُطحت في البداية فهي ستعود إلى الحالة التي كانت عليها قبل أن تبسط وتُسطح مطوية حالها كحال الصحيفة المطوية في اليدِ الواحدة مصداقا لقوله تعالى: {وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}[111] والغيب في هذا الأمر هو متى ستطوى؟

. لا أحد يجيب.

. وكيف تطوي في يمينه مع التشبيه بطي السجل للكتاب؟

. وكيف حال يمينه؟

هذا الأمور لا يعلمها إلا الله عالم الغيب والشهادة الذي لا نراه ولا نتخيله في أي صورة فهو المصور المطلق الذي لا يُصوَّر بالمطلق.

[109] . الأنبياء 104.

[110] . الأنبياء 104.

[111] . الزمر، 17.

. القضية الثانية علم غيب الأرض: الأرض هي الكنز الكبير وبيت الكسب الممتلئ بالوفرة لِمن أراد أن يكسب منها حلالا، وعلى أديمها نعيش فنحرث ونزرع ونحصد ثم نأكل، ومن باطنها نستمد الكنوز المتنوعة من ماء وذهب أسود واصفر وجميع أنواع المعادن النفيسة، ومع ذلك وُزِّعت الأرزّاق على العباد في سهولها وجبالها وصحاريها وبحيراتها وبحارها ومحيطاتها وينابيعها ووديانها وأنهارها، وإذا ما غضبت وتزلزلت قذفت بقوتها الحجارة والصخور الصماء ونيران البراكين على رؤوس الذين يُفسدوا فيها ولم يحسنوا إصلاحها. قال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ ربّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّاس أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ}112.

علم الزلزلة من علم الغيب من حيث متى ستهتز الأرض وتتزلزل، وفي أي مكان بالتحديد، ومدى قوّة زلزلتها؟ وما هي الخسائر المترتبة على ما تُلحقّهُ الزلزلة من دمار؟ فالذي يعلمها قبل أن تُظهر مؤشراتها هو العليم المطلق. أمَّا العليم بالإضافة لا يعلم أمرها إلّا بعد أن يصدر لها صاحب الأمر أمر الزلزلة حينها تبدأ في حالة امتداد وثوران قابلان للقياس والرصد بالعلم الذي تَمكَّن العليم بالإضافة من معرفته من العليم المطلق. فالذي لا يعلم بأمر الزلزلة يفاجئ بزلزلتها وهي تخرج أثقالها وتقذفها مع براكينها بعيدا ممّا يجعله يتساءل: مالها؟ أي ما الأمر؟

وما الذي يحدث؟

أسئلة استغرابية يسألها الإنسان حتى يعلم أنها الزلزلة أو يُخبر بأمرها في يوم من الأيام ليجاب على استفساراته الاستغرابية عن حالة الأرض وما المَّ بها بقول الذين يعلمون بأن ربّك هو الذي أوحي بأمره للأرض بأن

---

112. الزلزلة 1 . 6.

تتزلزل، يومها يعلم النّاس إنَّ زلزلة الأرض من علم الغيب. أمَّا المؤمنون المستخلفون فيها فهم يدركون يقينا إن أمرها من أمر الغيب الذي لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ.

وقال تعالى: {وَلَوِ اتَّبَعَ الحقّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ}113. أهواء المشركين تظن أن في الأرض آلهة متعددة وليس إلها واحدا، ولأنّه لا إله إلا الله فلا وجود لآلهة إلا قولا وشركا وكفرا، فلو كانت في الأرض آلهة لكان الاختصام والمواجهة بينهم على من يصدر الأمر، ولمن يُصدر؟، ومن الذي يطيعه؟؛ ولو كان الأمر كذلك لفسدت السماوات والأرض بالأوامر المختلفة للآلهة، فالحمد لله الواحد الأحد الذي لم يكن له والد ولا والدة ولا ولد، ولا صاحبة ولم يشاركه في الملك أحد سبحانه.

ـ القضية الثالثة علم غيب الظاهر (ما تبدون): ما تبدون تعني: ما تُظهِرُون وتُعلنون وهي أيضا تعني ما يبدو لكم ظاهرا؛ فالله يعلم أمره قبل إعلانه وبعده، حيث لا سر عن علاَّم الأسرار والحِكم التي من ورائها. قال تعالى: {إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}114 وكان بكل شيء عليما: تدل على أسبقية علمه بالأشياء بالمطلق.

قال تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}115. مع أننا نؤمن به يقينا ونعرف صفاته الحسان يقينا إلا أنّنا لا نراه بأمهات أعيننا، وذلك لأنه لم يكن مادة مجردة ولا روح مجردة بل هو الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فهو الذي نَعلمه ونُدركه ونَخافه ونتقيه ونسجد له ونركع، ولا نسجد ولا نركع لسواه،

[113] ـ المؤمنون 71.

[114] ـ الأحزاب 54.

[115] ـ الحديد 3.

هو الله الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، وهو الحي الباقي الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، خلق كل شيء ويحيط بكل شيء علما سبحانه لا إله إلا هو الواحد القهّار.

وفي علم الظاهر قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}116 جاء في هذه الآيات الكريمة شواهد للظاهر مع استفسار عن الكامن الذي من ورائه وهو أننا نظرنا إلى الإبل والسماء والجبال والأرض ولمسنا منها ما لمسنا وعرفنا منها ما عرفنا ونظرنا ومشينا وشربّنا ولبسنا وبنينا، ولكن هل نستطيع أن ننظر إلى الكيفية التي بها وعليها خُلقت لأجل أن نعرف؟

إنّه من حقّنا أن نسعى لنعرف، ولكن كلما عرفنا منها شيئا آمنَّا بأنّ أمر الكيفية التي عليها وبها خلقت هو أمر غيب؛ ولأنّه أمر غيب، لذا فنحن لأمر الغيب ليس بناظرين، وهكذا حال المخلوقات وفقا لما تنصّ عليه القاعدة: (المخلوق لا يرى خالقه في الدنيا والخالق يرى ما خلق).

القضية الرابعة علم غيب الباطن (ما تكتمون): الكتمان الإخفاء وعدم الإباحة بالسرِّ الذي ليس بسرٍ على من يعلمه، قال تعالى: {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ}117 أي أنّه أخفاها ولم يظهرها لهم مع أنه شعر بذنبهم نحوه بما رموه به من سرقة، وهو لم يكن من السارقين، إلا رميا بغير حقّ وكما يقولون: يوم أن أخذ الصنم من جدِّه أبي أمه وكسره118. ومع أنّ أخذ الصنم وكسره ليس بعمل باطل إلا أن إخوته كانوا من الظانين به، لا لشيء إلا لحب أبيه له وكأنّه المفضَّل عليهم، فما

116. الغاشية 17. 21.

117. يوسف 77.

118. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن.، ج 9، ص 239.

قام به يوسف هو عمل حقّ وفعل حقّ، وليس بفعل سرقة. فالسرقة سِرُّها أن تُخفى ويتم الاحتفاظ بالمسروق للفائدة الشخصانية غير المشروعة، وهذا ما لم يحصل مع يوسف والصنم الذي أقدم على تكسيره. إنّه عمل خير من قِبل من كانت النبوة فيهم.

قال تعالى: {يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ}[119] ما يخفونه في أنفسهم هو الذي يعلمه العليم الحكيم، فهم يعلنون الإيمان ويخفون في صدورهم حقّيقة أمرهم وهو الشرك والكفر والتكذيب، وهم على هذه الحالة يظهرون للرسول بأنّهم من الذين آمنوا ويخفون له في أنفسهم ما لا يظهرونه وهو الشرك بالله تعالى.

وعلم الغيب هو العلم المدرَك لِما لا يُدرَك، وهو ينقسم على جزأين:

الجزء الأول:

كل ما خلقه الخالق هو يعلمه، وهو العلم الذي لم يطّلع مخلوق عليه، فهذا الجزء علمه يقع في دائرة الغيب المحاطة بالاستحالة. فمع أنه علم كامل بالإنجاز الخلقي، إلا أنّه بالنسبة لبني آدم هو خارج دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، وسيظل أمره مستحيلا إلى أن يخرج أو يخرج شيء منه من دائرة المستحيل ويدخل في دائرة الممكن، التي من بعدها يتم التعرف عليه أو التعرف على شيء منه. وهذا الأمر لن يتمّ إلا إذا أراد العليم المدرك لما خلق أن يظهرنا عليه أو يظهرنا على شيء منه.

الجزء الثاني: هو الذي لم يُخلق بعد وسيخلق لا محالة هو الآخر علم غيب لا يعرفه إلا الذي سيخلقه حيث لا مستحيل أمامه، فهو الذي

[119] . آل عمران، 154.

إذا أراد شيء أن يكون، يقول له كن فيكون، سبحانه أنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم.

وعليه: لا ينبغي الاستغراب لأنّ الله على كل شيء قدير وبكل شيء محيط وعليم.

قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}[120]. ولتبيان ما تضمنه هذه الآية الكريمة علينا أنْ نعرف دلالة المعنى لكل من العالم، والغيب حتى نُدرك دلالة عالم الغيب:

العالم: هو المدرك للزمان والحركة وما يُحتوى فيهما.

والغيب: على وجه الاختصاص هو ما يعلمه الخالق ولا يعلمه المخلوق.

وعالم الغيب: هو الذي بيده المشيئة، وهو الذي لا يتمكن مخلوق من الاطلاع على علمه مهما سعى، إلا من ارتضى بمشيئته من يشاء من الرّسُل، وفي هذا الأمر كان الاستثناء في قوله (إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) كما ارتضى داوود رسولا على ما أتاه من علم الغيب بعد أن أحاطه تعالى بحفظه وعلمه وحكمته.

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[121] تحتوي هذه الآية الكريمة على علوم منها:

[120] . الجن 26 . 28.

[121] . لقمان 34.

1 . علم السّاعة الذي لا يعلمه إلّا هو. (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ).

2 . علم الغيث الذي لا ينزله إلا هو سبحانه وتعالى (وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ).

3 . علم الأرحام لا يعلم تمامه وكماله إلّا هو. (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ).

4 . علم دراية النفس وما ستكسبه غدا. (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا).

5 . علم دراية النفس بالمكان الذي ستموت فيه، (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ).

6 . علم الزمان المطلق الذي سينقلنا إلى يوم غدٍ علم غيب، وهو الزمن المستنبط ممّا تحتويه الآية بداية من الساعة إلى ما ستكسبه النفس غدا.

8 . علم الخبرة والدراية التامة لا يعلمه إلا هو: (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ).

ومع أنّ الله هو عالم الغيب والشهادة، إلا أنّه يُظهر على علمه من يشاء من رسول كما أظهره لداوود، وما يظهره من علم لرسول يشاءه يظهره على يديه للآخرين ليعلموا أنّهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا، وليعلموا أنّ وراء العلم عليم يعلم ما في السماوات وما في الأرض ويُعلّم به من يُريد من رسول كريم، مصداقا لقوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا

مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}122.

ولذا؛ فمن يتوجه بالإيمان إلى عالم الغيب ليزيده علما من علمه يزده حتى يرفعه درجة، ومن يطلب المزيد يزيده ليرفعه إلى درجة من العلم أكبر، وهكذا ينبغي أن يكون الخليفة في الأرض دائما يطلب المزيد العلمي الذي يظهره على الآيات العظام ويُمكِّنه من العمل الذي به تُصلح الأرض ولا تُفسد. قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}123. الدرجات مراتب من العلم لا يتمكن منها إلا من يطلع عليها ويدركها لأجل أن ينقلها للآخرين ليتمكنوا من المزيد العلمي الذي يفيدهم في حياتهم ومماتهم ويوم بعثهم.

ولذا؛ فمن مهمة الخليفة أن يسعى بكل جهده وأساليبه الأخلاقية إلى إظهار علم الله الذي أظهره عليه ليكون بين النّاس ألفة ومحبة وعملا صالحا يرضاه.

ولذلك، لا ينبغي أن يُحجب العلم الذي هو من عند الله عن عباد الله، ومن يحجب علمه عن عباده مهما أُوتي من درجات العلم فلن يبقى على درجته إن لم يسع لتعميمه، فالذي يُسقِط العالم من درجات علمه هو أن يحجب ما ظهر عليه من علم منه تعالى عن الذين يُراد لهم أن يكونوا خلائف في الأرض، وليتخذوا الرّسُل قدوة حسنة لهم في ذلك، فهم الذين ظلوا على أعلى الدرجات بما بذلوه من جهد في سبيل التبشير والدعاية والإنذار والتحريض على القول الحقّ والفعل الحقّ والسلوك الحقّ طاعة لأمر الله تعالى، {قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ}124. ولذلك لا

---

122. الجن 27، 28.

123. المجادلة 11.

124. الملك 26.

يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فالذين يعلمون يُظهرون ما أظهرهم الله عليه للعباد حتى يؤمنوا ويهتدوا إلى الحقّ والسبيل السليم. والذين لا يعلمون هم يجهلون وهم في حاجة لمن يظهرهم من الظلمات إلى النور ليروا الحقّ ويتبيّنوه من الباطل. قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}125.

ومع أنّه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إلا أن العبد المؤمن هو الذي دائما يذكر ربّه بإيمانه فيما يقول وفيما يعمل، ولذا، فالعلم الذي به يكسب العباد يجب أن يُدرك ويُبلَغ بالحلال لا بالحرام، ولا ينبغي أن يغش المؤمن بعلمه أي إنسان في مشربّه ومأكله ومركوبه ودوائه، فالعلم النافع هو الذي ينفع النّاس ولا يضرهم، فإن كان الناتج من وراء العلم ضرر، فإنّ هذا العلم لا يعد بالعلم الحقّ، إنه العلم الباطل الذي يستوجب أن يُبطل بعلم الحقّ النافع.

وفي أسم العليم قال ابن القيم في نونيته:

وهو الذي أحاط علما بالذي في الكون من سرٍ ومن إعلان

وبكل شيء علمه سبحانه فهو المحيط وليس ذا نسيانِ

وكذلك يعلم ما يكون غدا وما قد كان والموجود في ذا الآن

وكذلك أمر لم يكن لو كان كيف يكون ذاك الأمر ذا إمكانِ126

5 ـ مُؤتى ألزَبُور (زَبُوري):

125 ـ الزمر 9.

126 ـ حصة بنت عبد العزيز، شرح أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته الواردة في الكتب الستة، الرياض، دار القاسم للنشر، ص 180.

الإيتاء من الله عزّ وجلّ لا يكون إلا وفق مشيئته الإلهية مصداقا لقوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}127.

ولذا، فالإيتاء من غير طلب ولا يكون بالمطلق إلا من الله تعالى، وألزبور هو الكتاب الذي يحمل المعجزات المعلن عنها من العليم الحكيم، ولذا فالكتاب هو الآخر لا يكون إلا من الله تعالى، والمؤتى له هو المرضى عنه بما قدمت يداه من تصديق وتوحيد كما هو حال داوود الذي آتاه الله زبورا، مصداقا لقوله تعالى: {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}128.

الزبُر هو اسم الكتاب الذي أُتي إلى داوود، وهو عنوان رسالة من الكتب التي أُنزِلت وأُتيت لبعض الرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم كالتوراة لموسى، والإنجيل لعيسى، والقرآن لمحمّد.

وعليه يتصف الرّسُل برسالاتهم التي أرسلوا بها فكما أنَّ داوود زَبُري فإن موسى توراتي وعيسى إنجيلي ومحمّد قرآني، وجميعهم يندرجون تحت صفة واحدة هي (الإسلام) ولذلك المسلمون الذين آمنوا برسالة محمّد صاحب الرسالة الخاتمة لا يفرقون بين أحدٍ من رُسُله أي جميع الرّسُل من آدم إلى الخاتم عليهم الصّلاة والسّلام لا يفرق أحد بينهم، قال تعالى: {آمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}129.

127 . البقرة 269.

128 . النساء 163.

129 . البقرة 285.

إيتاء الرسالات للرُسُل إيتاءُ تفضيل، حيث فضَّل الله بعض الأنبياء المرسلين على بعضهم بالإيتاء والتقريب إليه وبالحكمة والعلم والزبور والتوراة والإنجيل والقرآن، قال تعالى: {وَربّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}، ولهذا فالمسلمون الذين آمنوا بالله واحدا أحدا لا شريك له يعلموا بكل الرّسُل الذين أقصصهم الله عليهم ولكنهم لا يعلموا الذين لم يقصصهم عليهم وكذلك هم لا يعرفون بما هم به مفضلين، إنه أمر غيب ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

الإيتاء من عند الله تعالى إيتاء من أجل تحقّيق مستقبل أفضل، ولأنّ الله علَّام الغيوب فهو يعلم مسبقا بحال كل نبي ورسول من أنبياءه ورُسُله وبما سيكونون عليه من يوم اصطفائهم إلى يوم موتهم وما سيعملون من أعمال الخير، ولهذا يتم تكليفهم وإيتائهم الأنباء والرسالات والحكم والعلم وهم لا يعلمون بما سيؤولون إليه وما سيواجههم من صعاب وعناد من أقوامهم وشعوبهم وأممهم الذين لن يؤمنوا بما سيأتونهم به من علم غيب من الله تعالى، ولذلك فعلَّام الغيوم يوم أن أصطفى داوود اصطفاه من أجل أن يحقّق على يديه مستقبل أفضل هو يعلمه، قال تعالى: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ}130 جاء مضمون هذه الآية الكريمة دالا على تحقّيق المستقبل من حيث أن قوله (حِينَ تُمْسُونَ) بمعنى حينما يأتي المساء أي عندما يأتي المساء وتمسون فيه لباسا، ولذا فهذا القول القرآني قِيل قبل إتيان المساء المقصود في هذه الآية الكريمة، ولأن الأمر يتعلق بالمستقبل أكده بما هو آتٍ من بعد المساء، بقوله تعالى: (وَحِينَ تُصْبِحُونَ) أي بعد ما يأتي المساء وتمسون فيه ثم يأتي من بعده الصباح

[130] . الروم 17.

وتُصبحون فيه، وهكذا مادمتم أحياء، وهذا ذليل القصد المستقبلي الذي يعلمه الله تعالى قبل أن يأتي ولذلك يخبر به وأحيانا يخبر بحاله.

6 . هادي مهتدي:

الهادي بالمطلق هو الله تعالى الذي هدى المخلوقات إلى ما خُلقت من أجله فجعلها تُسبّح بحمده، مصداقا لقوله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}131.

والهادي هو مُظهر الحقّ للعقل والقلب والبصيرة وجميع الحواس ومُظهر الحاجة ليهتدي كلٌ إلى مشبعاتها بإرادة.

الهادي مالك الحقّ، والمرشد إليه، ومالك القوّة والمرشد بها، ومالك القدرة والمسيّر بها؛ ولأنه الهادي فلا يهدي إلا للتي هي أحسن وأنفع وأفيد وأجود وأقوم.

الهادي هو الذي يعلم بالمطلق ما لم يعلمه من يُهدى إلى ما يُهدى إليه، ويعلم بصلاحه قبل بلوغه منه، وبعد الهداية إليه وببلوغه تكون الهداية حقّ بالقوّة والقدرة.

الهادي هو مُغيّر الأحوال من حال إلى حال أفضل، وهو على كل شيء قدير، والهادي هو الخالق الذي خلق المهتدين، {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ}132 وهو منزّل نصوص وحِكم وكَلِم الهداية إليهم حتى لا يضلون وإن ضل بعضهم فإنّ الهداية من ورائه تلاحقّه بالفعل وتسابقه بالقول حتى بلوغها ومن ضل بعد ذلك كان من الضالين.

---

131 . الإسراء 44.

132 . الإسراء 97.

ولأنّ الهادي صفته الكمال، والمخلوق صفته النقص، فالمنقوص دائما في حاجة للكامل الذي يهديه إلى ما يجب.

الهادي هو الذي أرسل الرّسُل للهداية، ولكن أهل الضلال استحبوا العمى على الهدى، مصداقا لقوله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}133وحُب العمى انصراف بالكلية عن طريق الرشاد ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، ومن ارتضى هذا المسلك أوجب على نفسه الضلال، وابتعد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

الهداية من الله توجيه إلى التعرف على الحقّ عن بيّنة فمن اهتدى بعد ذلك وُصِفَ بالمهتدي كما هو حال داوود الذي هداه الله عزّ وجلّ إلى الحقّ فتمسَّك بإحقّاقه في الأرض كما تمسَّك به من قبله المهتدين من الأنبياء والرّسُل مصداقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ}134.

المهتدي، هو من يهتدي بالحقّ ويهدي إليه، وهو الذي عرف ربّه وآمن به والتزم بما أمر إتباعا والتزم بما نهى انتهاءً، ولذا فهو الذي عرف وتمسَّك بما عرف توحيدا لله وحده لا شريك له، فكان خير متَّبعا في الأرض إصلاحا وإذا حكم بين النّاس حكم عدلا ولا يظلم أحدا.

وفقا لِما تقدم كان داوود مهتديا للتي هي أحسن، وعمل مع قومه على الهداية من حيث:

أ ـ الهداية إلى معرفة الله تعالى.

---

[133] . فصلت 17

[134] . الأنعام 84.

ب . الهداية إلى الإيمان به واحد أحدا لا شريك له في الملك والقدرة والمشيئة والقوّة وكل الصفات الحسان.

ج . الهداية بالاتصاف بصفاته الحسان في القول والعمل والفعل والسلوك.

د . هداية النّاس للحقّ وحثهم على اتباعه والتمسك والعمل به شرعة ومنهاجا.

هـ . هداية الحواس إلى الوقوف على آياته العظام وحفظها من الانزلاق في الشهوات التي تكون على حساب الفضائل والقيم الكريمة التي يرتضيها الله وعباده المخلصين.

وللهداية أربّعة أنواع:

1- هداية دلالة.

2- هداية معونة:

3-هداية تسديد:

4- هداية تأييد:

1- هداية الدلالة: بمعنى أن الله الهادي قد وضع طرق الهداية لجميع الخلق ليهتدوا وأعطاهم من الوسائل التي تعينهم على تقبل الهداية من عقل يربّط بين الأشياء قياسا ومنطقا واستدلالا ونتيجة واقتناعا وسلوكا واقتداء وتأثيرا وتأثرا، فمن قَبِلَ وعمل استحقّ النوع الثاني من الهداية وهو هداية المعونة.

2- هداية المعونة بأن يعينه الله ويُثبِّته على الهداية.

3- هداية تسديد للمهتدي الذي يريد أن ينشر الهدي الصحيح ويدخل في ذلك من يتصف بصفات الخليفة.

4- هداية تأييد للأنبياء بالمعجزات والوحي وليس لسواهم.

والهدي من الهادي هو الطريق الحقّ كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى}135 أي أنّ الله سبحانه وتعالى بمقتضى حكمته بيَّنَ طريق الهدى من طريق الضلال، وأعطى كل خلق رشده وهداه كما أعطاه خلقه ورزقه، فما كان لله تعالى أن يخلق خلقه دون المتممّات التي أوجد من أجلها هذا الخلق الذي وجد أصلا ليكون خليفة في الأرض مُعمرا فيها غير سافك دما بغير حقّ مؤمنا بالله تعالى وطائعا له في ما أمر ونهى وعابدا له واحدا أحدا لا شريك له قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}136، فالعبادة بالضرورة تحتاج إلى هداية من أجل التعرف عليها وعلى كيفيتها وشروطها وأوقاتها ومواقيتها، فالذي يهدي إليها هو الهادي تبارك وتعالى، وحيث أنّه خلق الخلق للعبادة فالضرورة تقتضي أن يُبيّنَ لهم طريق الهدى وما يؤدّي إليه من صلاح ورشاد، وبهداه أيضا يبين لهم نقيض ذلك من طريق الغي والضلال وما يؤدّي إليه من الهلاك، وقد فعل ذلك بما تقتضيه الحكمة الإلهية رحمة بالعباد من جهة، وحتى يقيم عليهم الحجّة من جهة أخرى، وقد بيَّن الله تعالى حال من سلك كلا من الطريقين رغبة أو رهبة، ومن هنا يظهر لنا أن الهداية هي مظهر من مظاهر الدلالة على الحقّ بما يتوصل به إلى البغية والمنال، فالله الهادي ضَمَنَ الهُدى لعباده بوسائل أمّنها لهم في خلقهم وتكوينهم من أجل أن يستدلوا على الهادي، فهدى الإنسان بالإرشاد إليه عن طريق العقل والقلب والبصيرة وكل الحواس تهدي بمشيئة الهادي، قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا

135. الليل 12.

136. الذاريات 56.

وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}137 فبنور العقل وإدراك الحس والجمع بين الدلالة العقلية التي تأتي عن طريق الفكر والتأمّل، والدلالة السمعية التي جاء بها الخبر الصّادق والجمع بينهما يؤدّي إلى التمكين من جانبي الدلالة وصولا إلى الهدى من أجل الاستدلال على الهادي واستبصاره.

وإذا تساءل البعض:

كيف للحواس أن تهدي؟

نقول على سبيل المثال لا على سبيل الحصر الآتي:

. السّمع: حاسة بها يتم التنصت والاستماع لِما يُقال وبها يتمّ استقبال المرسلات وإحالتها إلى المدركات العقلية لتمييزها وإدراك دلائلها ثم يحيل العقل الإجابة عن طريق حاسة أخرى هي اللسان وبالتالي فحاسة السمع للسمع فقط فهي تستمع ولا تجيب، ولهذا خلق الخالق اللسان ليهدي به للتي هي أحسن، ولذا فمن يستمع للحقّ لا ينبغي له أن ينكره أو يجحده مصداقا لقوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}138.

فمعرفة الحقّ والهُدى الذي عن طريقه يتوصل الإنسان إلى الهادي، إنّما تأتي عن طريق سمعه ووعيه وإدراكه لما يسمع، ولكن الذين لا يذعنون فهم أشد شرا من الدواب التي أصيبت بالصمم فلا تسمع، وبالبكم فلا تتكلم، فهم صمُّوا عن الحقّ، فلم يسمعوه ولم ينطقوا به ولم يعقلوه، وصمُّوا عن الهداية فلم يقربّوا إليها، فهم لا يفهمون عن الله أمره ونهيه ولا يقبلون دلائل الهدى، لذلك سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم عن طريق ما يسمعون.

---

137. البلد 8 . 10.

138. الأنفال 21، 22.

. البصر: وأمّا مسألة الهداية عن طريق الإبصار فلها شأن آخر يختلف كل الاختلاف عن قضية السمع، حيث جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}139 فإنك إن تسألهم الهداية أو تطلب منهم أن يهتدوا إلى ما فيه خيرهم لا يسمعون سؤالك ولا يجيبون طلبك فضلا عن إرشادك إياهم، وإنك لتراهم كأنما ينظرون إليك، وهم في الحقّيقة لا يرون شيئا، فالرؤية هنا بصرية والخطاب للجميع، فهم غير قادرين على الإبصار وهو بيان عجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع.

العين وسيلة الرؤية البصرية التي بها تشهد على أحوال ما تشاهده وهي من الوسائل المِمكّنة من المعرفة عن واقع لا مثال، فمع أن البعض يرى بأم عينيه الحقّيقة ماثلة أمامه هي كما هي إلا أنّه قادرا على إنكارها وإخفائها ما استطاع وهؤلاء هم المفسدون في الأرض وسافكي الدماء فيها بغير حقّ الذين لا يهتدوا بما خلق لهم تعالى من حواس للاهتداء والهداية.

إنّ الهادي تبارك وتعالى أمر عباده باتباع سبيله من خلال آياته وأنبيائه وكتبه ورسله كما هو حال داوود عليه وعليهم جميعا الصّلاة والسّلام الذي اهتدى للحقّ بالحقّ بعد أن علّمه الله وهداه إلى ما اهتدى إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ولذا فالله تعالى بيَّن للرُسُل الطرق ووضَّح لهم السُبل حتى يتبيَّن الحقّ من الغي والهدى من الضلال والإصلاح من الإفساد، قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الحقّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحقّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحقّ أَحقّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}140؛ فالله سبحانه وتعالى ينص في هذه الآية على أنّه هو الهادي، لا عن طريق المباشرة، وإنما من خلال الدلائل

139. الأعراف 198.

140. يونس 35.

التي بثها في هذا الكون والمعجزات الدالة على الخالق، والهداية هنا هداية التوحيد وطاعة لأوامر الله تعالى فيما أوجب على الخلق من العبادة، لذلك أنكر على الذين اتخذوا غير الله آلهة أو جعلوا له شريكا، إذ ليس من معبودات هؤلاء التي جعلوها شركاء لله مَن يستطيع التمييز بين الهدى والضلال، فيرشد سواه إلى السبيل الحقّ، فهل القادر على الهداية إلى الحقّ أولى بالاتباع والعبادة أم الذي لا يستطيع أن يهتدي في نفسه، وهو لا يهدى غيره، اللهم إلا إذا هداه غيره، ولو كانت الهداية بوجه من الوجوه؛ فإنّ أدنى مراتب العبودية هداية المعبود لعباده إلى ما فيه صلاح أمرهم، الله يهدى من يشاء للحقّ دون غيره بنصب الأدلة وإرسال الرّسُل وإنزال الكتب والتوفيق للنظر الصحيح والتدبُّر الصائب، فبيَّن سبحانه بما هو مستقر في الفطرة أن الذي يهدي إلى الحقّ أحقّ بالاتباع ممن لا يهدي، إلّا أن يهديه غيره، وإذا كان لابدّ من وجوب الهادي لغير المهتدي بنفسه فهو على الأكمل وهو أحقّ أن يُتَّبع، ولما كان كمال العبد في كونه عالما بالهدى متبعا للحقّ ومعلما لغيره، فهو من الهداة المهتدين، فالهادي من الخلق بالضرورة أن يكون مهتديا، لأنّ الهادي إذا لم يكن مهتديا في نفسه لم يصلح كونه هاديا لغيره لأنّه يوقع النّاس في الضلال من حيث لا يشعر، وأما الهادي بالإضافة فهو خليفة الله في أرضه ومنه اكتسب صفة الهدى كما اكتسبها داوود الذي بشَّر وحرَّض وقاتل وهدى الآخرين ما استطاع الهداية في سبيل الحقّ وإحقّاقه في الأرض وفي سبيل الإيمان بالله تعالى لا شريك له.

والهداية تكون على معنيين:

. أحدهما بمعنى الإيضاح والإرشاد يقال: أهديت فلانا الطريق أي أرشدته إليه.

. والآخر بمعنى التوفيق قال الله عزّ وجلّ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}141 أي أنك لا تستطيع أن تُوفِّق للهداية من أحببت، ولكن الله يوفق من يشاء.

ولأنّ داوود قد استمد صفاته من صفات الهادي فكان مهتديا بمُلكه الذي وهبه الله إياه ومهتديا بحكمته التي وهبها الله إياه ومهتديا بعلمه الذي وهبه الله له وعلَّمه إياه، ومهتديا بالمعجزات والآيات الكريمة التي أظهره الله عليها، فكان خير هاديا لقومه الذين منهم من استمع وعرف واهتدى ومنهم من استمع وعرف وكفر، ومنهم من كان ضالا فلا استمع ولا اهتدى، ولذلك قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}142.

ومثلما أنّ الله تعالى هو الهادي في أسمائه، والهادي في خلقه كذلك هو هادٍ في الخصوصية التي اختص بها بعض مخلوقاته دون البعض مثل الأنبياء والمرسلين والأولياء والخلفاء، وهذا هدي اختصاص من الله تعالى بالنسبة للبشر، أما المخلوقات غير العاقلة فقد هداها إلى ما هي مخلوقة له بشكل عام، وكذلك جعل لبعضها خصوصية لحكمة أرادها الهادي لقضاء أمر أو لتعريف الإنسان قدر نفسه من خلال مخلوقات ضعيفة تفعل ما لا يستطيع الإنسان فعله فقد جاء في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ ربِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ

141. القصص 56.

142. الحج 46.

وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}143؛ فالله الهادي هدى هذه النملة لتخاطب قومها خوفا عليهم من الهلاك، وبذلك أرادت هدايتهم إلى ما فيه نجاتهم من الموت الذي قد يسببه جنود سليمان من تحطيم جماعة النمل، فقالت لهم بطريق الهداية: يا أيها النمل ادخلوا مخابئكم لكيلا تميتكم جنود سليمان وهم لا يحسون بوجودكم يا معشر النمل (لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)، ادخلوا مساكنكم لا يهلكنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم. فسمعها سليمان فتبسم ضاحكا متعجبا من قولها، وسأل الله تعالى أن يلهمه شكره على ما أنعم عليه وعلى والديه من عِلم وملك، وأن يوفقه للعمل الصالح الذي يرضاه، وأن يدخله في رحمته وكرمه وفضله ويجعله من جملة عباده الصالحين. ومن البديهي أن سليمان من المهتدين الذين يهدون إلى الهادي، ومع ذلك فإنّ هدي النملة لجماعتها جعله يتشبث بهداه أكثر ويدعو الله أن يثبته عليه.

وكما هدى النمل كذلك فقد هدى كل المخلوقات التي لا نعرف تسبيحها، ومنها النحل الذي هداه الله هدي برمجة وإلهام بما أودع الله فيها من تصريف الأمور قال تعالى: {وَأَوْحَى ربّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمّا يَعْرِشُونَ}144 فقد ألهم الله تعالى النحل أسباب حياتها بما أودع فيه، ووسائل معيشته بما بثّ له من أسباب الرّزق وهداه إليه، وكذلك هداه إلهاما بأن يتخذ من الجبال بيوتا في الكهوف، ومن فجوات الشجر وبين الصخور، ومن عرائش المنازل بيوتا، فهذا التنوع في الهداية إرشاد خلقي إلى اتخاذ بيوت النحل في مناطق مختلفة من البيئة والطبيعة، إنه القادر الذي خلق كل شيء وقدَّره تقديرا عاليا فكان لكل

143. النمل 18، 19.

144. النحل 68.

مخلوق نصيبا في الحياة يصل إليه بعقله وتدبره كما هو حال الإنسان أو يصل إليه بغريزته التي توجِّهَهُ إلى ما يشبع الحاجة ويحافظ على البقاء.

7 . مُحسن:

الإحسان عمل خير من قام به كان مُحسنا، ولذا فقد اتصف داوود بهذه الصفة الحسنة لِما يقوم به من أفعال الخير الحسان طاعة لله وإتباعا لأمره ونهيه.

الإحسان: حُسن تصرف وجودة في أداء العمل مع فائق الإخلاص فيه، ولذا، فهو رفعة أخلاقية تنعكس في اللسان والعمل فيتصف الإنسان بها بعد ثباته عليها مداومة على محقّقاتها.

والإحسان فضيلة حث الله عليها وهو يتعدّد ولا يقتصر على عمل محددٍ بعينه وهو دائما حلقة وصل بين الأنا والآخر، سواء أكان العبد وربّه أم العبد والعبد أم العبد ونفسه، فمسألة الإحسان ضميرية يجازي الله المتصفين بها جزاءً حسنا.

والإحسان على المستوى الاجتماعي والإنساني أعلى درجاته الإحسان بالوالدين مصداقا لقوله عزّ وجلّ: {وَقَضَى ربّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}145. في هذه الآية الكريمة أمَرَ ربّك وحَكم بعبادته دون غيره، وهذه رحمة لا تجعلك تفكر في معبود آخر من دونه، وأمر بالإحسان للوالدين، حتى يتم نيل رضاهما، وهذه رحمة أخرى عظيمة. وبما أنّ نيل رضا الوالدين رحمة على الأبناء. إذن الأبناء رحمة على الوالدين، ولهذا يُستخلف البشر على أساس قاعدة الرّحمة المستمدة من (الرّحمن).

---

[145] . الإسراء 23.

وعلى المستوى الإنساني أيضا قال تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذِّبَانِ}146. ولهذا التمسك بالأفعال الحسان هو الدليل على ممّارسة الخليفة لدوره الطبيعي، أما الذين لم يَقدِموا على أداء الأفعال الحسان فهم المنحرفون عن نهج الخليفة على الأرض، ولذا أيها الإنسان أحسِن يُحسَن إليك، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}147 التمسك بالقيم والفضائل الإنسانية والعمل بها له جزاء حسنُ من قِبل الذين يُقدّم لهم كلما قدَّروه، ومن ورائه جزاء أعظم من الرّحمن الرّحيم.

علاقة قوية تربّط قيمة الرّحمة بأفعال الإحسان، ولا تقصرها على دينٍ أو جنسٍ معينٍ، بل تربّط ذلك بمن يقوم بأفعال الإحسان. فَفِعلُ الرّحمة من الخليفة يُعد إحسانا يلاقيه فعل الإحسان من الرّحمن الرّحيم، أفعال الإحسان قد تنال الرضاء من البشر، ولكنها لا تنال الجزاء الدائم منهم، فالجزاء الدّائم بالنسبة لأفعالها لم يكن في الحياة الدنيا، ففي الحياة الدنيا يمكن أن يتم نيل الاعتراف والتقدير على ما يتم تقديمه من أفعال حسان، ولكن الأجر الكبير والأوفر سيتم نيله من الرّحمن الرّحيم.

وعليه: فالمحسِن في الأرض هو مثل داوود أصلح ولم يُفسد فيها ولم يسفك دما بغير حقّ وهو نبيا مقربّا من ربّه مودة ومحبّة، ولذا فمن أراد أن يكون قريبا من الله تعالى فعليه بالطاعة التامة والإحسان في الأرض قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}148، ولذلك كلما اقتربّ الإحسان من

---

146. الرّحمن 60، 61.

147. فصلت 46.

148. الأعراف 56.

الرّحمة اقتربّت الرّحمة من المحسن. والمحسن هو المقدِم على ممّارسة وأداء أفعال الخير الحِسان.

يقول ابن القيم رحمه الله: "هناك ثلاثة دلالات من قوله تعالى: (إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين).

الدلالة الأولى: دلالة بمنطوقه، عن قربّ الرّحمة من أهل الإحسان.

الدلالة الثانية: دلالة بتعليله وإيمائه، على أنّ هذا القربّ مستحقّ بالإحسان؛ فهو السبب في قربّ الرّحمة منهم.

والدلالة الثالثة: دلالة بمفهومه، على بُعد الرّحمة من غير المحسِنين.

اتباع الإحسان لا يكون إلا من المحسنين الذين يجازون في الآخرة بقاءً بدار المتقين مصداقا لقوله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}[149]؛ فهؤلاء الذين اتبعوا أوامر الله فيما شاءه من خير لعباده، والتزموا بأنهم يرحمون الآخرين هم خلفاء الله في أرضه، لأنّهم كانوا يسعون إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة للناس جميعا، فكانوا بذلك من المحسنين. والله الرّحيم سبحانه يكافئ المحسنين بحياة طيبة في هذه الحياة الدنيا، ويكافئهم في الآخرة بما هو خير وأحسن ممّا نالوه في الدار الدنيا،

ولذا؛ فالإحسان يجبر علاقة مع الله تعالى ومع الذين هم في حاجة لمن يحسن إليهم مصداقا لقوله تعالى: {ثُمَّ اتَّقَوْا وَآَمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا

[149] . النحل 30.

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}150. وقوله: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}151.

وعليه: فالإحسان يُطمئن القلوب ويجبرها لتتوحد في سبيل مرضاة الله تعالى وبه تلين الخواطر ويلتحم جبرها بعد أن تصدَّع بأسباب أو أخرى، وفي توحدها نصرة على هذا الكون الواسع وما يتطلبه من معطيات لا يمكن أن تتوفر إلا بالاتحاد، فجعل الجبَّار المطلق جبر القلوب بالإحسان لا بكره وهو قادر على فعل ذلك؛ ولهذا ينبغي أن يكون الإحسان أفعال وعمل فَيَقدِم الخليفة على أداء الأفعال التي ترضي الله فيصلح ولا يفسد، ويُعمِّر الأرض ولا يُدمِّر فيها شيئا، وإذا حكم بين النّاس يحكم عدلا، وإذا كسب تصدق وزكى، وإذا جاء الاعتداء على الدين جاهد بماله ونفسه في سبيل إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، وهكذا يكون له في كل فعل حسنات مضاعفات وله أجرُ كريم من الولي الذي لا يفارقه أبدا.

قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ ربّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}152.

الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم هم المحسنين المهتدين وهم الأنبياء جميعهم الذين ذُكِرَ بعض منهم في هذه الآية الكريمة وهم: (إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون) ثمّ تلاهم بقوله تعالى (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) أي أن هؤلاء

---

150. المائدة 93.

151. القصص 77.

152. الأنعام 82 ـ 84.

الأنبياء مجازون على ما أحسنوا به في حياتهم، وكذلك جزاء المحسنين بابه مفتوحا لم يقفل فمن أراد نيل الجزاء فعليه بالإحسان.

الإحسان فضيلة من الله يجازي بها من أحسن كما جازى بها نبيه داوود وهو كذلك قيمة محببة بين النّاس أقاربّ وأباعد، مصداقا لقوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا}153.

الإحسان مأمور به من الله تعالى ولذا فاتباعه طاعة للأمر والابتعاد عنه عصيان للأمر، ولهذا فكما أمر الله بالعدل أمر بالإحسان مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ}154.

أصحاب الإحسان هم أصحاب الجنّة الذين في حياتهم يحسنوا القول والفعل والعمل والسلوك حتى ينالوا الجزاء الأوفر الذي به يفوزون الفوز العظيم، قال تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجنّة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}155.

داوود من أهل الإحسان أي أنه من أصحاب الأعمال الخيّرة لِمن هم في حاجة إليها، ولذا فالإحسان عمل إنساني لا يقتصر على ذوي العلاقة بل يحتويهم ويمتد إلى آخرين، ولذلك عبر العصور المؤمنون هم أصحاب الإحسان، وذلك لأنهم الأولى به طاعة لله وأمره (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ).

153 . النساء 36.

154 – النحل 90.

155 . يونس، 26.

وعليه: فالإحسان من عمل الخليفة، وبه يورث في الأرض ويفوز بالجنّة، ولهذا؛ فالأعمال الحسان هي أعمال إحسان للصغير والكبير والذكر والأنثى والقريب والغريب، وهي من الأعمال الصالحة التي قال عنها الوارث: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}156.

الإحسان جهود تُبذل وإمكانات وخدمات تُقدَّم بأفعال طوعية تحقّق الرضاء النفسي لِمن تُقدّم له ولِمن قام أو أقدم على أفعال تقديمها للمستحقّين لها، وكذلك يترتب عليها رضاء الله على المحسن.

8 . مُفضَّل:

التفضيل لا يتمّ إلّا بتميُّز عمل مُقدَّر، والمفضل هو من نال التقدير والاعتراف بما أقدم عليه من عمل صالح يُسهم في إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل.

والمفضَّل هو من ارتقى على سُلَّم الفضائل التي لم يبلغها الكل وهي ذات مقامات عظام تُرضي ولا تُغضب تُقربّ ولا تُبعد ويترتب عليها الجزاء الأوفر ولا يترتّب عليها العقاب الشديد، وأصحابها المفضلين يدخلون الجنّة بأفعالهم الفاضلة وغيرهم بالنواقص يدخلون النّار.

والمفضَّل من البشر على احتمالات منها:

أ . تفضيل من الله كما هو حال تفضيل داوود وسليمان عليهما الصّلاة والسّلام، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا

156 . النحل 97.

وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}157، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}158.

ب . تفضيل من العباد الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين في حالة اعترافهم بمن هو أكثر طاعة وأكثر تعبدا وأكثر صفاء وأكثر مودة للعباد وأكثر عدلا وأكثر إحسانا وأكثر إخلاصا في العمل والوفاء في الأقوال والأفعال.

ج . تفضيل من البشر للبشر بأعمالهم وقدراتهم على المنافسة وقدراتهم على التفوق العلمي وقدراتهم على الإنجاز بغض النظر عن طاعتهم وإيمانهم بالله تعالى.

وباستعراضنا للاحتمالات الثلاثة السابقة نقول أنّها جاءت مرتبة من حيث الأكثر أهمية إلى الأهم ثم إلى المهم، ولهذا فإنّ تفضيل الله للأنبياء الذين من بينهم داوود عليهم الصّلاة والسّلام جاء على قمة التفضيلات قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}159، إنّه تفضيل من العلي المطلق لمن اصطفى من الأنبياء والرّسُل لعلم يعلمه تعالى.

---

157 . النمل 15.

158 . الإسراء 55.

159 . الأنعام 82 . 86.

والعليم بالإضافة هو الملِم إلماما بالعلوم التي أظهره عليها العليم المطلق، ممّا يجعله يعلم ما لم يعلمه غيره وفي هذه خصوصية لمن يصطفيهم الله لرسالة من رسالاته ولسرٍ من أسراره ولحكمة من حِكمهِ كما هو حال يوسف في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ ربّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آَلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ ربّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}160. ولأنّ أمر الأسرار والحِكم التي من وراء العلم ليس هينا فيتولى الله اختيار وتفضيل من هم متهيئون لهذه المهمة الصعبة فيصطفيهم لها، ويعلِّمهم ما لم يعلموا من قبل فيظهرهم على ما لم يُظهِرَ غيرهم عليه، فتصبح رؤاهم سابقة على حدوث الفعل، أي أنّ المعلومة التي تتعلق بأمرٍ سيحدث يتم اطلاع البعض المفضَّل عليها حتى يصبحوا أهل قدرة على الأنباء بها قبل حدوثها وإن حدثت فهم لها خير مفسرٍ. ووفقا لهذه القاعدة كان يوسف خير مُفسر للأحاديث، التي عَلَّمه العليم تأويلها. وقوله (وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آَلِ يَعْقُوبَ) يقصد بالنعمة: النبوة التي أخص بها الله آل إبراهيم والذين جاءوا من أصلابهم إسحاق ويعقوب ويوسف وآخرين من بعدهم ومن بينهم داوود وموسى وعيسى ومحمّد عليهم جميعا الصّلاة والسّلام.

قال تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ ربّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ ربّكَ مَحْظُورًا انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا}161 مد الله بعطائه الواسع ليس ممنوعا عن أحد بل أنّ جميع الخلق يشملهم عطائه وذلك بفضله وإحسانه، أما التفضيل في الدنيا فيكون بسعة الرزق وقِلّتهِ وفي العلم والجهل والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضَّل الله العباد بعضهم على بعض بها.

160 . يوسف، 6.

161 – الإسراء 20، 21.

التفضيل من الله لعباده رحمة يستوجب حمده وشكره عليها كما حمده وشكره داوود وسليمان على تفضيلهما على كثير من المؤمنين مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}162.

وعليه فالمفضل هو مؤتى الفضل من الله تعالى كما هو حال داوود مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}163، ولأنّ الفضل يؤتيه الله لمن يشاء فقد شاء أن يؤتيه لداوود.

9. تسخير الجبال والطير:

لقد سخَّر الله تعالى لداوود الجبال والطير، فكان خير قادر على تسخيرها في دائرة الممكن في كل ما يُرضي الله.

التسخير من الله عزّ وجلّ كان إعانة ومناصرة لداوود على إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، ولهذا سخَّر معه الجبال والطير يسبحن أي يعملنَ تحت أمره طاعة لأمر الله ولذا فكل عمل خير في مرضاة الله هو فعل تسبيح له عزّ وجلّ، {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ}164، ولأنّ أفعال هذه الآية كانت متحقّقة على الأرض على يدي داوود قال تعالى: (وَكُنَّا فَاعِلِينَ)، ولذلك فأمر الله متى ما شاءه أن يكون كان مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}165.

---

[162] . النمل 15.

[163] . سبأ 10، 11.

[164] . الأنبياء 79.

[165] . البقرة 117.

ولأنّ التسبيح عبادة والعبادة عمل صالح كان داوود مع الجبال والطير في حالة عبادة متصلة صباحا ومساء مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ}[166]، أي كل الطير تتزاحم طاعة لأمره الذي ارتضاه الله وبرجوعها إليه في حركتها وتنقلها ولذا فهي لا تبرح إلا بأمره وبعلمه وهي مسخرة للعمل تحت أمره وهي تسبِّح كما الجبال تسبح حمدا لله تعالى التي سخرها لأن تعمل مع داوود كل ما من شأنه أن يُسهم في إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، وقوله تعالى: (كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ) الكل طائعا لأمر داوود وذلك لعلم الأوابين من الطير بأن طاعة داوود هي طاعة لله وأمره الذي ألزمهم التأويب لداوود.

إذا التسخير لأجل العون، أي معونة الآخرين غير القادرين على إنجاز ما يجب إنجازه لأسباب الحاجة ومشبعاتها، أمَّا التسخير من عند الله كما هو حال الجبال والطير المسخرات لداوود فإن أمر التسخير جاء لتذليل الصعاب التي تواجه داوود في أداء رسالته التي اصطفاه الله إليها، ولذلك كان اختيار الجبال والطير ليلتفت داوود إليها ويعرف أهميتها ويعرف كيف ومتى يسخرها وفقا للمشيئة الإلهية التي خصه الله بها لأن يعمل ما لم يعمله غيره من قبله، ولذلك فالجبال والطير بالنسبة لداوود وسائل مسخرة له وهي القوّة التي تُسهم في إنجاح أعماله التي تُرضي الله .

وعليه: فالتسخير لأجل تذليل الصعاب المعلومة بالنسبة لله تعالى والمجهولة لداوود، وكذلك الجبال والطير مع أنّها لا تعلم الصعاب التي سُخِّرت لتذليلها إلا أنّها خُلقِت مهيأة لتذليلها بما يحقّق النجاح لأعمال داوود المسخرة له من الله، لذا كانت الجبال والطير خير طائعة لتنفيذ الأمر وإنجاز العمل المهيأة له.

---

[166] . ص 17 . 19.

وعليه فالمسخَّرُ على احتمالات منها:

أ ـ قد يكون المسخَّرُ بإرادته كما هو حال العباد الذين يتطوعون لعون الآخرين في مرضاة الله تعالى كلما تهيئة لهم الظروف.

ب ـ قد يُسخَّر الإنسان مُكرها لعمل عملا هو لا يرتضيه وذلك بأسباب الخوف أو الجهل أو العقاب أو التهديد مع شدة الحاجة فيجد نفسه بين خيارات ليس له بدا إلا أن يضعف ويلين أمام مُكرِهه على عمل لا يليق بالإنسان عمله.

ج ـ قد تُسخر المخلوقات للإنسان تسخيرا يُسهم في إنجاز المعجزات التي يراد لها أن تتحقّق على أيدي المفضَّلين والمصطفين الأخيار من الأنبياء والرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم كما سخَّر تعالى الجبال والطير لداوود مسبحات طائعات.

د ـ الدواب من المسخرات لبني الإنسان لإنجاز الأعمال التي تصعب عليه لوحده أو حتى من معه من قلة من بني جنسه في ضوء الجهد المحدود والظروف التي تلم بالإنسان من وقت لآخر.

هـ ـ الوسائل والأدوات التي صنعها الإنسان ولا زال يُطوِّرها في كثير من الأحيان تُسخَّر لإنجاز الأعمال الخيِّرة الكبيرة والعظيمة التي في بعض الأحيان لا يمكن أن يقوم بها بني الإنسان أو أنهم لا يقدرون عليها في مجالات الصناعة والطب والهندسة والمعمار، وفي مقابل ذلك هناك من الوسائل المصنَّعة لأعمال التدمير والتقتيل بغير حقّ وهي تُستخدم لإنجاز الأعمال التي لا تُرضي الله تعالى، ولهذا لكل عمل من الأعمال حسابه ثوابا أو عقابا.

10 . شاكر:

الشّاكر هو المعترف بالفضل أو العون والمساعدة أو الهبة التي توهب من الله لأنبيائه وعباده الصالحين، ولذا فالشكر على لسان المؤمنين رضا بالاستجابة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

والشكر في مفهومه اقتراب في المعنى مع (الحمد) ونحن نقول: الشكر من حيث المفهوم، هو اعتراف بالعطاء أو الإجابة أو الاستجابة أو الهبة مع فائق التقدير للمُعطي وهو الشكور المطلق، أمَّا الحمد فمترتبا على بلوغ غاية أو انتهاء من عمل كانت نتائجه مُرضية مع تحقّق السّلامة المطمئنة للنفس والقلب ممّا يجعله متجها إلى ربّه تعالى بالحمد والثناء.

الشاكر المعترف بالفضل كما اعترف داوود بحمد الله وتفضيله له وفضله عليه بالعلم الذي خصَّه به والحكمة، ولذا فالشاكر هو الراجع لله في كل أمر.

ويندرج تحت الاسم الشكور الاسم الشاكر ويعني في ذات الوقت: الخالق والمخلوق؛ فالله له الشكر على وجه الكمال والعبد له الشكر على وجه المثال، فيحاول العبد بكل جوارحه أن يشكر فيكون شاكرا ثم يجتهد في الشكر فيكون شكورا، ويتجلى الله على العبد بالتوفيق فيعمل شاكرا وشكورا وينال بذلك الرضا من الله الشكور.

وأَمَّا الشَّكُورُ من عباد الله؛ فهو الذي يجتهد في شكر ربّه طاعة قال الله تعالى {اعْمَلُوا آلَ داودَ شُكْرا وقليلٌ من عِبادِيَ الشَّكُورُ}167. العمل الصالح هو خير دليل على تقديم الشكر للشكور المطلق، وخير الأعمال الطاعة والهداية والعبادة لله وحده لا شريك له، ويقصد من الآية الكريمة السابقة بقوله تعالى: (آلَ داودَ) هم الذين يعودون إلى صُلب

---

[167] . سبأ 13.

داوود، أي أنهم الذين ينتسبون إليه دما، ولأنهم من سلالة نبي كريم يُراد لهم أن يكونوا مسلمين وجوههم لله ربّ العالمين كما أسلم أبوهم داوود، ولأن في ذلك الزمن كان أكثر النّاس على ضلال وشرك بالله تعالى جاء قوله عزّ وجلّ (وقليلٌ من عِبادِيَ الشَّكُورُ) التي من احتمالات تحليل معانيها وما تدل عليه من عبر هو مع أن الآية نزلت في آل داوود لتحرضهم على الطاعة والهداية شكرا لله تعالى إلا أنّ القيل منهم سيكونون من الشاكرين.

فالشكور اسم وصفة لله متأصلة، وفي عباده متحصله، بمعنى أنّ التجلي الأعلى للشكورية لله، والاقتباس والالتماس والتقيد بالاستغراق في التعبد قولا وعملا يورث هذه الرتبة في العبادة، وقليل من يتحصل عليها لقوله تعالى: (وقليل من عبادي الشكور). وأولئك الذين اختصَّهم الله بالخلافة ومن أراد أن يصل إلى منزلتهم من المؤمنين فعليه بالسير على نهجهم وطريقتهم في القول والفعل والنية الصادقة.

الشكر قيمة وفضيلة مترتبة على فعل محبب في مرضاة الله تعالى، وهو مجازاة مقابل اعتراف بأفعال التطابق مع الحقّ، ولأن الله عزّ وجلّ يريد للحقّ أن يُحقّ، ويُريد للباطل أن يُزهق، ويُريد للكافر أن يؤمن بإرادة، فهو بطبيعة الحال شكور لمن أزهق الباطل ولمن آمن وأسلم وجهه إليه واحدا أحدا لا شريك له سبحانه.

والله هو: (الشاكر، الشكور) "الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل ويعفو عن كثير. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره"[168].

وهنا، يتضح أن الاسم الشكور يشمل الاسم الشاكر وكلاهما من نبع الشكر الإلهي الذي يفيض مغفرة وعطاء وثوابا وسترا على من يتصف

[168]. تفسير السعدي، ج 1، ص 948.

بهذه الرتبة الإيمانية من العباد، ولا تتأتى هذه الرتبة إلا بالصبر المطلق والصبر المطلق كما ورد في القرآن الكريم بصيغة (صبّار) والشكر المطلق الذي ورد في القرآن الكريم بصيغة (شَكُور) ولم يصل إلى الدرجة العلية في هذه المنزلة إلا القليل من عباد الله الذين وصفهم بقوله تعالى: (وقليل من عبادي الشكور) وهؤلاء يتمم الله عملهم بالقبول ويزيدهم من فضله بالمغفرة والستر والشكر.

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}[169]، جاء الحمد والثناء شكرا لله تعالى على ما فضلهما به من نعم وعلم أي بما خصَّهما به من آيات ومعجزات كريمة حقّقا بها نصرا عزيزا في وقت كانت القلة القليلة هي التي آمنت بما جاء به داوود وسليمان عليهما الصّلاة والسّلام.

والشكر على ثلاثة أوجه:

الوجه الأوّل: الشكر ممّن هو دونه تعالى يكون بطاعته وترك مخالفته، (وهذا من الخليفة إلى الله) فالمخلوق دائما دون الخالق لذا وجب عليه أن يشكره ومن ألوان هذا الشكر طاعته فيما أمر وترك ما نهى عنه وفي ذلك صبر أيما صبر وشكر أيما شكر ومن هنا تحصل الخيرية العظمى لكل من يقتدي بهذا السلوك وتتحقّق فيه الخلافة المرجوة.

الشكور المطلق يحب الشاكرين من خلقه بازدياد مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}[170]، أي أن شكرتم على النعم التي وهبتها لكم اعترافا بالقوّة والقدرة وطاعة بالعبادة والمودة وعدم الشرك سأزيدكم أكثر ممّا أعطيتكم

---

[169] . النمل 15.

[170] . إبراهيم 7.

ووهبتكم أما الذين كفروا وأشركوا وجحدوا فأولئك سيكون لهم العذاب الشديد يوم لا ينفعهم مالا ولا بنون.

الوجه الثاني من الشكر: الشكر ممن هو شكله يكون بالجزاء والمكافأة وهذا من إنسان إلى إنسان كأن يشكر إنسان إنسانا آخر أسدى إليه معروفا، ولذا؛ فشكر النّاس من شكر الله تعالى، وكل شاكرٍ لعطاء هو شاكر للمعطي الذي خلق كل ما يُعطى، وخير عطاء ما يكون لوجهه تعالى، وهو العطاء الذي به يجازى المؤمنون.

الوجه الثالث من الشكر: الشكر من الأعظم إلى الأدنى وهذا الشكر من الله العلي العظيم إلى الإنسان، ولذلك قال تعالى: (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)، وقوله تعالى: {وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}171، وقوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}172.

والذي يتحلّى بالشّكر ويكون مصبوغا بهذه الصّفة يزيده الله من فضله وهذه الزيادة بالمغفرة ودخول الجنّة لأنّه قد مارس عملا من أعمال الخلافة وهو التحلي بالطاعة والخيرية التي تورث الشكر الإلهي وقليل ممن هم على هذه المنزلة، أما من سار في طريق الغي والضلال ولم يتحلى بالطاعات والخيرية التي أرادها الله في الخليفة فجزاؤه من جنس عمله وهل يجازى بالنّار إلا الكفور الجاحد لنعمة الخلافة التي لم يؤد شكرها، وقد وضح الله في منهجه الذي أرساه طريقا للخلافة أنها لا تتحقّق إلا بالعمل الصالح وعبادة الله تعالى.

ولكن من الذي تنطبق عليه الشكورية أو مرتبة الشكر أو مرتبة شكر الشكر فقليل ما هم على هذه المنزلة وليس عليها إلا نبيا مُفضلا

---

171 . البقرة 158.

172 . النساء 147.

كداوود وغيره من الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، لذا فمن أراد أن يكون من أهل الشكر فعليه الاقتداء بالأنبياء والرّسُل والصديقين والصالحين الكرام.

والشكر على ثلاثة أوجه:

1 . شكر بالأقوال.

2 . شكر بالأعمال.

3 . شكر بالأحوال.

فشكر الأقوال: أن يتحدث بالنعم مع نفسه أسرارا ومع غيره إظهارا ومع ربّه افتقارا كما قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ ربّكَ فَحَدِّثْ).

وشكر الأعمال: أن يصرف نعمة الله في طاعته ولا يعصيه بها ويتدارك ما فاته من الطاعات وبادره من المعاصي كقوله تعالى: (اعْمَلُوا آلَ داودَ شُكْرا).

وشكر الأحوال: أن يتجلى المنعم بصفة الشكورية على سر العبد فلا يرى إلا المنعم في النعمة والشكور في الشكر ويرى المنعم في النعم والنعمة من المنعم والشكور في الشكر173.

11 . مُلان له الحديد:

إلانة الحديد في وقتنا الحاضر تتطلب صناعة معقّدة وآلات ضخمة ويد عاملة بمهارات عالية وقوّة لتوليد الطاقة أمرها ليس هينا، أمَّا في وقت داوود فكانت إلانة الحديد مُعجزة عظيمة بين يديه بأمرٍ من الله تعالى (كن).

[173] . تفسير حقّي، ج، 2 ص 29.

الإلانة إذابة الصلب، أي تحويل الصّلب إلى مذاب لينٍ يمكن تسخيره واستخدامه في صناعات متنوعة ومتعددة، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}174، يُفهم من الآيتين السابقتين الكريمتين أنَّ إلانة الحديد هي فضل من الله تعالى على داوود كما جاء فضله عليه من قبل في تأويب الجبال والطير المسخرات له بأمرٍ من الله تعالى، وقوله تعالى: (أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ) السابغات يقال هي الدروع وكان أول من صنعها داوود175. ولذا فقوله (أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ) أصنع الملابس الحربيّة التي تقيك أثناء القتال وكذلك تقي من يقاتل معك الأعداء الذين يبغون الإفساد في الأرض وسفك الدماء فيها بغير حقّ، فصنع بأمره ما صنع بدقة وإتقان وذلك لأنه يصنع على أعين الله (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) كما صنع نوح الفلك على أعينه تعالى فكانت صناعة السابغات معجزة كما كانت من قبلها صناعة سفينة نوح معجزة.

وقوله تعالى: (وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ) تعني ممّا تعني دقق بحسابات دقيقة جدا بحيث لا تترك مسافة يمكن أن تصاب منها أو يصاب من معك بضربّات سهام الكفرة والمشركين أعداء الحقّ الذين يقتلونكم بالباطل ولأن الله يُريد أن يتم نوره ولو كرها الكافرون فقدّر في السرد مصداقا لقوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}176.

174. سبأ 10، 11.

175. تفسير الطبري، ج 20، ص 359.

176. التوبة 32، 33.

وعود على بدء؛ فقوله تعالى: (وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ) إلى جانب ما ذكرناه فهي تحمل في معانيها مراعاة المصنوع ومراعاة من تُصنع من أجله لذا فهي تعني ممّا تعني أضع نصب عينيك حسابات كثيرة منها:

أ . تحديد أبعاد المسافات في طرازة وصناعة المصنوع بما يحفظك ويحفظ المؤمنون الذين يقاتلون معك في سبيل الحقّ وإحقّاقه.

ب . قدِّر السابغات من حيث الأحجام التي تناسب الأحجام المختلفة للمقاتلين معك في سبيل الله.

ج . قدِّر السابغات من حيث الوزن حتى لا تضع أثقالا على ظهور المقاتلين فتعيق حركتهم أثناء مقاتلهم الكفرة والمشركين.

ولأنّ عمل داوود للسابغات كان مقدرا لأجل حماية داوود والمقاتلين في سبيل الله تعالى لذلك كان عملا صالحا على أعين الله مصداقا لقوله تعالى: (وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).

وعليه فإلانة الحديد لداوود كانت متحقّقة بفعل الله وأمره لداوود، وليس بأفعال داوود، ولهذا جاء قوله تعالى دالا على فاعله (الله) وليس على المفعول له أو المفعول من أجله (داوود) ولذا قال تعالى: (وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) بمعنى كانت إلانة الحديد من عند الله عزّ وجلّ وليس من عند داوود الذي كان خير صانع وعاملا للسابغات من الحديد الذي ألانه الله تعالى له.

12 . عامل السّابغات:

عمل السابغات لا يتأتى إلا بتوفير المادة التي منها تُصنع السابغات، فكان اختيار المادة من الله تعالى تنزيل الحديد الذي جعل فيه بأس شديد ومنافع للناس، مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ

شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}177.

يُفهم من الآية الكريمة السابقة أن الحديد مُنزل إنزالا إي أنزله الله تعالى بالقوّة التي خُلق بها خلقا، وجاء في الآية الكريمة قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ) البأس الشديد هو الصلابة والقوّة التي عليها خُلق الحديد وأُنزل، ولذا فكل ما صُنع من الحديد ذا البأس الشديد يُعد قوّة لا يستهان بها، بها يتحقّق الفوز والنصر إذا كان المصنوع بيد المؤمنين المقاتلين والمجاهدين في سبيل الله تعالى، أمَّا إذا كان بأيدي المتثاقلين والمجبورين على القتال كرها فإن المصنوع من الحديد ذا البأس الشديد لا يحقّق النصر، ولذا لا يتحقّق النصر إلا بمقاتل يقبل الاستشهاد في سبيل الحقّ ومناصرة المظلومين والمستضعفين من الرجال والنّاس والولدان الذين اسلموا وجوههم لله ربّ العالمين.

وعليه: عامل السابغات على بصر الله تعالى هو داوود (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) الذي أحسن صنعها بعد تقديره لَمَ يجب أن يُقدَّر قبل البدء في الصنع، وهذا ما فعله داوود من تقدير في السرد وصناعة السابغات (وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ).

ولأن داوود أوّل من آلان الله له الحديد وأمره أن يصنع السابغات لحماية المقاتلين في سبيل الله تعالى، يُعد ذلك تميزا وتقديرا من الله تعالى لداوود الذي بعمله للسابغات أصبح متصفا بصناعتها دون غيره.

[177]. الحديد 25.

13. عامل الصّالحات:

العمل قد يكون المترتب عليه فعل إصلاح في الأرض وقد يكون المترتب عليه فعل إفساد في الأرض وقد يكون المترتب عليه سفك دماء فيها بغير حقّ.

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}178.

العمل الصالح من صفات الخليفة في الأرض ولأن داوود كان خليفة في الأرض فكان عاملا للخيرات ومُكثرا منها ولهذا اتصف داوود بعامل الصالحات، وعامل الصالحات هو المصلح في الأرض بالقول الطيب الذي يفك الأزمات ويطمئن القلوب بالإيمان الذي يدعو إليه بالتي هي أحسن، وهو العامل بكل ما في وسعه أن يعمله من أجل إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، وهو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعوا إلى الإيمان بالله تعالى واحدا أحدا لا شريك له وهو الذي يخافه ويتقيه، ولذا فكل ما عمله داوود كان في مرضاة الله عملا صالحا.

ولأنّ الصالحات هي التي تبقى لأصحابها يوم القيامة ضمان لدخول الجنّة، فمن أكثر من عمل الصالحات ضمن الجنّة، ومن لم يعمل في حياته صالحا يخسر الدارين ولن يكون من الوارثين من حيث:

أ . أنّه لم يترك أثرا طيبا لمن بعده في الحياة الدنيا.

ب . بأعماله غير الصالحات في الحياة الدنيا يضيع فرصة دخوله الجنّة في الدار الآخرة.

---

178. سبأ 10، 11.

قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}179. هنا الوعد بالاستخلاف جاء مقصورا على الذين امنوا وعملوا الصالحات، وهذا يدل على أن الذين آمنوا ولم يعملوا الصالحات غير معنيين بالأمر وفي هذا استثناء من الخلافة، حيث استثنى الله غير المؤمنين من الخلافة بقوله (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) وهذا يدل على أمور ثلاثة:

الأوّل: استثناء غير المؤمنين من الاستخلاف.

الثاني: تعميم الاستخلاف للمؤمنين منهم.

الثالث: تخصيص الذين أمنوا وعملوا الصالحات منهم، وهنا يتضح التميّز بين من آمن ولم يعمل عملا صالحا، وبين من آمن وعمل عملا صالحا.

ولهذا، سيُبدّل الله تعالى خوف المؤمنين من الأعداء أمنا، وبما أنّ هذا الأمر وعدا من الذي وعده الحقّ، وهو لا يخلف وعده. إذن فاليُرمى الخوف في غيابات الجب ولنعمل صالحا حتى نكون من المستخلفين في الأرض.

ومن الآية السابقة يتضح أمر الخليفة بأنه ليس الإنسان المطلق، بل الإنسان المؤمن الذي يعمل صالحا، وهذا لا ينفي الوجود والعيش على الأرض للكل دون استثناء بل يعني أن مستقبل الأرض سيكون بين أيدي آمنة، وليس بين أيدي عابثة، ولهذا لا إكراه في الدين، بل في الدين الحجّة التي تحمل في مضامينها الحقّيقة التي تتطلب مؤمنين بها حتى يتمكنوا من

179. النور، 55.

تسويقها بقواعد الوجوب الحقّ دون إكراه للآخرين. ولذا فإن أمر الخلافة يتعلق بصناعة المستقبل، وهذا المستقبل لن يتحقّق إلا بما يتركه الإنسان من أثر طيب في القول والفعل والسلوك.

قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}180. ولذلك، كان الاستخلاف لغاية، وكان لله الفضل على من يلتزم بأسباب استخلافه، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}181.

ولهذا، من شروط الاستخلاف العمل، ولكن أيّ عمل؟ إنه العمل الصالح بإرادة، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}182 ولذلك فإنّ العمل غير الصالح هو دليل عدم القبول بأمر الاستخلاف في الأرض. ولو لم يجعل الله تعالى أمر العمل بإرادة، لكان الجميع مستخلفين فيها بالقوّة، وفي مقابل ذلك لو يؤاخذ الله تعالى الخليفة بما يفعل السفهاء ما ترك على ظهرها من دابة {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا}183.

14 . أوّاب:

التأويب طاعة الله إخلاصا وعبادةً، وبأسباب الالتزام والمداومة على أدائها دون انقطاع متى ما وجبت هذه الطاعة تجعل صاحبها (الفاعل لأفعالها) موصوف بالأواب.

180 . البقرة 11.

181 . النور 55.

182 . فصلت 46.

183 . فاطر 45.

ومن حيث المفهوم الأواب هو الراكع الساجد لله دون غيره، تأوب العبد تعبَّدَ وأخلص الطاعة لربّه عزّ وجلّ.

ومن حيث اللغة لا نستطيع قفل أي باب من أبوابها ورؤاها المنطقية ولذا فللأواب معانٍ منها:

ـ العائد من الذّنب بعد استغفار وتوبة متحقّقة.

ـ الطائع لله تعالى ركوعا وسجودا دون غيره.

ـ المسبِّح باسمه تعالى عبادة خالصة.

ـ كثير الرجوع لله في كل أمرٍ مستوجب الرّجوع به.

ـ كثير الذكر والتعشُّق بالله تعالى.

وبناء على ما تقدم كان داوود أوابا مُخلص الطاعة لله ربّ العالمين لا شريك له في الأمر والملك مصداقا لقوله تعالى: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ}[184].

ورد التأويب في الآيات الكريمة السابقة مرتين وعلى وجهين حقّ لداوود من حيث:

أ ـ التأويب الأول تأويب لله تعالى، يُظهر كثرة تعلق داوود بربّه، (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) هذه الآية الكريمة إظهارا لطاعة داوود وتعشُّقه لله تعالى.

ب ـ التأويب الثاني تأويب على وجهين:

[184] ـ ص 17 ـ 19.

. تأويب لداوود، (وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ) أي طائعة لأمره متى ما شاء في مرضاة الله عزّ وجلّ.

. تأويب طاعة لأمر الله الذي سخَّر الجبال تسبح مع داوود، وسخَّر الطير تؤوب له (لداوود)، مصداقا لقوله تعالى: (وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ). أي أن الطير سُخِّرت لتكون تحت أمر داوود طائعة له طاعة لله تعالى الذي حشرها لتؤوب لداوود، ولذلك فالشبه بالشبيه يُذكر فمثلما سجدت الملائكة لآدم طاعة لأمر الله أوب الطير لداوود طاعة لأمر الله.

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}185. وفقا لاحتمالات التفسير يُفتح باب إسناد التأويب على أوجه منها:

. أنَّ الأواب هو داوود باعتباره هو الموصوف به.

. أنَّ الأواب هو سليمان الموهوب لداوود إيهابا أي لو لم يكن سليمان أوابا لله تعالى ما وهبه الله تعالى لداوود الذي يسبقه بالتأويب.

. ولأنّ داوود أواب وأن سليمان وارث لداوود إذا التأويب صفة مشتركة للوارث والمورِث عليهما الصّلاة والسّلام.

15 . صَنَّاع:

الصناعة فن يستوجب علما به يتمكن الصانع من معرفة هندسة الصناعة، والصَنَّاعُ هو المبدع بعلم فيما يصنع، حاله كحال داوود الذي علَّمه الله من علمه الواسع كيف يصنع صنعة لبوس، مصداقا لقوله تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ}186.

---

185 . ص 30.

186 . الأنبياء 79، 80.

اللبوس عند العربّ كان في زمانهم الذي صنعوا فيه لبوسهم الحربّي هو: "السلاح كله، درعا كان أو جوشنا أو سيفا أو رمحا، وفي ذلك قال الهُذليّ شعر منه:

وَمَعِي لَبُوسٌ لِلَّبِيسِ كأَنَّهُ... رَوقٌ بِجَبْهَةِ ذِي نِعاجٍ مُجْفِلِ"187.

وبالعودة للآية الكريمة السابقة فإن الله تعالى هو الذي علَّم داوود كيف يصنع صنعة لبوس لقومه الذين آمنوا معه لله ربّ العالمين لتقيهم ضربّات المقاتلين الأعداء، وعليه فمن يُعلِّمه الله صناعة يلمَّ بها ويُتقنها بحرفية وتفنُّن مع فائق إظهار المهارات المتنوعة والمتعددة، ولهذا؛ فما صنعه داوود كان بعلم من علم الله تعالى، قوّة من علم القوي المطلق به تحقّق لا محالة الفوز والنصر على المعتدين والأعداء.

لقد كان داوود متفننا في صناعة اللبوس بأنواعه القتالية حتى وُصِف بأنّه ذا الأيدِ مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ}188.

احتمالات كثيرة تُفسِّرَ قوله تعالى: (دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ) ونحن في تحليلنا الموضوعي نقول احتمالات منها:

أ ـ يدلّ مفهوم (ذَا الْأَيْدِ) على القوّة وفقا لاحتمالين نجيزهما معا:

ـ قوّة يدا داوود التي بها ضربّ جالوت حتى قتله.

ـ قوّة اللبوس المصنوع بيدي داوود.

ب ـ (دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ) الأيد الماهرة والمتفننة في صناعة اللبوس المتنوع والمتعدد وسيلة وعدة لخوض الحربّ والقتال في سبيل الله تعالى.

---

187 ـ تفسير الطبري، ج 18، ص 480.

188 ـ ص 17.

ج ـ جاء قوله تعالى: (دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ) ولم يقل (ذا اليدان) ليدل على البعد الذي يتحقّق من وراء ما يصنعه داوود من وسائل ومعدات قوّة حربّية وقتالية كثرةً وتنوعا وتميُّزا لم يكن له سابقة من قبل.

د ـ ذا القوّة الشديدة التي تطول كل من تسوِّل له نفسه أن يعتدي على مُلك داوود وسليمان من بعده.

16 ـ فصل الخطاب:

فصل الخطاب حُكم بيد من يعلم أو يعرف أو يخبر أو يُدرك أو يفهم ويتفهَّم الظروف والأحوال الموضوعية فلا يكون على أي انحياز سوى الانحياز للعدل الذي به تتزن كفتا الميزان الحقّ فلا يُظلم أحدا.

الفصل: على احتمالات منها:

ـ قرار يُتخذ ويتم الاحتكام به.

ـ تنقية الأشياء من الشيء الواحد، أو تنقية الأشياء من الأشياء.

ـ فك وسيلة الاتصال أو قطعها.

ـ تمييز بين الدقيق والأدق منه.

ـ تمييز بكلّ وضوح بين ظاهر وباطن.

وعليه الفصل يمكن أن يكون بالآتي:

ـ القول.

ـ الفعل.

ـ العمل.

ـ السلوك.

ـ الوسيلة أو الأداة المستخدمة.

والخطاب: على احتمالات منها:

ـ القول.

ـ الرّسالة.

ـ النص.

ـ المحتوى.

ـ المضمون.

ولأنّ داوود كان متميزا في فصل الخطاب فارتضاه المتخاصمين حكما بينهم ليفصل بينهم بالحقّ فيما هم فيه مختلفون أو ليفصل بينهم لِما هم فيه من لبس أو غموض أو سوء فهم أو خطاء، قال تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحقّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ}189، جاء الخطاب هنا محاجّة قولية وهو ما قاله الأخ لأخيه في الأبوة أو الأمومة أو الاثنين معا أو أخوه في الدين أو أخوه من بني الإنسان باستخدام لغة التأدب والاحترام والاعتراف بالآخر وتقديره.

قال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا

[189] ـ ص، 21 ـ 23.

مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}190عطاءات كثيرة وهبها الله لداوود منها:

. القوّة.

. المقدرة على الصَّنع.

. الجبال المسخرة معه بالتسبيح عشية وإشراقا، (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ).

. تأويب الطير المحشورة له، (وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ).

. معاضدة مُلكه (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ).

. إيتاءه الحكمة، (وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ).

. فصل الخطاب، وهو المقدرة على معرفة العلل والأسباب الكامنة والظاهرة في القضايا التي تُرفع أمام داوود ليفصل فيها بعد تبيُّن حقّا وعدلا.

ولذا، ففصل الخطاب أُتى لداوود وهو تفقُّه في العلم والحكمة والمعرفة والخبرة الواسعة التي بها لا يُظلم أحدا، وهذا الأمر جعل داوود متمكنا من العدل بين النّاس الذين يحتكمون إليه فيما هم فيه مختلفون، ولذلك قال بعض المفسرين إنَّ داوود أول من قال (أمَّا بعد) فصلا في القول التمييزي بين قولٍ سابقٍ وقولٍ لاحقّ، وهناك من قال أنّ كعب بن لؤي هو أوّل من قالها191.

[190] . ص 17 . 20.

[191] . لسان العرب، ج 3، ص 89.

17 . العدل:

العدل مبدأ باعتباره الأوّل بذاته، وغاية باعتباره الآخر بذاته، ومصدر: باعتباره الأوّل والآخر، ولذا فالعدل أسم فعل في ذاته واسم صفة حسنة في ذاته وهو من حيث اللغة مصدر يشتق منه اسم الفاعل "العادل" وغيره من المشتقات، والعادل المطلق هو الله، ومن يتبع هذه الصفة الحسنة يوصف بها ويستخلف بها في الأرض ليصلح ولا يفسد ولا يسفك الدماء بغير حقّ، ولهذا تكون الإضافة إلى العدل الذي هو فعل من أفعال العدل المطلق وصفة كاملة له، به يتصف بالكمال والجمال، ولهذا فخلفاءه في الأرض هم المضافون إلى العدل الذي هو من عنده عزّ وجلّ.

. العدل: اسم صفة حسنة من صفاته تعالى، وهو أصل العدل ومصدره الذي تستمد منه أفعال العدل فلو لم يكن العدل أصل لكل عدل ما كان العادلين من بعده مستخلفين فيها.

. العادل: هو الذي يحكم بالعدل بين النّاس فيما يُحكِّموه فيه، وهو الذي يستمد حكمه من أحكام العدل المطلق، الذي بيده الأمر والنهي، وهو الذي لا يوجد في قواميسه مظالم لمن خلق.

. المضاف إلى العدل هو الخليفة: ولأنّ العدل صفة حسنة فلا يتصف به إلّا عادل مُحسن، والعادل المحسن هو الخليفة الذي أخذ بصفات العدل التي تُرضي الله تعالى ويعمل بها فلا يظلم؛ ولهذا فهو المضاف المتصف بصفة العدل قولا وسلوكا وفعلا. قال تعالى: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ

قَدْرًا}192. فالخليفة هنا هو المضاف في قوله ذوي عدل منكم، والعدل بصيغة المصدر صفة من أسماء الله الحسنى، ولأنه جلّ وعلا القادر على تحقّيق العدل المطلق في كافة الأماكن والأزمنة في آن واحد فلا تحدُّه حدود ولا تقيده قيود فقدرته مطلقة وعدله يحيط بملكه وملكوته، لذا فقد احتفظ لذاته باسم العدل مصدرا لا اشتقاقا، ولأنه العدل فهو مصدر لا يظلم ولا يجور حيث لا تناقض فالعدل المطلق ليس عنده ظلم، وحتى يُبَسِّط لنا معنى العدل ألقى على مسامعنا في القرآن الكريم ألفاظا تدل على العدل وتهدي إليه منها:

. الصراط المستقيم.

. القسط.

. الميزان.

. مثقال ذرة.

وقد وضع الموازين القسط للحكم بين الخلق في الدنيا وبيّنها في المنهج الذي ارتضاه لمن أراد أن يحقّق الخلافة ولمن أراد أن يكون من الخلفاء لهذا الاسم.

إذن، العدل في ملكه هو الله عزّ وجلّ وهو العدل المطلق، والعادل بالإضافة هو المضاف لصفة العدل، ولذا فالخليفة في الأرض هو من اندمج عدلا في قوله وفعله وسلوكه وأحكامه كما اندمج داوود حاق للحقّ ودامغ للباطل وعادلا بين النّاس في حكمه في قومه.

وعليه فمن العدل:

---

192 . الطلاق، 2، 3.

أ . الحث عليه.

ب . العمل به في كل حين وفي كل زمان، فالعدل هو العدل واحد لا اثنان، إنه اسم صفة لواحد أحد لا شريك له بيده الملك والحكم وهو على كل شيء قدير، فالعدل صفة لا تقتصر على مجال من مجالات الحياة بل يمتد ليشمُل التعامل الحسن في كل المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية والثقافية والذوقية التي امتد التعامل بها في زمن داوود كما جاء في قوله تعالى: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحقّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآَبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}193.

الخطاب موجه إلى سيدنا محمّد لأجل أن يصبر على ما يقوله الكفرة والمشركين والضالين من أقاويل وصفوه فيها بالجنون، كما وصفوا غيره من الأنبياء من قبله، وداوود ليس ببعيد الذي صبر على ما قاله قومه فيه من أقاويل وافتراءات ظلما وبهتانا، داوود ذي الأيد التي صنعت خير

---

[193] . ص، 17 . 26.

ما صنعت من لبوس حربّ أوقت وحفظت المقاتلين في سبيل الله من ضربّات الكفرة والمشركين في زمانه وسلِم من ارتداها في سبيل الله مقاتلا ومجاهدا.

فقوله: (ذَا الْأَيْدِ) على احتمالات منها:

ـ ذا القوّة في البطش الشديد.

ـ ذا القوّة في العبادة طاعة لله تعالى.

ـ ذا القوّة في صناعة لبوس الحربّ.

ومع ما يمتلكه من قوّة وشدّة فهو يعلم أنّ قوّته من الله تعالى فيزداد قوّة في تعبده تعالى ولهذا وصف بأنّه (أَوَّابٌ) أي كثير الطاعة والتعبد مستغفر الله في كل شيء حتى ولو كان مجرد ظن مصداقا لقوله تعالى: (وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ ربّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ).

ولأنّ داوود من الأنبياء المقربّين والمفضلين عليهم الصّلاة والسّلام سخَّر الله معه الجبال والطير تناصره بالدعاء والتسبيح الذي فيه الاستجابة من ذكر الله وله أن يستخدمها كيفما يشاء وهي طائعة له في سبيل إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل ودمغه عدلا في الأرض، (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ).

ولأن مُلكه مؤسسا على العدل زاده الله قوّة مصداقا لقوله تعالى: (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ) أي جعلناه ملكا متماسكا على القوّة وإحقّاق الحقّ عدلا بين النّاس، وقوله: (وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ) آتى الله داوود الحكمة التي تؤدّي إلى حُسن الفهم وحُسن التَّفهم ومقدرة للمعرفة استنباطا واستقراء واستنتاجا، إنها الحكمة التي بها تمكن داوود من الاختيار وحُسن

التصرف في المواقف المختلفة والظروف مهما صعبت وفقا لدائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، أمَّا حُسن الخطاب فهو حُسن الفصل في القضايا والشكاوى التي تُعرض عليه ليفصل فيها ويحكم بالعدل حيث اتصافه به عادلا، وفصل الخطاب مؤسس على معطيات منها:

. الاستماع (للمشتكي) تأسيسا لفصل الخطاب.

. الاستماع (للمشتكى فيه) تأسيسا لفصل الخطاب.

. دعوة الشهود من كلا الطّرفين والاستماع لأقوالهم تأسيسا لفصل الخطاب.

. استشارة الآخرين بعد أن يستمعوا لكل طرف من أطراف القضية أو يطلعوا على حيثياتها المدونة.

. الاعتصام بالله تجنبا لأهواء النّفس التي تميل في كثير من الأمر.

. إنصاف المتخاصمين.

. إصدار الحكم (فصل الخطاب) بعد التبيُّن دون غفلة.

. أخذ الحقّ من الظالم وإعطاءه لمن أخذ منه.

وقوله تعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ) أي هل بلغك الخبر المنبأ به الذي تضمَّن قصة الخصم الذين تسوَّروا المحراب أي دخلوا دون استئذان ودون علم مسبق بهم، وبطبيعة الحال من يدخل مُتسوِّرٍ ولم يدخل من الباب أمره يخيف ولهذا توجب الحيطة والحذر كما فعل داوود حيطة وحذرٍ تخوفٍ ممّا سيحدث وقد لا يحمد عقاباه ولهذا، قال المتسوِّرون (تَسَوَّرُوا): جاءت على صيغة الجمع ولم تأت على صيغة المثنى ولهذا اعتمدنا في تحليلنا هذه الصيغة كما نزلت في القرآن الكريم

الذي لا يأتيه الباطل أبدا، وحتى لا يتصرف داوود تصرفا بأسباب الحيطة وأخذ الحذر (قَالُوا لَا تَخَفْ) وهنا يأتي تأكيد الجمع بقوله: (قَالُوا) ولكن ماذا قالوا؟

قالوا: (قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ) لسان حال الجمع قال: (لَا تَخَفْ) أي وكأن حال لسانهم يقول نحن غير معتدين ولا مفسدين ولا نريد أن نعتدي عليك بل نحن لثقتنا في عدلك جئنا لنحتكم إليك فأحكم بيننا بالعدل. قالوا: (خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ) يُفهم من هذه الآية الكريمة الخصمان تعني: طرفان، ولا تعني اثنان، مصداقا لقوله (بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ) فلو كان اثنان لقال بغى أحدنا على الآخر ولم يقل بعضنا على بعض، ولذلك فالبعض من البعض دائما جمعي وليس بمفرد، ولذا فالخصمان يجوز أن يكونا بنو قبيلة وبنو قبيلة أخرى، أو أسرة وأسرة أخرى أو جماعة وجماعة أخرى أو قوم وقوم، ولذا لا يمكن أن يكون تبعيض البعض من البعض إلا جمعا.

ولأنّهم متخاصمون قالوا (بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحقّ) أي: اعتدى بعضنا على البعض، ولأن الاعتداء ليس بحقّ قالوا: (فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحقّ)، يُفهم من هذه الآية الكريمة ميزة عظيمة ألا وهي: قبول الخصمين (الطرفين) الحكم بالحقّ، وهذا يدل على أن المتخاصمين من العباد المهتدين ولهذا فهم اهتدوا إلى داوود لثقتهم أنه يحكم بالعدل من جهة ولكرههم للظلم وحبهم لإظهار الحقّ من جهة أخرى.

وقوله تعالى: (وَلَا تُشْطِطْ) تأخذ احتمالات منها:

أ ـ لا ترفض طلبنا إليك واختيارنا لك حكما حتى وإن انزعجت من طريقة دخولنا عليك بأسباب الاختلاف التي يجوز هي التي أظهرتهم عن التأني والدخول من الباب كما هو المعتاد، واستعجلت بهم لتسوُّر

المحراب سرعة واستعجالا كي لا يسبق أحدهما الآخر فيكون هو الطرف الوحيد المشتكي، ولذا فتسوُّرَ المحراب الذي يدل على العجلة جعلهما يدخلان على داوود في وقت واحد ممّا جعلهما (الطرفان المتخاصمان) يشتكيان معا في ذات الوقت الواحد.

ب ـ قبلناك حكما عادلا فلا تميل لأحد على حساب الآخر.

ج ـ لا نبغي منك ظلما لأحد منَّا.

هـ ـ نريد منك إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل.

و ـ نريدك تهدينا الطريق المستقيم البيّن الذي لا يلاحقّه بعد حكمك بيننا شكا ولا ظنا، (وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ) إلى العدل ولا تخالف بنا سواء الصراط.

وصلب القضية التي بشأنها تسوَّروا الخصمان المحراب استعجالا هو قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) كلمة أخي لا تقتصر على الأخ من الأب والأم بل عند العربّ تعني ممّا تعني:

ـ أخي في الدم: من قرابة وعمومة يعود كلا من المتخاصمين إليها وفقا لما يؤل الآل إليه.

ـ أخي في النسب: من قرابة الأهل مصاهرة المكونة للعلاقات الاجتماعية والإنسانية.

ـ أخي في الدين: الذين يدينون بما هداهم داوود إليه وهو الإسلام.

ـ وقد تتجاوز كلمة أخي إلى كل من يستوجب الاعتراف به وتقديره تقديرا عاليا.

.كلمة أخي تدل على من لا يكون عدوا.

وبناء على ما تقدم فإن كلمة أخي كما جاء ورودها في الآية الكريمة السابقة دالة على أنه لم يكن عدوي لي (أخي) أينما صُنِّفت أو اندرجت تحت النقاط السابقة الذكر.

وقوله تعالى: (لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ) مجموع النعاج مائة نعجة يملك البعض تسع وتسعون نعجة ويملك واحدا منهم نعجة واحدة، ونحن نقول نعاج ونعجة ولا نقول غير ذلك حيث لا يحقّ لنا التأويل فيما جاء نصا صريحا في القرآن الكريم، ولا نرى أن تحُمَّل المعاني اللغوية ما لم تُحمَّل. وقوله تعالى: (فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) أي لا تخف على نعجتك أتركها مع نعاجي ترعى وكن مطمئن عليها في الحفظ والرعاية.

وقوله تعالى: (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ) السؤال مطلب يستوجب إجابة، والسؤال لا يتضمن الأخذ بغير حقّ، ولكن يدل على الأخذ بالحقّ، كأن تقول لمن يمتلك نعجة واحدة أتتركها مع غنمي اشتريها منك أي أتبيعها بعد أن عاشرت نعاجي الكثيرة وأنت لا تمتلك غيرها ألا يكون من الأفضل أن تتركها لي ترعي على حسابي اشتريها؟ يجوز هذا السؤال أن يترتب عليه انزعاج من صاحب النعجة باعتباره لا يقبل ذلك وهو بين أمرين:

ـ أمر الفضل الذي به قبل صاحب النعاج أن تُترك النعجة ترعى دون مقابل مع نعاجه حُرة لمالكها.

ـ أمر السؤال الذي يلغي عودتها إلى صاحبها الأول إن قَبِل، ونحن نقول: إن قَبِلَ لأن المتخاصمين وفقا لما تقدم لا يطالبون إلا بالحقّ، وفي

اعتقادنا تطوير هذا الأمر على مستوى القضية لأجل إظهار الحقّ وإن صغر، ولأجل عدم التسرع بإصدار الحكم قبل التبيُّن.

ومع أنّ داوود كان محقّا في حكمه وفقا لِما سمعه من (صاحب النعجة) إلا أنّ اكتمال القضية لا يكون إلا بالاستماع للطرف المشتكى فيه، ولهذا جاء استغفار داوود مسرعا كما جاء حكمه السابق مسرعا، ونظر لِحُسن النية وصفائها عند داوود وصدقه في إحقّاق الحقّ وحكمه بالعدل غفر الله له وقربّه منه مقامات عظام وجعله خليفة في الأرض ليحكم بين النّاس بالعدل، (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآَبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحق وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}194.

وعليةّ أقول العدل واحد لا يتعدد وإن تعددت مجالاته القيمية في الحياة التي منها:

مجال العدل الاجتماعي:

هذا المجال العدلي هو الذي جعل لداوود مكانة بين بني قومه الذين آمنوا به رسولا ونبيا كريما يقول الحقّ ويعمل على إحقّاقه ويتجنب الظلم ويتقي شره يخاف الله ويطيعه ويستغفره حتى ولو كان ظانا في أمر من الأمور التي يقدِمَ عليها مصداقا لقوله تعالى: {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآَبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحق وَلَا

194. ص، 17 . 26.

تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}195.

ولذا؛ فإنّ مجال العدل الاجتماعي مجال بنائي يكوّن الشخصية الاجتماعية المتفاعلة والمتعاونة كلما تم تشربّ هذه القيم بإرادة ومعرفة واعية، وإذا لم يتم ذلك بإرادة فإن السلوك المناقض للبناء قد يكون هو سلوك الصدارة، ولذا فإنّ التفاعل الموجب يحقّ الحقّ والعدل ويقوي عاطفة الانتماء الاجتماعي بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، ويجعل الضمير (نحن) هو السائد بينهم بدلا للضمير (أنا) الذي في كثير من الأحيان يؤدّي إلى الصدام والفرقة والاختلاف الذي يستوجب الآتي:

. عدل.

. عادل.

. شرعة ومنهاجا.

وعليه: فالنظر في القضايا الاجتماعية التي تستوجب عدلا وعادلا وشِرعة ومنهاجا تتطلب الآتي:

. علائق قيمية طبيعية تستوجب العدل: كالعلاقة الأسرية والعلاقة العائلية والعلاقة القبلية وعلاقة الأمة التي تكوّن الذات العامة المشتركة للأفراد والجماعات، وتغرس في نفوسهم عاطفة الحب وروح الانتماء.

. علائق قيمية ضرورية تستوجب العدل: كالعلائق بين رفاق العمل، ورفاق الحرف والمهن، ورفاق التعليم والتعلم، وهذه العلائق قد تكون بين بني الأمة أو مع الآخرين، فعندما تكون بين أبناء الأمة أو

---

[195] . ص 24 . 26.

الوطن تحتويها عاطفة الأصل والانتماء، وعندما تكون مع الآخر تحتويها علاقة المهنة وعاطفتها المؤقتة.

. علائق قيمية اختيارية تستوجب العدل: كالعلاقة مع رفاق الانشطة الرياضية والفنية والمسرحية والموسيقية والثقافية، أو رفاق الحفلات والرحلات السياحية. أيضا عندما تكون هذه العلائق الاختيارية بين أفراد الأمة وجماعاتها فإن عاطفة الأصل والانتماء هي التي تسودها، وعندما تكون مع الآخر تحتويها علاقة الانشطة المتنوعة وعاطفتها المؤقتة.

مجال العدل الإنتاجي:

الإنتاج سواء أكان إنتاجا ماديا (إنتاج السوق) الذي تترتب عليه قيم البيع والشراء، وارتفاع مستوى الدخل أو انخفاضه، أم أكان إنتاجا معرفيا (إنتاج المعلومة والفكرة) التي تثري ما سبق، وتدعم ما في الآن، وتسعى لصناعة المستقبل.

ولذا؛ فإنّ التقنية (مولود الفكرة) تتطور وتتنوع وتتجدد مع كل جديد، ففي زمن داوود كانت التقنية قيمة عالية في تفادي ضربّات المقاتلين وحافظة للذين يقاتلون في سبيل الله كما فعل داوود بالعلم الذي علَّمه له الله تعالى وهو العلم الذي لم يؤت منه الإنسان إلا قليلا، وإلا هل يظن البعض أن ما وصل إليه العقل الإنساني هو أعلى مرتبة علمية من الذي آتاه الله تعالى من آيات لداوود ؟، قال تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ}196.

196. الأنبياء 80.

في خماسي تحليل القيم الذي قدمناه إضافة جديدة للقراء والذي سجلت براءته الفكرية باسمنا197، يعتبر هذا المجال العلائقي مجالا لتحقّيق المنفعة القابلة للقياس بالإنتاج الذي يتطلب إدارة ملاحقّة (تلاحقّ المنتجين لتمدهم بالخدمة التي تمكنهم من زيادة الإنتاج)، وإدارة تتفهم ظروفهم ومتطلباتهم كما تتفهم احتياجات المستهلكين، ولذا فالحكم في هذا المجال القيمي يتطلب مستشارين متخصصين في المهن والحرف والقياس الكمي الذي به يُحسن إصدار الأحكام العادلة.

إنّ مبدأ المنفعة جعل الإنسان في حالة منافسة مع الآلة بدلا من منافسته للآخر من بني جنسه، ولذا أصبحت الآلة تحل محل الإنسان غير القادر على المنافسة في العملية الإنتاجية، فإذا كان الجهد المبذول يقل قيميا عن العائد منه لابد وأن تكون الخسارة هي المبعدة عن ميادين المنافسة الحرة.

ولذا؛ فإنّ تحليل مجال العلائق القيمية الإنتاجية يمكّن العادلين في أحكامهم من التعرف على حالات المنتجين بحقّ من حيث الجهد، الإنتاج، والإشباع والمنفعة، وفقا للآتي:

. جهد يؤدّي إلى الإنتاج يؤدّي للإشباع ويحقّق منفعة.

. جهد يؤدّي إلى الإنتاج ولا يؤدّي للإشباع لا يحقّق منفعة.

. جهد يؤدّي إلى الإنتاج، يؤدّي إلى الزائد عن الإشباع، يحقّق الفائض عن المنفعة.

. جهد لا يؤدّي إلى الإنتاج لا يؤدّي للإشباع ولا يحقّق منفعة.

[197] . عقيل حسين عقيل، خماسي تحليل القيم، دار الكتاب الجديد، بيروت، 135، ص 2003.

. لا جهد يؤدّي إلى الإنتاج لا إشباع ولا منفعة.

وعليه فمن العدل أن يكون الإنتاج العام ملكا عاما، وتوزيعه حقّ عام وفقا للحاجة والجهد المبذول، ووفقا لحقّوق القصر على من لهم حقّ عليهم، مع مراعاة الحقّوق العامة والخاصة والواجبات والمسؤوليات على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي.

مجال العدل السياسي:

مكانة داوود التي استمدها ممّا آتاه الله من حُكم ومُلك وحكمة وعلم جعلته بين النّاس الذين آمنوا به رسولا ونبيا كريما محقّا للحقّ وزاهق للباطل، وجعلته ملجأ لهم في كلّ أمر يحتكمون إليه ونفوسهم مطمئنة، ولذلك في المجال العدل السياسي تكمن عناصر القوّة الداعمة للإرادة والقامعة لها في وقتٍ واحدٍ، وهذا ما يجعل السلوك البشري في حالة تماثل مع الفعل أو في حالة تناقض معه، ممّا يؤدّي إلى التفاعل والمشاركة والوحدة، أو يؤدّي إلى الرفض والتمرد والصدام، أو أن يؤدّي إلى الخنوع والإذعان والنفاق السياسي، ولذا ففي كل الحالات الأمر يستوجب عدلا وعادلا وشِرعة ومنهاجا لأجل إحقّاق الحقّ بين النّاس ولا يُظلم أحدا.

ولذلك، تتباين اختيارات النّاس من مجتمع لآخر ومن موضوع لآخر، فما يراه البعض مناسبا أو مفضَّلا في اختياراتهم قد لا يراه البعض الآخر كذلك أو أنهم يرون ما هو أفضل، ولذا فمن العدل ألا يجبر الأفراد على ما لا يرغبون، وإن أجبروا فلا مفر من الصدام والخصام الذي يفرِّق بين المرء وزوجه.

ونظرا لوجود الفروق الفردية في القدرات والاستعدادات والمهارات فإنه بالضرورة أن يكون لكل فرد من الرغبات التي من العدل أن تُحترم

ويقدَّر أصحابها، ولا يفرض عليهم مالا يرغبون أو ما لا يفضِّلون، ومن العدل أن تراعى قدرات الأفراد وميولهم وحاجاتهم المتنوّعة والمتطوّرة.

ولأنّ هذا المجال على صلة بالقرار وأساليب اختياره، وبالتنفيذ وطرق اعتماده فإنه بلا شك ذو صلة بالإرادة التي تتميز من خلالها كل شخصية وكل جماعة ومجتمع ممّا يستوجب التعرُّف على القيم الأخلاقية التي يمكن الاستئناس إليها ومراعاتها قبل استصدار الأحكام لكي يكون العدل قيمة بين النّاس في كل ما يختلفون فيه مع مراعاة الآتي:

. روابط اجتماعية طبيعية، تؤدّي إلى مجتمع الذاتية، تحقّق الشخصية العاطفية.

. روابط منفعية تؤدّي إلى مجتمع الأنا تحقّق الشخصية الفردية (الشخصانية).

. روابط فكرية، تؤدّي إلى مجتمع الفكرة، تحقّق الشخصية الموضوعية (العقلية).

. روابط سياسية تؤدّي إلى مجتمع الاختراق تحقّق الشخصية الانسحابية.

. روابط إنسانية تؤدّي إلى المجتمع الإنساني تحقّق الشخصية الاقترانية (المنطقية).

مجال العدل النفسي:

رضا المتخاصمين بالعدل وعدم رغبتهم في ظلم بعضهم للآخر إحقّاقا للحقّ هو الذي دفعهم إلى داوود ليحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون فهو بعدله لا يحكم في شيء إلا بعد مراعاته لمجموع القيم النفسية التي تؤثر في علائق أخرى وتتأثر بها، ولذا فمن أراد أن يحكم بالعدل بين

النّاس فعليه ألا يغفل عن معرفة اتجاهات الأفراد والجماعات والمجتمعات وميولهم ومعتقداتهم والقيم التي يتمسكون بها أو التي يحيدون عنها ممّا يجعلهم يتخذون مواقف وأدوارا متباينة تختلف من وقت لآخر.

وللحكم بالعدل في هذا المجال ينبغي أن يستعين العادل بمن يعرفون علم الخفايا استقراء واستنباطا وفهما وتفهُّما حتى معرفة المتفائلين من اليائسين ومعرفة المتفاعلين من المنطويين.

إنّ معرفة علم الخفايا يُمكِّن الحاكم العادل من معرفة العلل والأسباب الكامنة وراء الأفعال المرتكبة، ولذا فهو علم معرفة الباطن (الجوهر)، الذي يتطلب تحليل شخصية المبحوث تحليلا نفسيا غير مباشر، فالسلوك الظاهر قد لا يُعبِّر عن حقّيقة الكامن، ولذا يلتجئ المحتكم إليه أو الباحث إلى الاستعانة بذوي الخبرة في هذا المجال النفسي قبل أن يَقدِم على استصدار الحكم، لأجل معرفة الحقّيقة هي كما هي ممّا يجعل المتخصصين يلجئون إلى استخدام الأساليب الإسقاطية في دراسة بعض المواضيع المتعلقة بالشخصية دون تسرع في إصدار الحكم.

إنّ النفس البشرية تقوى وتضعف بالكلمة أو بالفعل أو بالسلوك، وتتأرجح بين الخيال الممكن والخيال غير الممكن تارة وبين المتوقّع وغير المتوقّع تارة أخرى، عندما تضعف تضطربّ، وعندما تقوى تطمئن؛ مثل هذه الشخصية معايير اختياراتها القيمية في بعض الأحيان تتمركز على الأفعال الأنانية، وفي بعض الأحيان الأخرى تتمركز على الذاتية أو الموضوعية، وفي حين آخر تتشتت الذات بين الميول إلى الأنانية أو الميول إلى الموضوعية، وهذا يعني أن مجال العلائق القيمية النفسية قد تندمج فيه مكوّنات الشخصية ممّا يجعل عناصر الذاتية جزاء لا يتجزأ من عناصر الأنانية أو عناصر الموضوعية.

إنّ القيم التي يحتويها مجال العلائق النفسية تنصهر في بوتقة الاعتراف والتقدير التي يتمركز عليها التفكير الإنساني، حيث الكل يسعون إلى نيل الاعتراف والتقدير وعلى جميع المستويات، مستوى الحاكم ومستوى المشارك ومستوى المحكوم، ومستوى الحرّ ومستوى العبد، فالعبد كغيره من البشر يبحث عن قيمة الاعتراف والتقدير، فيجدَّ في عمله وطاعته لسيده لأجل أن يعترف له سيده بأنه مخلصا ممّا يزيده إخلاصا في الطاعة لينال التقدير على ما يقدمه من طاعة وإخلاص، والابن الذي يطيع والديه في غير معصية الله عزّ وجلّ يريد أن ينال منهما الاعتراف والتقدير لكي يستمر في هذه الطاعة، وهكذا الحاكم العدل يسعي إلى أن ينال الاعتراف والتقدير ممّن اختاروه حكما بينهم.

وعليه العادل في حكمه بين النّاس هو من لا يغفل عن معرفة السلوك البشري بما يحقّق لهم وله الرضا والتقدير والعرفان وفقا لما يأتي:

. سلوك يعترف بالحاجة ويقدّرها، يحقّق الرضاء ويؤدّي إلى إثبات الذات.

. سلوك لا يعترف بالحاجة ولا يقدّرها، يحقّق الاضطراب ويؤدّي إلى الانسحابية.

. سلوك يعترف بالزائد عن الحاجة ويقدره، يحقّق الرضا ويوصف بالعقلية.

. سلوك لا يتدخل فيما لا يعنيه، يحقّق الرضا ويوصف بالمنطقية.

. سلوك لا يُفعل إلا لمصلحة، يحقّق الرضا ويوصف بالشخصانية.

وعليه فالعدل: هو المحقّق للاتزان النفسي والوجداني والبدني وذلك بمراعاة ما يجب والأخذ به ومراعاة ما لا يجب والابتعاد عنه، وذلك لأنّ

كل شيء يزيد عن حده ينقلب إلى ضده، وفي المجال النفسي تطمئن النفس برجوعها لله تعالى العادل المطلق مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}198، ورضا النفس لا يتحقّق إلّا بالعدل، ولذلك فمن يظلم العباد يشقى في الدارين، ومن يعدل بما يحقّق له الاتزان النفسي والبدني يتحقّق له الرضا بعمله الصالح في الأرض ويفوز بالجنّة، ولذا فإن العادل المطلق يخاطب النفس المطمئنة مباشرة بقوله (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) ثم يأمرها بالرجوع إلى بارئها فتطيعه عدلا، وقوله تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}199. تسوية النفس اعتدالها، وسوّاها عدلها، وبعدله لها اطمأنت، وبالاطمئنان ألهمها الله فجورها وتقواها، حتى أنّها تبيَّنت أمرها ورشدت بمعرفة ما يجب فتزكت وعرفت ما لا يجب فانتهت عنه، وبهذا فهي النفس العادلة التي تحيد عن الشيء وتبتعد عنه اتباعا لأمر العادل المطلق وهداية بما جاء به عزّ وجلّ، لأجل أن تأخذ بما أمر كما أخذ داوود.

مجال العدل الذّوقي:

العدل اسم صفة لله تعالى فيه صفات الجمال تتعدد مودة ومحبة وذوقا وكل الفضائل الرائعة التي يرتضيها الله مصدر قيم بين العباد، ففي عدله الحقّ وفي عدله المحبة والمودة والتقدير والاعتراف واللّطافة والعزة والكرامة والرّحمة وكل شيء جميل يتبادر إلى الذهن، وكل هذه الصفات الحسان تجسدت في أقوال وأفعال وأعمال داوود أي بعد أن استمد داوود صفاته من صفات خالقه كان على الجمال واللّطافة التي حببته إلى العباد في زمانه حتى اتخذوه مثال وحكما عادلا بينهم. قال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا

---

198. الفجر، 27 . 29.

199. الشمس، 7 . 10.

دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}200، آيات عظيمة مملوءة بالجمال الرفيع في الخطاب والعطاء الكريم الذي أعطي لداوود .

قيم الجمال تتعدد من شخص لآخر ولذا فهي لا تقتصر على النظر إلى المشاهد فقط بل تتعداه إلى الإحساس بقيمة الجمال المجرد (الذي يكمن في الجميل)، ولهذا الذوق رفعة في الحس تؤدي إلى سمو عقلي ومعرفي يُمكّ◌ّ◌ِن الإنسان من الاطلاع على الكامن والإحساس به مثل كمون النغمة في المعزوفة وكمون الصور البلاغية في المقطوعة الشعرية وكمون السيناريو في النص وكمون القصة في اللوحة الفنية وكمون النشوة في السعادة وكمون الإعجاز في آيات الخالق.

وعليه: فإنّ مجال العلائق القيمية الذوقية قيمه تتمّم بعضها البعض في تفطين العقل الإنساني من الغياب إلى الحضور ومن المشاهد إلى المجرد (من النظر إلى المخلوق إلى النظر إلى الكيفية التي خلق بها وخلق عليها) مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}201. وردت تساؤلات أربّع في هذه الآيات الكريمة، فيها من الاستغراب ما يلفت إلى الانتباه وهي:

. لِما هؤلاء لا ينظرون إلى الكيفية التي بها خُلقت الإبل؟

. لِمَا لا ينظرون إلى الكيفية التي بها رفعت السماء؟،

. لِما لا ينظرون إلى الكيفية التي بها نصبت الجبال؟

[200] . ص 17 . 20.

[201] . الغاشية، 17 . 21.

. لِمَا لا ينظرون إلى الكيفية التي بها بُسطت الأرض؟

أي؛ لم هؤلاء يُقصِرون نظرهم على المشاهد فقط الذي تراه أبصارهم، ولا يمدّون تفكيرهم وعقولهم إلى معرفة الكيفية التي بها تمت هذه المعجزات؟ ممّا جعل الخلفاء يمدون تفكيرهم من المشاهد إلى المجرد حتى آمنوا واتقوا وأدركوا أن ورائها خالق عظيم قادر على الفعل كيف يشاء متى ما شاء سبحانه لا إله إلا هو الذي جعل داوود خليفة في الأرض ليحكم بين النّاس بالحقّ ذوقا ورفعة، قال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}202.

ولذا؛ فإنّ للذوق أثر على السلوك والفعل حيث يجعل الإنسان في حالة بهجة وإيمان وتفاؤل وعطاء أو في حالة راحة وتعجب واستبصار أو في حالة تقربّ وخضوع وترويح، والذوق كمحقّق للرفعة الحسية والروحية يتطلب التذكُّر والتفكُّر والتأمُّل، وعليه لكي تحكم بالعدل عليك بعدم الإغفال عن مراعاة كل ما من شأنه أن يحقّق رفعة ذوقية تُرضي الخالق والمخلوق تعالى.

مجال العدل الثقافي:

الثقافة وعي بما يجري في الظرف الآن ومعرفة تُمكِّن من استقراء المستقبل في ضوء ما جرى عبر التاريخ من قصص في الحياة البشرية والإنسانية والأخلاقية ذات الفضائل والقيم العالية، ولذا؛ فباستقراء التاريخ لا يمكن لعاقل أو متعلم أو مثقف أن يغفل عن تجربّة داوود في ممّارسته العدل الذي به تمكّن من إحقّاق الحقّ مصداقا لقوله تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا

[202]. ص 26.

تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحقّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ ربّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}203.

ولأنّ لكل مجتمع ثقافة وخصوصية فمن العدل أن لا يتم إطغاء ثقافة على أخرى إلا بالحقّ، ولذا فإنّ قيم هذا المجال العلائقي هي دائما في حالة حركة وامتداد قيمي حيث أنها تتأثر بالمزيد المعرفي الذي يثريها ويجعلها قادرة على أن تثري السلوك المصاحب لها في كل ظرف، ولهذا فأنّ تفاعل الإنسان مع القيم الثقافية تجعله في حالة تميّز كلما تمكّن معرفةً وسلوكا، ومع أنّ الإلمام بالقيم الثقافية يفتح آفاق واسعة أمام امتداد التفكير الإنساني إلا أنّه قد يشكل عائقا أمام سرعة الامتداد غير الواعية التي كانت قبل المزيد المعرفي، وذلك لأنّ المزيد المعرفي يؤدّي إلى الإحجام عن السلوكيات غير الموضوعية (التي كانت تُفعل على حساب الآخرين)، فبالثقافة العادلة تفك القيود وبها توضع قيودا (تُفك من قيد الجهل المعرفي وتوضع به)، والإلمام بمجال قيم العدل الثقافية يؤدّي إلى حُسن الفعل ورفعة السلوك واستيعاب الآخر بإرادة كما هو لا كما ينبغي أن يكون علية.

مجال العدل الثقافي مجال امتدادي تمتد فيه القدرات والملكات العقلية الإنسانية من حالة السّكون إلى حالة الحركة الواعية التي تُمكِّن الإنسان من التمييز والتفضيل وتُمكِّنه من الممّارسة السلوكية عندما تتطابق المفاهيم مع الأفعال المرغوبة التي تؤدّي إلى ظهور الأنموذج وتبرز الاتجاهات

203. ص 21 . 25.

المعرفية والأفكار الخاصة والعامة (المنغلقة والمنفتحة)، فتبرز الشخصية على المستوى الاجتماعي أو على المستوى الإنساني.

بناء على ما تقدم فإنّ العدل المطلق هو لله تعالى، أمّا العادل النسبي فهو الخليفة، والسبب أن العدل المطلق لا يتحقّق على يد بشر، فهو صفة إلهية لا تقارن بقول عادل ولا فعل عادل ولا سلوك عادل، فالعادل هو الفاعل بما يرى ويسمع، ولأنه كذلك فهو لا يمكن أن يرى أو يستمع بالمطلق، ولهذا كانت النسبية متلازمة في جميع أحكامه وأفعاله وأقواله وسلوكياته، والملك لله وحده والعدل لله وحده، والصفات الحسان بالمطلق لله وحده وبالنسبية للعادل المستخلف في الأرض. ولأنه عادل جعل الذكر والأنثى {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}204. وقوله تعالى: {وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى}205. ولأنه عادل جعل الحقّ في مواجهة الباطل حتى يدمغه فيزهق، ولأنه عادل خلق الليل والنهار والأشجار والثمار والجنّة والنّار، والرّحمة والاستغفار، ولأنه عادل جعلنا مستخلفين في الأرض وخصَّ داوود بها كما أخصه بالملك والعدل والحكمة والعلم فسبحانه يعلم الغيب بعدله ويعلم السر في باطنه وظاهره وهو على كل شيء قدير وهو الذي يعلم بالمطلق ما لا نعلم ويحكم به عدلا ونحن لا نعلم إلا ما هو ممكن ونحكم به إيمانا أنّه العدل.

18 . مستغفر:

المستغفر: هو العائد إلى الله من الذنوب والخطايا، ومن يكثر ذلك بعد كل خطأ يكتشفه يوصف بأنه مستغفر أي كثير الاستغفار، ووصف داوود بذلك لكثرة عودته من كل خطأ ولو كان ظانا في وقوعه فهو بمجرد أن يظن أنه قد أخطأ يستغفر الله ويتوب إليه في أسرع حال.

---

204 . الذاريات، 49.

205 . النجم 45.

الاستغفار: طلب المغفرة من الله على ما يتهيأ للمؤمن من أفكار أو لِما قام به من عمل لا يليق بمن آمن بالله تعالى، أو لِما ارتكبه من ذنب ثمّ استدرك نفسه بالالتجاء والعودة إلى الله بدلا من الاستمرار أو البقاء على ما يُحيّده عن إيمانه به تعالى.

قال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ}206 في هذه الآية الكريمة جاء الاستغفار سابقا على التوبة وهكذا دائما التوبة تلاحقّ الاستغفار وهو يرتبط بها. وقال: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ ربّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}207. ترشد هذه الآية الكريمة إلى أن صالحا قد أرسل إلى ثمود، ليحرضهم على عبادة الله واحد أحد، أما قوله (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) تأكيد على أن أصل خلق الإنسان من تراب، والأرض هي الأصل وهي مصدر الرزق والعيش، ولهذا؛ فالاستخلاف فيها لأجل إعمارها بالبناء والعيش من خيراتها الوافرة التي تتطلب من الخليفة ألا يغض بصره عن مكامن الخيرات فيها ويعمل ليتطوّر ويشبع حاجاته طوال عمره حتى النهاية. والاستغفار هو ذكر الله دائما بالوحدانية والقدرة المطلقة وتذكُّر عن غفلة والعودة إليه من الذنوب والخطايا ومن الانقياد للشهوة على حساب التمسُّك بالحقّ.

والتوبة هي: تصديق بالحقّ وتمسُّك باتباعه دون شك، ولهذا جاء الاستغفار مقدما للتوبة، أي أنّ الاستغفار إدانا بإعلان التوبة.

---

206. هود، 3.

207. هود، 61.

قال تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ ربِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}208 كما سبق أن بينا في الآيات السابقة، جاء الاستغفار أوّلا ثمّ التوبة ثانية والاستغفار والتوبة يُقدِّمان طاعة للرحيم الودود لتكون الإجابة المغفرة.

المغفرة: لا تتم إلا في مقابل توبة مصداقا لقوله تعالى: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ}209.

والمغفرة لا تتم إلّا بعد كشف الفعل أو السلوك المحرَّم أو المجرَّم إنسانيا واجتماعيا ثم إعلان التنازل إرضاءً إراديا عما يترتب عليه من عقاب أو قبول ثمن يعوِّض ما تركه الجرم أو الذنب من أثر سالب على نفسية أو سُمعة أو كرامة الفرد أو الجماعة أو المجتمع، ولذا فالمغفرة لا تكون إلا من الغفّارِ العظيم.

أمَّا الغفَّار بالإضافة فهو الذي يتجاوز عن الذنب بعد كشفه وإظهاره وتحديده وتحديد المترتب عليه، وتقديم الطّاعة والاعتراف به وبالحقّ الذي من أجله ولذا جُعِل العقاب قيمة مرضية لمن ظُلِمَ وجزاءا مناسبا لمن ظَلَمَ، ولهذا فالغفّار بالإضافة هو من يمتلك الأمر في دائرة النسبية، (أمر العقاب وأمر المغفرة والثواب).

ولهذا فالمغفرة صفة مترتبة على الفعل الإعفائي كما يترتب الفعل الإعفائي على التوبة مصداقا لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}210 أي أنّ الله يقبل توبة

---

208. هود، 90.

209. نوح، 10.

210. الشورى، 25.

من يعود إليه بعد ارتكاب الذنوب، فأبواب رحمته الواسعة مفتوحة ولا تُقفل أبدا في وجه من يرتضي توبة عن معصية أو ذنب أُرتكب، فالتوبة عودة إلى الله تعالى، يترتّب عليها إعفاء منه (من الله عزّ وجلّ) لمن اعترف بذنبه وحاد عنه بالالتجاء إليه تعالى.

قال تعالى: {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}211، لمجرد أن داوود ظنَّ في نفسه أنه قد أخطاء استغفر ربّه في ما ظن أنه قد فعله أو قاله أو ارتكبه، وهذا الاستغفار يدل على مخافة داوود ممّا سيترتب على الخطأ ولذلك كان مسرعا في استغفاره ربّه تعالى ليغفر له ويتوب عليه، وفوق ذلك (بعد أن استغفر ربّه) خرَّ راكعا اتصالا بالله وتقربّا إليه، ومن الآية الكريمة السابقة نستنتج سرعة يقظة داوود وكأن زمن الوقوع في الخطأ وزمن الظن في الخطاء هو زمن الاستغفار أي وكأنّه لا زمن يفصل بين الوقوع في الخطأ وزمن الظن فيه وزمن الاستغفار وكذلك زمن نيل المغفرة من الله تعالى (وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ) وفوق كل ذلك لداوود المزيد من المحبة الإلهية مصداقا لقوله تعالى: (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ) أي كانت لداوود المكانة الرفيعة والمحبة العظيمة عند الله عزّ وجلّ.

إذا تترتب المغفرة على الاستغفار ويترتب العفو على المغفرة وتتربّ التوبة على العفو، وفوق كل ذلك إنَّ الله هو الغفور الرّحيم.

وعليه:

العفو قيمة أخلاقية تُظهر الفضل بين النّاس لتجعل بينهم مودة ورحمة. قال تعالى: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ

---

211. ص 24، 25.

شَيْءٍ قَدِيرٌ}212. فالعفو يعني: عدم مؤاخذة من ارتكب ذنبا أخطاء حيث أن أمر الله آتٍ لا محالة، والصفح يعني: إزالة ما تُرك في النفس من سيئات وأثر فمع أنَّ الله غفور رحيم إلا أنه شديد العقاب، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}213 هناك استغراب ضمني في بداية هذه الآية فكأنها تقول بأي رحمة أنت يا محمّد قد لنت لهم!. (ولهم) تعود على الذين يعود عليهم لين محمّد، حيث مع أنهم ولوا إلا أن الرّسول الكريم لم يغلظ عليهم، إي لم يشتد ويقسو عليهم، ولذا كان معهم لينا، ولو كان غليظ القلب بالقسوة والشدة لتركوه وابتعدوا عنه ولم يعودوا إليه ثانية، في هذه الآية الكريمة ظهر تسامح محمّد، وطيب نفسه، وبُعد نظره، وحِنكته وخبرته في أمور النفس بإعفائه عنهم واستغفاره لهم.

وقوله: (فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) جاءت بصيغ أوامر ثلاثة:

أ ـ أمر العفو عنهم فيما يختص بالرّسول الكريم.

ب ـ أمر الاستغفار لهم فيما لله عليهم من تَبِعَة.

ج ـ أمر مشاورتهم في الأمر.

وكلمة الأمر جاءت مطلقة، ولذا فهي تعني: أي أمر يتعلق بهم ينبغي ألا يفرض عليهم شيء فيه، فالسلم أمر، والحربّ أمر، والسياسة الداخلية أمر، والسياسة الخارجية أمر، وكل ما يتعلق بمصائرهم وحياتهم فهو أمر يخصهم فلا يجب فرض شيء عليهم وهم له كارهون.

---

212. البقرة، 109.

213. آل عمران، 159.

والعفو في دائرة الممكن قد يكون بعد العقوبة وقد يكون قبلها، أما الغفران فتبرئة بدون عقوبة.

وبما أن الله هو العفو الرّحيم وجميع رُسُله عليهم الصّلاة والسّلام يحبون العفو إذن من حظ الخليفة أن يكون عفوا مع الذين تربّطه علاقة بهم ومع الذين يسعون للهداية. فالعفو قيمة أخلاقية كلما سادت بين النّاس ساد التسامح بينهم في غير معصية الله تعالى، ولذا فمن عفا وأصلح فأجره على الله. وليعلم المؤمن أن النّاس خطاؤون وأنهم لم يُخلقوا ملائكة مبرّؤون، وليعلم أن العفو مقوٍ للعلاقات بين النّاس وموحّد للمؤمنين على الكلمة السواء، فمن أراد خيرا فعليه بالعفو.

ولذلك، قال تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}214.

الاستغفار يفيد من أسلم وجهه لله، ولا يفيد من لم يسلم وجهه لله، ولهذا فقد أفاد داوود مصداقا لقوله تعالى: {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}215.

ولأنّ الاستغفار لا يفيد إلا من أسلم وجهه لله تعالى لذا لا يحقّ أن تستغفر لكافر مشرك وذلك لعدم تحقّق الاستفادة، فالاستغفار يفيد من يؤمن بالمستغفر به. وبما أن القاعدة تنص على أنَّ (الاستغفار لا يُفيد

---

214. التوبة، 80.

215. ص 24 . 26.

من لا يؤمن بالمستغفر به). إذن لا سبعين مرة تفيد ولا المليون مرة تفيد، فالذي يفيد هو الإيمان به واحدا أحدا لا شريك له بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

أمّا الذين أسلموا وجههم لله ثم أخطأوا، ثم استغفروا لأنفسهم أو استغفر لهم الرّسول لوجدوا الله هو الغفَّار الرّحيم، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسول لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}216. وقال تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ربّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}217. وقال تعالى: {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا ربّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}218. وقال تعالى: {ربّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا}219 بهذه الآيات الكريمة يتم التأكيد على الاستغفار من المؤمن بالله تعالى للمؤمن ولا يفيد من لم يكن من المؤمنين أي لا يفيد من يشرك به حتى ولو استغفرت له سبعين مرة. ولذا؛ فالمهم في الاستغفار أن يكون من مؤمن لأجل توبة وعمل صالح وهداية لله تعالى لمن كفّر عن سيئاته من المؤمنين.

وإذا تساءل البعض:

ما هي مبررات المغفرة؟

نقول مبررات منها:

---

[216] . النساء، 64.

[217] . يوسف، 97، 98.

[218] . غافر، 7.

[219] . نوح، 28.

. اتساع دائرة المؤمنين بالله تعالى.

. حتى لا يتمادى العصاة في عصيانهم.

. لعلمه تعالى بقصور خلقه عن الكمال الذي يقيهم ارتكاب الخطايا والمعاصي والذنوب.

. لعلمه بأنهم خلقه الذين يراد لهم أن يكونوا في أحسن تقويم.

. لأنّه يعلم أن البعض من عباده يرتكب الخطايا تحت طائلة الضرورة، وفي هذا الأمر يرى البعض أنّه لا إثم في ذلك، ونحن نتفق معهم بأسباب المغفرة السابقة على ارتكاب الفعل.

. لأنّه يعلم البعض من عباده يرتكبون الخطيئة تحت طائلة الإجبار، وهذه أيضا لها المغفرة السابقة.

. لأنّ قانون المشيئة الإلهية مؤسس على قاعدة الغفران، والاستثناء منها هو العذاب، قال تعالى: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}[220]، وقوله تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النّاس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}[221].

وحظ الخليفة من الاسم الغفَّار: أن يتدارك أمره بالتكفير عن سيئاته، وأن يستغفر ربّه على كل كبيرة وصغيرة ظلم فيها نفسه أو ظلم بها الآخرين، وأن يتوب إلى خالقه بترك ما لم يرتضيه تعالى من قول وعمل، وأن يعمل صالحا يرضاه، وأن يهتدي إلى سبيل ربّه ولا يشرك بعبادته أحدا؛ أن يعفو عن الذين أخطئوا في حقّه والذين تأسفوا له على ما بداء منهم، وأن يتقي الله في زوجه وأبنائه ومن صاحبه وصادقه على المحبة في الله

---

[220] . ق 30.

[221] . يوسف 103.

تعالى، وليعلم أن الإنسان خَطَّاء إلا من رحِمَ ربّي فليعفُ وليصفح ليجد الله غفَّارا رحيما.

المغفرة صفة من صفات الله الحسان فمن اتخذها سلوكا وعملا في حياته استمد صفة من صفاته تعالى، وفاز بالمغفرة في حياته ومماته ويوم بعثه كما فاز بها داوود.

أسباب المغفرة:

أ ـ الإيمان بالغفّار واليقين بمغفرته لمن يستغفره.

ب ـ للضعف الذي يلم بالإنسان أمام شهواته وقصوره وعدم معرفته المعرفة المطلقة.

ج ـ ارتكاب الأخطاء من قول وعمل وفعل وسلوك.

د ـ يعتبر الاستغفار مفتاح خير للدخول مع أبواب السترة، وهو إعلان رجعة من ارتكاب خطايا أو أقوال يجانبها الصواب، وبهذا يعد الاستغفار عودة إلى الصواب، أي عودة عن انحراف وتخلي عنه، بعد مقارنة بالموجب المفضل مع توفر النية المكفِّرة عن الخطأ أو الذنب.

هـ ـ تخفيف الذنوب أو التخلص منها.

و ـ العودة إلى الله بتوبة من بعد استغفار لا عودة من بعده لذنب من الذنوب.

الاستغفار نعمة أنعم بها الله على عباده وهو نتاج اعتراف إذا ما قيل بنية صافية كانت له الاستجابة من الغفار المطلق كما كانت لداوود لمجرد أنه ظن كانت له الاستجابة (وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ).

ومن المفضل في الاستغفار التيقُّن بأن الله عزّ وجلّ هو صاحب القول الفصل، وأنْ يبدأ الخليفة بالثَّناء على ربّه الغفار الودود، ثم يثني بالاعتراف بذنبه جهارا نهارا حيث لا تخفى عنه خافية في الليل ولا في النهار سواء أكانت منطوقة أم منوي بها ومكتومة في الصدور، ثم يسأل الله المغفرة فهو السميع البصير والمجيب الدعاء مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}222.

وعليه قد يتساءل البعض:

. هل يستطيع المؤمن أن يعيش دون أمل أو رجاء في المغفرة؟

من المؤكد أن المؤمن بحاجة للغفران المتكرر والدائم، وهذا هو الأمل الذي يمنع اليأس والقنوط من الولوج إلى قلب المؤمنين، فالإنسان بصفة عامة كثير الزلات والأخطاء لا يخرج من خطأ إلا ووقع في آخر مع تفاوت في ارتكاب الزلات والخطايا.

ولابد لخليفة الله أن يدقق في معنى الغفَّار الذي بمشيئته يغفر ليعطي للمؤمن حبا وأملا في الاستغفار والتوبة، وألا يتهاون مع نفسه بِحُجَّة أنّ الله تعالى هو الغفَّار الذي سيغفر له كل مرة يعود فيها عن ذنبه، بل إنّ الله تعالى شديد العقاب لمن يتعمد فعل الذنب والإصرار عليه مع علمه به، لذلك فالخليفة هو الذي يفوز بأثرٍ في نفسه من أسمه الغفَّار، فلا يغفل عن عقاب الله ولا ينسى أن الخالق عالم بما في نفسه وعالم بما يستحقّه كل إنسان من ثواب ومن عقاب.

وعليه: لا أقول إلا ما قاله رسول الله "إنَّ الشيطان قال وعزتك يا ربّ لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرّب:

---

222. البقرة، 186.

وعزّتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني"223. فاستغفر الله العظيم من كل ذنب أو خطيئة والحمد لله ربّ العالمين.

19 . مُقربّ وله حُسن المآب:

المقربّ من الله تعالى: هو مُخلص الطاعة والتعبد له واحدا أحدا لا شريك له.

حُسن المآب: حسن المنقلب.

ولأنّ داوود كان عظيم الطاعة وحُسن المنقلب لله ربّ العالمين فقد اتصف بحسن المآب المقربّ لله تعالى.

قال تعالى: {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ ربّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآَبٍ}224.

قوله تعالى: (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى) بمعنى أنه مُقربّ عند الله أي له مكانة وخصوصية ولذلك فهو من المفضلين مصداقا لقوله تعالى: {وَربّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}225، ولذا فقوله (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى) تدل على أن لداوود مكانة رفيعة ومقربّة عند الله تعالى.

وقوله تعالى: (وَحُسْنَ مَآَبٍ) حُسن المنقلب والمصير والمستقبل الرفيع يوم القيامة ليكون من الفائزين في الجنّة.

وعليه أتساءل:

ألا يكون للتقربّ من الله معطيات؟

---

223 . مسند أحمد، ج 17، ص 337.

224 ص 24، 25.

225 الإسراء 55.

بطبيعة الحال له معطيات كثيرة منها:

. التصديق.

. الإيمان.

. الإسلام.

. الطّاعة.

. الالتزام بما أمر وبما نهى.

. الاستغفار المِمكِّن من نيل المغفرة.

. الحظ العظيم.

ولذا فحُسن المآب يدل على حُسن العمل والإخلاص فيه طاعة لله تعالى، ولاتصاف داوود بذلك كان على حُسنٍ في قوله وعمله وأفعاله وفي عدله وحكمه وحكمته وعلمه وصَنعِهِ.

20 . خليفة:

الخليفة هو من استمد صفاته من صفات خالقه تعالى فعمل بها في الأرض إصلاحا وإفلاحا وأعمارا، ولا يكون من المفسدين فيها ولا سافكي الدّماء بغير حقّ.

ورد لفظ (خليفة) في النص القرآني في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[226] كان هذا ضمن سياق الآيات العظيمة التي كانت تمثل البداية الأولى للبشرية، فقد وردت ضمن سياق قصة رسمت البداية الأولى

[226] - البقرة 30.

في كل تفاصيلها، ومن بين هذه التفاصيل كانت الخلافة، وسياق الخطاب القرآني في هذه القصة اتسم بالتشريف لآدم .

ويلاحظ أنّ لفظة الخليفة في النص القرآني وردت بصيغة التنكير التي تحمل دلالة الإطلاق المنفتح غير متحقّق على اسم شخص بعينه، ولهذا كانت البداية لورود اسم الخليفة بداية لتشكل نمط معرفي للصورة التي يكون عليها النسق المراد تحقّيقه في الاستخلاف في الأرض.

ولم يكن أمر الخلافة مرتبطا بـ(آدم) فقد وردت في سياقات أخرى في النص القرآني، من ذلك قوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}227 وقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}228.

وفي هذا السياق نجد أن الخليفة لم يترك دون شروط بل وضعت له شروط تحدد مهامه إذ يشترط في الخليفة جملة شروط منها:

أ . أن يكون أمينا كما كان آدم ونوح وداوود عليهم الصّلاة والسّلام وكما هو حال يوسف أيضا مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}229 هذه الآية ترسم صورة الذي

227 – ص 26.

228 – النور 55.

229 – يوسف 55.

يتولى أمر النّاس، فيحفظ ما يُستحفظ لديه، ويعلم بوجوه التصرف فيه، فمن خلال ذلك يكون الخليفة ماضيا في أحكام الله تعالى، وإقامة الحقّ وبسط العدل.

ب ـ أن يكون الخليفة مؤمنا بالأمر الذي أؤتمن عليه.

ج ـ أن يكون الخليفة حكيما في التصرف في الأمور العظيمة.

د ـ أن يكون الخليفة حريصا على أموال النّاس، فلا يبذر ولا يسرف ويعطي كل ذي حقّ حقّه.

هـ ـ أن يكون تقيا يخاف الله تعالى في القول والفعل، إذ يقول تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}.

و ـ أن يكون محقّا للحقّ ومزهقا للباطل.

ر ـ أن يكون قادرا على أداء الواجب وممكّنا من أدائه.

ز ـ أن يكون قادرا على ممّارسة الحقّوق وممكّنا من ممّارستها.

ط ـ أن يكون قادرا على حمْل المسؤولية وتحمُّلها ما يترتب عليها من أعباء جسام.

ولذا يُعدُّ الأنبياء والرّسُل عليهم الصّلاة والسّلام من المستخلفين بأمر الله عزّ وجلّ، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[230] وقوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ

---

230 - البقرة 30.

شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}231 بناء على ما جاء في هذه الآية الكريمة لا حكم إلا بين النّاس، ولذا علينا أن نفرق بين (حكم النّاس) وبين (الحكم بين النّاس):

الأولى: أن يتم حكم النّاس كما يشاء الحاكم.

والثانية: أن يتم الحكم بينهم كما هم يرتضون، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}232، ذلك لأنّ العدل مُرضٍ لكلّ النّاس، وهذه الآية الكريمة تؤكد على أن الحكم بين النّاس ولا تأتي بما يشير إلى حكمهم، ولذا فالذين يحكمون بين النّاس بالعدل هم الخلفاء بارتضاء النّاس الذين قال فيهم تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}233.

وعليه فالخليفة العدل هو الذي بحكمه العدل يصلح الأرض ولا يفسد فيها ولا يسفك دما بغير حقّ، ولهذا جاء قوله (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس) ولم يقل (إذا حكمتم النّاس)، فالحمد لله على استخلافه لنا في الأرض وأمره بالعدل بيننا.

ولذا كان استخلاف داوود في الأرض ليحكم بين النّاس بالحقّ (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى).

وقد يتساءل البعض:

---

[231] – ص 26.

[232] . النساء 58.

[233] البقرة 30.

ما هي القاعدة التي أسّس عليها حكم داوود واستخلافه في الأرض؟

أقول: العدل، وإلّا هل هناك من يظن في غير ذلك والله تعالى يقول: (فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ) وإلا هل هناك من يظن في أنّ الحكم بين النّاس بالحقّ لا عدل فيه؟

أقول: لا عدل إلا بالحقّ، أي لولا الحقّ ما كان للعدل وجود.

وقد يتساءل آخر:

هل يمكن أن يكون الحكم بين النّاس بغير عدل؟

أقول:

في دائرة الممكن قد يتم الحكم بين النّاس باتباع الهوى الذي نهى عنه الله تعالى في قوله (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى).

وقد يقول قائلا:

بما أنّ الحكم بين النّاس في دائرة الممكن قد يميل بالهوى كما يميل الحاكم عن النّاس، وإذا ما حدث ذلك فلا يكون الفرق بين (حكم النّاس) وبين (الحكم بينهم).

أقول: الفرق كبير بين من يحكم النّاس وبين من يحكم بينهم، فالذي يحكم النّاس يكون الأمر كل الأمر بيده، والذي يحكم بين النّاس يكون الأمر كل الأمر بيد النّاس مصداقا لقوله تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}234.

234 . الشورى 38.

وعليه: لا أمر يجمع النّاس إلا وأن يكون بينهم مصداقا لقوله تعالى: في آيات متعددات في سبع سور من القرآن الكريم هي:

1 . قال تعالى: {كَانَ النّاس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالحقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاس فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ}235.

2 . قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النّاس}236.

3 . {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النّاس وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}237.

4 . {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}238.

5 . {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاس بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ}239.

6 . {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النّاس وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}240.

---

[235] . البقرة 213.

[236] . البقرة 224.

[237] . آل عمران 140.

[238] . النساء 58.

[239] . النساء 105.

[240] . النساء 114.

7 . {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}241.

وبناء على ما ورد في الآيات الكريمة السابقة فإن الحكم بين المستخلفين فيها لا يكون إلا بين النّاس فيما يجمعهم من أمر على قاعدتين:

1 . إحقّاق الحقّ.

2 . إقامة العدل.

ولذلك أرسل الله تعالى أنبياءه إلى النّاس يبشرون من أطاعه تعالى بالخير وحُسن الثواب، وينذرون بالعقاب والعذاب من خالف أوامره وكذَّب رسله وعصى، وذلك لكي لا يبقى لمعتذر عذر، إذ يقول تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرّسُل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}242 هذه هي المهمة التي حملها الأنبياء المستخلفين عليهم الصّلاة والسّلام، فهم متساوون في هذه المهمة، إلا أنهم ينقسمون على قسمين: فمنهم عبد رسول ومنهم نبي ملك، وقد خير الله سبحانه محمّدا بين أن يكون عبدا رسولا وبين أن يكون نبيا ملكا فاختار أن يكون عبدا رسولا، فالنبي الملك مثل داود وسليمان عليهما الصّلاة والسّلام قال الله تعالى في قصة سليمان الذي قال: {قَالَ ربّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآَخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى

---

[241] . ص، 26.

[242] – النساء 165.

وَحُسْنَ مَآَبٍ}243 وسياق الآيات هنا يبين العطاء الذي يتمتع به سليمان، فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه، ويترك ما حرَّم الله عليه، ويتصرف في الولاية والمال بما يحبه ويختار من غير إثم عليه، وأما العبد الرّسول فلا يعطي أحدا إلا بأمر ربّه ولا يعطي من يشاء ويحرم من يشاء بل يعطي من أَمرهُ ربّه بإعطائه ويولي من أمره ربّه بتوليته فأعماله كلها عبادات لله تعالى.

إنّ صورة النبي الملك المتحقّقة في سليمان ويوسف عليهما الصّلاة والسّلام تتعلق بأمر الخلافة الذي نحن بصدده، ذلك أن الأنبياء الملوك لم يستخلفوا أحدا بعدهم، فهذه المقاربّة لا تتقاطع مع أمر الخلافة الذي نعتقده بأنّه ليس بالمنصب المتحقّق من استخلاف، وإنما يكون الاختيار والاصطفاء للأنبياء، والاختيار والشورى لمن أطلق عليهم خلفاء بعد رسول الله محمّد.

فالنبي سليمان ويوسف عليهما الصّلاة والسّلام لم يستخلفا أحدا بعدهما، وهما في منصب الملك المتوقّع منه أن يستخلف أحدا بعده.

أما قوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}244 لم يرد ذكر الخليفة في غير موضع آدم إلا في هذا الموضع، فالخطاب هنا كان مع النبي داود، وقبل استبطان الخطاب ومعرفة تشكيلاته المختلفة لا بد بداية من تحديد المقصود من لفظة (خليفة) في الآية الكريمة، فالخليفة هو الذي يخلف غيره في عمل، أي: يقوم مقامه فيه، فإن كان مع وجود المخلوف عنه قيل: هو خليفة فُلان، وإن كان بعدما مضى المخلوف قيل: هو

243 - ص 35 – 40.

244 - ص 26.

خليفة مِن فلان. والمراد هنا: المعنى الأول بقرينة قوله: (فاحكم بين النّاس بالحقّ) فالمعنى: أنّه خليفة الله في إنفاذ شرائعه للأمة المجعول لها خليفة ممّا يوحي به إليه وممّا سبق من الشريعة التي أوحي إليه العمل بها.

هذه الآراء المختلفة المتعلقة بتوجيه معنى الخليفة تحيل إلى أمر واحد هو أنّ الله تعالى هو الذي يستخلف الأنبياء بأنبياء غيرهم في الصورة التي ذكرها تعالى في قوله: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}245 وان ذهبت بعض التفاسير إلى تجاوز الاستخلاف إلى غير الأنبياء.

وعليه: أنّ الخلافة لم تتحقّق من نبي إلى نبي، أي لم يستخلف أي نبي من بعده نبي آخر، فلم يرد في النص القرآني أي إشارة إلى هذا الأمر إنما جعل الله تعالى أمر الاستخلاف بيده مطلقا، أما ذكر لفظة الخليفة مع داود، فإننا نعتقد أن السياق القرآني الذي ورد فيه لفظ (خليفة) يحيل إلى أنّ أمر الخلافة ليس بالأمر الهين فبه تتعلق أعظم الأمور ألا وهو الحكم بالعدل الذي لا بد أن يتحقّق من الخليفة، فان لم يتحقّق منه العدل لا تتحقّق معه رسالة السماء التي يؤمر بها، فيحدث التناقض الذي يزيد الظلم ويضعف الحقّ، ويفضي إلى وقوع الهرج والمرج في الخلق، ويتحقّق الهلاك والفساد في كل المجالات، وبذلك يخرج من دائرة الخلافة التي يُراد منها الإصلاح لا الإفساد.

ولهذا؛ فالخلافة توالي عبر الزمان والمكان مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ}246 وقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ}247. هنا

245 – المؤمنون 44.

246 . الأعراف، 69.

247 . الأعراف، 74.

جاءت الخلافة عامة للمؤمن وغير المؤمن، أما في الآية {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}248. هنا الوعد مقصور على الذين امنوا وفي هذه الآية يوجّه الكلام للرسول، والذين امنوا، ليجعلنهم خلفاء متصرفين في شؤون الحياة البشرية بما أمر الله تعالى، أي أن الرسالة سيبلغ مداها إلى أن تعمّ المعمورة، لتكون عليها الخلافة الإلهية، وأعني ما يريده الله أن يكون على الأرض، فسيكون على أيدي المؤمنين به الطائعين لأمره، وفي هذا استثناء من الخلافة، حيث استثنى الله غير المؤمنين من الخلافة بقوله (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) وهذا يدل على أمور ثلاثة:

أ ـ استثناء غير المؤمنين من الاستخلاف.

ب ـ تعميم الاستخلاف للمؤمنين منهم.

ج ـ تخصيص الذين أمنوا وعملوا الصالحات منهم، وهنا يتضح التميّز بين من آمن ولم يعمل عملا صالحا، وبين من آمن وعمل عملا صالحا.

ولهذا سيُبدّل الله تعالى خوف المؤمنين من الأعداءِ أمنا، وبما أن هذا الأمر وعدُ من الذي وعده الحقّ، وهو لا يخلف وعده. إذن فاليُرمى الخوف في غيابات الجب ولنعمل صالحا حتى نكون من المستخلفين في الأرض.

ومن الآية السابقة يتضح أمر الخليفة بأنه ليس الإنسان المطلق، بل الإنسان المؤمن الذي يعمل صالحا. وهذا لا ينفي الوجود والعيش على

[248] ـ النور، 55.

الأرض للكل دون استثناء بل يعني أن مستقبل الأرض سيكون بين أيدي آمنة، وليس بين أيدي عابثة، ولهذا لا إكراه في الدين، بل في الدين الحجّة التي تحمْل في مضامينها الحقّيقة التي تتطلب مؤمنين بها حتى يتمكنوا من تسويقها بقواعد ما يجب، دون إكراه للآخرين. ولذا فإن أمر الخلافة يتعلق بصناعة المستقبل. وهذا المستقبل لن يتحقّق إلا بما يتركه الإنسان من أثر طيب بالقول والفعل والعمل والسلوك.

وقد يتساءل البعض:

لِماذا جعل الله على الأرض خليفة؟

نقول:

ليُريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم الحقّ من الباطل، ويكون الخليفة الذي يُطمأن له ويُصلح الأرض ولا يفسد فيها ولا يسفك الدماء، ويعلم أن الحقّ من عند الله تعالى فيزداد تعبدا له دون غيره. {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحقّ}[249] ولهذا يُريهم الله من فضله ونعمه عليهم بداية من أنفسهم وما خُلقوا عليه وما يحيطهم عن القربّ والبعد حتى السماء، ولهذا من حقّ الخليفة أن يبحث وينهل من العلم في الأرض وفي الآفاق حتى يزداد يقينا بنعمه وفضله الواسع.

يقول تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}[250]. إذن جعل الله الخلائف على الأرض لينظر كيف يعملون، هل سيعملون خيرا أم سيعملون شرا بعد أن بيَّنَ لهم وفصَّل كل شيء تفصيلا. فهل سيكونون على واحديته وطاعته، أم أنهم سيكونون

[249]. فصلت 53.

[250]. يونس 14.

على معصية وكفر. ولأن الخلائف تتوالى عبر الزمن حيث سابقون ولاحقّون.

يقول الله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}251. الزَّبُورِ هو الكتاب الذي أنزل على داود، والذكر هو التوراة، (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) الصالحون هم الخلفاء دون غيرهم، فغيرهم هم الذين يعيشون عليها مادة، ولا يعيشون عليها قيمة وفضيلة فالخليفة هو الذي استمد الخلافة من الله تعالى، وهو الذي يستمد جميع صفاته وخاصياته من القوّة التي تحتويها أسماء خالقه تعالى.

ومع أنّ الرّحمن عزّ وجلّ خلق الإنسان من صفاته الكاملة، إلا أنّه لم يخلقه على صفات الكمال، فلو خلقه على حالةِ الكمال، فلم يعد المخلوق في حاجة لخالقه، وحينها يصبح للخالق شركاء، ولهذا، خُلق الإنسان ضعيفا حتى يستمد الرّحمة من القوي تعالى، وباستمداده من الرّحمن رحمة يمتلك مقاليد القوّة التي تجعله على الأرض خليفة.

خلافة الأرض مسؤولية وأمانة، فمن يحافظ عليها يحافظ على الأمانة، ومن لم يحافظ عليها يخونها، ولذا فالأمانة قيمة طيّبة، ومن يتصف بها يقال له أمينا، ومن لا يتصف بها يقال له خائنا، وهكذا حال الخلافة: فمن كان مؤتمنا عليها وُصِفَ بالخليفة، ومن خانها فلا يعد من الذين يتصفون بها في شيء. يقول الله تعالى: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ}252 أي يجعلكم سادة فيها، ولأجل أن تكونوا سادة فاعملوا على مكانتكم، وإلا ستكونون عليها بدون مكانة، أي بدون قيمة تذكر، فالمكانة درجة من الرقي القيمي تجعل الإنسان في حالة هيبة حتى ينال الاعتراف والتقدير

---

[251] . الأنبياء 105.

[252] . النمل 62.

من الآخرين. {وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ}253 فمكانة الذين لا يؤمنون هي البقاء في حياتهم على الكفر حتى بلوغ العذاب الأليم، ومكانة المؤمنين هي الرفعة في الحياة الدنيا والجنّة في الحياة العظمى، ولذا فمن يكون على حالة الرفعة حتى بلوغ الجنّة هو الذي يرث الأرض ولم يخن الأمانة (الخلافة) فينل الجزاء الأوفر.

قال تعالى: {وَعِبَادُ الرّحمن الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا}254 الأرض التي استخلفوا عليها يقدِّرونها كأمانة حقّ قدرها، فلا يعبثوا فيها فسادا، بل يحافظون عليها محافظة أمانة، ولأجل ذلك يمشون عليها هونا، برقة وأدب مع رفعة وتقدير للفضل الذي استخلفوا به.

قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}255. الأمانة هي الخلافة التي ليس بالأمر الهين أن تتم المحافظة عليها، ولهذا لو عرف الإنسان عاقبة تقصيره كيف تكون، ما حمْل الأمانة باعتبار أنّه لم يخلق على الكمال، فالإنسان فيه من القصور ما يجعله دون المستوى الذي تتم به المحافظة على الأمانة، ولهذا كان ظلوما جهولا. ولكن من يأتي الله بقلب سليم يجعله على حالة استثناء من قاعدة الجهالة مصداقا لقوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}256 ولهذا فالأعمال بالنيات، فمن آمن بقلبه اهتدى، ومن لم يؤمن به فقد ضل {فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}257. ولهذا إذا قيل

---

[253] . هود 121.

[254] . الفرقان 63.

[255] . الأحزاب 72.

[256] . الشعراء 89.

[257] . يونس 108.

للكافرين {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرّحمن}258 فكانت الإجابة بقوله تعالى {الرّحمن عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}259.

ولهذا، جميع الكائنات تخلف بعضها البعض بصفاتها وخصائصها، وعلم الجينات يثبت ذلك بكل وضوح.

أما الاستخلاف فهو بفعل فاعل لأسباب وأغراض مستقبلية يعلمها من أوجد الخليفة وسيلة لتحقّيقها.

ولذلك، كان الاستخلاف لغاية، وكان لله الفضل على من يلتزم بأسباب استخلافه، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}260، ولهذا من شروط الاستخلاف العمل. ولكن أي عمل؟

إنّه العمل الصالح بإرادة، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}261 ولذلك فإنّ العمل غير الصالح هو دليل عدم القبول بأمر الاستخلاف في الأرض، ولو لم يجعل الله تعالى أمر العمل بإرادة، لكان الجميع مستخلفين فيها بالقوّة، وفي مقابل ذلك لو يؤاخذ الله تعالى الخليفة بما يفعل السفهاء ما ترك على ظهرها من دابة {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ}262. وبما أنّ الله تعالى ترك الخليفة على أمر الإرادة فيما يتعلق به من شؤون، وأجّل

---

258. الفرقان 60.

259. الرّحمن 1 . 4.

260. النور 55.

261. فصلت 46.

262. فاطر 45.

أفعال العقاب لمعظم الأفعال إلى اليوم الآخر، إذن يريد الله عزّ وجلّ أن يسود التسامح صفة بين المستخلفين، وبما أنَّ الأمر كذلك فلماذا لا يسود التسامح بين النّاس فيما لا أمر قاطعا فيه للقصاص؟

وهكذا يُغرس التسامح بيننا قيمة، ويغفر بعضنا للبعض الخطايا اقتداء بصفات من استخلفنا على الأرض {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا}[263] وبما أنّ الله غفور رحيم إذن بطبيعة الحال يجب أن يكون للخليفة صفتين من صفتي الغفور الرّحيم. وإلا كيف يكون خليفة ولا يقتدي بصفات من جعله في الأرض خليفة؟

ولقائل إن يقول: لقد خُلِقَ الإنسان ضعيفا، ولذا لا يمكن أن يكون خليفة الله تعالى، فالله تعالى القوي المتعال لا يخلفه أحد، ولهذا كان المستخلف منه في الأرض وليس الخالف له فيها أو عليها. فالله عزّ وجلّ يؤلِم ولا يتألم، ويرحم ولا يُرحم، ويقدر ولا يقدر عليه، ولذا، لا يخلفه أحد، ولكن بقوته جعل الخلائف من بعده قوّة مستخلفة في الأرض، والخليفة لا يكون في حالة ضعف إلا إذا تأملنا في قوّة الخالق المطلق فلا مجال للمقارنة، ويكون الإنسان ضعيفا إذا ما غلبت عليه الشهوة في غير محلها، ولهذا فهو في حاجة لأن يُرحم.

إذن، الرّحمة أمل ينبغي أن يسعى الخليفة إلى بلوغه. ولا ينبغي له أن ييئس، فاليأس هو انقطاع الصلة بين الرّحمة ومن هو في حاجة إليها وبين الرّحيم الذي بيده أمر القيام بالفعل، والأمل هو الصلة التي بها يتم إشباع الحاجة التي هي في نفس الخليفة الراغب في مرضات من استخلفه في الأرض.

---

[263] . النساء 110.

الرّحمة والأمل أمران مترابطان مثل ترابط المثير والاستجابة، فلولا الأمل ما تحقّقت الرّحمة، ولولا الرّحمة ما تحقّق الأمل.

وعليه الرّحمة في ذاتها مُعطية بلا فعل، والأمل في ذاته أيضا معطية بدون فعل، ولهذا كان وراء كل رحمة رحيم ووراء كل أمل مرحوم.

ولذا؛ فالخليفة يجب أن يكون متكبرا عن النقائص، وإن دعاه سائل استجاب وفق استطاعته، وإن لم يستطع فلا ينهر، ولذا فالتكبُّر صفة محتملة للإيجاب والسلب؛ فتكبُّر العبد عن ارتكاب المظالم وارتكاب المعاصي صفة إيجابية؛ وارتكابه للأفعال الذميمة والمفسدة في الأرض صفة سلبية. قال تعالى: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}[264]، وهم لا يستكبرون تعني: أنهم يعترفون بالإعجاز الإلهي في آياته العظام، وبالتالي هم الذين يتعاظمون معها علوا ورفعة حتى ينالوا الهيبة التي بها يستخلفون في الأرض كما نالها داوود .

وعليه: فالإنسان يمكن أن يكون على أحدي الصفتين الآتيتين:

1 . الصّفة الإصلاحية: هي الصفة التي بها تعمر الأرض ولا تفسد، وهذه لا تتم إلا بأفعال الخليفة الذي يؤمن بأهمية الإصلاح ويعتبرها من مهامه الرئيسة، وهؤلاء هم الذين يسعون في الأرض إصلاحا.

2 . الصّفة الإفسادية: هي التي بها تفسد العلاقات بين الخلق ولا تعمر الأرض، وهذه لا تتم إلا بأفعال الآبقين الذين يظنون ظن الجاهلية، وأولئك ومن هم على مثلهم هم الذين يسعون في الأرض فسادا.

---

[264] . السجدة، 15.

ولذا فالمبرأ من ذلك الإفساد هو المستخلف في الأرض وذلك لأنه خُلق صالحا ومناسبا لأن يكون خليفة فيها، ولهذا الأمر برأ الله تعالى الإنسان أي استحدثه وأوجده من الشيء المخلوق من لا شيء، وذلك لأداء المهمة والغاية التي خُلق من أجلها أو خلق إليها، وهي الإصلاح في الأرض وإعمارها وفلاحها.

ولأنّ المستخلفين في الأرض يؤمنون بأن الدار الدنيا فانية، والدار الآخرة باقية، ويعلمون علم اليقين أنه لن يدخل الجنّة إلا مؤمنا فيعملوا عليها بما يُمكّنهم من العيش فيها عيشة راضية، وبعيشهم فيها سيجدون أنفسهم مبرئين من النّار وهم في الجنّة مع الخالدين مع الأنبياء والصدّيقين والرّسُل والصالحين ومن أسلم وجهه لله ولم يشرك بعبادته أحدا كما آمن وصدَّقَ وأسلم وأطاع واستغفر وتاب داوود الذي بصفاته كان خليفة في الأرض وكان من الوارثين الخالدين في الجنّة.

دور داوود:

أوّل ما ورد ذكر داوود في القرآن الكريم كان مجردا عن الملك والنبوة عندما كان جنديا في جنود طالوت وهو الملك الذي بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل حتى يقاتلوا في سبيل الله بعد أن طلبوا ذلك من نبي لهم حيث قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}265.

---

265 - البقرة 246.

إنّ القرآن الكريم عندما يتناول القصص والأخبار لا يأتي على الجزئيات، وإنّما يذكر ذلك القصص في معرض الإخبار من أجل الاعتبار، لأنّ القرآن الكريم ليس كتابا للقصص والأخبار والتاريخ، فما كان يهم النّاس في دينهم وتعاملاتهم وحياتهم وعلاقتهم بينهم وبين الخالق من جهة، وبين المخلوقين ببعضهم من جهة أخرى، يكون التفصيل والبحث في الجزئيات فهنا يكون التوضيح مثلا في:

العبادات

الفرائض

الأوامر

النواهي

الحدود

المعاملات

المعالجات

الحلول

وعلى هذا قال تعالى: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}266.

وأهم هذه الأشياء التي لم يفرط بها ولم يتركها مجملة، هي ما مباشرة من:

علاقة الإنسان مع ربّه

علاقة الإنسان مع الإنسان

266 . الأنعام 38.

ولذلك، كان قوله تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا}267، من هذا الباب لما له علاقة في حياة الإنسان في الدنيا، ومصيره في الآخرة، لذلك كانت الجزئيات واضحة جلية في كل شيء.

وأمّا الأشياء التي لا ترتبط ارتباطا مباشرا بالإنسان، فيكون العلم بها من باب الفائدة، وعدم العلم بها لا يوقع في الإثم فقد جاءت مجملة دون تفصيل، وتُرك ذلك لتقدير العقل والفهم المتفاوت بين المخلوقين في التدبر والتأمل زيادة في الإيمان من أولي الألباب وأهل الذكر الذين اختصهم الله تعالى بالإجابة عن أسئلة الذين لا يعلمون فقال تعالى: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}268

ولذا؛ فإنّ ما جاء من مجمل دون تفصيل في كتاب الله تعالى كان من القضايا التي لا ترتبط ارتباطا مباشرا بالخلق، فمن هذه القضايا:

القصص

الأخبار

العرش

الاستواء

أو أنّ هذه القضايا الكلية التي ورد ذكرها تكون خاصّة بفرد من أفراد الخلق دون غيره ممّا يستطيعه الإنسان فعندئذٍ تتعدد فيها:

الأقوال

---

267 - الإسراء 12.

268 - النحل 43.

الآراء

الاحتمالات

الاجتهادات

الافتراءات

ولذا، وجد هذا الكم الهائل من الافتراءات على نبي الله داود في كثير ممّا وقفنا عليه من المصادر التي لا نعتقد بصحتها فيما ذهبت إليه.

ولابدّ لنا من أن نسوق مثلا واحدا ممّا جاء في بعض المصادر لنقف على أنواع مختلفة من هذه الافتراءات، وكيف نزّه الله سبحانه وتعالى عبده الشكور داوود في القرآن الكريم، فقد ورد في سفر صموئيل الثاني: "أن داوود عليه السّلام اطلع من قصره فرأى امرأة من نساء المؤمنين تغتسل في دارها فعشقها وبعث فيها فحبسها أياما حتى حبلت تعالى الله أن يجرى ذلك على رسله ثم ردها وكان زوجها يسمى أوريا غائبا في العسكر ولما علمت المرأة بالحمل أرسلت به إلى داوود فبعث داوود إلى يوآب بن صوريا قائده على العسكر يأمره أن يبعث إليه بأوريا زوج المرأة فجاء فصنع له طعاما وخمرا حتى سكر وأمره بالانصراف إلى أهله ليوقعها فينسب الحمل إليه ففهم الأمر أوريا وتخابث فلم يمش إلى أهله وقال حاشى لله أن يكون الملك هنا دون أهله وأمشى أنّا إلى أهلي فلما يئس داوود منه رده إلى العسكر وكتب إلى القائد أن يصدر به في القتال مستقتلا له فقفل أوريا وقتل معه من المؤمنين سبعة آلاف وفزع القائد من داوود لقتل العدد العظيم من المؤمنين وقال للرسول إذا أنت أخبرت الملك داوود بقتل النّاس ورأيته قد غضب قل له سريعا إنّ أوريا قتل فيهم ففعل

الرّسول وسكن داوود من بعد الغضب وسر بموت أوريا وهانت عليه من أجل موته دماء المؤمنين"269.

إنّ العاقل المنصف حتى وإن تجرد من الإيمان لا يقرّ بما أورده هذا النص ممّا اتهم داوود في تصرفه وممّارساته لأنّه يحمل من دلائل الاتهام والافتراءات على نبي من أنبياء الله ما لا يليق بأيّ إنسان منها:

. اتهامه بالتجسس وقد قال الله تعالى: {وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}270.

. أنّه يكشف عورات المؤمنين وقد قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}271. وكل نبي في قومه يكون حريص عليهم رحيم بهم.

. رميه بالزنا وقد قال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}272. فشريعة الله واحدة في خلقه.

. إظهاره بأنّه من الظالمين وهي نبي الله لقومه وأوّل مؤمنيهم، قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}273.

---

269 – الإعلام بما في دين النصارى ح 1. ص 199.

270 – الحجرات 12.

271 – التوبة 128.

272 – الإسراء 32.

273 – آل عمران 57.

. يدفع برعيته إلى التهلكة وهو منافٍ للرسالة وأخلاق النبوة حيث قال تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}274.

. إلصاق صفة الغدر به وقد قال تعالى: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}275.

. رميه بالشهوات التي كانوا يمارسونها ويريدون من ذلك أن يحلوا ما حرم الله، وقد نزهه الله تعالى عنها بقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرّحمن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصّلاة وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}276.

. أنّه استحل المحارم التي حرمها الله كالخمر في تحقّيق غاية وقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}277.

. رميه بقتل نفس بغير حقّ أو فساد في الأرض وقد قال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النّاس جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ

274 - البقرة 195.

275 - البقرة 177.

276 - مريم 58- 59.

277 - المائدة 90.

لَمُسْرِفُونَ}278. وداوود من بني إسرائيل الذين أرسلهم الله بالبينات ثم بعد ذلك يرمونه بأقوالهم.

. اتهامه بالغلول في أخذ ما ليس له بحقّ، فقد نزه الله تعالى جميع أنبياءه عن ذلك بقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}279.

. رميه بنقض ميثاق الله تعالى بما أخذ منه ومن الأنبياء، وقد قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}280.

فلهذه الافتراءات ومثيلاتها ممّا جاء على ألسنتهم في اتهام نبي الله داوود وغيره من الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام بأشياء ما أنزل الله بها من سلطان، غير شهوات المفترين وأهوائهم ليحلوا ما حرّم الله، أراد الله سبحانه وتعالى أن يبرأ من اصطفاهم من أقوال هؤلاء وخصّ داوود بالذكر في صريح النص:

لدفع التوهم

كشف اللبس

جلاء الغموض

إظهار الحقّائق

ولذا؛ فإنّ الله تعالى وصفهم بالكفر وخصهم باللعن على ألسنة الأنبياء المفترى عليهم عندما قال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ

---

278 - المائدة 32.

279 - آل عمران 161.

280 - الأحزاب 7.

عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ}281.

فإن كان هذا الكلام لا يليق بأخلاق أدنى من يتحمل مسؤولية، فكيف يليق بمن اصطفاه الله نبيا من ذرية النبوة من نسل إبراهيم قال تعالى: {{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}282.

إنّ أوّل ما ظهر داوود كان في هزيمة جيش جالوت كما أخبرنا الله تعالى بقوله: {فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الملك وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}283.

لم يكن قتل داوود لجالوت من قبل المصادفة لأنّ في الجيش آلاف من الجنود، أو أنّ اختياره لمنازلة جالوت من قبل الملك على ما جاء في روايات كثيرة توحي بجهل طالوت بأمور الحربّ والقيادة ومعرفة الجنود المؤهلين لحسم الصراع في المواقف المصيرية، إذ أن ما ذكرته المظان من أمهات الكتب تشكل صورة لطالوت ما ينبغي أن تكون على النحو الذي وصف فيه عندما يتعامل مع عدوٍ يريد أن يستأصل شأفته ويذهب بملكه ورعاياه، فإن كان ثمة انتقاء من بين الجنود لمنازلة جالوت فسيكون هذا الانتقاء من النخبة التي لها با ع طويل في المهمة التي سيكلفون بها، غذ من

281 - المائدة 78- 80.

282 - الأنعام 84.

283 - البقرة 251.

الجهالة بمكان أن يدفع الراعي إلى الحربّ والعامل إلى التجارة والتاجر إلى الزراعة والمزارع إلى الصناعة، فاختيار داوود الاعتباطي كما أوردته المصادر نستنتج منه أشياء كثيرة منها:

أنّ المصادفة هي التي جعلت داوود يقيل جالوت

التناقضات التي وقعت فيها المصادر دليل على عدم صحتها

فكيف يكون داوود هزيلا ضعيفا دميما ثم ينسب إليه أعمال الأبطال منها:

يحمل شاتين شاتين ويعبر بهما النهر لينجي القطيع

يفتح فكي الذئب ويخرج منهما الشاة

يأخذ بأذن الأسد ثم يركبه حيث شاء

ولذا؛ فنحن نقول:

من يتصف بتلك الصفات لا يستطيع أن يفعل هذه الأفعال

من يفعل هذه الفعال لا يمكن أن يحمل تلك الصفات

وعليه: فإنّ داوود كان مهيا لقتل جالوت، وبعد التهيؤ دخل المراحل التالية التي أدت إلى قتل جالوت وهي:

. الاستعداد

. الإرادة

. الفعل

أمّا من جهة طالوت الملك، فهو من اختيار الله تعالى لهم عندما طلبوا من نبي لهم أن يبعث لهم ملكا كي يقاتلوا في سبيل الله، لذلك فإن

نبيهم سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكا فقال تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الملك عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحقّ بِالملك مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}284.

لقد جاء التكليف من الله تعالى بآية معجزة للدلالة على أنّه أمر من الله وهو يختار من عباده من يشاء، وهل اختيار الله تعالى لا يكون على الوجه الأكمل؟

فقد اختار الله تعالى (طالوت) ليكون الملِك الذي له القدرة على تدبير الأمور العسكرية في القتال والحربّ، بصرف النظر عن المقاييس التي انطلقوا منها اعتراضا على تمليكه عليهم انطلاقا من المقياس المادي الدنيوية:

الحسب

النسب

المال

لم يكن من أبناء الملوك

لم يكن من أصحاب الغنى

دنو الدرجة الاجتماعية

ووفق هذه المقاييس رأوا أنّ أي واحدٍ من الملأ هو أحقّ بالملك من طالوت، لذلك جاء جوابهم معترضين ومستبعدين تمليكه بصيغة الاستفهام الإنكاري (أنى يكون له الملك علينا).

---

284 - البقرة 247.

ثم عززوا ذلك الاستبعاد بقولهم: (ونحن أحقّ بالملك منه) كأنهم يرون أنّ المِلِك لا يكون إلا كابرا عن كابر، وأن طالوت لم يسبق لأحد من آبائه أنّه تولى المُلْك بخلافهم وهم علية القوم:

الملوك كانوا منهم

كيف جاءه الملك؟

لم يؤت سعة من المال

وعلى هذا فإنّه:

إمّا أن يكون فقيرا

وإمّا ليس لديه سعة من المال

ومن هنا كان الاعتراض على تمليكه عليهم وقد عللوا ذلك بسببين:

الأوّل: سبب اجتماعي لأنّه غير معروف من الملأ وليس عنده حسب ولا هو من أبناء الملوك

الثاني: سبب مادّي

ليس عنده مال فهو ليس من الأثرياء الذين يُخضعون النّاس بأموالهم.

ولكن هناك فرق كبير بين قول نبيهم (إن الله قد بعث لكم طالوت) حيث عبر باللام الدالة على أنّ هذا المِلِك بُعث لمصلحتهم لأنّ الله بعثه، وبين قولهم:(أنى يكون له الملك علينا) حيث أشاروا إلى أن بعثه كان لغرض السيطرة عليهم.

وفرق كبير بين المقاييس البشرية والغاية الإلهية، فالله تعالى:

اصطفاه عليهم

اختاره لهم

زاده بسطة في العلم

زاده بسطة في الجسم

فزيادة العلم من أجل تدبير الملك الذي يحتاج إلى الحكمة والحنكة والرأي ممّا جعله الله تعالى مفضلا عليهم من هذا الجانب.

وزاده بسطة في الجسم التي تعطي معنى والقوّة والشجاعة التي يحتاجها القائد العسكري الذي يملأ العين مهابة، وبهذا اجتمعت فيه أهم صفات القيادة وأعلاها مرتبة بحيث يجب أن يتمتع بها أي قائد عسكري منها:

القوّة المعنوية

القوّة العقلية

القوّة البدنية

وممّا تقدم نستنج الآتي:

. أنّ نبيهم وافقهم على أن يبعث إليهم ملِكا ليقاتلوا في سبيل الله فدعا الله عزّ وجلّ فاستجاب له.

. كمال تعظيم الأنبياء لله تعالى، وحسن الأدب معه لقول نبيهم:(إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا) ولم يقل: إني بعثت.

. أسند نبيهم الفضل إلى أهله لقوله تعالى:(إن الله قد بعث لكم)

. أنّ الله قد يعطي الملك من لا يترقبه بصرف النظر عن الغنى والحسب والنسب

. خطاب نبيهم لهم باختيار الألفاظ التي يكون بها إقناع المخاطَب، وتسليمه للأمر الواقع لأن قوله:(إن الله قد بعث لكم) فإنه أبلغ في الإقناع والتسليم من قوله: إني بعثت لكم.

. أنّ المعترضين ذكروا وجه اعتراضهم بقولهم: (أنى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يؤت سعة من المال)

. أنّ استفهام الملأ يحتمل منه:

أن يكون المراد به الاعتراض

ويحتمل أن يراد به الاستكشاف

البحث عن السبب دون اعتراض: كيف يكون ملكا ونحن أحقّ بالملك منه؟

لم يؤت سعة من المال؟

فإن كان الاحتمال الأوّل فإنّ ذلك يقضي إلى الحكم بجهلهم، فكيف يعترضون عليه وهم الذين طلبوا أن يبعث لهم ملكا!

وإن كان الاحتمال الثاني فهو اعتراض على النبوة لأنّهم طلبوا ذلك من نبي!

. لقد تسلسل نبيهم في مخاطبتهم بما يصل بهم إلى الإقناع بادئا بالأهم فالمهم:

إنّ الله اصطفاه عليكم وهذا ما لا جدال فيه لأنّه اختيار من الله تعالى

إنّ الله زاده بسطة في العلم:

لتدبير الأمور في الحربّ والقتال

والرأي الصائب في المواقف وهي مهمته الأساسية

إنّ الله زاده بسطة في الجسم

إنّ الله عزّ وجلّ هو الذي يؤتي ملكه من يشاء، وفعله هذا لابدّ وأن يكون مقرونا بالحكمة: فلولا أن الحكمة تقتضي أن يكون طالوت هو الملك ما أعطاه الله عزّ وجلّ الملك، وأن الله واسع عليم:

فهو ذو الفضل الذي يمده إلى من يشاء من عباده

فله أن يتفضل على من يشاء

الله أعلم حيث يجعل رسالته

الله أعلم حيث يجعل ملكه

غير أنّ الله تعالى اصطفى طالوت عليهم لأنّه:

1. بعثه لهم مهيا

2. مستعدا لنشر العلم

3. يمتلك إرادة الفعل

4. إرادة الفعل اختيار داوود

5. الثقة فيما يقول نبيهم

6. الثقة فيما يقول ملكهم

. فكان اصطفاء الله لطالوت عندما زاده بسطة في العلم والجسم له دلالات:

العلم الذي يحمل أشياء كثيرة منها:

العدل

الحقّ

المعرفة

القضاء

الخبرة

وهذه المعطيات التي يحملها طالوت دفعت به لاختيار داوود في مواجهة طالوت ومنازلته

وأمّا زيادة بسطة الجسم ففيها:

القوّة

مواجهة الآخر

غير أن الشرط الأساسي في الاختيار هو معرفة أمور النّاس، لذلك زاده بسطة في العلم لينال:

الاحترام

التقدير

الاعتراف

الإقرار

وذلك، لأنّ كلما كان ولي الأمر ذا بسطة في العلم، وتدبير الأمور، وبسطة في الجسم والقوّة كان أقوَم لملكه، وأتم لإمرته؛ لقوله تعالى: (وزاده بسطة في العلم والجسم).

لأنّ ملك البشر هو مُلك لله لقوله تعالى: (والله يؤتي ملكه من يشاء) فهذا الملِك في مملكته هو في الحقّيقة ما مَلَكَ إلا بإذن الله عزّ وجلّ فالملك لله سبحانه وتعالى وحده يؤتيه من يشاء، ومن خلال ما تقدّم نعلم أنّ اختيار داوود جاء نتيجة طبيعية لمن اختاره الله ملكا بما أنعم عليه من أشياء كثيرة منها:

العلم

المعرفة

الخبرة

حسن الاختيار

حسن التصرف

فهذه الأمور هي التي رجحت كفة الاختيار من أجل النصر واستحقّاق التمكين.

لقد مرّ طالوت بأكثر من تجربّة مع قومه في مواقف كثيرة قبل أن يختار قائدا ينازل عدوه في معركة فاصلة، حيث نقف على هذه التجاربّ في قوله تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَربّ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَربّوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ

غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}285.

فمن النصّ القرآني نقف على دلالات كثيرة من حسن قيادة طالوت لجنوده، واختيار من خبره منهم لمهمة يعلم أنها مصيرية ومن هذه الدلالات:

1 . أنّ طالوت هو الذي قال إنّ الله مبتليكم بنهر

2 . نهاهم عن الشربّ من ذلك النهر إلا من اغترف غرفة

3 . هذا النهي صدر من طالوت

4 . النهي عن الشربّ المفرط للماء يدل على خبرة عسكرية

5 . هذا النهي كان اختبارا أصغر

6 . مواجهة العدو هو الاختبار الأكبر

7 . لم يلتزم منهم إلا القليل

8 . داوود من الذين التزموا أوامر الملك

9 . الذين لم يلتزموا لم تعد لهم طاقة في مواجهة جالوت وجنوده

19 . الذين صبروا عن شربّ الماء ازدادوا صبرا في المواجهة

11 . داوود كان من الصابرين

12 . الصبر مدعاة للنصر

[285] - البقرة 249- 250.

وفي ثنايا هذه التجربّة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة، وكلها واضحة في قيادة طالوت تبرز منها:

خبرته بالنفوس

عدم اغتراره بالحماسة الظاهرة

عدم اكتفائه بالتجربّة الأولى

محاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة

فصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه

عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده

لم يثبت معه إلا الفئة المختارة

داوود من الذين اختارهم طالوت

خاض بتلك الفئة المعركة ثقة منه بقوّة الإيمان ووعد الله الصادق للمؤمنين.

إنّ إيحاءات النّص القرآني في تمليك طالوت واختيار داوود لحسم الموقف نستوعب منها التجربّة التي تفصح عن إيحاءاتها لكل عقل بحسب ما هو فيه من الشأن، وما لديه من المعرفة وما يمتلك من خبرة وما اطلع عليه من تجاربّ أو مرّ بها.

وعلى ما تقدم فإنّنا نقول: إنّ اختيار الرّجال في المواقف التي تتطلب الرجال لا يكون إلا من رجل على باع طويل في معرفة الرجال، وفق المواصفات التي تتطلبها المهام التي تناط بهم أو يكلفون في إنجازها، لاسيما المواقف المصيرية التي يتعلق مصير أمّة منها بموقف فرد، لذلك كان

اختيار رسول الله لعلي بن أبي طالب يوم خيبر من هذا القبيل لما يعرف عنه من:

شدّة بأس

قوّة وشجاعة

حكمة وحنكة

دراية في القيادة

عزم وحزم

تمسك بالموقف

ثبات على المبدأ

ففي يوم خيبر قال رسول الله: "لأعطين هذه الرّاية رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، قال: فتساورت لها رجاء أن أدعى لها قال: فدعا رسول الله، علي بن أبي طالب فأعطاه إياها وقال: امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك. قال: فسار على شيئا ثم وقف ولم يلتفت فصرخ يا رسول الله على ماذا أقاتل النّاس قال: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمّدا رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله"[286].

ولذا، نستطيع أن نقول: إن طالوت لم يختر داوودَ وفق المقاييس التي أوردتها بعض المصادر التي هي أقربّ إلى الخرافة والسحر منها إلى الحكمة والعقل، ونحن نورد إحدى هذه الروايات في اختيار داوود حتى

---

[286] - صحيح مسلم، ج 7، ص 121.

نبرهن صحة ما ذهبنا إليه من جانب، ونقف على التناقضات التي تنفي صحة الروايات نفسها من جانب آخر حيث: "قالوا فأرسل جالوت الجبار إلى طالوت ملك بني إسرائيل أن أبرز إلي وأبرز إلي من يقاتلني. فإن قتلني فلكم ملكي وإن قتلته فلي ملككم فشق ذلك على طالوت ونادى في عسكره من قتل جالوت زوجته ابنتي وناصفته ملكي فهاب النّاس جالوت فلم يجبه أحد فسأل طالوت نبيهم أن يدعو الله في ذلك فدعا الله فأتي بقرن فيه دهن القدس وتنور حديد. وقيل له إنّ صاحبكم الذي يقتل جالوت هو الذي إذا وضع هذا القرن على رأسه سال على رأسه حتى يدهن من رأسه ولا يسيل على وجهه بل يكون على رأسه كهيئة الإكليل ويدخل في هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه فدعا طالوت بني إسرائيل وجرّبهم فلم يوافقه أحد منهم فأوحى الله إلى نبيهم إن في ولد إيشا من يقتل جالوت فدعا طالوت إيشا وقال له أعرض على بنيك فأخرج له اثني عشر رجلا أمثال السواري؛ فجعل يعرض واحدا واحدا على القرن؛ فلا يرى شيئا فقال لإيشا: هل بقي لك ولد غير هؤلاء فقال لا؟ فقال النبي يا ربّ إنه قد زعم أنه لا ولد غيرهم فقال له كذب فقال له النبي: إن ربّي قد كذبك، فقال إيشا: صدق ربّي يا نبي الله إن لي ولدا صغيرا مسقاما اسمه داود استحييت أن يراه النّاس لقصر قامته وحقّارته فجعلته في الغنم يرعاها وهو في شعب كذا وكان داود عليه السّلام رجلا قصيرا مسقاما أزرق أمعر مصفرا فدعا به طالوت ويقال إنه خرج إليه فوجده في الوادي وقد سال الوادي ماء وهو يحمل شاتين شاتين يعبر بهما السيل إلى الزريبة التي يريح فيها غنمه، فلما رآه طالوت قال هذا هو الرجل المطلوب لا شك فيه فهذا يرحم البهائم فهو بالنّاس أرحم، فدعاه طالوت ووضع القرن على رأسه فنش وفاض فقال له طالوت هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتي وأجري خاتمك في ملكي قال نعم فقاله له: هل أنست من نفسك شيئا تتقوى به على قتله قال نعم أنا أرعى الغنم فيجيء الأسد أو النمر أو

الذئب فيأخذ شاة من الغنم فأقوم فأفتح لحييه عنها وأخرجاه من قفاه، فأخذ طالوت داود ووِرده إلى العسكر، فمر داود عليه السّلام في طريقه بحجر فناداه يا داود احملني فإنّي حجر هارون فحمله ثم مر بحجر آخر"[287].

إنّ هذه الرواية التي تظهر كيفية اختيار داوود لا يمكن أن تأخذ على محمل الصدق لما فيها من تناقضات وبخاصة أنّ مفهوم الملك الذي تطلب مَلكا اختاره الله تعالى بطلب نبي من أنبياء الله يترتب عليه أمور سلبية كثيرة منها:

1 . إلغاء اصطفاء النبي

2 . إلغاء بعث الملك الذي اختاره الله لهم

3 . الاحتكام إلى الصدفة التي قد تختار أكثر من واحد

4 . هي أقربّ إلى الأسطورة منها إلى الحقّيقة

5 . إبراز خوارق الأساطير وطمس حكمة الاصطفاء والاختيار

6 _ التركيز على شخصية البطل وإخفاء الشخصية المتهيئة

7 . التناقض الذي وقعت فيه الرواية في الإسقاطات على البطل

8 . إنّ البطل ضعيف سقيم هزيل

9 . هذا الضعيف الهزيل يصرع السباع

10 . أنّ هذه الرواية مليئة بالإسقاطات الأسطورية

[287] - تفسير الخازن، ج 1، ص 271.

11 . نقف على مثيلاتها في الأساطير السومرية عند كلكامش وأنكيدو.

12 . نقف عليها في الأساطير الإغريقية في حربّ طروادة عند أخيل وهكتور.

وعلى ما تقدم: فإنّ معظم ما ورد بحقّ داوود في تلك الروايات بطريقة اختياره لمحاربّة جالوت لا يعتدّ به لأنه بعيد كل البعد عن الحقّيقة من جوانب مهمة منها:

. أنّها مخالفة للعقل والمنطق السليم

. لا تليق بالنبوّة واصطفاء الله تعالى

. لا تليق بعقل ملك اختاره الله تعالى

ومن التناقضات الجلية التي تبدو في تلك الروايات أنها اعتمدت الأسطورة في إظهار البطل المنقذ في البداية، وخالفت تلك الأساطير في النهاية المأساوية التي كانت تنتهي بها حياة البطل حتى يناسب ذلك ملك داوود فيما بعد.

لقد كان اختيار داوود لمحاربّة جالوت قائما على تهيؤ ومعطيات وحقّائق معلومة لدى قومه وأولهم طالوت، ولذا استطاع داوود أن يقوم بالمهمة التي كان مهيا لها قال تعالى: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الملك وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}[288].

---

[288] – البقرة 251.

إنّ الأقدار تسير وفق ما قدرته مشيئة الله تعالى؛ فداوود كان فتى مهيا، وجالوت كان ملكا قويا وقائدا محنكا، ولكن الله تعالى أراد أن يُعلّم النّاس أشياء لا يعلمونها منها:

أنّ الأمور لا تجري بظواهرها

إنّها تجري بحقّائقها

حقّائقها لا يعلمها إلا الله

مقاديرها في يده وحده

يختار لها من يشاء ويصطفي ليجري ذلك على يديه

فكانت هنالك حكمة مغيبة يريدها الله، فلقد قدر أن يكون داوود هو الذي يتسلم الملك بعد طالوت، ويرثه ابنه سليمان عليهما الصّلاة والسّلام ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

لقد قتل داوودُ جالوتَ، وبهذا لم يحسم المعركة فقط، وإنما حسم القضية برمّتها لما ترتب عل الأمر من بعد ذلك حيث قال تعالى: (وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآَتَاهُ اللَّهُ الملك وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ ممّا يَشَاءُ).

وعلى هذا فإن قتل داوود لجالوت لم يكن نهاية المضاف، وإنما هي بداية القضية ونقطة الانطلاق لنهوض بالإتاءات التي آتاه الله إياها التي تمثلت في:

الملك

الحكمة

العلم

ملك داوود:

إنّ الله تعالى آتى داوود الملك الذي لم نقف على أثر مادي له لأسباب نفصل فيها القول عند الكلام عن سليمان، غير أنّ الذي نشير إليه هنا أن سليمان ورث داوود قال تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ}289.

فقد آل ملك داوود إلى سليمان عليهما الصّلاة والسّلام، ثم إننا نقف في القرآن الكريم على طلب سليمان: {قَالَ ربّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}290.

وعليه: فإنّ ملك داوود لا ينبغي لأحد من بعد سليمان عليهما الصّلاة والسّلام، ولذلك انتفى أثر ملك داوود المادي بدعاء سليمان.

لقد آتى الله داوود ملكا تمثل في تمكين الله تعالى له من أرضه وبلاده وائتمنه على خلقه وعباده وقد خاطبه بالخلافة في هذا التمكين من الملك ليراعي مصالح الخلق فيما أتمنه الله عليه حيث قال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}291. وقد ترتب على هذا الملك أمور كثيرة منها:

التكليف

تحمل المسؤولية

الحكم بما أمر الله

289 - النمل 16.

290 - النمل 35.

291 - ص 26.

إحقّاق الحقّ

العدل

فهذه الأمور من الركائز الأساسية التي يقوم عليها الملك، وبخاصة أنّ العدل هو أساس الملك في المفهوم الديني والأخلاقي لصاحب لأي ملك يؤتيه الله الملك بما فرضه عليه من الطاعة في إحقّاق الحقّ ومن الأخلاق الكريمة في النواميس البشرية لأن المِلك:

من بني البشر

ينتمي للإنسانية

الإنسانية تحمل قيم

هذه القيم إضافة إلى التكليف تفرض على داوود حسن التصرف بالملك لأنه يؤمن بهذا المفهوم الأخلاقي الذي يحمل تلك القيم في حسن سياسة ملكه مراعاة لمصلحة الإنسان الذي ملّكه الله عليه، لذلك فإنّه وجب على الملك أن يفي بعهد الملك المؤتى له بما لا يُلزم به من الآخرين، لأنّه هو يريد ذلك، لا لأنّ المجتمع يرغمه عليه وذلك بسبب الفطرة السليمة التي تعي أنّ:

العقل يحرك الضمير

الصراع بين الضمير والعقل

الضمير يستجيب بدوره للعقل

مغالبة هوى النفس

السيطرة على الهوى انتصار للعقل

العقل يختار الوفاء امتثالا لنداء الأخلاق

اختار الوفاء طمعًا في الثواب لا خوفًا من العقاب

بُعدا عن الشهوة التي تحرك الرغبة في التملك

واقترابًا من السّلوك الأخلاقي المثالي

تقربّا إلى الله

استجابة لنداء الإيمان

تحقّيقًا لأهداف العقيدة الدينية الأخلاقية.

وصولا للغاية الإلهية.

فإذا كان هذا هو نهج الفطرة السليمة في الملك، فمن باب أولى عندما تضاف إليها النبوة وجب أن يكون الملك خالصا لله من أجل إعلاء كلمته وتحقّيق إرادته.

غير أنّ الملك وإن كان لداوود ممّا آتاه الله تعالى، إلا أنّ هذا الملك يحتاج إلى:

عقل رشيد

رأي سديد

حكم عادل

قوّة رادعة

ذلك أنّ المملوكين من الخلق أو من يجري عليهم ملك داوود مختلفون في كثير من القيم الأخلاقية بنظرتهم إلى الواقع إذ أنّهم:

ليسوا من الملائكة

ليس جميعهم من الشياطين

إنّهم من البشر

البشر مختلفة الطبائع

وهذا الاختلاف يؤدّي بالضرورة إلى اختلاف روادع الملك لما يحمل الإنسان من متناقضات على المستوى العقلي أو على المستوى النفسي

آ ـ المستوى العقلي الذي يحمل:

الفكر

العلم

الثقافة

الأخلاق

القيم

فلا يمكن أن تكون هذه الأشياء متطابقة لدى جميع الأفراد حتى وإن كانوا أبناء مجتمع واحد، لأن الإنسان يعلم أشياء كثرة فيأخذ ويدع، فهو يأخذ ما يظن أن ذلك في مصلحته ويؤدّي له فائدة، ويترك ما يظن أن لا فائدة منه أو أنه يعود عليه بالضرر، وما يأخذ إنسان يدعه آخر، وما يدعه هذا الآخر يأخذ الأوّل لاختلاف النظرة والمعطيات، ولذا ينشأ هذا التناقض لدى الأفراد في المجتمع الواحد الذي يضمه مُلك واحد، فمن هنا كان لزاما على من آتاه الله الملك أن يتدبر جميع هذه المتناقضات التي يتصف بها الأفراد، لأنّ الملك يحتاج إلى:

العلم

القوّة

الرّحمة

العدل

الردع

الزجر

الشدّة

الرفق

اللين

التأنيب

فحاجة الملك لهذه الأمور من الضرورات لاختلاف المفاهيم بين أفراد المجتمع، واختلاف هذه المفاهيم أدّى إلى اختلاف أدوات سياسة الملك لأنّ هناك من الأفراد:

من لا يحتاج إلى ردع

من تردعه النظرة

من يردعه الكلمة

من يردعه الحبس

من لا يردعه إلا القتل

فكما تنوعت أدوات سياسة الملك كذلك تنوعت أدوات الردع فيه من الترغيب والتهيب.

ب ـ المستوى النفسي وما يحمل من:

الشهوات النفسية

الرغبات النفسية

الميول النفسية

الهواجس النفسية

فهذه الأشياء التي تحملها النفس الإنسانية لا يمكن أن تتطابق بين إنسان وإنسان، وإن كان ثَمّ تطابق فهو نسبي مثل:

الخير

الشر

الانشراح

الاكتئاب

الراحة

الأزمة

الصدمة

الصحة

الأمراض

الضغوط

الاطمئنان

الحاجات

المتطلبات

الرعاية

ولذا، وجب على من أوتي الملك أن يجمع بين معرفة الحاجات العقلية والحاجات النفسية ومشبعاتها من أجل تحقّيق استقرار الملك واستمراره، لأنّ الطباع البشرية نزاعة إلى الشر أكثر من نزوعها إلى الخير، فلو كانت مفطورة على الشر لفسدت الأرض ومن عليها، ولو كانت مفطورة على الخير لانتفت الحاجة للأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، ولانتفت الحاجة لمِلك داوود.

ولما كانت مفاهيم العقول متفاوتة، وكانت النفس نزاعة، وهذا التفاوت والنزوع يغوي الإنسان ويبعده عن طريق الحقّ والعدل والهداية، وجب أن يكون هناك مَلك يملك أدوات المِلك ويحسن استخدامها في كل وقت وحين وقد ذكرنا بعضها ولا بأس من ذكر أهمها هذه الأدوات وهي:

. القوّة

. الحقّ

. العدل

. الإنصاف

فالقوّة هي عماد الملك، لأنّها أكثر ما يردع النفس عن جموحها وشهواتها، وتتمثل هذه القوّة بالترغيب والترهيب، لذلك كان ملك داوود

من الله القوي، كان ملكه ملك قوّة وليس ملك جبروت، وفرق كبير بين الملكين

فملك القوّة يحمل بين طياته:

. الحقّ

. العدل

. الرّحمة

. الرّأفة

بينما يتجسد في ملك الجبروت:

. الظلم

. الطغيان

. القهر

. القسر

ولما كان داوود نبي من أنبياء الله تعالى، وآتاه الله الملك، والله سبحانه وتعالى هو الملِك المطلق، فكان داوود يتمثل الصفات النسبة التي يسوس بها الملك الذي آتاه الله إياه.

لم يكن ملك داوود من أجل الدنيا، وإنما هو تمليك من الله تعالى، لإصلاح الدنيا من أجل الآخرة، وهذا الإصلاح لا يتم بالعدل وحده، وإنّما يحتاج إلى جملة من الروادع والزواجر التي لا يجدي غيرها في بعض المواطن والمواقف فلا تتم سياسة الملك إلا بزواجر وعقوبات تضمنها القوّة التي يتحقّق من خلالها:

. نشر كلمة التوحيد

. ردع العاصي

. اطمئنان المطيع

. تحقّيق العدالة

. نشر الأمن

. تصحيح الاعوجاج

. تعديل الانحراف

لأنّ قواعد الملك لا تقوم إلا على أسس ولا تستقر إلّا على ركائز، وإن قال قائل إنّ داوود نبي قد مَلّكه الله تعالى، وهذا الملك يثبته له من آتاه إياه.

نحن نسلم بهذا فالله تعالى آتاه الملك وثبته له وأرشده إلى التصرف فيه، غير أن الملوك من غير الأنبياء يضعون أسسا وقواعد يسيرون عليها من أجل استتباب ملكهم وضمان أمن رعيتهم والحفاظ على أرواح النّاس وممتلكاتها، فما بالك عندما يكون هذا المِلك نبي من أنبياء الله تعالى:

أليس الأحرى أن يكون قدوة في رسم معالم طرق الملك وسبله؟

أليس الأجدر أن يكون المثال الذي يحتذى؟

النبي يبن للناس دينهم ودنياهم

الملك وسياسته وتصريف أموره وإدارة شؤونه من مصالح الدنيا

إذن من باب أولى أن تتضح هذه المعالم في ملك داوود كونه ملكا يؤسس سياسة ملك تحتذيه الإنسانية من بعده فقد جمع الله تعالى له:

. الملك

. النبوّة

. الخلافة

تسخير الجبال وحشر الطير:

قال تعالى: {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ}292.

قد يقف النّاس حائرين أمام هذه الآية ممّا أوردته من نبأ داوود من أن الجبال الجامدة تسبح معه بالعشي والإشراق حينما يخلو إلى ربّه، يرتل ترانيمه في تمجيد الله تعالى والثناء عليه ومدحه وحمده وذكره.

والطير تتجمع على نغماته لتسمع له وترجّع معه تراتيله وأناشيده وتصغي إلى مزاميره. إن هذا الأمر قد يخالف المألوف من طباع البشر، ويخالف ما اعتادوا أن يحسوه من العزلة بين هذه الأنواع:

. الإنسان

. الجبال

. الطير

غير أنّ هناك ثلاثة أنواع من العقلاء لا ينكرون هذا الأمر الذي يتجاوز المألوف إلى غير المألوف ولا نقول المعجز، لأن المعجزة لا تحتاج إلى أدلة إثبات غير وقوعها، ولذلك لا أحد يبحث عن أدلة المعجزة من أجل إثباتها أو نفيها.

---

292 - ص 18- 19.

أمّا الأمر هنا في تسبيح الجبال وترجيع الطير مع داوود فمن السهل بمكان أن نقف على أدلة نقلية وعقلية تؤكد هذا الأمر وإن ذكرنا أن هناك أنواعا من البشر لا ينكرون هذا:

الأوّل: من كان صاحب إيمان مطلق في التسليم

الثاني: من كان صاحب عقل يؤمن بالحقّيقة

الثالث: من اجتمع له الإيمان والعقل

أمّا الأدلة النقلية التي تؤكد تسبيح الجبال وترجيع الطير مع داوود:

1 . قوله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}293.

2 . قوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}294.

3 . جاء في دلائل النبوة أنّه: "كان النبي إذا خطب يستند إلى جذع نخلة من سواري المسجد، فلما صُنع له المنبر فاستوى عليه اضطربّت تلك السارية كحنين الناقة حتى سمعها أهل المسجد حتى نزل رسول الله فاعتنقها فسكنت"295.

أمّا الأدلة العقلية فنقتصر على اثنين منها السمع والبصر:

---

293 – الإسراء 44.

294 – الأنعام 38.

295 – دلائل النبوة، ج 2، ص 451.

السمع:

من المعلوم أن هناك ثلاثة أنواع من الأصوات هي:

آ ـ الأصوات السمعية:

وهي الأصوات التي نسمعها بالأذن المجردة دون جهد وعناء ولا تسبب لنا أي نوع من الأذى أو الضرر لأنها موافقة لأداة السمع التي نتمتع بها من حيث قدرة تلك الأصوات من الاهتزازات والذبذبات والتردد والسرعة.

ب ـ الأصوات ما دون السمعية:

وهي الأصوات الضعيفة التي لا يستطيع جهاز السمع لدى الإنسان التقاط تردداتها إمّا لأنها ضعيفة جدا مثل صوت النملة التي سمعها سليمان حيث قال تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ ربّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}296.

لذلك؛ فإنّ سليمان تبسم ضاحكا من قولها الذي فيه من الحكمة ما أدركه ووقف عليه عندما سمع قولها، بينما عند ذكر الطير قال: {وَقَالَ يَا أَيُّهَا النّاس عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ}297. لأن صوته مسموع لسليمان ولغيره بينما غيره لم يسمع قول النملة، ولم يعلّم منطق الطير.

[296] - النمل 18- 19.

[297] - النمل 16.

وهذا النوع الدقيق من الأصوات عندما تتوفر الأجهزة التي ترفع تردده إلى المستوى السمعي الإنساني يمكن أن يسمعه بصرف النظر عن فهم معناه.

وأمّا الأصوات الأخرى التي تدخل ضمن هذا النوع ما تكون تحت السمع بسبب تشتت تردداتها وتبعثرها في الفضاء، يمكن أن نسمعها إذا استطعنا تكثيفها وإعادتها إلى نظامها الطبيعي من خلال مكثف كالمذيا ع والتلفزيون والهاتف.

ج ـ الأصوات ما فوق السمعية:

وهي الأصوات التي تحجبها حواجب فيزيائية ولا طاقة لجهاز السمع على استقبالها بسبب تلك الحواجب والحواجز ولا قدرة لجهاز السمع على تحمل أصواتها كالانفجارات الكونية أو الأصوات التي لا قدرة لنا على احتمالها لأن منها ما يسبب الصعق ومنها ما يفرغ الهواء لذلك قال النبي : "ما طلعت شمس قط إلا بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان من على الأرض غير الثقلين أيها النّاس هلموا إلى ربّكم ما قل وكفى خير ممّا كثر وألهى ولا غربّت إلا بجنبتيها ملكان يناديان اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا"298.

البصر:

المبصرات بالعين المجردة:

وكما أنّ السمع له أصوات موافقة لأداته على المستوى البشري يلتقط ما يتناسب مع حاسة السمع كذلك البصر له مرئيات موافقة المناسبة لأدواته وهي هذه المشاهدات التي تقع عليها أبصارنا فنقدر بهذه

[298] – صحيح ابن حبان، ج 8، ص 119.

المشاهدة حجم الأشياء وطولها وعرضها وأشكالها وألوانها وما إلى ذلك ممّا تقع عليه أبصارنا من هذه المشاهدات الموافقة لحاسة البصر.

الموجودات غير المبصرة:

إنّ عدم رؤيتنا لبعض الأشياء لا يعني أنّها غير موجودة، ولكن وجودها يدل على عدم قدرة جهاز البصر الوقوف على هذه الموجودات، أمّا الأجهزة الحساسة فيمكن أن تكون لنا صورة عن هذه الأشياء

مثل الأشعة تحت الحمراء التي تبثها الأرض وتلتقطها تلك الأجهزة ويُحوّلها الحاسوب إلى بيانات وصور للدراسة على شاشات مرئية أو إلى صور فوتوغرافية. والألوان التي تتولد بوساطة الحاسوب هي صناعية لأنّها لا تُطابق الألوان التي نراها عادة، وإن كانت تتماثل معها.

نحن نرى الضوء ونسمي طاقة الضوء بالطاقة المشعة، وهذه الطاقة تحمل أنواعا عديدة من الطاقة المشعة منها:

الأشعة تحت الحمراء

موجات الراديو

الأشعة فوق البنفسجية

الأشعة السينية

ومع هذا لا يمكننا رؤية هذه الأنواع، وإنّما الذي يمكن رؤيته منها هو ما نسميه بالضوء المرئي أو الشيء الذي اتفق على تسميته بالضوء.

فهذه الأدلة النقلية والعقلية وأدلة التجاربّ التي نقف على نتائجها إنّما صادرة عن موجودات نرى مصادرها وإن لم نرى بعضها، وإنّما استطعنا

الإفادة منها والسيطرة عليها على الرغم من عدم رؤيتنا لبعضها، أفلا يكون هذا دليلا على وجود أشياء كثيرة لا نراها ولا نعلمها مع أنّها موجودة.

أردنا من هذه الأدلة أن نثبت لمن لا يعتقد بتسبيح الجبال مع داوود وترجيع الطير معه ليس بالمعجزة، وإنّما حقّيقة قائمة تنقصنا الأداة للوصول إلى ما آتى الله تعالى داوود، والنتيجة التي نعتقدها من خلال ما تقدم أن الطير والجبال:

. تسبح مع داوود

. داوود وهِب القدرة على سماعها

. تسبح مع كل مسبّح

. غير داوود لم يسمع تسبيحها

. داوود وقف على حقّيقة الأمر بالسماع

نحن وقفنا على الأمر بالخبر القرآني

. ما كان لداوود فهو جائز لغيره

. ما كان جائز فهو ممكن

وعليه: فالطير والجبال تسبّح مع كلّ مسبّح ولكن لا نفقه تسبيحهم.

قد يتبادر للقارئ بعض الاندهاش والعجب ممّا نقول.

ولكن لا اندهاش ولا تعجب وإنما هي حقّيقة، لأنّ هذه المخلوقات كلها حقّيقة واحدة على الرغم تمايز:

. الأنواع

. الأجناس

. الأشكال

. الصّفات

. السّمات

هي حقّيقة واحدة يعودون فيها إلى بارئ هذا الوجود كله في أحيائه جميعا من:

. نباته

. حيوانه

. جماده

وكلّ ما اصطلحنا عليه من مسميات إن هي إلّا مخلوقات تسبح بحمده، وحين تصل صلة الإنسان بربّه عن طريق إيمانه وعقله إلى درجة الخلوص والإشراق والصفاء، فإنه ستنزاح له الحواجز وتتبدد تلك الشكوك، فتنجلي الحقّيقة وتنعدم المسافات والفواصل والحجب بين الأنواع والأجناس والأشكال والصفات والسمات التي تميز كل مخلوق وتعزله في مألوف حياتنا.

إنّ الله تعالى وهب عبده داود هذه الخاصية، وسخر الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق، وحشر له الطير ترجّع مع ترانيمه تسبيحا لله، ليعلمنا أن هذه الأشياء لم تخلق عبثا.

إذا كانت هذه التي نسميها حيوان وجماد تسبح بحمد الله تعالى مع داوود، فمن باب أولى أن الحي العاقل يكون أكثر تسبيحا، ومع ذلك فقد

كان تسبيح الجبال وتأويب الطير معه هبة فوق الملك والسلطان والخلافة مع الاصطفاء والنبوة.

وقال تعالى: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}299.

لقد كان داوود جامعا بين النبوة والملك وهو أول نبي جُمع له ذلك، فقد كان الملك والنبوة لا يجتمعان لأحد في بني إسرائيل قبل داوود على الرغم من كثرة أنبيائهم بدليل قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الملك عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحقّ بِالملك مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}300.

ولكن بعد أن قتل داوودُ جالوتَ وموت طالوت فيما بعد اجتمع ذلك لداوود حيث قال تعالى: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الملك وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمّا يَشَاءُ}301

فكان ملكه قويا عزيزا، وكان يسوسه بالحكمة والحزم جميعا، وفصل الخطاب قطعه والجزم فيه برأي لا تردد، وذلك الحكم مع القوّة غاية التمام في الحكم والسلطان في عالم الإنسان، ومع ذلك فسيأتي تفصيل

299 - ص 20.

300 - البقرة 246- 247.

301 - البقرة 251.

فصل الخطاب عند سليمان ممّا ورثه عن أبيه داوود عليهما الصّلاة والسّلام.

21 . مبتلى:

ومع ما أوتي داوود من:

. الملك

. الحكمة

. فصل الخطاب

. تسخير الجبال

. تأويب الطير

فهذا كلّه لم يمنع تعرّضه للفتنة واختباره بالابتلاء؛ وكانت عين الله ترعاه وتقود خطاه، وكان الله تعالى معه رعاية وعناية وتأييدا، ورحمته تعالى توقيه خطر الطريق وتعلمه كيف يتوخاه:

قال تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحقّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ}302.

---

[302] - ص 21- 24.

وبيان هذه الفتنة أنّ داود النبي الملك، كان يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك وللقضاء بين النّاس، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحا لله في المحراب، ومن الطبيعي وهو نبي ملك أنّه إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لا يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى النّاس.

لقد كانت المفاجأة لداوود في القوم الذين تسوروا المحراب وبعد رؤيته لهم لا بدّ أنه انتابه شيء، لذلك يستوقفنا أمران هما:

(الفزع والخوف)

الأوّل: قوله تعالى: (ففزع منهم)

إنّ مسألة الفزع من نبي ملك انتابه هذا الشعور بما صرّح به نصّ الآية الكريمة يدل على وقوع غير المتوقّع من جانبين:

الأوّل: دخول من لم يصرح له على داوود دون إذن.

الثاني: فزع النبي الملك من الخصم الذين تسوروا المحراب.

وهذا يؤيد أنّه لا خصم لداوود، بل الخصم فيما بينهم، وهو تبرئة له ممّا ادُعي عليه به بدليل (خصمان بغى بعضنا على بعض).

وأمّا الفزع هو اضطراب المشاعر مع هلع وشعور عميق بالخوف الفُجَائيّ مع غياب العقل فتنعدم القدرة على التفكير السليم لحظة الفزع. وغالبًا ما يحدث الفزع نتيجة أمور لم تكن في الحسبان وأثناء حدوثه ينتاب الإنسان:

. ضيق التنفس

. سرعة دقات القلب

. تغير لون البشرة

. التعرّق

. تشتّت الذّهن

. فقدان القدرة على التصرف

وقد يُصاحب ذلك نوع من الانسلاخ عن الواقع الآني لحظة وقوع الحدث وشعور بالفراغ.

هذه الأعراض والمشاعر الإنسانية التي تنتاب من يفزع من أمر تستغرق فترة العزلة إلى أن يتدخل عامل خارجي يُطمئن النفس وصولا إلى حالة أخرى متسلسلة نزولا ضمن دائرة الخوف الذي هو أقل وطأة من الفزع لأنّ الخوف أقل درجة من الفزع لأنّه مصحوب بالعقل والتفكير لذلك قال له الخصمان (لا تخف).

وهذا دليل على أنّ الخصم الذين تسوروا المحراب على داوود أحسوا أنّه أدركه شعور أخرجه عن حقّيقته النبوية إلى حقّيقته الإنسانية.

وقولهم لا تخف فيه أدلة أخرى منها:

. أنّ الخصم جميعهم قالوا لا تخف.

. إحساسهم بداوود متساوٍ.

. لغة الخطاب تنمّ عن اختبار.

الثاني: قوله تعالى: (لا تخف)

(خصمان بغى بعضنا على بعض)

وجئنا للتقاضي أمامك: (فاحكم بيننا بالحقّ ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط) وبدأ أحدهما فعرض خصومته: (إنَّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة. فقال: (أكفلنيها) أي: أجعلها لي وفي ملكي وكفالتي، (وعزّني في الخطاب) أي: شدد علي في القول وأغلظ.

والقضية كما عرضها أحد الخصوم تحمل ظلما صارخا مثيرا لا يحتمل التأويل لا لداوود ولا لغيره.

ولأنّه تأثر بما سمع ظن البعض أن داوود اندفع يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة لأنه:

لم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا

لم يطلب منه بيانا

لم يسمع منه إلى حجة

لكنّه مضى في مجاراة من يعرض قضيته ولم يقضِ أو يصدر حكما، قال تعالى: {قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ}303.

ومهما قيل في هذه القضية حول مسألة الخصوم والتعريف بهم أو محاولة الحكم عليهم من أنهم إنس أو ملائكة، فليس ذلك هدف يوصل إلى الغاية، وإنّما الغاية نفسها تكمن في صلب القضية فهل هي:

تعليم لداوود

أم أنّها اختبار

---

[303] - ص 24

أم أنّها ابتلاء من الله تعالى

نحن نرى أنّ الأسباب الثلاثة اجتمعت في هذه القضية:

امتحان النبي الملك الذي ولّاه الله أمر النّاس

القضاء بينهم بالحقّ والعدل

تبين الحقّ قبل إصدار الحكم

السماع من جميع الخصوم

عدم التأثر بلغة الخطاب

ذلك أنّ التأثر بخطاب أحد الخصوم إذا كان صاحب بيان وحجة ولسان طليق ربّما يستميل عواطف القاضي ومشاعره فيؤثر ذلك في عقله ونفسه فيحكم له وفق ما سمع منه، لذلك قال رسول الله: "إنّكم تختصمون، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فإنما أقضي بينكم على نحو ما أسمع منكم، فمن قضيت له من حقّ أخيه شيئا، فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من نار جهنم يأتي بها يوم القيامة"[304].

وظاهر النص جليّ بأن الخصم اختار أن يعرض القضية على داوود في صورة صارخة مثيرة. وهنا وجب على القاضي:

ألا يستثار

ألا يتعجل الحكم

ألا يأخذ بظاهر قول واحد

[304] – المعجم الكبير، ج 17، ص 199.

أن يسمع لجميع الخصوم

أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته

فهذه الأمور تغير وجه المسألة كليا أو جزئيا وينكشف أن ذلك الظاهر كان:

إمّا خادعا

أو كاذبا

أو ناقصا

وعلى ما تقدّم استدرك داود وتنبه إلى أنّ ذلك من الابتلاء:

(وظن داود أنّما فتناه)

وهنا أدركته طبيعته لأنّه أواب (فاستغفر ربّه وخرّ راكعا وأناب)

فقال تعالى: (فغفرنا له ذلك وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب)

لقد أخذت بعض التفاسير عن الإسرائيليات آراء كثيرة حول ظنّ داوود بالفتنة وخاضت خوضا تتنزه عنه طبيعة النبوة، ولا يمكن أن تتفق مع حقّيقتها، وحتى الروايات التي حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطا بعيدا، لذلك فهي لا تصلح للنظر فيها من الأساس، لأنها تخالف تزكية الله تعالى لنبيه داوود في قوله تعالى: {فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}[305].

[305] - ص 25.

لقد كانت مغفرة الله تعالى لعبده داوود على قوله لأحد الخصوم (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) قبل أن يسمع من الآخر، وليس كما ذكرت بعض المصادر ممّا خاضت فيه.

فاله تعالى يغفر لأنبيائه عليهم الصّلاة والسّلام لإنعامه عليهم لا لأنّهم ارتكبوا خطا أو هفوة كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}306.

والتعقيب القرآني الذي جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة، ويحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبده داوود الذي ولاه القضاء والحكم بين النّاس وجعله خليفة قال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}307.

وتكريما لداوود فقد جاء التنصيص عليه بالخلافة في الأرض، ولذا فقد استرجع وأناب من أجل الحكم بين النّاس بالحقّ، وسن سنة وجب اتباعها منها:

عدم اتباع الهوى

عدم التأثر بما يقوله الخصم

الوقوف على جميع الأدلة

الإلمام بحيثيات القضية

306 - الفتح 1، 2.

307 - ص 26.

التريث والتثبت والتبيّن

فقد استدرك داوود الموقف برعاية الله له وحفظه من أن يقع في الزلل حيث نبهه الله تعالى:

عند أول لفتة

رده إلى الصواب عند أول اندفاعة

حذره النهاية البعيدة

علما أنه لم يخط إلى ذلك خطوة، وأمّا ما صدر منه: {قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ}308.

فإنّ قوله هذا لم يكن حكما وإنّما يندرج تحت:

إبداء رأي

تعجب من القضية

استغراب

ولذلك، لم يفصل الحكم بين الخصوم لما تداركه الله به من رحمة، وهو من فضل الله على المصطفين من عباده. فهم ببشريتهم قد تعثر أقدامهم أقل عثرة:

فيقيلها الله

يأخذ بيدهم

يعلمهم،

---

308 - ص 24.

يوفقهم إلى الإنابة

يغفر لهم

يغدق عليهم، بعد الابتلاء

ولذلك، جاء التنصيص على خلافته في الأرض بعد أن ابتلاه الله تعالى ونجح في هذا الاختبار الذي ترتب عليه خلافة في الأرض. وكأنّه قال: يا داوود قد غفرنا لك وجعلناك خليفة في الأرض.

لأنّ الكلام بهذه الصيغة: إنا جعلناك خليفة بضمير الخطاب في حقّ داود فإنّه محقّق ليس فيه احتمال لغير المقصود لأنّ الخلافة على ثلاثة أنواع:

أ . خلافة الجعل: هي عطاء وفضل من الله يؤتيه من يشاء كما قال تعالى في حقّ داوود (إنّا جعلناك خليفة) أي أعطيناك الخلافة

ب . خلافة الاصطفاء: وهي أنّ جميع أنبياء الله ورسوله خلفاء في الأرض وإن لم يأتي نص بذلك، كونهم مهيئين ومستعدين وعندهم الإرادة ومارسوا الفعل

ج . خلافة تهيؤ واستعداد: كونها مخصوصة بالإنسان كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا}309.

وهذا يعني: أنّ الإنسان وإن خلق مهيأ ومستعدا للخلافة ولكن بالقوّة، فلا يبلغ درجاتها بالفعل إلا عندما يأخذ بالأسباب.

---

309 - فاطر 39.

وأمّا قوله تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}310. فهو يندرج تحت أحد هذه الأنواع، لأنّ الله تعالى أخبر عن المعنى وأخبر عن الصورة ولذا فإنّ:

. الجعل يتعلق بعالم المعنى

. الخلقية يتعلق بعالم الصورة

ولهذا، لما أخبر الله تعالى عن صورة آدم قال: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ}311.

ولما أخبر عن معناه قال: (إني جاعل في الأرض خليفة)

ولما كان داوود معروفا صورة ومعنىً قال: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ}312. ناداه باسمه وخصّه بضمير الخطاب المباشر تنصيصا عليه.

وقد امتن الله على نبيه داود عليه السّلام فقال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}313

إنّ من فضل الله تعالى على داوود أن جعل الحديد ليّنا في يده يسهل عليه تطويعه ليصنع منه ما علمه الله فيعمل منه الدروع وآلات الحربّ على أتم النظم وأحكم الأوضاع فيجعل حلقاتها على قدر الحاجة.

310 - البقرة 30.

311 - فاطر 71.

312 - ص 26.

313 - سبأ 10-11.

ونعتقد أنّ داوود هو أوّل من عمل الدروع حلقات كي تسهل الحركة فيها ولا تعيق المقاتل كما كانت قبل ذلك من صفائح معدنية متماسكة تقيّد الحركة والمناورة في الحروب، إضافة إلى زيادة في الوزن كونها صفائح متماسكة لا يتخللها فراغ ممّا يضيف عبء آخر من التعب والجهد.

نريد من هذا التقديم أن نبرهن أنّ الله تعالى وإن آتى داوود فضلا كبيرا يتمثل جزء منه فيما يأتي:

تسبيح الجبال

تأويب الطير

الزبور

القضاء

الملك

الحكمة

العلم

إلانة الحديد

صناعة الدروع

التقدير في السرد

إلّا أنّ الله سبحانه وتعالى أراد من هذا الفضل الذي امتن به على داوود أن يبين المنهج الرّباني للإنسان وسنة الله في خلقه في توضيح أمور الحياة ومستلزماتها تتمثل في أمور على ما نعتقد منها:

. المنهج

. المبادئ

أمّا التربّوي؛ فهو الطريق الذي سلكه داوود فيما أمره الله باتباعه والتمسك بأحكامه وأسسه حيث قال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}314.

وأمّا المبادئ التربّوية في تلك الأحكام والنظم والقيم والفضائل التي أرساها ودعا إليها، ممّا يقوم على تهذيب الفرد وترقيته في الخلق والسلوك، كأحكام الحلال الحرام والقيم الأخلاقية المختلفة التي أمر الله تعالى آل داوود بها حيث قال تعالى: {اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}315.

فالمنهج مجموعة القواعد التي تؤسّس على ضوئها المبادئ لتصبح سلوكا اجتماعيا يعمم على جميع الأفراد، ولا يدخل في ذلك الأحكام والقوانين.

ثم إنّ هذا المنهج الذي أمر به داوود يعتبر في مجموعه منهاجا للذات الإنسانية المتمثلة في كل من:

. النفس

. الجسد

. العقل

[314] – ص 26.

[315] – سبأ 13.

ثم إنّ المنهج، يتفرع إلى شعب وفروع وأقسام جزئية كثيرة، وإنّما نأخذ بالاعتبار أسسه ودعائمه الكلية الكبرى، التي تكشف عن مدى أهميتها في نطاق التربيّة والاقتداء وعن مدى حاجة المقتدي إلى تلك الأسس منها:

. المحاكمة العقلية

. العبرة والتاريخية

. الإثارة الوجدانية

. التفكّر والتذكّر

هذه الأسس وإن كانت منفصلة عن بعضها، إلّا أنّها تشكل في مجموعها السلم الذي لابد منه لترقية النفس والعقل صعودا إلى مستوى التقويم الأحسن الذي تظل الفطرة الإنسانية الأصيلة نزاعة إليه.

فالعقل وحده لا يكتسب ثقة النفس ما لم يدعمه شاهد من الواقع الذي يصدقه وتلك هي العبرة التاريخية بأحداثها، وحتى ينال العقل من النفس هذه الثقة لا يستحوذ عليها بالقيادة والتوجيه ما لم يجند لها العواطف التي تدفع باتجاهها، وتلك هي الإثارة الوجدانية.

فإذا تضافرت هذه العوامل الثلاثة في ذات الإنسان، واتجهت به إلى سبيله، لم يقم أمامها أيّ عائق، ولم يحجزها عن الوصول إلى الغاية أيّ حاجز.

وعليه: فإنّ قوله تعالى مخاطبا داوود بقوله: {أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}316. أنّ هذا أمر يتمثل فيه:

---

316 - سبأ 11.

تعليم من الله

وجوب التنفيذ

دقة العمل

تجربّة جديدة

مسألة عقلية

مدعاة للإثارة

وجوب الاتباع

فإذا نظرنا إلى هذه الأمور نجد أنّها عوامل أساسية في تعليم الإنسان من حيث:

التفكر والتدبّر

التحفيز على العمل

التأثر به

وجوب اتباعه

ممّا يدفع بالإنسان إلى السبيل الأقوم على مستوى الحياة وسوقه في طريق السعادة والرشاد بالمحاكمة العقلية التي:

تعرف الإنسان بذاته

يختار الأسلوب الأصلح لنفسه

الاعتماد على العقل في الاختيار

الوصول إلى المعرفة

المطالبة بالمزيد

ذلك أنّ جميع المعارف التي يكتسبها الإنسان إنّما هي فرع لمعرفة سابقة، هي معرفته لذاته، وبدون أن تتوفر هذه المعرفة الأولى لا يمكن أن يحرز الإنسان أي ميزان سليم للمعارف الفرعية الأخرى وعلاقتها بالآخر، لذلك نجد قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}317. يصب في جانبين أساسيين هما:

الإيمان بالله

المعرفة

ولذا؛ فإنّه يترتب على الإيمان والمعرفة أنّه كان صديقا نبيا.

فالإيمان مكمنه القلب وهو الذي يصدر الأحكام على الكليات الكبرى من الحقّائق العقلية أو الوجودية

والمعرفة مكمنها العقل ولو لا المعرفة، لما استطاع الإنسان أن يقف على شيء من حقّائق الكون التي تحيط به، ولما أدرك العلاقة ممّا بينه وبينها.

وبالمقابل فإنّ داوود كونه نبيا من أنبياء الله تعالى، لابدّ أنّ درجة المعرفة لديه تساوي درجة الإيمان وتوازيها، بحيث امتلك درجة عالية من المعرفة الدقيقة لذاته وحدود إمكاناته، وبالتالي فقد امتلك أيضا من معرفة معنى ربّوبية الله له، بدليل أنّه (خرّ راكعا وأناب).

---

[317] - النمل 15.

ولما كان داوود على هذا القدر من الإيمان والمعرفة المؤهلة لأن يكون قدوة تحتذى فإنّ الله تعالى:

. آتاه حكما

. آتاه علما

. ألان له الحديد

. علمه صنعة لبوسٍ

. عمل السابغات

. تقدير السّرد

ولذا، فقد تمثل في هذا الجانب مظهر من أعظم مظاهر التربّية في التعليم لداوود ولمن جاء بعده، لأنها جاءت على قدر الطاقة الإدراكية لداوود، وبالتالي فهو ينقلها لكل إنسان على قدر طاقته الإيمانية والإدراكية، دون أن يسبّب ذلك أي خلل في الأفهام ولا أي تضاربّ بين المفاهيم.

فمن المعلوم أن الله سبحانه وتعالى ألان لداوود الحديد بطريقة لا نعلمها ولا نعلم عنها شيء إلا أنّ الحديد أصبح ملانا لداوود كيفما شاء، ومن المعلوم أيضا أنّ طريقة إلانة الحديد لداوود لم يعلمها داوود لأحد وذلك لسببين:

الأوّل: أنّنا الآن نصهر الحديد بالنّار من أجل إلانته.

الثاني: ليس هناك أحد لديه القدرة والطاقة الإدراكية لتعلم إلانة الحديد بالطريقة التي أُلين بها لداوود

ولذا لا يمكن للبشر أن يفهموا إلانة الحديد دون صهره بالنّار، لأنّ هذا ما جرى عليه العلم والتجربّة فأصبح قاسما مشتركا من معرفة القواعد والأسّس الذي لا بد منه في هذا الجانب، ويبقى السؤال:

هل أنّ البشر أخذوا ذلك عن داوود بطريقته التي كان يعمل بها؟

أم أنّ داوود كان يلين الحديد لنفسه بما ألانه الله له، ومن بعده تعلّم النّاس إلانة الحديد صهرا بالطريقة التي نألفها؟

النبي
داوود من السنّة

داوود عليه الصّلاة والسّلام من أنبياء الله الكرام (1011 ق.م ـ 971 ق. م.) هو داود بن ايشا بن عويد بن عابر، إلى أن ينتهي النسب إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وقد جمع الله تبارك وتعالى له بين النبوّة والملك وأنزل عليه الزبور. له من الصّفات الحميدة ما له، وله من التميّز ما له، وعلّمه الله من الآيات المعجزات الكثير، وقد وَرِثه من بعده أبنه سليمان عليهما الصّلاة والسّلام. عن وهب بن منبه "كان داوود عليه السّلام، قصيرا، أزرق العينين، قليل الشّعر، طاهر القلب نقيه، وهو الذي قتل جالوت؛ فأحبّته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم، فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك إلى داود عليه السّلام، وجمع الله له بين الملك والنبوّة318.

قال تعالى: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الملك وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}319؛ فقد ذكر ابن جرير في تاريخه: أنّ جالوت لما بارز طالوت؛ فقال له: أخرج إلي أو أخرج إليك؛ فندب طالوت النّاس؛ فانتدب داود، فقتل جالوت؛ فمال النّاس إلى داود عليه السّلام، حتى لم يكن لطالوت ذكر وخلعوا طالوت وولّوا عليهم داود. وقيل: إن ذلك عن أمر شمويل، حتى قال بعضهم: إنّه ولاه قبل الوقعة.

قال تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ

318 المجالسة وجواهر العلم، 1، 310.

319 البقرة 251.

فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحقّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[320].

لقد تمّ تفسير هذه الآيات الكريمات في بداية هذا البحث، وقد أكّدنا على عصمة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام التي تقضي بعدم صحة ما ورد في بعض كتب التفسير والتاريخ من قصّة المرأة مع نبي الله داود عليه السّلام.

وهنا يقول أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السّلام، ولا أوتي برجل يقول: إنّ داود ارتكب الفاحشة إلّا ضربّته حدّين أحدهما للقذف، والآخر لأجل النبوّة، لعظم ما ارتكب وجليل ما احتقب، يرمي من قد رفع الله محلّه، وأرسله من خلقه رحمة للعالمين وحجّة للمجتهدين"[321].

إنَّ تلبيس تلك التهمة لنبي كريم من أنبياء الله عليهم الصّلاة والسّلام لا يليق، وهو لا يزيد عن كونه مظلمة، فتدبير حيلة التخلص من الزّوج وقتله، لا يمكن أن يكون صفة لنبي من أنبياء الله. وهكذا هو مثل النعجة؛ فالمعنى الحقّيقي لها معروف أنّه في الغنم، وصرفه إلى المرأة معنى

---

[320] ص 21 . 26.

[321] قصص الأنبياء (عرائس المجالس)، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري: ٢٨١.

مجازي لم يقم عليه دليل، والقاعدة المطردة حمل الشيء على حقّيقته حتى يقوم دليل على إرادة المجاز.

أمّا فزع داود عليه السّلام هو مجيئهما من غير الباب، فظن أنّهما أرادا به سوء حينما تسورا المحراب. أمّا الذّنب فلم يذكر الله تعالى ما هو ذنب داود عليه السّلام الذي استغفر منه؛ لذلك لا داعي لتحميلِ الآيات ما لا تحتمل. والتوبة ليست مقصورة على التوبة من الذنب، بل التوبة قد تكون من البعد عن ذكر الله مدّة من الزّمن كما يقول الخارج من الخلاء: (غفرانك)، وقد تكون التوبة في بناء بيته قبل بناء بيت الله، قال بعض المفسرين: "وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السّلام لم يذكره الله؛ لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنّما الفائدة ما قصّه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنّه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها"[322].

وقوله تعالى: {دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ}[323]

أوردت هاتان الآيات خبر حادثة عدَتْ فيها غنمُ أحد الخصمين في الليل على زرع الخصم الآخر فاحتكما إلى داود عليه السّلام، فكان حكم داود: أن تدفع الغنم إلى صاحب الزرع؛ لسبب اقتضى عنده ترجيح ذلك، ولعل السّبب أن ثمن تلك الغنم يساوي ثمن ما أتلفت من الحرث، فكان ذلك حكمًا عادلا في تعويض ما أتلف، وأمّا حكم سليمان عليه السّلام فكان أن رأى أن تدفع الغنم لأصحاب الحرث مدّة عام كامل كي ينتفعوا من ألبانها وأصوافها ونسلها ويدفع الحرث إلى أصحاب الغنم؛

---

[322] تفسير السعدي، ص 711.

[323] الأنبياء 78، 79.

ليقوموا بإصلاحه، فإذا كمل الحرث ورجع إلى حالته الأولى عاد إلى كل فريق مالُه، فرجع داود إلى حكم سليمان ابنه؛ لأنه أرفق بالخصمين، وإن كان قضاء داود صحيحًا؛ إذ الأصل في الغرم أن يكون تعويضًا ناجزا؛ ولذلك أثنى الله عليهما، (وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا).

داوود نبي كريم وصيفاته حميدة حسنة؛ فكيف لنا أن نتّهمه بما هو تفسيرا وليس نصّا صريحا، عَنْ عَلِيِّ بْنِ ربّاحٍ قَالَ: سَمِعْتُ وَهْبًا الذِمَّارِيَّ، يُحَدِّثُ عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، "أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام سَأَلَ ربّهُ عزّ وجلّ أَنْ يُخْبِرَهُ بِأَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَيْهِ، فَقَالَ: عَشْرًا إِذَا فَعَلْتَهُنَّ يَا دَاوُدُ، لَا تَذْكُرَنَّ أَحَدًا مِنْ خَلْقِي إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَا تَغْتَابَنَّ أَحَدًا مِنْ خَلْقِي، وَلَا تَحْسُدَنَّ أَحَدًا مِنْ خَلْقِي، قَالَ دَاوُدُ: يَا ربّ، هَؤُلَاءِ الثَّلَاثُ لَا أَسْتَطِيعُ فَأَمْسِكْ عَلَّي السَّبْعَ، وَلَكِنْ يَا ربّ أَخْبِرْنِي بِأَحِبَّائِكَ مِنْ خَلْقِكَ أُحِبُّهُمْ لَكَ، قَالَ: ذُو سُلْطَانٍ يَرْحَمُ النّاس، وَيَحْكُمُ لِلنَّاسِ كَمَا يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَفِي طَاعَةِ اللَّهِ عزّ وجلّ، وَرَجُلٌ يُفْنِي شَبَابَهُ وَقُوتَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عزّ وجلّ، وَرَجُلٌ كَانَ قَلْبُهُ مُعَلَّقًا فِي الْمَسَاجِدِ مِنْ حُبِّهِ إِيَّاهَا، وَرَجُلٌ لَقِيَ امْرَأَةً حَسْنَاءَ فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَتَرَكَهَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ حَيْثُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَعَهُ، نَقِيَّةٌ قُلُوبُهُمْ، طَيِّبٌ كَسْبُهُمْ، يَتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، أُذْكَرُ بِهِمْ وَيُذْكَرُونَ بِذِكْرِي، وَرَجُلٌ فَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عزّ وجلّ"324

داوود يأكل من عمل يده:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: "كَانَ دَاوُدُ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمِلِ يَدِهِ"325 ذلك هو داوود الذي ألان الله له الحديد، وعلمه صنعة

324 الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد، 1، 161.

325 صحيح ابن حبان، محقّقا، 14، 119.

الدروع، وكان يأكل من هذه الصّنعة؛ ولهذا قالوا: إنّ داود كان حدادا مع كونه ملكا، فهذا يدلّ على فضل أكل الإنسان من عمل يده.

ولأنّه العمل؛ فهو الذي يربّط الحاضر تدبّرا بالمستقبل تفكّرا، ولذلك؛ فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل فلا معنى للحياة؛ فالله خلق أبانا آدم في النّعيم ليعيش وبنيه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزائلة (الحياة المنقوصة) حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك؛ وجب العمل، وخير العمل ما يقوم به الإنسان بذاته، ووفقا لمقدرته، ذلك لأنّ عمل اليد يباركه الخالق.

وعلى المستوى العام؛ فالعمل يقود إلى حلّ التأزمات التي تواجه الكثيرين، كونهم لا يعملون، بل يعتمدون على جهد الغير.

ولسائل أن يسأل:

أيّ حلّ تعني؟

أقول: حلّ أزمة الحياة الدّنيا، التي تتطلّب العمل، بهدف النّهوض، وغرض الارتقاء، وغاية بلوغ القمّة (الحياة الباقية) حيث تُرتق الأرض في السّماء بعد أن فُتقت منها.

فيجب الإقدام على العمل المشبع للحاجات المتطوّرة بلا حدود، ذلك لأنّ الحدود عوائق أمام التقدّم تجاه بلوغ الأفضل والأعظم. ولهذا؛ فلا ينبغي أن يرتضي بنو آدم بالفقر؛ فالفقر مرض ينبغي القضاء عليه بالعمل المنتج؛ فلو عمل بنو آدم جميعهم، لما وجد الفقر مكان له على الأرض، ولأنّهم لا يعملون جميعا؛ فسيظلون فقراء مهما استغنى منهم من استغنى.

ولذلك؛ فالغناء رحمة؛ والفقر أزمة ومواجع، ولأنّهما كذلك، وجب على الأغنياء العمل إلى جانب ما يعملون ويجنون من مكاسب من أجل إزالة الألم عن الفقراء وتحويلهم إلى ميادين العمل المنتج ارتقاء.

فالغنى ارتقاء حقّ لا يكون إلّا نتاج العمل المرضي، أمّا الفقر ليس بحقّ، بل الفقر أوجدته أسباب وعلل ينبغي أن تزال. أمّا العجزة والقصّر؛ فحقّوق عيشهم المرضي على كواهل العاملين من ذويهم، ولكن إن كان ذووهم يعيشون اتكالا على الغير؛ فالعيب لا شكّ أنّه سيلاحقّهم ومن ورائهم سيلاحقّ المسؤولين في الدّولة.

إذا؛ فالارتقاء لا يمكن أن يكون على حساب الغير، بل يكون بجهودهم المشتركة حيث لا إقصاء ولا تغييب لأحد عن ممّارسة حقّوقه، أو أداء واجباته، أو حمْل مسؤولياته. وفي المقابل يحدث الانحدار والنّزول سُفلية لمن يتخلّى عمّا يجب التمسّك به حقّا وواجبا ومسؤولية.

ولذلك، ينبغي أن يعمل الجميع بهدف الاستغناء والحياة الرّاقية، وكلّما بلغ الجميع مستوى من العيش الرّفيع الرّغد يجب أن يفكّروا فيما هو أرفع وأرغد منه حتى تُرتق الأرض والسّماء بالعمل.

ولأنّ العمل ارتقاء يؤدّي إلى ما يُنقذ بني آدم من الألم، كما يؤدّي بهم إلى ما يُغرقهم فيه؛ فهم بين هذا وذاك بين ارتقاء فيه العمل يُتقن، وبين دُونية بها يُهمل وينحرف إلى ما لا يجب. ولذلك، كان الصّدق ارتقاء في مواجهة الكذب انحدارا، وكان العدل ارتقاء في مواجهة الظلم انحدارا، وهكذا كان الحقّ في مواجهة الباطل، والحرّيّة في مواجهة الاستعباد، والديمقراطية في مواجهة الدكتاتورية، والاستيعاب في مواجهة الهيمنة والإقصاء، وبين هذا وذاك يجب التحدّي بما يمكّن من الارتقاء قمّة.

ولأنّ بني آدم بين ارتقاء ودونية؛ فهم بينهما بين ما يرسّخ قيمة الإنسان رفعة ونهضة ومكانة، وبين ما يؤدّي إلى التخلّف والفاقة وتقليل الشأن.

ولذلك؛ فالعمل الصّالح ارتقاء لا يكون إلّا عملا منتجا ومتقنا ومبدعا ومرسّخا لقيمة الإنسان، وفي المقابل العمل الفاسد والرّغبة الفاسدة، لا يكونان إلّا على حساب القيم الحميدة، وعلى حساب مصالح الآخرين، ورغباتهم ومصائرهم وما يشبع حاجاتهم المتطوّرة والمتنوّعة، ومن ثمّ؛ فالعفّة والأمانة والنّزاهة وتحمّل أعباء المسؤولية ارتقاء، ستظل قيما في مواجهة تلك القيم المؤدّية بأصحابها إلى السُفلية والدّونية التي تتمركز على الأنا.

وقد ضربّ الرّسول مثلا لمرهفي الشعور بنبي الله داود عليه السّلام، واختاره من بين الأنبياء مع أنّ آدم كان حراثا، ونوحا كان نجّارا، وإدريس كان خياطا، وموسى كان راعيا وهكذا لبقية الرّسُل عليهم الصّلات والسّلام حرف متنوّعة، ولكنّ اختيار داوود جاء لاقتصاره في أكله على ما يعمل بيده، وهو لم يكن لاحتياجه لأنّه كان خليفة الله في أرضه. ومع ذلك اختار الأكل من الطريق الأفضل وهو عمل يده، وفي عمل داود عظمة أخرى، وهي أنّه كان يعمل الّدروع من الحديد ويبيعها ويأكل من ثمنها، وقيل: "إنّه كان يعمل القفاف أو كان يعمل زرادا "حدادا" أو ضافر خوص"326.

عن ابْنُ سَمْعَانَ، قَالَ: "بَلَغَنَا أَنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ، مَرَّ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام، وَهُوَ يَصْنَعُ دِرْعًا، فَوَقَفَ عَلَيْهِ يَتَعَجَّبُ بِمَا يَصْنَعُ وَلَا يَدْرِي مَا هِيَ فَصَمَتَ عَنْ مَسْأَلَتِهِ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَلَبِسَهَا،

[326] المنهل الحديث في شرح الحديث، 2، 247.

فَعَرَفَ لُقْمَانُ مَا هِيَ عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، فَقَالَ لُقْمَانُ: الصَّمْتُ حِكْمَةٌ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ"327.

وعليه: لا شيء يدخل الجنّة إلّا العمل الصالح، العمل المنتج الذي يسهم في إشباع الحاجة وحاجات الغير، ومن هنا فمن يعمل صالحا يجني ثماره ومن يعمل طالحا يجني ثماره، ولهذا فمن أراد الجنّة فعليه باتباع الآتي: "عن ثنا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، ثنا عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ مَعْقِلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَسْأَلُ عَمِّي وَهْبَ بْنَ مُنَبِّهٍ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَقَالَ: حَدِّثْنِي رَحِمَكَ اللهُ عَنْ زَبُورِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام. فَقَالَ: "نَعَمْ، وَجَدْتُ فِي آخِرِهِ ثَلَاثِينَ سَطْرًا: يَا دَاوُدُ، اسْمَعْ مِنِّي، الحقّ أَقُولُ، مَنْ لَقِيَنِي وَهُوَ يُحِبُّنِي أَدْخَلْتُهُ جَنَّتِي، يَا دَاوُدُ اسْمَعْ مِنِّي وَالحقّ أَقُولُ، مَنْ لَقِيَنِي وَهُوَ يَخَافُ عَذَابِي لَمْ أُعَذِّبْهُ، يَا دَاوُدُ، اسْمَعْ مِنِّي وَالحقّ أَقُولُ، مَنْ لَقِيَنِي وَهُوَ مُسْتَحْيِ مِنْ مَعَاصِيهِ أَنْسَيْتُ الْحَفَظَةَ ذُنُوبَهُ، يَا دَاوُدُ، اسْمَعْ مِنِّي وَالحقّ أَقُولُ، لَوْ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي عَمِلَ حَشْوَ الدُّنْيَا ذُنُوبًا مَغَارِبَهَا وَمَشَارِقَهَا ثُمَّ نَدِمَ حَلْبَ شَاةٍ وَاسْتَغْفَرَنِي مَرَّةً وَاحِدَةً، وَعَلِمْتُ مِنْ قَلْبِهِ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهَا، أَلْقَيْتُهَا عَنْهُ أَسْرَعَ مِنْ هُبُوطِ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، يَا دَاوُدُ، اسْمَعْ مِنِّي وَالحقّ أَقُولُ، لَوْ أَنَّ عَبْدًا أَتَانِي بِحَسَنَةٍ وَاحِدَةٍ حَكَّمْتُهُ فِي جَنَّتِي. قَالَ دَاوُدُ: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ لِمَنْ عَرَفَكَ أَنْ يَقْطَعَ رَجَاءَهُ مِنْكَ. قَالَ: يَا دَاوُدُ، إِنَّمَا يَكْفِي أَوْلِيَائِي الْيَسِيرُ مِنَ الْعَمَلِ، كَمَا يَكْفِي الطَّعَامَ الْقَلِيلُ مِنَ الْمِلْحِ، يَا دَاوُدُ، هَلْ تَدْرِي مَتَى أَتَوَلَّاهُمْ؟ إِذَا طَهَّرُوا قُلُوبَهُمْ مِنَ الشِّرْكِ، وَنَزَعُوا مِنْ قُلُوبِهِمُ الشَّكَّ، وَعَلِمُوا أَنَّ لِيَ جَنَّةً وَنَارًا، وَأَنِّي أُحْيِي وَأُمِيتُ، وَأَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، وَأَنِّي لَمْ أَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا، فَإِنْ تَوَفَّيْتُهُمْ بِيَسِيرٍ مِنَ الْعَمَلِ وَهُمْ يُوقِنُونَ بِذَلِكَ، جَعَلْتُهُ عَظِيمًا عِنْدَهُمْ، هَلْ تَدْرِي يَا دَاوُدُ مَنْ أَسْرَعُ مَرًّا عَلَى الصِّرَاطِ؟ الَّذِينَ يَرْضَوْنَ بِحُكْمِي، وَأَلْسِنَتُهُمْ رَطْبَةٌ مِنْ ذِكْرِي، هَلْ تَدْرِي يَا دَاوُدُ أَيُّ

327 الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير، ص، 507.

الْمُؤْمِنِينَ أَعْظَمُ مَنْزِلَةً عِنْدِي؟ الَّذِي هُوَ بِمَا أَعْطَى أَشَدُّ فَرَحًا بِمَا حَبَسَ، هَلْ تَدْرِي يَا دَاوُدُ أَيُّ الْفُقَرَاءِ أَفْضَلُ؟ الَّذِينَ يَرْضَوْنَ بِحُكْمِي وَبِقِسْمَتِي، وَيَحْمَدُونَنِي عَلَى مَا أَنْعَمْتُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ، هَلْ تَدْرِي يَا دَاوُدُ أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أُطِيلَ حَيَاتَهُ؟ الَّذِي إِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، اقْشَعَرَّ جِلْدُهُ، فَإِنِّي أَكْرَهُ لَهُ الْمَوْتَ كَمَا يَكْرَهُهُ الْوَالِدُ لِوَلَدِهِ، وَلَابُدَّ مِنْهُ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسُرَّهُ فِي دَارٍ سِوَى هَذِهِ الدَّارِ، فَإِنَّ نَعِيمَهَا فِيهَا بَلَاءٌ، وَرَخَاءَهَا فِيهَا شِدَّةٌ، فِيهَا عَدُوٌّ لَا يَأْلُوهُمْ بِهَا خَبَالًا، يَجْرِي مِنْهُمْ مَجْرَى الدَّمِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَجَّلْتُ أَوْلِيَائِي إِلَى الجنّة، لَوْلَا ذَلِكَ مَا مَاتَ آدَمُ وَلَا أَوْلَادُهُ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يُنْفَخَ فِي الصُّورِ، إِنِّي أَدْرِي مَا تَقُولُ فِي نَفْسِكَ يَا دَاوُدُ، تَقُولُ قَطَعْتَ عَنْهُمْ عِبَادَتَكَ، أَمَا تَعْلَمُ يَا دَاوُدُ أَنِّي أُعِينُ الْمُؤْمِنَ عَلَى عَثْرَةٍ يَعْثُرُهَا، فَكَيْفَ إِذَا ذَاقَ الْمَوْتَ وَهُوَ أَعْظَمُ الْمَصَائِبِ، وَتَرَى جَسَدَهُ الطَّيِّبَ بَيْنَ أَطْبَاقِ الثَّرَى، إِنَّمَا أَحْبِسُهُ طُولَ مَا أَحْبِسُهُ لَأُعْظِمَ لَهُ الْأَجْرَ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ أَحْسَنَ مَا كَانَ يَعْمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ دَاوُدُ: لَكَ الْحَمْدُ إِلَهِي، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سَمَّيْتَ نَفْسَكَ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. إِلَهِي، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يُعَزِّي الْحَزِينَ عَلَى الْمَصَائِبِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ؟ قَالَ: جَزَاؤُهُ أَنْ أُلْبِسَهُ رِدَاءَ الْإِيمَانِ، ثُمَّ لَا أَنْزِعُهُ عَنْهُ أَبَدًا. قَالَ: إِلَهِي، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يُشَيِّعُ الْجَنَائِزَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ؟ قَالَ: جَزَاؤُهُ أَنْ تُشَيِّعَهُ مَلَائِكَتِي يَوْمَ يَمُوتُ، وَأُصَلِّيَ عَلَى رُوحِهِ فِي الْأَرْوَاحِ. قَالَ: إِلَهِي، فَمَا جَزَاءُ مُسَاعِدِ الْأَرْمَلَةِ وَالْيَتِيمِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ؟ قَالَ: جَزَاؤُهُ أَنْ أُظِلَّهُ فِي ظِلِّ عَرْشِي، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي. قَالَ: إِلَهِي، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَبْكِي مِنْ خَشْيَتِكَ حَتَّى تَسِيلَ دُمُوعُهُ عَلَى وَجْنَتَيْهِ؟ قَالَ: جَزَاؤُهُ أَنْ أُحَرِّمَ وَجْهَهُ عَلَى النّار"[328].

وعليه وجب العمل للأسباب الآتية:

[328] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 4، 46.

1 . طاعة لأمر الله عزّ وجلّ، {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}329.

2 . اتباع سُنن الأنبياء والرّسُل الكرام. قَالَ رَسُولُ اللهِ: "خُفِّفَتْ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام الْقِرَاءَةُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ تُسْرَجُ، فَكَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ"330

3 . ضرورة حياتية.

4 . مشبع للحاجات المتطوّرة.

5 . مخرج من الفقر.

6 . محدث للنُقلة وصُنع المستقبل.

7 . مُمكّن من نيل المأمول.

بناء البيت:

بنا آدم البيت الحرام ورفع إبراهيم القواعد، أمّا المسجد الأقصى فلا تأكيدات على من الذي بناه، ولكن يقال أنّ سليمان عليه السّلام هو من أعاد بنائه وتوسيعه. عَنْ رَافِعِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: "قَالَ اللهُ تَعَالَى لِدَاودَ: ابْنِ لِي بَيْتًا فِي الْأَرْضِ، فَبَنَى دَاودُ عَلَيْهِ السّلام بَيْتًا لِنَفْسِهِ قَبْلَ الْبَيْتِ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا دَاودُ بَنَيْتَ بَيْتَكَ قَبْلَ بَيْتِي؟ فَقَالَ: أَيْ ربّ، هَكَذَا قُلْتَ فِيمَا قَضَيْتَ: مَنْ مَلَكَ اسْتَأْثَرَ، ثُمَّ أَخَذَ فِي بِنَاءِ الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا تَمَّ السُّوَرُ سَقَطَ ثُلُثَاهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ أَنْ تَبْنِيَ لِي بَيْتًا، قَالَ: أَيْ ربّ، وَلِمَ؟

---

[329] التوبة 105.

[330] مسند أحمد ط الرسالة، 13، 497.

قَالَ: لِمَا جَرَتْ عَلَى يَدَيْكَ مِنَ الدِّمَاءِ، قَالَ: أَيْ ربّ، أَوَلَيْس ذَاكَ فِي هَوَاكَ وَمَحَبَّتِكَ؟ قَالَ: بَلى، وَلَكِنَّهُمْ عِبَادِي، وَأَنَا أَرْحَمُهُمْ، قَالَ: فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنْ لَا تَحْزَنَ، فَإِنِّي سَأَقْضِي بِنَاءَهُ عَلَى يَدَيِ ابْنِكَ سُلَيْمَانَ، فَلَمَّا مَاتَ دَاودُ عَلَيْهِ السّلام أخَذَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السّلام فِي بُنْيَانِهِ، فَلَمَّا تَمَّ قَربّ الْقَرَابِينَ، وَذَبَحَ الذَّبَائِحَ، فَجَمَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: قَدْ أَرَى سُرُورَكَ بِبُنْيَانِكَ بَيْتِي، فَسَلْنِي أُعْطِيكَ، قَالَ: أَسْأَلُكَ ثَلَاثَ خِصَالٍ: حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَكَ، وَمُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، وَمَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ لَا يَرِيدُ إِلَّا الصّلاة فِيهِ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَهَيْئَةِ يَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ " فَقَالَ النَّبِيُّ : (أَمَا ثِنْتَيْنِ فَقَدْ أُعْطِيهُمَا، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ أُعْطِيَ الثَّالِثَةَ)"[331]

السجدة:

السجدة المقصودة هي المذكورة في القرآن في قوله تعالى: {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ}[332]. عن ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي رَأَيْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنِّي أُصَلِّي خَلْفَ شَجَرَةٍ فَرَأَيْتُ كَأَنِّي قَرَأْتُ سَجْدَةً فَسَجَدْتُ فَرَأَيْتُ الشَّجَرَةَ كَأَنَّهَا تَسْجُدُ لِسُجُودِي فَسَمِعْتُهَا وَهِيَ سَاجِدَةٌ وَهِيَ تَقُولُ اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي عِنْدَكَ بِهَا أَجْرًا وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا وَضَعْ عَنِّي بِهَا وِزْرًا وَاقْبَلْهَا مِنِّي كَمَا قَبِلَتْ مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ قَرَأَ بِالسَّجْدَةِ ثُمَّ سَجَدَ فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ سَاجِدٌ يَقُولُ مِثْلَ مَا قَالَ الرَّجُلُ عَنْ كَلامِ

---

[331] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 5، 246.

[332] ص 24.

الشَّجَرَةِ"333، وَالنَّبِيّ، أَمر أَن يقْتَدى بِدَاوُد فِي سَجْدَة، (ص) لِأَنَّهُ سجدها334.

من صفات داوود في السنّة:

1 . متصدّق، عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ النُّعْمَانِ، عَنْ وَهْبٍ، قَالَ: "وَقَفَ سَائِلٌ عَلَى بَابِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام فَقَالَ: يَا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ، تَصَدَّقُوا عَلَيْنَا بِشَيْءٍ، رَزَقَكُمُ اللهُ رِزْقَ التَّاجِرِ الْمُقِيمِ فِي أَهْلِهِ. فَقَالَ دَاوُدُ: أَعْطُوهُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَفِي الزَّبُورِ"335.

2 . محفوظ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَطَاءٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «نَسَجَتِ الْعَنْكَبُوتُ مَرَّتَيْنِ مَرَّةً عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام حِينَ كَانَ طَالُوتُ يَطْلُبُهُ، وَمَرَّةً عَلَى النَّبِيّ فِي الْغَارِ"336

3 . مغفور له، ثنا محمّد بْنُ بَشَّارٍ، ثنا عَطَاءُ بْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ أَشْرَسَ، عَنْ وَهْبٍ، قَالَ: "أَوْحَى اللهُ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام: يَا دَاوُدُ، هَلْ تَدْرِي مَنْ أَغْفِرُ لَهُ ذُنُوبَهُ مِنْ عِبَادِي؟ قَالَ: مَنْ هُوَ يَا ربّ؟ قَالَ: الَّذِي إِذَا ذَكَرَ ذُنُوبَهُ ارْتَعَدَتْ مِنْهَا فَرَائِصُهُ، فَذَلِكَ الْعَبْدُ الَّذِي آمُرُ مَلَائِكَتِي أَنْ تَمْحُوَا عَنْهُ ذُنُوبَهُ"337.

4 . مؤمّن عليه، عَنْ أَبِي الْجَلْدِ، قَالَ: قَرَأْتُ فِي مَسْأَلَةِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام: إِلَهِي مَا جَزَاءُ مَنْ بَكَى مِنْ خَشْيَتِكَ حَتَّى تَسِيلَ دُمُوعُهُ عَلَى وَجْهِهِ قَالَ: جَزَاؤُهُ أَنْ أُحَرِّمَ وَجْهَهُ عَلَى لَفْحِ النّار وَأُؤَمِّنَهُ يَوْمَ الْفَزَعِ"338.

---

[333] مختصر الأحكام = مستخرج الطوسي على جامع الترمذي، 3، 137.

[334] عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 18، 226.

[335] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 4، 63.

[336] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 5، 197.

[337] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 4، 41.

[338] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 6، 57.

5 . صائم الدّهر، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: "أَفْضَلُ الصَّوْمِ صَوْمُ أَخِي دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى"339.[339]

6 . رحيم، عن عبد الرّحمن بن أبْزى – رضي الله عنه – قال: "قال داود عليه السّلام: كُنَّ لِلْيَتِيمِ كَالْأَبِ الرّحيم وَاعْلَمْ أَنَّكَ كَمَا تَزْرَعُ كَذَلِكَ تَحْصُدُ، مَا أَقْبَحَ الْفَقْرَ بَعْدَ الْغِنَى، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَقْبَحُ مِنْ ذَلِكَ الضلالةُ بَعْدَ الهُدى، وَإِذَا وعدتَ صاحِبَك فَأَنْجِزْ لَهُ مَا وعدتَّهُ. فَإِنْ لَا تَفْعل يُؤرِثُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ، وَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ صَاحِبٍ إِنْ ذكرتَ لَمْ يُعِنْك وَإِنْ نسيتَ لَمْ يُذَكِّرك"340[340]

7 . أعْبَدَ البشرِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، "كَانَ النَّبِيُّ إِذَا ذَكَرَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام قَالَ: «كَانَ أَعْبَدَ الْبَشَرِ"341[341]

8 . معلّم، جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ الضُّبَعِيّ قَالَ: قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: "قَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السّلام: «يَا مَعْشَرَ الْأَبْنَاءِ، تَعَالَوْا حَتَّى أُعَلِّمَكُمْ خَشْيَةَ اللَّهِ تَعَالَى، أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْكُمْ أَحَبَّ أَنْ يَحْيَى وَيَرَى الْأَيَّامَ الصَّالِحَةَ فَلْيَحْفَظْ عَيْنَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ أَسْوَاءً، وَلِسَانَهُ أَنْ يَنْطِقَ بِالْإِفْكِ"342[342]

9 . حيي، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْجَدَلِيّ، قَالَ: "مَا رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَاتَ حَيَاءً مِنْ ربِّهِ يَعْنِي دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام"343[343]

---

[339] مسند أحمد مخرجا، 11، 91.

[340] الأدب المفرد بالتعليقات، ص، 74.

[341] كتاب التاريخ الكبير للبخاري، ص، 373.

[342] اعتلال القلوب للخرائطي، 1، 138.

[343] تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي، 2، 844.

10 . عدل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : "بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ هَذِهِ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتِ الْأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السّلام فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَى لَا تَفْعَلْ يرْحَمُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى"344

11 . الأخذ بالحسن، عن عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الرّحمن قَالَ: سَمِعْتُ وَهْبَ بْنَ مُنَبِّهٍ يَقُولُ: "قَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السّلام: " أَيْ ربّ، أَيُّ عِبَادِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: مُؤْمِنٌ حَسَنُ الصُّورَةِ قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَبْغَضُ إِلَيْكَ؟ قَالَ: كَافِرٌ حَسَنُ الصُّورَةِ، شَكَرَ هَذَا، وَكَفَرَ هَذَا " وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَنْظُرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى وَجْهِهِ فِي الْمِرْآةِ، فَإِنْ كَانَ حَسَنًا لَمْ يَشِنْهُ بِفِعْلٍ قَبِيحٍ، وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ قَبِيحَيْنِ"345

12 . حَذِر، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ الرّحمن بْنِ أَبْزَى قَالَ: "كَانَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السّلام يَقُولُ تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ صَاحِبٍ إِنْ أَنْتَ ذَكَرْتَ اللَّهَ لَمْ يُعِنْكَ وَإِنْ أَنْتَ نَسِيتَ لم يذكرك"346.

13 . موفي الوعد، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ الرّحمن بْنِ أَبْزَى، قَالَ: "كَانَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السّلام يَقُولُ: لَا تَعِدَنَّ أَخَاكَ شَيْئًا لَا تُنْجِزُهُ لَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُورِثُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةً"347

14 . خشوع، عَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ، عَنْ أَبِي الْجَلْدِ؛ قَالَ: "قَرَأْتُ فِي مُنَاجَاةِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام: إِلَهِي مَا جَزَاءُ مَنْ بَكَى مِنْ خَشْيَتِكَ حَتَّى

344 مستخرج أبي عوانة، 4، 172.

345 اعتلال القلوب للخرائطي، 1، 168.

346 المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها، ص، 158.

347 مكارم الأخلاق للخرائطي، ص، 83.

تَسِيلَ دُمُوعُهُ عَلَى وَجْهِهِ؟ قَالَ: جَزَاؤُهُ أَنْ أُحَرِّمَ وجهه على النّار، وأئمنه مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ"348

15 . متحدٍّ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ بُجَيْرٍ؛ قَالَ: أَوْحَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام: "يَا دَاوُدَ اتَّخِذْ نعلين من حديد وعصا مِنْ حَدِيدٍ، وَاطْلُبِ الْعِلْمَ حَتَّى تَتَخَرَّقَ نَعْلَاكَ وَتَتَكَسَّرَ عَصَاكَ"349.

16 . رءوف، عَنْ وَهْبٍ؛ قَالَ: "قَرَأْتُ فِي زَبُورِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام ذَكَرَ نَبِيَّنَا أَنَّهُ يَجُوزُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ، وَمِنْ لَدُنِ الْأَنْهَارِ إِلَى مُنْقَطَعِ الْأَرْضِ، وَأَنَّهُ تَخِرُّ أَهْلُ الْجَزَائِرِ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى رُكَبِهِمْ، وَيلْحسُ أَعْدَاؤُهُ التُّرَابَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ، وَتَدِينُ لَهُ الْأُمَمُ بِالطَّاعَةِ وَالِانْقِيَادِ؛ لِأَنَّهُ يُخَلِّصُ الْمُضْطَهَدَ مِمَّنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، ويصلي عَلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَيُبَارِكُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَيَدُومُ ذِكْرُهُ مَعَ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى إِلَى الْأَبَدِ"350.

17 . أواه، عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ؛ قَالَ: "كَانَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السّلام يُنَادِي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ: أَوِّهْ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوِّهْ مِنْ قَبْلِ أَنْ لا يَنْفَعَ أَوِّهْ"351.

18 . منذر، عَنْ أَبِي الْجَلْدِ، أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام: "يَا دَاوُدُ أَنْذِرْ عِبَادِي الصِّدِّيقِينَ فَلَا يُعْجَبُنَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَلَا يَتَّكِلُنَّ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ عِبَادِي أَنْصِبُهُ لِلْحِسَابِ وَأُقِيمُ عَلَيْهِ عَدْلِي إِلَّا عَذَّبْتُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَظْلِمَهُ، وَبَشِّرِ الْخَطَّائِينَ أَنَّهُ لَا يَتَعَاظَمُنِي ذَنْبٌ أَنْ

348 المجالسة وجواهر العلم، 2، 165.

349 المجالسة وجواهر العلم، 2، 189.

350 المجالسة وجواهر العلم، 3، 130.

351 المجالسة وجواهر العلم، 4، 346.

أَغْفِرَهَ وَأَتَجَاوَزَ عَنْهُ"352ن وعن أَبِي الْأَشْهَبِ جَنَازَةً بِعَبَّادَانَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: "أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام: يَا دَاوُدُ حَذِّرْ فَأَنْذِرْ أَصْحَابَكَ أَكْلَ الشَّهَوَاتِ فَإِنَّ الْقُلُوبَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا عُقُولُهَا مَحْجُوبَةٌ عَنِّي، قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: فَكَتَبْتُهُ فِي رُقْعَةٍ وَارْتَحَلْتُ مَا مَعِيَ حَدِيثٌ غَيْرُهُ"353

19 . مُرسّخ حبّ الله فيه، سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي الْحَوَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ يَقُولُ: "أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام: إِنِّي إِنَّمَا خَلَقْتُ الشَّهَوَاتِ لِضُعَفَاءِ خَلْقِي فَإِيَّاكَ أَنْ تُعَلِّقَ قَلْبَكَ مِنْهَا بِشَيْءٍ فَأَيْسَرُ مَا أُعَاقِبُكَ بِهِ أَنْ أَنْسَخَ حَلَاوَةَ حِبِّي مِنْ قَلْبِكَ"354 وعن ثنا الْحَسَنُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: سَمِعْتُ بِشْرَ بْنَ الْحَارِثِ، يَقُولُ: أَوْحَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام: يَا دَاوُدُ لَا تَتَّخِذْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَالِمًا مَفْتُونًا، فَيَصُدَّكَ بِسكْرِهِ عَنْ طَرِيقِ مَحَبَّتِي، أُولَئِكَ قُطَّاعُ طَرِيقِ عِبَادِي"355، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: "قَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السّلام: ربّ أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ، ربّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي، وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ"356

20 . صلاته مفضلة، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، أَنَّ عَمْرَو بْنَ أَوْسٍ، أَخْبَرَهُ: "أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَهُ: أَحَبُّ الصّلاة إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام، وَأَحَبُّ

352 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 6، 57.

353 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 9، 260.

354 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 10، 20.

355 المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي، ص، 335.

356 المستدرك على الصحيحين للحاكم، 2، 470.

الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا"357

21 . صوته مزماري، عن ريدة بن الحُصَيب بن عبد الله الأسلمي المروزي رضي الله عنه (قال) بريدة (قال رسول الله: "إنّ (الأشعريّ) أبا موسى رضي الله عنه، أعطاه الله سبحانه وتعالى (مزمارا) أي صوتًا حسنًا (من) جنس (مزامير آل داود) – عليه السّلام – أي من جنس أصوات داود – عليه السّلام – حين يتغنى بالزبور والأذكار، شبّه حسن صوته وحلاوة نغمه بصوت المزمار، ثم حذف المشبّه واستعار له اسم المشبّه به على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، ثم جرّد له بذكر آل داود"358. وعن عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ الْعَلاَءِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعَ النَّبِيُّ – – قِرَاءَةَ أَبِي مُوسَى، فَقَالَ: "لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ – عَلَيْهِ السّلام"359.

22 . فصل الخطاب، فصل الخطاب الْفَهْمُ فِي الْقَضَاءِ الْعَدْلُ فِي الْحُكْمِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: فصل الخطاب الْفَهْمُ فِي الْقَضَاءِ، وَلَا تُشْطِطْ360 عَنْ أَبِي عَبْدِ الرّحمن السُّلَمِيّ، أَنَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ أُمِرَ بِالْقَضَاءِ، فَقُطِعَ بِهِ، فَأَوْحَى الله عزّ وجلّ: أَنِ اسْتَحْلِفْهُمْ بِاسْمِي، وَسَلْهُمُ الْبَيِّنَاتِ، قَالَ: فَذَلِكَ فَصْلُ الْخِطَابِ"361

---

357 صحيح البخاري، 2، 50.

358 الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم، 10، 123.

359 سنن ابن ماجه، 1، 425.

360 المختصر النصيح في تهذيب الكتاب الجامع الصحيح، 4، 34.

361 السنن الكبرى للبيهقي، 10، 305.

23 . مصلي الضحى، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: "كَانَتْ صَلَاةُ الضُّحَى أَكْثَرَ صَلَاةِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام"362

موت داوود:

الموت سُنّة حياتية تنهي الوجود الحي من على قيد الحياة، ومن ثمّ تُحيله إلى عدم إلى يوم يبعثون، ولهذا فلا مفرّ من الموت حتى أن يموت الموت، ومن هنا جاء موت داوود كغيره من الأحياء، عن محمّد بْنُ مُوسَى، عن ابْنُ خُبَيْقٍ؛ قَالَ: سَمِعْتُ يُوسُفَ بْنَ أَسْبَاطٍ يَقُولُ: "إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام أَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السّلام وَهُوَ يَرْقَى فِي دَرَجَتِهِ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ؟ فَقَالَ: جِئْتُ لِأَقْبِضَ رُوحَكَ. قَالَ: فَدَعْنِي أَرْقَى. قَالَ: لَا وَاللهِ قَالَ: فَدَعْنِي أَنْزِلُ أُوصِي. قَالَ: لَا وَاللهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا دَاوُدُ مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ قَالَ: مَاتَ. قَالَ: فَمَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ قَالَ: مَاتَ. قَالَ لَهُ: يَا دَاوُدَ فَمَا كَانَ فِيهِمْ عِبْرَةٌ؟"363، وهناك من يقول: مات فجأة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "مَاتَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السّلام فَجْأَةً يَوْمَ السَّبْتِ، وَكَانَ يَسْبِتُ فَتَعْكُفُ عَلَيْهِ الطَّيْرُ فَتُظِلُّهُ"364

ولهذا فالموت سيظل يلاحقّ الأحياء حتى يقضي عليهم نهاية، وسيكون من بعد قضائه على الأحياء ميتا، ولا أمل له في البعث من جديد كما هو حال من قضى عليهم موتا، أي، ستكون النّهاية موت الموت.

موت الموت:

الموت إنهاء حياة، ووجود عدم، أمّا موت الموت؛ فهو إنهاء الحياة والوجود، ولذا؛ فالموت فعل تحقّيق العدم وجودا.

---

362 الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك لابن شاهين، ص، 50.

363 المجالسة وجواهر العلم، 5، 62.

364 المستدرك على الصحيحين للحاكم، 2، 471.

ومع أنّ الموت يواجه الحياة، لكنّه لا يواجه الوجود، بل هو جزء منه، وإلّا هل هناك من ينكر وجود الموت على قيد الحياة وجودا؟

ولأنّها الحياة الدّنيا؛ فهي (حياة وموت) وهذا يعني: (أنّ نصف الحياة موت)، ولو كانت الحياة الدنيا طلبا؛ فمن يطلبها؛ سواء أكان يدري أم لا يدري؛ فهو يطلب الموت، حيث لا حياة إلّا والموت يرافقها.

فالموت والحياة كفّتا الوجود، والوجود على مستوى الشيء واللاشيء يمكن أن يكون أحياء، ويمكن أن يكون معدومين؛ فوجود الأحياء وجود خلق، ووجود العدم وجود موت، ولذلك فالخلق أثره وجود الأحياء من كلّ نوع، والعدم أثره وجود الأموات من كلّ الأنواع.

وسيبقى الموت حيّا ما بقيت الحياة، وسيبقى الأموات أثرا ما بقي العدم، إلّا الموت عندما يموت لا يترك أثرا، ذلك لأنّ الموت لم يكن أثرا إلّا على الأحياء؛ في حين أنّ العدم لا يكون أثرا إلّا على الأموات؛ فكما أنَّ النّهاية مصير الحياة الدّنيا التي تشكّل 50% من الوجود؛ فكذلك النّهاية مصير الموت الذي يشكّل نصف الوجود الآخر.

فعندما تكون الحياة الدنيا تساوي 50% من الوجود، يكون الموت مساويا 50% منه، وعندما يصبح العدم 100% وجودا، تكون الحياة مساوية صفرا. وفي المقابل عندما تكون الحياة الآخرة 100% وجودا يصبح العدم صفرا حيث لا موت.

ومن ثمّ؛ فالموت لا يخيف حيث لا أحدَ يستطيع أن يفعل لك شيئا أكثر ممّا يفعله، وهو لا يُفعل إلّا مرّة واحدة، ولا يتكرّر، ولا مفرّ منه، وبموته تنبعث الحياة من جديد، وتبقى من بعده وجودا ولا موت.

ولأنّ الحياة الدنيا لا تساوي إلّا 50% من البقاء، في مقابل 50% موت، إذا؛ فالحياة الدنيا، جاءت منقوصة (فاقدة لمعطيات

البقاء). ولأنّها المنقوصة فسميّت (الدُّنيا) أي: الحياة السُفلى، {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}365.

ولذا؛ القاعدة المنطقية تقول:

كل مخلوق فانٍ

الموت مخلوق

إذن الموت فانٍ

والتساؤل:

إذا الموت قضى على الحياة؛ فمن الذي سيقضي على الموت؟

لا مخلوق إلّا ومن ورائه الخالق، والخالق هو الذي: {يُحْيِي وَيُمِيتُ}366.

ولأنَّ الحياة مخلوقة والموت مخلوق، وأنّ لكل مخلوق بداية ونهاية، إذن؛ فلا مفرّ للموت من الموت، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ ربّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}367.

وعليه:

فالخَلق فعل تسبقه هيئة لصورة لم تكن؛ فأصبحت قابلة للمشاهدة والملاحظة، وهو وجود ما لم يكن موجودا، سواء أكان كونا بأسره، أم شيئا منه، (حيّزا أم فراغا أم حيويّة أم مجرات أم طاقة أم كواكب ونجوما، أم أنّه خَلق من هذه الأجزاء كما هو حال الأزواج التي منها آدم وزوجه).

---

365 الأعلى 17.

366 البقرة 258.

367 الرّحمن 26، 27.

ولأنَّ الخلق فعل الخالق؛ فهو المتحقّق على المشيئة دون رأي لمخلوق في خَلقه، وهنا تكمن الكينونة، التي وجُدت المخلوقات عليها هي كما هي، ومع أنّ الخَلق مؤسّس على فعل الكينونة (كن)، ولكن للصّيررة وجود أيضا؛ فأبونا آدم وزوجه اللذان خُلقا بكينونة الإنبات من الأرض، خُلقا في أحسن تقويم، الذي فيه صَنعة الحُسن لا تتغيّر.

أمّا الأخلاق والقيم والفضائل فتكتسب وتُعلّم وتتجسّد في القول والعمل والسّلوك، وقد لا تتجسّد، وهنا تكمن العلّة، التي تؤدّي بمن يتخلّى عن القيم والفضائل إلى الانحدار والدّونية، التي لا تليق بمن خُلق على الارتقاء قمّة.

ولذلك، ظلّ آدم وزوجه على الرّفعة الخلقيّة حتى أقدما على عمل المعصية؛ فانحدرا هبوطا من تلك الجنّة على الأرض الدّنيا، التي جُرِّدت من الصّفات التي كانت عليها عُليا.

ومن هنا، أصبح الصّعود للقمّة مطلبا وأملا لمن فقد تلك المكانة، وبقي الخَلق الحَسن على ما هو عليه حُسنا، ولكن الأخلاق أصبحت على الاهتزاز تتبدّل من حَسنٍ إلى سيء، وكذلك من سيء إلى حَسن؛ {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}368. فآدم وزوجه شاءا أن يؤمنا وأمل العودة إلى تلك الجنّة لم يفارقهما، ولكن بنيهما اختلفوا، بل تخالفوا على ما يؤدّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الدّونية، حتى بلغ الاقتتال بينهم أشدّه. ومع ذلك؛ فالإصلاح بين المختلفين والمتخالفين لم ينقطع، وكذلك العفو والصفح ظلّا جنبا إلى جنب مع القصاص الحقّ.

فبنو آدم بعد أن هدأت أنفسهم بالأنباء والرّسالات بدأوا يتذكّرون ما يؤلم ويعملون على تفاديه اتعاظا، ويتدبّرون أمورهم تحدِّيا للعوز والحاجة،

368 الكهف 29.

ويفكّرون فيما يجب ارتقاء ويسعون إليه عملا؛ فنظروا إلى الخَلق وهم يتأمّلون فيه كيف خُلق، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}369. حتى عرفوا أنّ الخَلق لم يكن في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فاستطاعوا أن يميّزوا بين الصّعب والمستحيل؛ فالصّعب قبلوا بتحدّيه ساعة بساعة، أمّا المستحيل؛ فهو ما يحول بينهم وبين إمكانية فعله.

ولأنّه كذلك؛ فلا يُفعل إلّا فعلا حيث لا إمكانية لعمله؛ فالعمل في دائرة الممكن يتطلّب جهدا لينجز، أمّا الفعل؛ فلا يكون إلّا بالأمر النّافذ، والأمر النّافذ لا يكون إلّا من الفعّال له، ومن هنا، يصبح المستحيل مستحيلا.

إنَّ العلاقة بين الخَلق والمستحيل هي: علاقة وجود الشيء من لا شيء، ثمّ وجود المستحيل خلقا من الشيء المستحيل (خَلق الشيء من الشيء) كما هو خلق الأرض، وخلق الأزواج منها، ثمّ خلق التكاثر من التزاوج (شيء مستحيل من شيء مستحيل) حيث لا إمكانية لخلق ما يُخلق.

ولهذا؛ فلا خَلق إلّا ومن ورائه خالق، والخالق لا يُمكنه أن يَخلقَ نفسه؛ فلو قبلنا بخلقه لنفسه؛ فلا استغراب أن يخلق غيره؛ فالكون الذي قال البعض عنه: إنّه خَلق نفسه، ولا خالق من ورائه؛ فلو كان كذلك، لكان على المقدرة التي تجعله يخلق غيره.

ومن ثمّ؛ فالخالق يَخلق ولا يُخلق. ومن يُخلق، سيظل جاهلا بقواعد الخلق التي خُلق عليها، ذلك لأنّ قواعد خلق المخلوق تسبقه؛ فلو لم تكن ما كان، وهي التي لا تكون إلّا بيد الخالق؛ فالمخلوق بإمكانه أن يفكّر في نفسه وفي غيره، ولكن التفكير في النّفس والغير لا يزيد عن كونه تفكيرا

[369] الغاشية 17.

داخل دائرة الممكن، التي إن تمكّن منها الإنسان تمكّن من معرفة المستحيل إعجازا. ومع ذلك؛ فآفاق المعرفة مفتّحة، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}370. أي: لا ينبغي أن يتوقّف التفكير الإنساني عند مشاهدة الإبل (الكائن المخلوق)، بل عليهم أن ينظروا إلى الكيفية التي خُلقت عليها؛ فعليهم أن يفكّروا ويتأملوا حتى يبلغوا المستحيل؛ فبلوغ المستحيل ليس بمستحيل، بل المستحيل هو ما لا يتمكّن المخلوق من خلقه. ذلك لأنّ المستحيل لا يُخلق إلّا فعلا (حيث لا جهد يبذل)، أمّا الممكن فيُخلق عملا (حيث الجهد يبذل).

فقوله تعالى: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) قول استفهامي (الاستفهام في هذه الآية استفهام إنكاري، بمعنى ما الذي يمنعكم من النظر في خلق الإبل؟) أي: لِمَ لا تنظرون إلى الكيفية التي خُلقت عليها الكائنات التي بين أيديكم؟ أي: انظروا حتى تروا المعجزات، واعملوا حتى تقفوا عاجزين، وحينها تتيقّنون بأنّه لا إمكانية أن يخلق المخلوق نفسه.

ولذلك؛ فأوّل ما يجب أن يفكّر فيه العاقل، هو: النّظر إلى الخَلق والتأمّل فيه بلا حدود، حتى تُدرك الكيفيّة التي عليها المخلوقات لتُستثمر بما يفيد ويمكّن من الارتقاء، ومع ذلك فمهما نظرنا إلى المخلوقات أو الكائنات الحيّة التي منها الإبل، ستظل الكيفيّة التي خُلقت عليها علم غيب وبلوغه مستحيل، ولكن لأجل المعرفة ينبغي أن ننظر، وهو عمل العقل الذي لا ينبغي أن يقف عند حدود المشاهد، بل ينبغي أن يتجاوزه إلى معرفة الملاحظ والمجرّد (الكيفيّة)، ولذلك؛ فلا ينبغي أن يوضع سقف على العقل والتفكير الإنساني؛ فالله لو شاء للسقف أن يوضع لوضعه، ولكنّ الله جعله على التخيير؛ فلا إكراه، بل يجب أن يمكّن الإنسان من

[370] الغاشية 17.

المعرفة الواسعة، ويترك له الاختيار، ومع ذلك، فإن اختار ما يسيء لخَلقه؛ فالعيب لا يلحقّ إلّا من لم يضع البيّنة بين يديه بيّنة.

ومع أنّ معرفة الكيفيّة الخَلقيّة، أمر مستحيل، ولكن النّظر إليها بأعمال العقل يمكّن الإنسان من معرفة المزيد، الذي يحفّز على البحث بلا توقّف، ويدفع إلى الارتقاء تدبّرا.

ولأنّ النّظر إلى الكيفيّة الخلقية يُمكّن من معرفة المستحيل؛ فكذلك النّظر إلى الكيفيّة التي بها رُفعت السّماء يدفع إلى كلّ ما يمكّن من الارتقاء، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}371. ولأنّ علاقة الوجود البشري مع الوجود الخلقي هي:

علاقة خَلق (مستحيل)، ونشوء (نمو)، وارتقاء (ممكن)، إذا؛ فالنّظر إلى الشيء ليس هو الغاية، بل الغاية أن يتدبّر الإنسان أمره عن معرفة وبيّنة، ولهذا، وجب النّظر إلى الكيفيّة التي بها رُفعت السّماء؛ فالنّظر إلى الكيفيّة التي بها رُفعت يمكّن الإنسان من معرفة المزيد استكشافا؛ فمعرفة الكيفيّة متى ما ألمّ بها الإنسان تمكّن من الصّعود وبلوغ المزيد من الارتقاء حيث لا موانع في دائرة الممكن أمام المقدرة، أي: بما أنّ بني آدم يمتلكون المقدرة؛ فليرتقوا إلى السّماء بلا تردّد، ومتى ما عرفوا كيفيّة الارتقاء عرفوا إمكانية المزيد منه حتى يبلغوا معطيات ذلك الانفتاق العظيم، ومعطيات كيفيّة رتقه من جديد. وحينها سيكتشفون ما لم يسبق لهم اكتشافه؛ فلينظروا إلى السّماء، ثمّ ينظروا إلى الكيفيّة التي بها خُلقت وارتقت إلى هناك بعيدا عن الأرض التي فتقت منها. فالنّظر إلى الكيفية التي بها رُفعت السّماء يُمكّن من معرفة الكيفيّة التي بها فُتقت السّماوات

---

[371] الغاشية 17 . 20.

والأرضين أكوانا، والتي عندما يتمّ التعرّف عليها يصبح الارتقاء قمّة متجاوزا لإحداث النُقلة المأمولة.

ومن ثمّ؛ فلا داعي للتأخّر؛ بل ينبغي الإسراع بلا تسرّع، والنّظر في الكيفيّة التي رَفعت السّماء الدّنيا عن الأرض الدّنيا، كما رفعت بقية السّماوات والأرضين طباقا؛ فلا ينبغي أن يغفل الإنسان عن معرفة الكيفية التي عليها الخَلق (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) ولا يغفل عن النّظر إلى الكيفيّة التي بها تمّ الارتفاع (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)، أي: لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من الارتفاع عن كلّ دونية، ذلك لأنَّ التفكير فيما يؤدّي إلى الارتفاع يمكّن من معرفة ما يفيد وينفع ارتقاء.

إنَّ النّظر إلى الكيفيّة التي رَفعت السّماء يُمكّن من معرفة الكيفيّة التي بها يتمّ تجاوز الجاذبيات جاذبية بعد جاذبية؛ فهي لم تكن شيئا مستحيلا، حتى وإن كانت على الصّعوبة، ولذلك فالنّظر إلى الكيفيّة يُمكّن من تحدّي الصّعاب التي جاء خلقها نعمة للعقل البشري؛ أي: لو لم تكن الصّعوبات لكان مستوى العقل الآدمي مستوى حيوانيا، لا يفكّر إلّا فيما يشبع نهمه، بمعنى: لو لم تكن الصّعاب ما كان التذكّر واعظا، ولا التدبّر موقظا، ولا التفكّر مرشدا.

ولأنّ العقل الإنساني يمكّن من الفُسحة في كيفية الخَلق والنّشوء والارتقاء؛ فهو المِمكّن من معرفة ما يؤسّس للعمل أو ينشئه عملا، ولكن يظل عقل الإنسان في حاجة لما ينبهه ويستفزّه تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، ولهذا جاء الخَلق مشاهدا وملاحظا حتى يُرى ويُنظر إليه دون التوقّف عنده وكأنّه النّهاية، بل وجوده مشاهدٌ وملاحظٌ جاء محفّزا على ما يمكّن من تجاوزه بناء وإعمارا، ولهذا؛ فالنّظر إلى كيفية خلق الإبل يمكّن من معرفة المستحيل الذي لا يكون إلّا بفعل الخالق، والنّظر إلى كيفية رفع السّماء يمكّن من معرفة قدرة الخالق، وما فسحه من آفاقٍ أمام العقل البشري إن أراد ارتقاء،

وهنا تكمن العلاقة بين الممكن الصّعب والمستحيل؛ فالمستحيل (ما لم يتمّ بلوغه) بالرّغم من فسح كلّ شيء أمام العقل البشري، أمّا الصّعب؛ فهو الممكن بالرّغم من صعوبته المحفّزة على قبول التحدّي. ولذلك؛ فالنّظر إلى السّماء كيف رُفعت، نظر إلى (مستحيل وممكن في وقت واحد)، ولهذا، بدأ الإنسان مؤخّرا بغزو الفضاء، وهو يعلم أنّ أمامه المزيد ممّا هو أعظم ارتقاء.

أمّا النّظر إلى كيف نُصبت الجبال (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) فيُمكّن من معرفة ما يرشد إلى البناء والإعمال، أي: يُمكّن من علم الهندسة في التصميم والعمران؛ فقوله دلالة: أفلا ينظرون إلى الجبال كيف نصبت؟ هو قول يُمكِّن من التدبّر، أي: وكأنّه يقول: عليكم بمعرفة الكيفيّة التي عليها أنشأت الجبال؛ فأنشئوا ما شئتم من بيوت، وصمّموا ما تشاؤون؛ فالنّشوء في دائرة الممكن وإن كان صعبا؛ فهو ليس بمستحيل؛ فانظروا إلى الجبال، واجعلوا جبالا من الأبراج إن استطعتم. وفوق ذلك، لا ينبغي الإغفال عن العلاقة وكيفيّتها بين رفع السّماء ونصب الجبال، أي: لا ينبغي التوقّف عند رؤية الجبال، ولا السّماء، بل يجب التفكّر فيها، وكيف خُلقت ورُفعت ونُصبت؟ ثمّ التفكير في الكيفية التي بها سُطحت الأرض، (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) حتى تعرفوا كيف تعمروها وتستخلفوا فيها علما وحضارة وارتقاء؟ وكيف تنشئون فيها حياة تمهّد لعلاقات إنسانية مؤسّسة على فضائل وقيم وعمل منتجا يمكّن من إحداث النُقلة.

إنَّ النّظر في أيّة كيفية هو نظر تفحّص من أجل التبيّن الذي به تتمّ المعرفة الواعية بما هو كائن وما يجب أن يكون، ممّا يستدعي ملكات العقل إلى التفكير الممكّن من صياغة فروض أو تساؤلات تمكّن من معرفة الجديد وإنتاج ما هو أجد. ولذلك؛ فمعرفة كيف سُطِحت الأرض معرفة

علم وتخطيط واقتصاد وبناء وإعمار وإنتاج، ومنافسة لا تغفل عن أهمية القيم في تحقّيق كرامة الإنسان.

فمتى ما عرف الإنسان الكيفية التي بها سُطِحت الأرض، عرف الكيفيّة التي بها يتمكّن من العمل، الذي لا مستحيل أمامه سوى المستحيل، الذي بمعرفته يرتقي الإنسان إلى معرفة الخالق إعجازا، حيث لا خَلق إلّا بفعل الخالق.

ولأنّ الخَلق يُفعل؛ فهو الذي يُفعل بغير جهدٍ، ولذلك؛ فالخالق يفعل ما يشاء كيفما يشاء أمرا، أمّا المفعول؛ فهو الذي لا رأي له حتى في وجوده. ولذلك؛ فلا وجود لشيء إلا بفعل ليس بيده.

ولأنّ لكلّ شيء صفة؛ فصفة الخَالق لا يمكن أن تكون صفة المخلوق، ولهذا؛ فلا يمكن أن يكون المخلوق خَالقا، ذلك لأنَّ الخَلق ليس من صفاته، والخالق لا يُخلق لأنّ صفة الخَلق لا تكون إلّا بأمره، ومن يرى غير ذلك اجتهادا؛ فَلِمَ لم يكن خالقا لنفسه؟ ولِمَ لا يخلق غيره؟

ولأنّ لكلّ مخلوق صفة خُلق عليها، وتميّز بها؛ فلا شكّ أنّه سيظل عليها متميّزا عن غيره كما غيره يتميّز عنه صفة وخاصيّة؛ ولهذا سيظل للكون الدّنيوي صفة تختلف عن صفات الأكوان الأخرى التي تعلوه طباقا، بمعنى: سيظل كوننا على صفته وإن حدثت فيه تغيّرات أنقصت من حجم ظلمته أم زادتها اتساعا، أو أنقصت من عدد مجراته أم زادتها عددا، وهكذا يمكن أن يصبح الفراغ بين تمدّد وانكماش ولكلّ وظيفته وجود.

ولأنَّ لكلّ مخلوق هيئة، ولا هيئة للخالق؛ فكان الكون على هيئته يتمدّد متسارعا، حتى يُرسم شكله وفقا لما هيأ عليه كونا، أي: لو بلغ الكون حدود وجوده كونا، لرُسِم له الشكل الذي لا يكون إلّا على هيئته،

ولهذا؛ فهيئة الخلق علم الخالق، أمّا هيئة ما يره المخلوق؛ فهي في ذِهنه هيئة وستظل هيئة حتى تأخذ شكلا أو صورة بها تُدرك من قبل الغير.

والخالق لا يمكن أن يُخلق من عدم؛ فالعدم لا يكون إلّا وجودا حتى وإن كان رفاتا، فالمعدوم مفعول، والمفعول يفعله الفاعل، ولذلك؛ فالمعدوم هو: من لم يكن على قيد الحياة وجودا، ولكنّه على قيد الوجود عدم. وهذا يدلّ على وجوده السآبق قبل أن يصبح عدما بفعل الموت الذي لاحقّه حتى النّهاية.

ومن هنا؛ لا يمكن أن يكون الخَلق من عدمٍ، بل الخَلق من لا شيء يذكر، أي: وجود ما لم يكن موجودا، سواء أكان مادّة أم ليس بمادّة، ولهذا؛ فالخَلق كيفية تظهر الهيئة في صورةٍ أو شكلٍ؛ فتلفت المخلوق العاقل لنفسه ثمّ لغيره ليأخذ بأسرار الخَلق في صناعة ما يمكن أن ييسّر له الحياة ارتقاء.

وبالنّظر لخلق الكون وفقا لِما تمّ اكتشافه وتيسّر للمعرفة؛ فهو المخلوق الذي لا سيطرة له على نفسه؛ فهو كون متمدّد في تسارعه من أجل بلوغ النّهاية التي لم تكن من مكوّنات وجوده؛ فالكون لو كان خالقا لنفسه ما كان يتمدّد متسارعا تجاه نهايته.

إنَّ الكون الذي نحن فيه نُخلق مع غيرنا من الخلائق، لو كان خالقا لما كانت له البداية تمدّدا والنّهاية انكماشا، أو فتقا ورتقا، أو كما يقولون انفجارا وتجمّدا، وحتى إن اختلفت الرؤى؛ فقد اتفق أصحابها من مفكّرين ومفسّرين وعلماء فيزياء وفلك على أنّ للكون بداية ونهاية، ولهذا، نقول: خالق البداية والنّهاية سابق على خلقهما، ومن يكون بينهما خلقا؛ فلا يمكن له أن يكون خالقا، وهذا بالتّمام حال الكون الذي لو لم يكن من ورائه خالق ما كان بين البداية تمدّدا والنّهاية انكماشا.

ولأنَّ الكون لم يكن خالقا لنفسه؛ فهو على علاقة بأكوان أخرى، أي: لو كان خالقا لنفسه ما وجدت أكوان إلى جانبه، وهي التي فُتقت منه وفُتق منها، أكوان تعدّدت والخالق واحد لا يتعدّد، إنّه الواحد الذي يُعد ولا يتعدّد، ذلك لأنّ الواحد (الخالق) لا سابق عليه، أمّا الواحد المتعدّد؛ فلا يكون إلّا والصّفر نقطة شروعه ارتقاء، أو لحظة فنائه انحدارا (بداية ونهاية). ولذلك؛ فلحظة الصّفر قبل كوننا كانت الرتق، ومن بعده ستكون لحظة الصّفر رتقا من جديد، ممّا يجعل لحظة الفتق بداية وجود متمدّد ولحظة الرّتق وجودا منكمشا.

ومن هنا، يتّضح جمال كوننا تمدّدا وانكماشا، فكلّ شيء فيه نراه كمالا نراه بعد نظرة لا يزيد عن كونه نقصا؛ ذلك لأنّ النّظر في الكيفية يختلف عن النّظر إلى الشّكل والصّورة؛ فمهما عظم شكل الكون أو صورته؛ فلا يؤتمن جانبه؛ فهو المملوء براكين وصواعق وزلازل وشهب ومجرات ونار وظلمة وماء وسماء، إلى جانب شياطين الإنس والجنّ، مع وافر القلق والألم والوجع والخوف، ثمّ الموت.

ولهذا؛ فالحياة فيه يملؤها الرّعب والظّلم والعدوان، والسّلب والنّهب، والتّعب والملل واليأس، ومع ذلك؛ فهو المهدّد بالزّوال الذي لا يكون إلّا فجأة. {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً}372. ولأنّه كذلك؛ فلا كمال فيه، ولهذا، مهما تحقّقت فيه من آمال؛ فهي ستكون منكسرة ما لم ترتقِ بأصحابها إلى رتق السّماوات والأرض، لتكون الحياة عيشا رَغِدا مع وافر النّعم المشبعة لكلّ الحاجات المتنوّعة.

ولذلك؛ فالحياة الدّنيا مع أنّها مملوءة بثروات ونعم، ولكنّها لا تكون ارتقاء إلّا بالعمل، ولهذا، بُعثَ الأنبياء والرّسُل جميعهم من أجل

---

[372] الأنعام 31.

العمل الصّالح، {وَقُلِ اعْمَلُوا}373، ومع ذلك؛ فالحياة الدّنيا بداية ونهاية، هي حياة ألم (ألم الولادة وألم الموت). وسيظل الألم مستمرّا ومتسارعا مع استمرار تمدّد الكون وتسارعه، ولن يتوقّف ما لم يتوقّف تمدّد الكون المتسارع.

ولذلك سيظل الكون متمدّدا حتى النّهاية التي يقف عندها الألم صفرا، وهي لا تكون إلّا بعلّة أو سبب، ولأنّها لا تكون إلّا بها؛ فهي متى ما حدثت وفّرت لنا حُكما بأنّ الكون لم يَخلق نفسه، بل خلقه الذي جعل له بداية صفريّة ونهاية صفريّة، وهي التي من بعدها ينكمش بملامسة ما يُعيده لرشده من حيث انفتق وتمدّد.

ولأنّ الكون لا يتوقّف أو ينكمش عن تمدّده إلّا بعد بلوغه نقطة الصّفر التي متى ما استشعرها أو لامسها انكمش حتما، إذا؛ فليس له بدّ إلّا التوقّف أو الانكماش إلى حيث نقطة البداية التي تعيده إلى الاستقرار بلا مخاوف، ومن ثمّ؛ عندما يبدأ انكماش الكون؛ فانكماشه سيزيح فراغا من خلفه، وفي المقابل سيترك فراغا من أمامه، ممّا يجعل ذات الحركة مؤثرة على بقية الأكوان انكماشا، حتى تعود إلى نقاط رتقها التي انفتقت منها أكوانا، والتي من بعدها سيصبح الكون المرتق كونا عظيما. {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}374.

ولأنّ الوجود لم يُخلق كلّه من لا شيء كما هو خَلق هيئة الكون؛ فهناك على الكثرة أشياء خُلقت نشوءا من الكون كما هو نشوء الأرض مكوّرة، ونشوء آدم وزوجه منها نباتا، {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ

373 التوبة 105.

374 الأنبياء 104.

نَبَاتًا}375، ثمّ نشوء التكاثر تزاوجا، وكلّ هذه المخلوقات سواء أكانت من لا شيء أم من شيء قد أوجدت ثلاث دعائم تمكّن من معرفة الكيفية التي كان عليها المستحيل خَلقا (خلق الوجود من لا وجود)، والتي كان عليها الإعجاز نشوءا (خلق الشيء من الشيء)، والتي يكون عليها الممكن ارتقاء (بين كينونة وصيرورة)، فهذه الدّعائم تُمكّن من ربّط العلاقة بين الخالق والمخلوق بما هو (مستحيل ومعجز وممكن).

ولأنَّ المستحيل هو خَلق بلا سابق (وجود لم يسبقه وجود)؛ فينبغي النّظر إليه حتى بلوغه مستحيلا، وكذلك المعجز وهو خلق الشيء من الشيء ينبغي النّظر إليه حتى بلوغه شيئا معجزا، أمّا الممكن؛ فهو مَكمن الخوارق؛ فمن بلغه عن غير توقّع بلغ المعجز إعجازا، ومن بقي في دائرة المتوقّع؛ فلا إمكانية لبلوغ الخوارق التي في النّهاية لا تكون إلّا في دائرة الممكن.

من دعاء داوود:

عَنْ أَبِي الْجَلْدِ، "أَنَّ دَاوُدَ، عَلَيْهِ السّلام: أَمَرَ مُنَادِيًا ينَادِي الصّلاة جَامِعَةٌ فَخَرَجَ النّاس وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ سَتَكُونُ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ مَوْعِظَةٌ وَتَأْدِيبٌ وَدُعَاءٌ فَلَمَّا وَافَى مَكَانَهُ قَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لَنَا، وَانْصَرَفَ فَاسْتَقْبَلَ أَوَاخِرُ النّاس أَوَائِلَهُمْ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ قَالُوا: إِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السّلام: إِنَّمَا دَعَا بِدَعْوَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَقَالُوا: سُبْحَانَ اللهِ كُنَّا نَرْجُوا أَنْ يَكُونَ هَذَا الْيَوْمُ يَوْمَ عِبَادَةٍ وَدُعَاءٍ وَمَوْعِظَةٍ وَتَأْدِيبٍ فَمَا دَعَا إِلَّا بِدَعْوَةٍ وَاحِدَةٍ فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنْ أَبْلِغْ عَنِّي قَوْمِكَ فَإِنَّهُمْ قَدِ اسْتَقَلُّوا دُعَاءَكَ أَنِّي مَنْ أَغْفِرُ لَهُ أُصْلِحُ لَهُ أَمْرَ آخِرَتِهِ وَدُنْيَاهُ"376، وعَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مَرْوَانَ، عَنْ أَبِي مَرْوَانَ، أَنَّ عَبْدَ الرّحمن بْنَ مُغِيثٍ الْأَسْلَمِيَّ حَدَّثَهُ قَالَ: قَالَ كَعْبٌ:

---

375 نوح 17.

376 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 6، 57.

"إِنَّا لَنَجِدُ فِي التوارةِ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام كَانَ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ: اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي جَعَلْتَهُ لِي عِصْمَةً، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي جَعَلْتَ فِيهَا مَعَاشِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِغُفْرَانِكَ مِنْ نِقْمَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ"377.

وعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مَرْوَانَ، عَنْ أَبِيهِ أَبِي مَرْوَانَ، أَنَّ عَبْدَ الرّحمن بْنَ مُغِيثٍ الْأَسْلَمِيَّ حَدَّثَهُ قَالَ: قَالَ كَعْبٌ: مَا أَتَى محمّد قَرْيَةً يُرِيدُ دُخُولَهَا إِلَّا قَالَ حِينَ يرَاهَا: «اللَّهُمَّ ربّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَربّ الْأَرَاضِي وَمَا أَقْلَلْنَ، وَربّ الرِّيَاحِ وَمَا أَذْرَيْنَ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا» قَالَ كَعْبٌ: إِنَّ صُهَيْبًا حَدَّثَهُ هَذَا الدُّعَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، وَقَالَ كَعْبٌ: إِنَّهَا كَانَتْ دَعْوَةَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام حِينَ يَرَى الْعَدُوَّ"378

عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مَرْوَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ كَعْبٍ الْحَبْرِ، "أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام كَانَ يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ: اللَّهُمَّ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ اعْصِمْنِي فِي هَذَا الْيَوْمِ مِنْ شَرِّ كُلِّ مُصِيبَةٍ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ، وَاجْعَلْنِي فِي كُلِّ خَيْرٍ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ يُرَدِّدُهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَإِذَا أَمْسَى قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ غَيْرَ أَنَّهُ يَقُولُ: فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ"379 وعَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ : "إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام قَالَ: إِلَهِي مَا حقّ عِبَادِكَ عَلَيْكَ إِذَا هُمْ زَارُوكَ فِي بَيْتِكَ فَإِنَّ لِكُلِّ زَائِرٍ عَلَى الْمَزُورِ حقّا: يَا دَاوُدُ إِنَّ لَهُمْ عَلَيَّ أَنْ أُعَافِيَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَأَغْفِرَ لَهُمْ إِذَا لَقِيتُهُمْ"380، وعن رَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ

---

[377] المسند للشاشي، 2، 394.

[378] المسند للشاشي، 2، 395.

[379] الدعاء للطبراني، ص، 131.

[380] مسند الشاميين للطبراني، 1، 382.

لَاحقّ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: "قَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السّلام: الْحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا يَنْبَغِي لِكَرَمِ وَجْهِكَ، وَعِزِّ جَلَالِهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنَّكَ أَتْعَبْتَ الْحَفَظَةَ يَا دَاوُدُ"381

عن ثنا سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنْ مَكْحُولٍ قَالَ: "كَانَ مِنْ دُعَاءِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام: يَا رَازِقَ الْغُرَابِ النَّعَّابِ فِي عُشِّهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْغُرَابَ إِذَا فَقَسَ عَنْ فِرَاخِهِ فَقَسَ عَنْهَا بِيضًا، فَإِذَا رَآهَا كَذَلِكَ نَفَرَ عَنْهَا فَتَفْتَحُ أَفْوَاهَهَا، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهَا ذُبَابًا يَدْخُلُ أَفْوَاهَهَا فَيَكُونُ ذَلِكَ غِذَاءً لَهَا حَتَّى تَسْوَدَّ، فَإِذَا اسْوَدَّتِ انْقَطَعَ الذُّبَابُ عَنْهَا، فَعَادَ الْغُرَابُ إِلَيْهَا فَغَذَّاهَا"382، وعَنْ مُصْعَبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ كَعْبٍ، قَالَ: "كَانَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السّلام يَسْتَقْبِلُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَيَقُولُ: اللهُمَّ خَلِّصْنِي الْيَوْمَ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، اللهُمَّ اجْعَلْ لِي سَهْمًا فِي كُلِّ حَسَنَةٍ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ"383.

وعليه الدّعاء مأمور به، قال تعالى: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}384. عن شَهْرٌ قَالَ: "كَانَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السّلام يُسَمَّى النَّوَّاحَ، وَأَنَّهُ خَرَجَ حَتَّى أَتَى الْبَحْرَ فِي سَاعَةٍ يُصَلِّي فِيهَا فَنَادَتْهُ ضِفْدَعٌ يَا دَاوُدَ، إِنَّكَ حَدَّثْتَ نَفْسَكَ أَنَّكَ قُمْتَ فِي سَاعَةٍ لَيْسَ أَحَدٌ يَذْكُرُ اللَّهَ عزّ وجلّ فِيهَا غَيْرُكَ وَأَنَا فِي سَبْعِينَ أَلْفَ ضِفْدَعٍ كُلِّهَا قَائِمَةً عَلَى رِجْلٍ تُسَبِّحُ اللَّهَ وَتُقَدِّسُهُ"385

---

381 شعب الإيمان، 6، 240.

382 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 5، 183.

383 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 6، 26.

384 غافر 60.

385 العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني، 5، 1747.

حبّ الدّنيا:

الحياة الدّنيا بعظمتها لا تزيد عن كونها دُنيا، والدّنيا في مقابل العليا (الآخرة)؛ فلا تقارن، فالحياة الدّنيا ليست وجودا مجرّدا، بل وجودا وعدما، ولهذا؛ فهي المؤسّسة على الفناء.

ولأنّها دنيا فهي لا تخلوا من أعمال الرّعب والظّلم والعدوان، والسّلب والنّهب، والتّعب والملل والألم واليأس، {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً}386. ولأنّها كذلك؛ فلا كمال فيها، ولهذا، مهما تحقّقت فيها من آمال؛ فهي ستكون منكسرة ما لم يرتقِ النّاس عملا صالحا حتى تُرتق السّماوات والأرض، لتكون الحياة عيشا رَغِدا مع وافر النّعم المشبعة لكلّ الحاجات المتنوّعة.

ولذلك؛ فالحياة الدّنيا مع أنّها مملوءة بثروات ونعم، ولكنّها لا تكون ارتقاء إلّا بالعمل، ولهذا، بُعثَ الأنبياء والرّسُل جميعهم من أجل العمل الصّالح، {وَقُلِ اعْمَلُوا}387، ومع ذلك؛ فالحياة الدّنيا بداية ونهاية، هي حياة ألم (ألم الولادة وألم المرض وألم الحاجة وألم الموت). وسيظل الألم مستمرّا ومتسارعا مع استمرار تمدّد الكون وتسارعه، ولن يتوقّف ما لم يتوقّف تمدّد الكون المتسارع.

والحياة الدّنيا ستظل على الحاجة التي كلّما نقصت جعلت عدد المطالبين بما يشبعها متزايدا، وكلّما اشتدت عوزا جعلت من البقاء عدما.

[386] الأنعام 31.

[387] التوبة 105.

ولأنَّ الحياة الدّنيا يلاحقّها الموت؛ فهي لم تكن حياة بقاء مثل الحياة على الأرض الجنّة، ولذلك؛ فكلّ تزاوج يصاحبه التناقص حيث لا ديمومة للبقاء، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}388.

ولأنّ كلّ من على الأرض الدّنيا فانٍ، إذا؛ فالعدم مرحلة من مراحل الوجود في الحياة الدّنيا، وفي المقابل لا عدم في الجنّة، ذلك لأنّها أرض البقاء الدّائم حيث لا موت.

وسيظل الموت يلاحقّ الأحياء المتكاثرين إلى أن يقضي عليهم جميعا، ويومها سيكون الموت آخر الأموات، ويومها يبعث الأموات جميعهم إلّا الموت لن يُبعث، حيث لا مكان له في الحياة الخالدة (الجنّة)، {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}389.

أي: بعد أن أنشأكم الله النشأة الأولى خلقا زوجيّا في أرض الجنّة المرتقة مع السّماوات، ثم تكاثرا تزاوجيا في الأرض الدّنيا، ثمّ موتا فرديا يعيدكم في الأرض الدّنيا عدما ولا استثناء، ثمّ ينشئكم بعثا في نشوء آخر، لحياة سرمدية حيث البقاء الذي لا موت من بعده، {وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى}390. وعن أبو جعفر المصري، قالَ: "أَوْحى اللَّهُ عزّ وجلّ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام يَا دَاوُدُ، تَزْعُمُ أَنَّكَ تُحِبُّنِي؟ فَإِنْ كنْتَ تُحِبُّنِي فَأَخْرِجْ حُبَّ الدُّنْيَا مِنْ قَلْبِكَ، فَإِنَّ حُبِّي وَحُبَّهَا لاَ يَجْتَمِعَانِ فِيهِ"391

خوف داوود:

الخوف قيمة مقدّرة عند الله تعالى؛ فمن يخاف الله يسلم من كلّ ذنب، ومن لا يخاف الله ولا يتقيه يعمل المفسدات، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، "عَنِ

388 الرّحمن 26.

389 نوح 17، 18.

390 النجم 47.

391 الطيوريات، 3، رقميا 1038.

النَّبِيّ قَالَ: "كَانَ النّاس يَعُودُونَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام يَظُنُّونَ بِهِ مَرَضًا, وَمَا بِهِ شَيْءٌ إِلَّا الْخَوْفُ مِنَ اللهِ، وَالْحَيَاءُ"392

ولهذا الإنسان كونه لم يخلق على الكمال؛ فهو معرّض للأخطاء، ولأنّها أخطاء؛ فهي قابلة لأن تصحّح، بل ومن يرتكب خطيئة ويتوب عنها مخلصا لله تعالى ستظل أمام عينيه خوفا وكأنّها لم تمح بعد؛ فعن نبي الله داوود قال ثنا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ، "سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ، يَقُولُ: "ما عَمِلَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السّلام عَمَلًا قَطُّ كَانَ أَنْفَعَ لَهُ مِنْ خَطِيئَتِهِ مَا زَالَ مِنْهَا خَائِفًا هَاربًا حَتَّى لَحَقّ بربِّهِ عزّ وجلّ"393، وعن أَبُو يَزِيدَ فَيْضُ بْنُ إِسْحَاقَ الرَّقِّيُّ، قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: "سَأَلَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السّلام ربّهُ عزّ وجلّ أَنْ يُلْقِيَ فِي قَلْبِهِ الْخَوْفَ فَدَخَلَ فَلَمْ يَحْتَمِلْهُ قَلْبُهُ، فَطَاشَ عَقْلُهُ حَتَّى مَا كَانَ يَعْقِلُ صَلَاةً وَلَا غَيْرَهَا، وَلَا يَنْتَفِعُ بِشَيْءٍ فَقِيلَ لَهُ: أَتُحِبُّ أَنْ نَدَعَكَ كَمَا أَنْتَ أَوْ نَرُدَّكَ إِلَى مَا كُنْتَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: رُدُّونِي فَرُدَّ عَلَيْهِ عَقْلُهُ"394

وعليه:

الخوف استشعار للمستقبل واستطلاع لِما قد يَحلّ به وقد يؤثّر تأثيرا سالبا على الفرد أو الجماعة أو المجتمع وما يمتلكون، وحتّى لا يحدث تُبْذل الجهود من قِبل مستشعريه وقاية منه أو استبدالا له، أو استغناء عنه في دائرة الممكن.

ومع أنّ معظم معلومات العامة من النّاس عن الخوف هي معلومات عن سالبٍ، إلّا أنَّ حقّيقة أمره لا تربّطه بسالبٍ؛ فالعامة على

392 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 7، 137.

393 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 9، 263.

394 شعب الإيمان، 2، 346.

سبيل المثال يخافون من الظلمة، ولكن هل يوجد شيء من مكوّنات الظلمة يخيف؟

بالتأكيد الظلمة لا تُخيف، ولكن ما قد يفاجئك وأنت في زمن الظلمة قد يُلحقّ بِكَ ألما أو ضررا، ولهذا ينبغي أنْ تكون عند الظلمة حذِرا متيقّظا، وإن لم تكن كذلك فقد تفاجأ بما هو غير متوقّع، وعندها قد تحدث الخسارة، ولكن بفضل الله علينا خلق الخوف في أنفسنا وجعله قابلا للاستشعار العقلي ليتّخذ الإنسان حذره ممّا يُخيف.

وعليه فالخوف الذي هو من خلق الله فينا خلقا، هو دائما موجب، ولذا لا حُجّة للبعض الذين يرون أنّ الإنسان قد خُلق على السلبية في مقابل قوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[395]؟

ولأنَّ الخوف موجب فكلّ عاقلٍ منّا يخاف المرض ولا يخاف الموت، ذلك لأنّ للمرض دواء؛ فكلّنا نسعى إلى بلوغه والعمل من أجل الحصول عليه؛ فتجرى التطعيمات الوقائية للناس عن المرض استباقا، خوفا من حدوثه، أمّا الموت فلا دواء له، ولهذا لا أحد يفكّر في علاج الموت.

ولأنّ الخوف يصنع المستقبل؛ فكلّنا نسعى لتوفير الماء قبل أن يلمَّ بنا العطش، ولأنّنا نجوع؛ فنسعى لتأمين غذائنا قبل أن تلمّ بنا أزمة الغذاء وألم الجوع، ولأنّنا نخاف من الوِحدة، فنسعى جميعا من أجل تحسين علاقاتنا الاجتماعيّة مع الآخرين أبوة وأخوة وعمومة وقرابة وجيران كرام كي لا يلمّ بنا ما يخيف، وحينها نتمكّن من بلوغ السكينة.

ولأنّنا نعرف ما تتركه السرقة من ألم؛ فنسعى للتأمين على ما نمتلكه قبل أنْ تحدث السرقة، ولذا فمن لم يكن خائفا فطنا سيدفع ثمن غفلته ألما.

[395] التين 4.

وهكذا بأسباب الخوف من الجهل تسعى النّاس لنيل التعليم، ولذلك دائما من لا يخاف على مستقبله لا يسعى لتأمينه، ومن لم يرسم الاستراتيجيات والخطط لمستقبل أفضل، لن يجد لنفسه مكانة يتبوّؤها بين النّاس، ولن يكون له مستقبلا مفضّلا ولا مقدّرا، بل قد يجد نفسه على الرصيف جالسا على قارعة الطريق متسوِّلا، أو سجينا بين الجدران بأسباب فقدانه مشبعات الحاجة.

ولأنّ الخوف نعمة من نعم الله علينا؛ فكلّ عاقل ليس له بدٌّ إلّا أنْ يُفكّر في كلّ ما من شأنه أن يجنِّبه ما يخيف.

وعليه: فالعاقل دائما يسعى لتأمين مستقبله من الكوارث. وهكذا كلّ من يخاف من العدوان يسعى لإعداد العُدَّة قبل أن يحدث العدوان، وذلك لأجل إرهاب العدو ووضع حدّ له يقف عنده.

ولمتسائل أن يسأل:

الخوف من أجل ماذا؟

نقول:

من أجل السّلامة، ولذا فمن يحرص على الإقدام على ما يخيف من أجل التخلّص منه أو تجنًّبه بما يحقّق السكينة والأمن، سلم. وإلّا لماذا الآباء هم يخافون على أبنائهم؟

بطبيعة الحال خوف الآباء على أبنائهم هو من باب الحرص عليهم وتحقّيق السّلامة لهم. ولذلك فمن خاف سلم، ومن لم يخف ألقى نفسه في التهلكة.

وعليه فالعلاقة قويّة بين الخوف والتدبُّر، وبينه وبين التفكّر، والتذكّر، أي لماذا الإنسان العاقل ينبغي عليه أن يتدبّر أمره، ويتذكر ماضيه، ويفكّر في مستقبله؟

نقول:

يتدبّر حاله في الزمن الآن من أجل أن يستمدّ القوّة التي بها يتمكّن من التذكّر والتفكّر، ويتذكّر الماضي لكي يتدبّر حاضره عن بيّنة، ويعرف ما يجب أن يَقدِم عليه في مستقبله، أمّا التفكّر فلا يكون إلّا في كلّ ما من شأنه أن يحفّزه على صناعة المستقبل.

وكما أنّ هناك علاقة موجبة بين الخوف والتدبّر والتفكّر والتذكّر؛ فكذلك هناك علاقة سالبة بين الخوف والوهم؛ فالوهم مجرد افتراضات لا علاقة لها بالواقّع (تخيّل ليس إلّا)، أمّا الخوف فلا وجود له إلّا مع واقع، ولهذا فالفرق كبير بين متخيلات الوهم وبين ما يكشفه الخوف حقّيقة. فالآباء في كثيرٍ من الأحيان يرسمون صور وهميّة في أذهان أبنائهم عن المجهول بالنسبة لهم بغرض السيطرة عليهم وجعلهم تابعين؛ فالغول الذي ليس له صورة لعدم وجوده حقّيقة، صورته لم تمحَ من أذهان الكثيرين من أبناء العالم المتخلّف.

ولأنّ للخوف علاقة وثيقة مع المستقبل؛ فالنّاس تخاف من مفاجِئات الزلازل؛ فتسعى في البحث لأجل أن تتمكّن من المعرفة العلمية التي تكشف مؤشرات الزلازل قبل وقوعها تفاديا لِما قد تحدثه من كوارث، ولذا فالمهندسون وخاصة المعماريون هم دائما يبحثون عن كيفية إيجاد تصميم معماري يُسهم في تفادي الهزات الأرضية أو الحدّ ممّا تؤدّي إليه من أضرار.

ولأنّ الخوف فطري؛ فكلّ المخلوقات الحيوانية حالها كحال الإنسان تخاف فطرةً لا تعلّما؛ فالخروف بدون شكّ يخاف الذئب، والذئب يخاف الكلب، والكلب يخاف صاحبه ولا يخاف أعداءه، وهكذا الدجاج يخاف الثعالب، والثعالب تخاف الصيادين، ولكن دون تدبّر؛ فكلّ سلوك حيواني يكون الحسم فيه أثناء المواجهة للأقوى، ممّا يجعل للمفاجئة مكانة في إلحاق المغالبة بين حيوانا وآخر.

والفرق بين الخوف على المستوى العاقل والمستوى الحيواني هو أنَّ الإنسان يخاف فيتدبّر أمره مسبقا من أجل أن يتفادى المخاطر المقدّرة تقديرا بحسبان؛ فالمسلم يعلم أنّ أمامه مستقبل بين (سكينة وألم) وله أن يختار إرادة (جنّةً أم نارا) ولهذا فالمؤمن في حياته الدنيا يتّقي الشرور ويبتعد عن ارتكاب المظالم خوفا من النّار وحبّا في الجنّة، ولهذا فهو يُصلّي ويُزكّي ويصوم ويتّبع أمر الله ونهيه، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويسعى للإصلاح في الأرض وإعمارها وفلاحها، أمّا غيره من بني جنسه (الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم)؛ فهم غافلون، ولهذا لم يعملوا على صناعة مستقبلهم وهم في الحياة الدنيا، ولذا فالخوف تفادٍ للفعل المؤلم سواء أكان هذا الفعل في الحياة الدنيا أم أنّه عندما يكون مترتّبا عقابا في الحياة الآخرة على ما لم يُفعل في الحياة الدنيا أو أنّه فُعل عن غير طاعة لما يجب أن يُفعل إرادة.

ولأنّ الخوف يُجنّب الألم؛ فالواعون دائما يتجنّبون لحظة الغضب بحكمة وتدبّر، بغرض إضاعة الفرصة على الغاضب وإعادته لرشده، ولذا فإنْ لم يتمّ تفادي الغضب لحظته تحدث المواجهة المؤلمة؛ فتتأزّم الأمور ويتصدّع البناء الأسري أو العشائري أو أيّ بناء اجتماعي وإنساني على مستوى الأفراد والجماعات وحتى الدول.

وهكذا العالم المتقدّم دائما يَقدم على كلِّ شيء يمكن أن يُسهم في صناعة المستقبل الأفضل؛ فبالنسبة له كلّ شيء بحسابه؛ ولذا كلّ يوم نلاحظ أسعار النفط والذهب والفضة والعملات وأسعار الأسهم وما شابهها اقتصاديا تتغيّر وتتبدّل قيمها أحياناً بتعديل رؤية في سياسة منظّمة الأوبك أو تصريح من رئيسها أو تصريح من أيّ رئيس له أثر فعّال على الساحة العالمية، أو إذا وقعت كارثة طبيعية أو غير طبيعية من حروب أو حتّى تهديدات باردة ترتفع بأسبابها أحيانا جميع الأسعار عقاريّة ومالية وذهبية ونفطية وفضيّة وغيرها، وكلّ ذلك بأسباب الخوف التي تجعل الكلّ يأخذ حذره الذي به يتمكّن من تأمين مستقبله.

وعليه: النّاس جميعا يخافون في ظروف متشابهة أو ظروف مختلفة، ولذا فالخوف انفعال طبيعي مرتبط بالفطرة، وثمّة مخاوف تكون وهميّة لدى البعض إذا تكرّرت بانتظام في غياب مخاطر حقّيقية، وتكون هذه المخاوف ما بعد الفطرة في بعض الحالات، وهي مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بتجربّة مخيفة نتج عنها رعب؛ فالذي يخاف من حيوان معيّن أو من أكثر من حيوان قد يكون هذا الخوف تأصّل في نفسه بعد أن تعرّض أو عرف وراء من تعرّض لهجوم من حيوان معين، وهكذا لو وقع طفل في حفرة؛ فهو يخاف أيّ حفرة مشابهة، ممّا يجعله أكثر حذرا في مستقبله من أجل السّلامة، وهذا النوع من الخوف هو خوف زائد على الفطرة، لأنّه ناتج عن تجربّة سبّبت أذى نفسيا كبيرا أو ألما جسديّا، جعلت صاحب هذه التجربّة يخاف الأشياء التي مرّت به وسبّبت له ألما أو أذى نفسيّا أو جسديّا؛ فأصبح هذا الخوف نوعا من المرض الذي يجب علاجه، أمّا الخوف الطبيعي فهو خوف فطري لدى جميع البشر، وهو صفة من صفاتهم اللازمة، والذي لا يخاف يكون مريضا وجب علاجه أيضا.

الخوف هو صفة للخائف مثله مثل أيّ صفات أخرى يمكن أن يتّصف بها الإنسان، وطالما أنّ الخائف موصوف بما يمكن أن يتّصف من صفات ومن ضمنها الخوف؛ فإنّ الصفة التي اتّصف بها ـ أيّة صفة ـ إمّا أن تكون صفة عارضة تزول بزوال مسببها، كاصفرار الوجه الذي يسببه المرض مثلا، أو أنّها صفة لازمة خلقية كلون البشرة والشعر والأعين، أو فطرية غريزية من الصفات الإنسانية التي تنقسم إلى مادية وإلى نفسيّة روحية، فالمادية كالشعور بالجوع والعطش التي تزول بزوال مسبباتها بعد الأكل والشربّ وإن تكرّرت بانتهاء مشبعاتها ويكون المنبّه عليها داخلي يشغل حيزا ماديا معيّنا، وأمّا النفسيّة الروحية التي لا تنفكّ عن الجسد ولا يعرف موطنها فيه، كالشجاعة والجبن، والكرم والبخل، والخوف والأمن، تسكن في الحيّز الإنساني فطرة غريزيّة لا يعرف موطنها، وتفترق عن الصفات المادية بأنّها تستثار وتهدأ بمثيرات خارجية وهي ملازمة في الحالين:

ـ حالة الاستثارة.

ـ حالة الهدوء.

فالكرم صفة مثل صفة الخوف، ذلك أنّ الذي يتّصف بها يكون كريما، ولا تظهر فيه صفة الكرم إلاّ بمثيرين اثنين:

الأول: من يقوم الكريم بإكرامه.

ـ الثاني: ما يقدّمه لمن يكرمه.

فإذا تلاشى كِلَا هذين المثيرين لهذه الصفة أو أحدهما، فإنّ صفة الكرم تهدأ في نفسه ولا تتلاشى، وذلك إمّا لأنّه لم يجد من يكرمه، أو أنّه لا يجد شيئا يُكرم به، وبهذا تبقى الصفة قائمة في النفس لحين استحضار مثيراتها ودوافعها من الأسباب.

والخوف أقربّ ما يكون إلى صفة الكرم؛ فهو ليس من الصفات المكتسبة، إذ لو كان الخوف مكتسبا لَعمِلنا جاهدين على إيجاد نقائض أسبابها بطريقة الكسب، وتخلّصنا منه إلى النهاية.

وعليه: فالخوف صفة لازمة للخائف ولغيره، وذلك أنّ الخائف تكون صفة الخوف لديه لازمة ظاهرة، وأمّا غير الخائف؛ فإنّ صفة الخوف لديه لازمة باطنة، وهذا يعني أنّ الخوف جزء من تكوين الإنسان النفسي كونه فطريا غريزيا، ومعلوم أنّ الصفات الفطرية التي ترتبط بالجانب النفسي لها علاقة مباشرة في حياة الإنسان؛ فإن أحسن الإنسان استخدامها، أدّت وظيفتها الإيجابية التي وجدت من أجلها، وإن كان غير ذلك؛ فلا بدّ أن تكون النتائج عكسيّة.

ولما كان الخوف صفة فطرية لازمة؛ فلا بدّ أن تتناسب هذه الصفة مع مراحل الإنسان الحياتية وتنمو مع نمّوه بما يناسب التحذير من المخاطر التي تحدق به في كلِّ مرحلة من مراحل حياته، إذ لولا الخوف الفطري لهلك كثير من النّاس وخاصة الأطفال الذين لم يصلوا إلى مرحلة التمييز العقلي، وهنا تظهر صفة الخوف نعمة ممّا أنعم الله تعالى بها على خلقه، ولذلك يكون الخوف عندهم نوعا من الحواجز التي تردعهم عن المخاطر في تلافيهم إيّاها، وكلّما كبر الإنسان كبر خوفه بنموّي عقله خوفا تحسبيّا، لا بمعنى الجبن والتخاذل، وإنمّا بمعنى تقدير المخاطر التي تؤدّي إلى ضرر، ومعرفة المكاسب التي تؤدّي إلى النفع، وعليه فخوف الإنسان خوفان:

1 . خوف من أن يدركه شيء.

2 . وخوف من أن يفوته شيء.

فكلّ إنسان يشغله حيّز من الخوف منذ ولادته، حيث يكمن هذا الخوف في نفسه وإن كان آمنا، كما يشغل النفس حيّز آخر من الأمن والآمان، ويدور صراع النفس مع الخوف إمّا من أجل الحصول على الأمان أو المحافظة عليه حال وجوده، ومن هنا يجب أن يكون الخوف والأمن متوازيان لدى النفس الإنسانية، أو بعبارة أدق يجب أن يكونا متعادلين، بحيث لا تستغني عن الخوف ولا تكتفي به، كما أنّها لا تستغني عن الأمان ولا تكتفي به، ووجود الخوف الفطري المصاحب للأمان في النفس الإنسانية لا بمعنى الاصطحاب وإنّما بمعنى الكمون، يعطي الإنسان فسحة للتفتيش عن الأسباب التي تهدّيئ مخاوفه حال الاستثارة من خلال إيجاد المنافذ الأمنية والاطمئنان إليها عندما تطغى على المخاوف، ولذا نرى أنّ الأمان يمنح فرصة أكبر للوقوف على مصادر الخوف، لأنّه يمنح العقل انطلاقة التفكير بما يجب وما لا يجب، ومن هنا يكون الأمان مستثيرا للخوف في اللاوعي؛ فعندما يقف الإنسان من خلال اللاوعي على مصادر الخوف ومخاطر تلك المصادر؛ فيعود إلى وعيه ويبحث عن مثبتات الأمان من خلال خوفه، ولذلك فالنفس المطمئنة هي التي تتعادل لديها كفتي الأمن والخوف، الأمر الذي يمنحها الاتزان من خلال التوازن بين الجانبين؛ فإذا طغى الأمن على الخوف كان ذلك مدعاة للإفراط في الثقة بالذات، وهنا مكمن الخطر، وإن طغى الخوف على الأمن أدّى ذلك إلى الانسحاب المفضي إلى الجبن، ولذلك لابدّ لأيّ إنسان أن يمتلك قسطا من الخوف يوازي أمنه ويحافظ عليه، ذلك أنّ هذا القسط من الخوف الذي يعتري الإنسان، يكون نواة تبلور السكينة والأمن والطمأنينة ومصدر لها، فإذا تنكّر الإنسان لخوفه، انطلقت نفسه على هواها، وهذا الانطلاق يؤدّي إلى الانزلاق الذي لا يمكن التخلص منه إلاّ بالعودة إلى الخوف استشرافا للمستقبل الآمن من أجل التخلّص من القلق والاضطراب، فإذا كان البعض يرى أنّ أزمة الإنسان في الوقت الراهن في عصرنا هي الخوف،

فإننا نرى أنّ عدم الخوف هو أزمة أكبر لما يُحدث من مخاطر، فلو كان الخوف قائما في النفس لوجب أن يكون هذا الخوف دافعا للحصول على الأمن والسكينة والطمأنينة من وسائلها الأمنية بأسبابها الخوفية؛ فإن تغلّب الخوف على الإنسان ولم يكن خوفا متوازنا يرافقه جانب أمني، يتحوّل هذا الإنسان إلى جبان فقد اتزانه وقدرته على مواكبة الحياة، وبهذه الحال يكون قد وصل إلى مرحلة الخوف من الخوف، والذي يحلّ المشكلة برمّتها هو حسن التعامل مع الخوف ضمن دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولذا وجب على الإنسان أن يواجه خوفه مواجهة عقلية انطلاقا من واقع يستشرف المستقبل بحيث يكون الخوف دافعا للبحث عن منافذ الأمن ومسببا للطمأنينة من خلال نظرة استشرافية للمخاطر التي يمكن أن يأتي بها الخوف مستقبلا، وبهذه النظرة في طريقة التعامل مع المخاوف، يكون قد سخّر خوفه خدمة لمستقبله إن علم أنّ الخوف صفة لم يتّصف بها إلاّ من أجل الانطلاق نحو الأفضل.

فالخوف هو ذلك المحفّز الإيجابي للعاقل الذي يدفعه إلى التحصّن ضدّ الشرور باستدعاء مفردات الخيرات في البحث عنها وتأمين سبلها ومسبباتها خوفا من سيطرة مفردات الشرّ التي تحمل الألم والضرر والأذى، وما يترتّب عليها من حزن وقهر وحرمان، تؤدّي إلى حسرة ولوعة وخسران.

ولما كان الخوف ملازما للإنسان غريزة وفطرة، فإنّه لم يكن قبله، ولم يأتِ بعده، ممّا يعنى أنّ صفة الخوف هي شعور يختصّ بالمستقبل؛ فيبدأ الإنسان من خلال خوفه بتحصين نفسه ضدّ المخاطر التي يدرك أنّها تؤدّي إلى الضرر أو الأذى وأحيانا تصل إلى درجة الهلاك، ومن هنا يبدأ الفرد في تحصين الذات ضدّ أشياء يخشاها بداية أثارت مخاوفه؛ فيتحصّن ضدّ الجهل والفقر والمرض والعدو، وضدّ العطش والجوع والحرّ والبرد،

وأشياء أخرى تثير مخاوف الإنسان أكثر من أن تحصى، ولو لم يكن هناك خوف من هذه الأشياء لما سعى الإنسان لتأمين مضاداتها التي تقف حائلة في وجه ما يثيره الخوف وما ينتاب الإنسان من هذه الإثارة، وبذلك يكون الخوف مدعاة لتأمين العلم والمال والدواء والقوّة، وكلّما ازداد خوف العاقل ازداد مع هذا الخوف تحسّبه لما يمكن أن يأتي من مخاطر، فيكيّف نفسه وفق المخاوف التي يتوقّعها بما يعدّ لها من عدّة للمواجهة، وهكذا يكون الخوف سببا للأمان والأمن والطمأنينة396.

الخوف بين الفطرة والغريزة:

إنّ خوف العاقل هو الذي يقوده إلى البحث عن مكامن الأمن على تشعّباتها المادية والمعنوية، والدنيوية والأخروية على الرغم ممّا ينظر إليه البعض على أنّه سيف مسلّط على رقاب النّاس، أو أنّه سوط من الأذى يسوقهم إلى المكاره ويقضُّ عليهم مضاجعهم، إلاّ أنّ هذا السوط من الخوف هو أيضا يجعل الإنسان في مأمنٍ من المكاره التي يخاف منها وليس من الخوف، إذ لو فقد الإنسان خوفه؛ لفقد الأمن والاستقرار والطمأنينة والسكينة، فالشعور بالخوف عندما يستثار من مكمنه، يولّد نوعا من الألم النفسي على الرغم ممّا يصاحب هذا الألم من الرجاء في الانتقال من الاضطراب إلى الهدوء ومن القلق إلى السكينة، وهذا يعني أنّ الخوف وإن كان من العاطفة، إلاّ أنّه يدفع بالعقل إلى درجة عالية من توقّد الذهن ولا يغيّبه؛ بل يجعله يُجدّ البحث عن سبل تهدّئ الخوف وتسكّنه وتعود به إلى مكمنه من خلال تأمين وسائل مسكّنات الخوف، ولذا أقربّ ما يكون الخوف عند الإنسان إلى الفطرة والعقل، على عكس بقية المخلوقات التي يرتبط خوفها بالغريزة، ولذا نقول فطرة الإنسان وغريزة الحيوان، وإن كان

---

396 عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، ص 9 . 23. 2011م.

للإنسان غرائز حيوانية كالجوع والعطش والنكاح التي يستوي فيها الإنسان والحيوان، إلاّ أنّ الإنسان يفارق الحيوان بالخوف، لأنّها فطرة عند الأوّل وغريزة لدى الثاني، بدليل أنّ الإنسان عند خوفه يلجأ إلى عقله ويحتكم إليه، وبالتالي فإنّ العقل في حالة خوف الإنسان، يدفعه إلى التفكير بما يجلب له المصالح ويدرأ عنه المفاسد، ومن هنا لا يستبعد العقل إمكانية التخلّص من المخاوف التي أثارها الخوف، فالعقل بهذا الاعتبار حال الخوف يستطيع أن يضغط على العاطفة ويسيّرها وفق مشيئته بما يراه مناسبا من حذر المكروه اقتناصا للمصلحة ودفعا للمفسدة بما يعود عليه بالمنفعة التي يراها من خلال حجم المخاوف، وإن كان العقل لا يدلّ على حُسن الأشياء وقبحها والأخذ بالأفعال وتركها قبل بيان الشارع لها في الوجوب والمنع والأمر والنهي، إلاّ أنّه يدرك مخاطر الأشياء والأفعال عن طريق الخوف، ومن هنا ارتبط الخوف بالعقل عند الإنسان، وارتبط الخوف بالغريزة عند الحيوان، فالعقل يكون شاهدا على المخاوف، ويكون مقرّا بخطرها ومؤيدا لوجودها، لا ناقضا لشهادته ولا رافضا لها، ويكون موضحا للأمر، والخوف هو الذي يدفع العقل لاتخاذ القرار فيما يمليه عليه الأذى والضرر من المخاطر الذي دفعها الخوف إلى العقل ليسبر غورها.

ومن هنا نرى أنّ علاقة وطيدة تقوم بين الخوف والعقل؛ بل إنّ الخوف يدفع العقل إلى إعمال إمكاناته إشباعا لمتطلّبات الخوف، بما يثره الخوف من قضايا ويدفعها إلى العقل من أجل البحث عن حلولها، وهذه المخاوف التي يبثّها الخوف في النفس، يكون للعقل منها النصيب الأوفى لا من حيث الخوف، وإنّما من حيث التعرُّف على حجمها ومقدار ضررها، وإن كان خوفا عكسيا من أن يفوته خير، فيستطيع أن يقدّر صلاحها ومنفعتها وفائدتها والحكم على الحرص في استحواذها.

ومن خلال المخاوف يحكم العقل باستحالة غير الممكن، وقبح الشرّ والظلم، وضرر المفاسد، ويحكم من خلال الخوف أيضا على حُسن الخير والحقّ والعدل، وعلى المصالح التي تعود بالمنافع التي تبدّد الخوف.

وعليه ممّا يثيره الخوف لدى العقل، يستطيع العقل أنّ يردّ كلّ حدث خارجي إلى سببه، وكلّ هاجس داخلي ـ في النفس ـ إلى علّته، بحيث لا يمكن للنفس التشكيك فيه؛ فتطمئنّ إلى قراراته وما يمليه على الإرادة اندفاعا من الخوف الذي أرسل الإنذار بالمخاطر، ذلك أنّ الإنسان يتمتّع بأشياء كثيرة من الملكات، ويتمتّع إلى جانب خوفه بالعقل والقدرة، فالعقل يفهم الخطاب الصادر عن الخوف ويميّز به حجم المخاطر ويقارنها بالقدرات، والقدرة تباشر الأسباب التي يكلّفها العقل بمعالجتها استجابة لإنذار الخوف، ولذا وإن كان الخوف يصنّف ضمن العواطف التي تتمتّع بها النفس، إلاّ أنّ هناك علاقة إيجابية متبادلة بين الخوف والعقل في تقدير حجم المخاوف ومخاطرها، ومن ثمّ البحث عن الأسباب العلاجية لها أو الوقاية منها في عملية تشابكية بين الخوف والعقل والقدرة، إضافة إلى الملكات الأخرى التي تنصاع للعقل في تنفيذ أوامره استجابة لإنذار الخوف.

إنّ خوف الإنسان فطري له علاقة وطيدة بالعقل، بينما خوف الحيوان غريزي عشوائي؛ فالحيوانات الضارية قد تدفعها غريزتها إلى الخوف والهربّ والفرار حتى وإن عضّها ألم الجوع أحيانا، وقد تهاجم وتقتل وتبطش دون خوف وإن كانت شبعى أحيانا أخرى، ذلك أنّ الغريزة أملت عليها أشياء لا نستطيع أن نفهمها نحن، ولا هي تستطيع أن تفسّرها لنا، إذ أنّ الحيوانات المفترسة تخاف الإنسان في أحيانٍ كثيرة على الرغم من أنّها لم تجنِ جناية ولم تقترف ذنبا بحقّ هذا الإنسان، وكثيرا ما تهاجمه وتبطش به مع أنّها ليست جائعة، ولا الإنسان جنى عليها جناية، أو اقترف بحقّها

ذنبا، فهي تفعل هذا وذاك لصفتها وسطوتها وبطشها، وتفعل ما تفعل ولا تبالي، فإن قتلت وبطشت لم يرقّ قلبها ولم تتألم، وإن تركت فريستها، فهي لم تتركها رحمة بها ولا شفقة عليها، وكلا الحالين لا يقدح في حيوانيتها.

إذن التساؤل المطروح ما الذي يدفعها إلى الخوف أو عدمه؟

إنّ الإجابة على هذا التساؤل هي ظنيّة أكثر منها يقينية، ذلك أنّ الإنسان عندما يتملّكه الخوف، تظهر منه ردود أفعال تجاه ذلك سلبا أو إيجابا، ويستطيع أن يعبّر عن خوفه لنفسه، وأن يفصح عن خوفه للآخرين، ومن ثمّ يتصرّف تجاه المخاوف بطرق شتى ووسائل عديدة، أمّا هذه الحيوانات ولاسيما الضارية منها، لا نستطيع أن نحكم على خوفها وإن أدبرت أمامنا مسرعة، ولا يمكن أن نحكم على عدم خوفها وإن أقدمت على البطش في ضحيتها، غير أنّ الذي يبدو لنا أنّ مقياس الخوف الذي أسقطه الإنسان على الحيوان، هو تعبير عن شعورٍ ذاتي للإنسان حال الإقدام والإحجام في الخوف وعدمه، فإن هربّت هذه الحيوانات مدبرة أمام الإنسان، ظنّ أنّها خائفة، وإن أقبلت عليه حكم بأنّها غير خائفة.

فمن أين أتى بهذا الحكم؟

نحن لا نشكّ أنّها تخاف، ولكن نشكّ أنّنا نستطيع تقدير لحظة الخوف، لأنّ تعبيرها عن حاجاتها أو ما تشعر به في انفعالاتها وردود أفعالها لا يستقيم القياس عليه بالإقبال والإدبار أو بالهدوء والثوران، لأنّها لا تحتكم في ما يواجهها إلى موجّهٍ عاقل، ولا تفصح عمّا ينتابها، وإنّما هي غريزة تتحكّم بها أو تفرض نفسها عليها؛ فتنصاع لذلك استجابة للغريزة، إذ أنّها لو كانت تعرف الخوف بالمعنى الإنساني، لما أكل الضبع أولاده،

فكيف تخاف الضبع على أولادها ثمّ تأكل بعضهم، ولو أنّ ابن الضبع كان يستشعر الخوف من والديه لهربّ قبل أن يأكله أحدهما.

ثمّ إنّ كثيرا من الحيوانات العاشبة كالغزلان والظباء والأبقار والجواميس في الغابات، تعيش جنبا إلى جنبٍ مع الحيوانات اللاحمة مثل الأسود والنمور والفهود والضباع، فالحيوانات العاشبة تشكّل مصدر غذاء يكاد يكون وحيدا للحيوانات المفترسة، فلو كانت ترى فيها مصدر خوف لما أقامت معها، نعم تكون المطاردة على أشدّها بين المفترس والطريدة، ويثير ذلك بقية القطيع، إلاّ أنّ النهاية الحتمية للطريدة لا تدفع القطيع إلى مغادرة المكان، وكأن الأمر يعني الضحية ذاتها ولا يعني نوع الضحية، وهذا يعطينا مؤشرا على عدم خوفها، وذلك عندما تهاجم طريدة واحدة، يبدأ القطيع بالسير على غير هدى، وعندما تقتل الضحية وتُفترس، يعود الأمر على ما كان عليه من المعايشة في الرقعة الجغرافية بين الضحيّة القادمة والقاتل المفترس.

إنّ الخوف عند المخلوقات الأخرى غير الإنسان هو غريزي بحت، قائم على فعل وردّة فعل، وبانتهاء الفعل تنتهي ردود الأفعال المضادة، إذ لو أنّ الحيوانات يسكنها الخوف كما يسكن الإنسان وهو جزء منه لا يفارقه، لاتخذت تلك الحيوانات سبلا تناسب حيوانيتها باتقاء مخاوفها، والذي نظنّه أنّ خوف الحيوان ليس خوفا بالمعنى الإنساني، وإنّما هو نوع من استشعار خطر قد يكون أيّ واحدٍ من أفراد القطيع هو الهدف، فإذا تمّ اقتناصه زال بزواله الخطر المستشعَر.

وهكذا نرى علاقة الخوف بين بقية الحيوانات الأخرى من الأكبر والأصغر، والأقوى والأضعف، وتبقى مسألة مهمة في هذا الصدد، وهي أنّ الله تعالى بيّن لنا تصرّف حيوان وإن كان حشرة، ولكن هذا ينسحب على جنس الحيوان، حيث قال تعالى عن النحل: {وَأَوْحَى ربّكَ إِلَى النَّحْلِ

أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ ربّكِ ذُلُلًا}397.

فعدم العقل يشترك به جميع الحيوان، من الحشرات والطيور والسباع والحيتان وما إلى ذلك، ولما كان النحل من الحيوان، والله سبحانه وتعالى أوحى إليه وأخبر عنه؛ فيمكن القياس أنّ الله تعالى أوحى إلى بقية الحيوان واكتفى بالإخبار عن النحل الذي أوحى له، والوحي هنا أقربّ ما يكون إلى نوع من البرمجة التي تعمل بها الحيوانات وفق ما قرّر الله تعالى في خلقها حسب غريزتها الذي يكون الخوف جزءا منها لحظة الخوف، لأنّ الخوف لا يسكن الحيوان كما يسكن الإنسان؛ فالإنسان خوفه فطري، والحيوان خوفه غريزي، وعليه فالخوف يبقى قائما في الإنسان لأنّ الفطرة ثابتة، بينما إن كان ثمّة خوف عند الحيوان؛ فهو خوف غريزي يزول بمشبعاته بطريقة يدركها الحيوان نفسه بما قرّر الله تعالى في نفسه من وحي واستشعار لا عن فطرة ولا عن فطنة، وبون كبير بين الفطرة المرتبطة بالعقل والعاطفة، وبين الغريزة في استشعار الخطر وما يقابلها من ردّة فعل تجاه الخطر المستشعر.

إن الخوف لدى الإنسان لم يرتبط بالغريزة، وإنّما ارتبط بالفطرة والعقل المميّز الذي أثقل كاهله بالمخاوف، ولذا فإنّ هذا الأمر يسبب له كثيرا من الهموم والضغوط النفسية، مصدرها التحسّب من المخاوف التي يبحث لها عن حلول، أو دوافع تدفع عنه المخاطر التي تحملها مخاوفه، ولذا يسعى جاهدا في إشغال عقله للتوصّل إلى الموانع التي تقف حائلا أمام المخاوف ومخاطرها، وعندما لا يحصل على ما كان متوقعا، يظلّ الخوف قائما في نفسه، وحتى لو حصل على ما يريد؛ فقد لا يكون راضٍ عنه تمام

[397] - النحل 68، 69.

الرضا، ذلك أنّ الصورة التي كان يتخيّلها قبل تحقّيق مصدّات الخوف، كانت في عقله أبهى من الواقع398.

استنهاض الخوف:

يكمن الخوف في النفس الإنسانية، لكن هذا الكمون لا يكون مستديما أو حالة تكون أشبه بالمكوث الذي لا يرى بزوغه أبدا، ذلك أنَّ المثيرات الخارجية تسعى دائما إلى يقظته في تشكيلات متعدّدة ومتنوّعة، فيكون ظهور الخوف ضمن حالة متفاوتة بحسب المثير الذي يستفّزه، هذا الأمر يكون تحقّقه ضمن آنيّة مفترضة يكون حصولها بعد امتدادات واضحة المعالم، يُرى فيها كلّ التمركزات المطلوبة، والتي يكون من بعدها التوجّه العلاجي قائم من خلال مثول الخوف وراء كلّ ما يحصل.

إنَّ هذا الانفتاح في المعالجة قائم على آنيّة تكون محدّدة الحدود واضحة التفاصيل، ومن الممكن الوقوف على كلِّ ما من شأنه أن يكون الحلّ فيه ظاهرا سواء أكان ماديا أم معنويا؛ فتكون المعالجة سريعة، لكنّها لا تخلو من أخطاء متفاوتة قد تكون قليلة في بعض الأحيان، إلّا أنَّها قد تتّسع في أحيانا أخرى لتصل الأمور في بعضها إلى وجود خروقات غير منطقية، تجعل الكثير من الحلول في المستقبل في مهبّ الريح، هذه الآنيّة ساهمت بشكل أو بآخر في استنهاض الخوف من خلال رسم حجم المخاطر وتبيان ما فيها من تفصيلات تعينه على إيجاد حلول يكون من خلالها الوصول إلى نقاط التقاء فعلية تكسب الزمن أولا، وتخرج الوضع الحرج أو الخطر إلى وضع آخر أفضل ثانيا، إلّا أنَّ الوضع الأفضل يكون وفق مقاييس غير ثابتة، إذ تكون هذه المقاييس تابعة إلى مجمل العوامل التي التفّت حول الخوف، ومنحته هذا الاستنهاض الذي كان سببا فاعلا

---

398 المرجع السابق، ص 45 . 53.

في الوصول إلى النتيجة الحالية التي هي في كلّ الأحوال منقادة للبداية الأولى التي كانت قاعدة الانطلاق.

يسير الخوف باتجاهات واضحة المعالم حين يكون الاستنهاض مبنيا على أسس علمية، تتّسع مراحلها نحو إيجاد توافقات بين الحدود المفتوحة التي لا يُرى فيها في كثير من الأحيان إلاّ ابتعادا عن المركز المفترض، هذا المركز يكون من خلاله طرح ما يمكن طرحه وإعداد ما يمكن إعداده، ولهذا لا تكون البداية مفتعلة بأيِّ حال من الأحوال، لأنَّ الافتعال لا يولِّد في المستقبل إلّا أخطاء جسيمة، ونحن إذ نرى في البداية أنّها يجب أن تكون مبنية على اتساعات علمية مختلفة تلملم المطروح وتدخله في سياقات حقّيقية وافتراضية، فتمنحه بذلك مديات متباينة يكون على أساسها الوصول إلى الاتكاءات التي يكون من ورائها الوقوف على الحلّ، والذي يكون من ورائه تفادي المخاطر التي يمكن أن تحدق بالإنسان.

إن السير خلف طروحات ثابتة يجعل من استنهاض الخوف أداة ناقصة الفاعلية، ذلك أن التغيُّر المستمر في الحياة يخلق حالة من التصحيح المستمر لكلِّ ثوابت الحياة، وهذا بطبيعة الحلّ يوجد ارتماءات متعدِّدة تحاول أن تجد لها ما يكفل بقاءها ضمن دائرة الاستنهاض؛ فتكون الأمور ضمن هذه النسقية باطلة وغير قابلة لردع المخاطر؛ فتقلبات الحياة جعلت الكثير من الأمور تكون ضمن انزواءات لم يتوقّع لها أن تكون فيها؛ فكانت وجودا غير مرغوب فيه في كثير من المواقف، وهنا تنبري الأمور ضمن استمدادية جديدة؛ فتحاول أن تجد ما يمنحها صيرورة البقاء ضمن دوائر جديدة تسهم من خلالها في إيجاد حلول واضحة، وإن كانت استعراضية، إلّا أنَّها ملبية لبعض الإرهاصات الحاصلة التي تبدو غير خطرة.

وتتحدّد الحياة من خلال تقسيم يطرح كلّ ما من شأنه أن يكون سببا في استنهاض الخوف، ذلك أنَّ المخاطر أصبحت ضمن مدارك

الإنسان المختلفة؛ فيلتفَّ حولها استشعارات متباينة تكون حافلة بأسباب البحث عن كلِّ النقاط التي يكون من ورائها الوقوف على الصورة الافتراضية التي ستكون في المستقبل، وهذا يشمل ما يسمى بصناعة المستقبل؛ فالمستقبل في حقّيقته غير متحقّق، إلّا أنّه يمكن أن يتحقّق من خلال رسمه بتقنية خاضعة لكلِّ ما يساهم في تحقّقه، وفي هذا المقام يتراءى لنا مصطلح المستحيل الذي يمكن أن يكون باعثا لتوقفات كبيرة يكون من بعدها تحقّق المخاطر، ومن ثمَّ الانزواء عن إيجاد حلول تكون ناجعة في كلّ المقاييس، ولكي نبدِّد هذا المصطلح ولو آنيّا علينا أن نلجأ إلى المتوقّع وغير المتوقّع كي نسلب منهما الحلول التي يمكن أن تكون باعثة على إيجاد أرضية صلبة وواضحة المعالم، ويكون من ورائها خلق استنهاض للخوف يكون من ورائه صناعة المستقبل بالكيفية المفترضة والمرادة.

المتوقّع يسير في دائرة المتحقّق الذي يكون وجوده وصداه حاضرا في المنظور وغيره، وهذا بطبيعته يخلق حالة واضحة من وجود ثوابت يكون حضورها ممثّلا لجانب مهم من جوانب صناعة المستقبل؛ فيكون هذا الحضور استمرارا لهذه الصناعة حتى يمكن القول أنَّها تدخل حقّل البديهيات التي يكون وجودها لا بديل عنه.

أمّا غير المتوقّع؛ فيكون خاضعا لنظرة استشرافيه باحثة عن كلّ ما من شأنه أن يكون مؤسّسا بطريقة أو بأخرى لصناعة مستقبل مطلوب وفي المواصفات الافتراضية التي وضعت عند بداية الاستنهاض، ولعلَّ البداية قد تكون مفتعلة في بعض جوانبها نتيجة التحسُّب المبالغ فيه إلّا أنَّه بمرور الزمن قد يكون هذا الافتعال ممثّلا لكثير من الوقائع التي يمكن أن يكون لها شأنٌ آخر، فلا يكون هناك استبعاد لأيِّ استنهاض وإن كان بعيدا عن السمات المتواجدة ضمن الدائرة الظنيّة الحاضرة في كلِّ حركة متّجهة نحو الاستنهاض.

عليه يكون استنهاض الخوف باعثا لإيجاد قواعد جديدة تكون ملبِّية لما يمكن أن يكون بديلا عن الماضي، ودون الركون إلى كلِّ ما من شأنه أن يلغي التوجّه نحو المستقبل بافتراضات بالية وعقيمة لم تنتج إلّا ما يُعطِّل الحياة ويجعلها تمرّ بأزمات متوالية.

إنَّ الحياة في كثير من تفاصيلها هي مبنيّة على استنهاض الخوف لصناعة مستقبل يكمن فيه الأمان المطلوب في كلِّ جوانبه؛ فمن ذلك نجد أنَّ المقررات التعليمية إن لم تكن مصاغة بمنهجية استنهاض الخوف لدى المعلمين والمتعلمين؛ فإنَّها ستفشل في تحقّيق الغايات المرجوة لصناعة المستقبل، فإعداد كمّ من المعلومات الملبّية لاستنهاض الخوف، يكون موافقا لما يمكن أن يكون منجزا مستقبليا، فالمقررات إنْ لم يراع في صياغتها استنهاض الخوف في أنفس المتعلمين لا يمكن لهؤلاء المتعلمين صناعة المستقبل المأمول منهم، حتى يكونوا من المواكبين لحركات التغيّر والتقدّم التي هي دائما في حالة تطوّر من عصر إلى عصر.

ولذا فإنَّ الخوف من أعظم النعم التي تحفِّز الإنسان وتدفعه إلى كلّ ما من شأنه أن يجنِّبه المخاطر والآلام والمظالم، ويجنِّبه الحاجة والعوز، ويُمكِّنه من بلوغ مشبعاتها والإقدام على تطورها وتطويرها، حتى المناهج التي رأينا فيها أن تكون ملبِّية لاستنهاض الخوف، هي متغيِّرة ومتبدِّلة، لأنَّ الخوف أيضا متغيّر ومتبدّل، وهنا يكون النّاس ضمن اتجاهين:

الاتجاه الأول: يكون منهم متتبِّعا لكلّ ما يسهم في استنهاض الخوف من أجل صناعة المستقبل؛ فتكون حركتهم واعية وتسير في مدارات تلبّي ما يطمحون في الوصول إليه؛ فتكون أدواتهم خاضعة لكلّ ما يصل بهم إلى التحقّق المراد، حتى ردود أفعالهم تكون منتمية إلى أرضية واقعية التشكيل، فتمنحهم بعد ذلك حلولا صحيحة كما يريدونها في كثير من الأحيان.

الاتجاه الثاني: المتفرجون الذي يراقبون كلّ ما يجري، فلا يحركون ساكنا وسيظلون يتفرجون ما لم يعرفوا عن يقين أنّ استنهاض الخوف ضرورة للفرد والجماعة والمجتمع، هذه المعرفة لا تأتي من فراغ، بل يكون السعي من أجل معرفتها هو مطلب مهم يمنحهم فيما بعد هذا المطلب نتائج غير متوقعة على كافة الأصعدة التي كان ينظر إليها أنَّها غير مهمة.

إذن من يستنهض الخوف في نفسه يتقدّم ويتطوّر حتى يصل به الأمر إلى أن يغزو الفضاء وهو يصنع المستقبل، وفي المستقبل أيضا سيغزو ما لم نعرفه الآن في دائرة غير المتوقّع، ولهذا من يعلم بذلك لن يُفاجأ، أمَّا الذين لا يعلمون فبالضرورة ستكون المفاجأة في أنفسهم عظيمة ويا ليتها تكون موجودة.

الخوف ومنبّهاته على المخاطر:

يحيط بالإنسان مخاطر متعدّدة يكتنفها حالة من البعثرة المتضادّة التي تحاول أن تجد لها مكانا يمنحها ثباتا دائما، لكن هذا الثبات لا يمكن له أن يتحقّق، ذلك أنَّ الانفتاح الظنّي يخلق حالة من البحث المستمرّ في سبيل أن يصل إلى مديات متعدّدة ومتنوِّعة تكوّن بمجملها حالة من الانبعاث المتواصل الذي يحاول أن يقف على تبعات الأشياء المختلفة، فيكون لها قارئا متفحّصا يحاول أن يفسِّر ويحلل كلّما يصل إلى المرحلة التي يستطيع أن يضع البدائل لكلِّ من أخفق في تحقّيق المراد منه، وهنا تكون الإدراكات فاعلة في اقتناص ما يمكن اقتناصه في سبيل خلق سور متين يكون ملبيا لكلّ القراءات التي كان الخوف مصدرها، وتظهر الاستجابة الكليّة التي تصدر عن الفرد في المواقف المختلفة، وهذا يدل على أنَّ السلوك المتحقّق يطرح استجابات متعدِّدة ومتنوِّعة تابعة للمنبّهات التي كانت سببا في هذه الاستجابات، فتكون الاستجابات هنا ردّا على المنبّهات، ذلك أنَّ كلّ الأفعال التي يمكن أن نقوم بها قائمة على منبهات؛

فالمنبهات وإن كانت تحتاج إلى استجابة كي تتحقّق، إلّا أنّها كما نعتقد تثير الفضول للوصول إلى الغاية التي يكون فيها المجهول حاضرا، فطرق الباب مثلا صحيح أنّه منبّه إلّا أنّ الفضول يكتنفه في معرفة من خلف يكون الباب، ولو كانت الاستجابة كافية، لكان فتح الباب غير ملزم في بعض الأحيان.

تتعدّد المنبّهات ضمن تفريعات تجد صداها واضحا في التشكيل العام للحياة، فيكون الاختزال الذي يحصل منكفيا على شروط افتراضية ناتجة عن تأويلات تتّسع وتضيق بحسب القراءة الحاصلة، وهنا يكون الارتماء باعثا على إيجاد منحة جديدة تتكاثف من أجل أن تشكّل صور جديدة منتمية إلى الجذور الأولى، وهذا الأمر برمّته يسعى إلى الوصول إلى الحدّ الذي يكون فيه المنبّه متحقّقا بالكيفية التي يجب أن يكون عليها.

ويطرح الخوف منبّهاته بأساليب وأشكال وتصورات مختلفة، فيخلق بذلك حالة من اليقظة المرتكزة على أسس واضحة المعالم، والأمر الذي يكون هنا هو الانفتاح المتعدّد، ذلك أنَّ تعدّد المنبّهات يوحي بالفعالية التي يكنّها الخوف في مواجهة المخاطر، فتسقط السلبية المزعومة للخوف التي يرى فيها البعض تحقّقها ممّا يؤدّي إلى خلق بعثرة في الأفكار التي من الممكن أن تؤدّي إلى اتخاذ موقف ثابت لا يمكن زحزحته، لأنّه سيمثّل بمرور الزمن تراكما ينقاد له الكثيرون بدون وعي أو بدون إدراك علمي.

إنَّ تعدّد المنبّهات الحاصل يثبت وجود تجديد مستمرٍّ بالحياة؛ فالمخاطر تتعدّد وتتنوّع دائما ضمن سمة تطوّرية، لأنَّ الحياة بمجملها لا تكون دائما على وتيرة واحدة، إذ يظهر فيها المحدَث الذي يحمل من بين ما يحمل الخطر، وهنا يكون الخوف مواكبا لأيِّ جديد يظهر، فتكون فاعليته منقادة نحو استحصال استدعاءات متكررة يُبنى على أساسها إصدار المنبّهات التي تكون في كثير من الأحيان كفيلة في إيجاد أرضية متينة

لدرء ما يمكن درءه من هذه المخاطر، ولعلّ التحديث المستمرّ لا يكون نابعا من كيفية عشوائية ملبّية لآراء شخصية تقود هذا التحديث، بل إنَّ هذا التحديث يستند على قراءات علمية تقف على السبب والمسبب، ثمَّ بعد ذلك يكون رأيها ملبّيا ومستوعبا لكلّ ما يحصل؛ فيكون التنبّيه الصادر باعثا على الاستدراكات التي من شأنها أن تنظر لوجود المخاطر بالكيفية التي تعطي الأبعاد الواضحة، فتكون الصورة المستقبلية حاضرة بجميع أبعادها، وهذا يمكن أن نعدّه من النظرات الاستشرافية العلميّة الصحيحة المبنيّة على أسس صحيحة.

الخوف حالة إدراكية وإن كان منبثقا من العاطفة الإنسانية، لكنّه يحفّز على التحسُّب للمخاطر من خلال تنبيه العقل الذي ينظر إلى امتدادات المخاطر التي يبنى عليها أساسات وتبعات كثيرة تحسّبية ووقائية، وهنا نجد أنَّ الارتباط الحاصل بين الخوف والعقل هو حالة إفضائية يكون على أساسها حصول استمرارية لدرء المخاطر عن الإنسان، إنَّ هذا الإفضاء يوحي بوجود مراحل باعثة في مواجهة المخاطر، فإدراكية الخوف تكون غير فاعلة في حالة التوقّف على الإدراك والبقاء عنده، بل لا بدّ من إيجاد مرحلة أو انتقالة جديدة يكون على أساسها الوصول إلى التشكيل الصحيح الذي يكون من ورائه استظهار المنبّه الذي بدأه الإدراك الأول وهو الخوف.

وتساهم التحسّبية والوقائية في استنهاض القدرات، ذلك أنَّ القدرات كامنة في جوانب الحياة المختلفة، والذي يُرى في الحياة وجود قدرات ظاهرة وباطنة، هذه القدرات تظهر فاعليتها في معالجة ما يحصل من كلِّ طارئ؛ فتكون المعالجة منقادة إلى التنبيه الذي منحها الاستيقاظ، ففي التنبيه كلّ التفصيلات التي سيكون من خلالها تأسيس المعالجة الافتراضية، لأنَّنا نجد في التنبيه القراءة المستقبلية التي كان البناء فيها

خاضعا لإدراكات الخوف، وهذا يطرح الشمولية التي يجب أنّ تكون عليها لأنَّ الخوف في كلّ تحفيزاته على التحسُّب، يرسم المنظور المستقبلي العلاجي الذي يسيّر الحياة وفق آليات تعمل على تجاوز كلّ ما من شأنه أن يكون باعثا على المخاطر، وهنا تكون البداية ناتجة عن إرهاصات حاصلة منحتها حركة فجائية، لكن هذه الحركة ستكون منطلقا للوصول إلى التنبيه الذي يمنحها استجابةً لا مفرّ منها، وهذا ينقل الأمور انتقالات متعدِّدة تفضي إلى إيجاد الدرء المطلوب.

وتشكّل الحياة بطبيعتها حالات متعدِّدة من الافتراضات التي تكون معظمها مبنية على إحالات حاصلة، وأخرى من باب التوقّع الذي يمكن أن يجد صداه في بعض الأحيان، ولعلَّ جانب الخوف يمرُّ بهذه الثنائية التي يكون فيها وجوده متحقّقا، ذلك أنّ كلّ الاستدراكات التي يمكن أن تحصل، تنساب من تبعية قصديّة وغير قصديّة، وهذا يخلق حالة من التفاوت التي يتناوب معها الكثير من الإحالات التي تشكِّل فيما بعد قراءات واضحة المعالم.

إنَّ البحث عن انساق متعدِّدة لكلّ ما يجري، يلبي إدراكات الخوف في إنتاج تنبيهات مواكبة أو عاكسة للخوف؛ فالخوف يتبنّى هذه التنبيهات كي يصل إلى المبتغى الذي يرمي إليه، وهنا يمكن أن نقول أن لدينا ثلاث مراحل تتابعية، هي:

1 – الخوف.

2- التنبيهات.

3- المخاطر.

الخوف من خلال إدراكاته يحاول أن يصل إلى بلورة تنبيهات واضحة المعالم فيها يكمن الدرء، ذلك أنَّ الانتقال إلى المرحلة الثانية لا

يمكن أن يكون وفق اعتباطية مرادة، بل إنَّ المراد هو استظهار واستبطان كلّ ما هو ملبيا للانتقال أولا، ولخلق مرحلة أخرى جديدة ثانيا، وهنا يكون الانتقال موسوما بتفريعات متعدِّدة تحاول أن تصل إلى كلِّ الجذور التي يكون من ورائها استمداد الأصول الصحيحة التي تعين في استيعاب الواقع بكلِّ تفصيلاته، ومن ثمَّ بناء التنبيهات المرادة.

إنَّ التنبيهات تمثّل المرحلة الثانية التي يكون التأسيس لها مرحلة مهمة، ذلك أنَّ كلّ ما سيأتي بعدها سيكون مبنيّا عليها، فاتّساع دائرتها بالشكل الذي يمنحها توافقا كليا مع البداية المفترضة يفضي إلى طرد كلّ التكهنات التي يكون من ورائها إحلال التنبيهات منزلة بعيدة عن البداية الأولى.

عليه: تكون التنبيهات حالة استيعابية للخوف من جانب إدراكي، وهنا نرى أنَّ الفاعلية المتاحة لهذا الإدراك تفضي إلى إرساء ثوابت قابلة للتناوب، ممّا يسمح بوجود مطاولة في الوصول إلى المرحلة الثالثة التي نرى فيها تتويجا لكلِّ الانتقالات الحاصلة؛ فالوقوف على الكيفيّة يجعل المخاطر في غياهب الماضي وهذه هي النهاية المرادة.

إنَّ الانتقالات التي أجزناها كما نعتقد هي ممثّلة لحاجة واقعية، فالذي يحدث في الحياة مرارا وتكرارا يوجّه الخوف بحالته الإدراكية إلى اتخاذ مواقف عقلية وعلمية لكلّ ما يحدث في الحياة؛ فالكوارث الطبيعية التي نرى حدوثها دائما بالعين المجردة أو بالعدسات المختلفة، توجب على الإنسان إيجاد حلول أو بدائل لكلّ ما يساهم في تفادي هذه الكوارث، هذا الواقع يسمح بإعادة إنتاج نفسه بفاعلية جديدة من خلال الاتكاء على الخوف كعنصر باحث عن حلّ لكلّ ما يحصل، وهنا يظهر الخوف المؤدّي إلى حلّ فاعلا يستطيع أن يحسم الكثير من طموحات الفرد والجماعة التي تبحث عن حلّ لِما يحيط بها من مخاطر.

إذن تشكّل الطموحات الإنسانية الواعية بأنواعها المختلفة حافز لإيجاد الحلول التي يكون مكمنها واقعا في تنبيهات الخوف؛ فالخوف رغم تحقّقه في النفس الإنسانية، إلّا أنَّه يتّسم بالتناوب، فلا يكون بالكيفية المتساوية التي يكون فيها اتفاق واضح في الإجراءات التي يمكن أن تكون هي نقطة الشروع في البحث عن حلّ، هذا الأمر يُظهر التفاوت الذي يمكن أن يكون عارضا وقتيا ويزول بزوال الضبابية التي يمكن أن تنشأ نتيجة عدم الوعي بما سيكون في المستقبل، إلّا أنَّ النظرة العامة تشير إلى أنَّ المنبّهات تكون منطلقة بشكل واضح وجليٍّ من البداية التي تتعاظم فيها الأمور، فتصل بذلك إلى درجة لا يمكن الانزواء عنها أبدا[399].

الخوف شعور استطلاعي:

يقف الخوف أمام اتساع كبير من المخاطر، والمخاطر بطبيعتها تتفاوت في الظهور، وهذا يملي على الطرف الآخر المتمثّل فيه الخوف إيجاد وسائل متعدّدة ومتنوِّعة في سبيل الوقوف على الحقّائق العامة والتي بظهورها يتّضح الكثير من الافتراضات والتأويلات والتوقّعات؛ فتكون مهمة الخوف من خلال هذا التشعُّب استطلاعية، ونحن إذ نشير إلى الاستطلاعية؛ فهذا من باب الاتساع الواجب تحقّقه كما نعتقد، لأنَّ الاستطلاع يسبق وقوع الفعل المحقّق للألم؛ فيؤدّي إلى تجنُّب المحذور، والشعور هو ما ينتاب النفس من أخيلة قد تصدق على الواقع أحيانا وقد لا تصدق عليه، ومردّ هذا الاستطلاع إلى الخوف الذي أثار الشعور بما يمكن أن يترتّب عليه من مكاره تلحقّ الأذى بالإنسان، لذلك كان هذا الشعور بمثابة استباق للحدث والتنبيه على ما يمكن أن يحدث ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع للتحصين ضد المكاره التي يمكن أن تحدث.

[399] المرجع السابق، ص 81 . 88.

ولذا فالاستطلاع يولّد ثباتا في الأفكار التي يمكن أن تدخل دائرة البحث، وذلك من خلال التعرُّف عليها، ومحاولة إيجاد الحلول لها من مصادر متعدِّدة؛ فيكون بذلك الأمر قد خرج من التقليدية التي يمكن أن ينزوي تحتها ودخل معترك جديد يجد نفسه فيه بتنظيرات جديدة وبإحالات جديدة؛ فيتولّد عنده استشعار دائم بوجود الاستطلاع، ومعرفة المجهول الذي يلتفّ حولنا وحول كلِّ مصادر الألم التي تتناوب علينا.

عليه يكون الاستطلاع حالة إدراكية نابعة من الخوف في سبيل الوصول إلى استشرافات جديدة غير التي نعتقدها سابقا أو نفترضها ضمن حدود الافتراض الذي نجد من خلاله الحلّ؛ فيكون لدينا الاتساع العام الذي يربّطنا بتقنيات جديدة تتعلق مع الاستطلاع؛ فيصبح الترابط حاصلا بينهما لإيجاد توافقات تمنح التنبيهات روافد جديدة تعينها على اكتمال فاعليتها، فيكون التنبيه في مثل هذه المواقف المكتملة التي نراها بحسب نظرتنا واقيا من أيِّ مصدر من مصادر الألم.

ونتيجة لاتساع مهمة الاستطلاع؛ فإنّه يحتاج إلى أدوات متعدِّدة ومتنوِّعة كي يقوم بالمهمة على أحسن وجه، وهذا بطبيعة الحال يحتاج إلى تشعبات معرفية تجد صداها حاصلا في البدايات التي كانت منطلقا لها؛ فتكون الأمور في هذه الحالة مرتمية في أحضان مواكبة لكلِّ العمليات المطلوبة، فيحصل لدينا نتيجة هذا التشعب، مصادر متعدِّدة نرى فيها الشمولية التي يجب أن تكون، ذلك لأنَّ الحياة مخاطرها تتكاثر يوما بعد يوم، وربّما تضاف مخاطر جديدة غير التي كنّا نعدّ العُدّة لها، وهذا يحتِّم علينا أن نجدِّد تفكيرنا ومعارفنا في محاولات دائمة للوقوف على ما يمكن أن يحدث وفق أية دائرة من الدوائر التي نتوقّعها، فسياق الحياة يطرح الكثير من الاختلافات والاتفاقات التي تتكرر، ممّا يولّد حالات نلمح فيها

التمايز الحاصل، فنسارع إلى البحث عن معالجات فورية تكون هي المنقذ الأوّل أو ربّما تكون نقطة البداية للتعرّف على مصدر الألم وعلاجه.

ولأنَّ الخوف يدفع المخاطر إلى العقل فينبّهه إلى ما يجب كي لا تقع إلاّ أنَّ هذا التنبيه هو تنبيه إرادي، فما تفعله الإرادة لأن يختار العقل أفضل البدائل، غير الذي تدفعه الإرادة إلى أسوئها، فمن يتخذ أفضلها يأخذ بأسباب النجاة ويحقّق غاية الخوف بإحلال السكينة محلّه.

عليه يكون هذا الإحلال باعثا للإنسان على عدّة أمور منها:

- يمكّن الإنسان من استشعار المخاطر.
- يدفعه إلى البحث عن الحلول.
- يمكّنه من اتخاذ القرار بوعي.
- يمكّنه من الإقدام وتحمّل ما يترتّب عليه من أعباء.

لذا يكون الخوف منبِّها على المخاطر قبل أن تقع ممّا يجعل العلاقة وثيقة بين ناقوس الخطر والاستشعار به خوفا وقبل وقوعه.

ولذا (فمن خاف سلم كما يقولون) أي من لا يحسب لا يسلم.

هذه المقولة التي تداولتها الألسن تطرح وجود ثوابت في الوعي الإنساني قائمة على إيجاد بُعد في النظر لما يجب أن يكون، وذلك وفقا لقراءات تحصل نتيجة الاستمرارية التي تسير مع الإنسانية؛ فالخوف بحالته الاستدراكية يطرح تنبيهات متعدِّدة تتَّبع ما يمكن أن يحدث ضمن امتدادات إنسانية متشكِّلة على كلِّ التبعات التي يمكن أن تحدث، ولعلَّ الاستمرارية التي نراها، ما هي إلّا وجود ترابطية حاصلة بين جميع البشر رغم التفاوت الذي يمكن أن يكون بينهم أحيانا، ذلك أنَّ النسق الإنساني

بتنوُّعه يحتّم هذه الاستمرارية كي يخلق حالة من التآلف الإنساني تكون مفضية إلى وجود تتابعيّه تمنحها مديات متباينة.

إنَّ الاستمرارية التي نؤسّس لها، هي استمرارية توافقية تحاول أن تلملم كلّ ما تجده أمامها في سبيل أن تمنحه ارتباطات واضحة المعالم، وهذا يلبّي التفاعل الحاصل بين أطراف عدّة، ترى نفسها ملبِّية لكثير من النظرات التي يكون الوقوف عندها مدعاة لبناء تنبيه واع من المخاطر التي يمكن أن تحصل.

أمّا تعدّد الحلول وتحقّقها في كثير من المواطن؛ ففيها إشارة إلى وجود استبدالات استطاعت أن تتناوب بما يناسب المخاطر التي كان يُرى لها حلّ أمثل أو الحلّ الذي لا بديل له، هذه العملية تفضي إلى وجود مرونة في الكيفية التي يتمّ بها الوصول إلى الحلّ المرتقب، ممّا يمنح التفكير وقفات آنية تكون عند أعتابها البدائل المنتظرة التي يكون حضورها ملبِّيا للتشكيل الأوّل الذي افترقت عنده الحلول في لحظة قد تكون صفرية، إلّا أنّها تجاوزية استمرارية.

عليه يكون تعدّد الحلول باعث على وجود ارتباطات متعدِّدة ومتنوِّعة تستطيع أن تخلق منبّهات قادرة على تفادي الخطر، ومن ثمّ إزالته باتساع عملي وتنظيري يفتّت الحواجز ويخلق صيرورة مستمرّة تتناغم مع المراد؛ فتكون الأمور بعد ذلك سائرة نحو توافقية بينية تجد الحلول، ومن ثمّ تجد لكلّ خطر حلّ وفق الزمان والمكان ممّا يفضي إلى وجود نظرة استشرافية قائمة على:

- قراءة صحيحة.
- فرز صحيح.
- ربّط صحيح.

-إحالة صحيحة.

هذا التشكيل يتّسم بديمومة باعثة على إيجاد تباينات ظاهرة، يكون من ورائها طرح البدائل المناسبة؛ فوجود البدائل يحيل إلى وجود خلخلة وقتيّة لم تستطع أن تأخذ دور الحلّ الشمولي الذي يكون من بعده الإزاحة الكاملة للبداية المفترضة، فالإزاحة ما هي إلاّ تأصيل للحلول التي يجب أن تنتهج، لكن ليس بشكل واحد يأخذ دور الثبات الدائم، بل بأشكال مختلفة تكون ملبّية لكلِّ المغايرات التي يمكن أن تحصل، وهذا الأمر يثمّن دور القراءة الواعية التي تكون على مستوى عالٍ من الإنتاجية الفكرية التي تطرح في الوقت نفسه الحلّ حلّا.

والوعي الذي يرافق اتخاذ القرار لا بدّ أن تكون الشمولية الافتراضية حاصلة فيه، لأنَّ الشمولية بمدياتها المختلفة تطرح التراتبية المطلوبة ضمن خطوط متوالية، كلّ واحدة تفضي إلى الأخرى، لتخلق بعد ذلك تبعات تحفيزية تساهم بشكل أو بآخر في استدراج كلّ ما يخلق وعيا حقّيقيا بالمخاطر التي يمكن أن تتحقّق على مستوى المتوقّع وغير المتوقّع، وهنا يكون التنبيه الحاصل مبنيا على وعي كلّي يستطيع أن يجد مكانه الافتراضي في المستقبل المفتوح دون أيِّ عائق يحيده عن أداء مهمّته المرتقبة.

ويستمرّ ظهور المنبّهات المتعدِّدة والمتنوِّعة على المخاطر وبكيفيات مختلفة، وهذا يطرح بطبيعة الحال، التفاعل الإنساني مع المستقبل وما يتحقّق منه وما لم يتحقّق؛ فيكون هذا الطرح مدعاة لتحقّق استجابات متفرِّعة تحمل معها المظانّ التي تكون دائمة متبصّرة بالماضي والحاضر والمستقبل، فيستحيل المستقبل دائما إلى واقع افتراضي يكون حدوثه واقعا بلا محالة، وهذا يخلق تداخلا حقّيقيا بين الماضي والمستقبل نتيجة التماثل التحسُّبي الذي جمع بينهما، فيكونان ضمن نمط واحد وتشكيل واحد،

ولذا فما حصل وسيحصل من مخاطر على جميع المستويات، هو بعيد كلّ البعد عن الوصول إلى تسميته بالكارثة المحدقة بالنّاس، وذلك لأنَّ منبّهات الخوف غلّفت كلّ هذه المخاطر بأحزمة متعدّدة من الآمان كانت كفيلة بإيجاد الاستيعاب الصحيح الذي يلبّي كلّ الامتدادات التي ستحصل، والتي ستكون كفيلة بخلق توازنات حقّيقية تستند إلى إشارات البداية التي وقف عندها الخوف، ومن ثمّ طرح منبّهاته التي يكمن فيها درء المخاطر باتساع واع يلبّي كلّ طروحات المراحل المختلفة التي يكون من بعدها الوصول إلى المبتغى المراد.

عليه يكون الخوف ومنبّهاته على المخاطر حالة من الامتدادات الإنسانية في معالجة مخاطر المستقبل؛ فيسقط بذلك المجهول المفترض للمستقبل ويحلّ بدلا عنه المعلوم الذي وصل إلى درجة المشاهدة التي يمكن تحقّقها وفق المنظور التخيلي. أمّا ما يتعلّق بالاستجابة المطلوبة، فلا بدّ أن تكون الاستجابة تتّصف بالمرونة، ذلك أنَّ كلّ الأحداث الحاصلة تطرح مغايرات كثيرة تكون في أكثرها منتمية إلى التناوب الذي يمكن أن يحصل، وهنا يكون دور الاستجابة حاضرا ضمن امتدادات تكشف التعامل الافتراضي الذي يجب أن يحدث.

إنَّ حصول الاستجابة يدلِّل على وجود تعالقات واضحة بين جميع الأطراف، وهذا يفصح عن ديمومة يُرى فيها أنَّها لملمت كلّ ما يمكن أن يؤدّي إلى تحقّيق التنبيه المراد على المخاطر، وبذلك تكتمل العملية المطلوبة؛ فتصبح المخاطر بعد ذلك خارج دائرة الخوف التي كانت تمثّل البداية المؤسّسة للتنبيه على المخاطر.

عليه يكون الخوف ومنبّهاته رادعا مهمّا في الوقوف بوجه المخاطر التي يمكن أن تظهر، أو حتى أن تلوح في الأفق، وهنا يكون النظر الحاصل ملبّيا لكلّ الافتراضات التي تنشأ من أجل الوصول إلى نقطة تكون فيها

الأمور خارج أيِّ خطر يمكن أن يحدث، كما أنَّ التجديد مطلوب الحدوث في كلّ الامتدادات المقترحة، لأنَّ ذلك يعزّز كلّ الأساليب التي يكون من ورائها إزالة كلّ العوائق والمشاكل التي تكون سببا في حدوث خلل أو تباطؤ، لأنّ ذلك ينعكس بطبيعة الحال سلبا على الخطوات التي ستكون سببا في الوصول إلى النهاية المفترضة والمطلوبة.

إنّ كلّ التشكيلات التي ذهبنا إليها في هذا الجانب كانت ضمن نظرة استدراكية حالها كحال الخوف، فالتنبيه على المخاطر يمثّل سمة تنويرية يُراد منها إيجاد مديات واضحة المعالم، يكون الوقوف عليها باعثا لحلول تكون ملبّية لكلّ ما يمكن أن يكون ممثّلا للخطر الذي يمكن أن يحدث، كما أنَّ تعدّد المخاطر يحتاج إلى تعدّد في الرؤية المعرفية التي تكون متابعة لهذا التعدّد؛ فتحاول أن تجد الحلول المناسبة، وتمنحها أبعادا متعدّدة تستطيع في كلّ الأوقات وفي كلّ التغيرات أن تلبّي ما يسهم في درء المخاطر، وتؤسّس لحياة أفضل، يكون الأمان هو المتحقّق بأيِّ صيغة وبأيِّ شكل، وهذا لا يكون إلّا بالتّوجه الصحيح منذ البداية الأولى التي تبنَّت هذا الأمان ومنحته اهتماما واضحا[400].

الخوف مُنبّه لما يؤلم ولما يطمئن:

ما من شكٍّ أنّ الإنسان يحاول أن يعدّد النعم التي أنعم الله تعالى بها عليه من قبيل التذكّر لا من قبيل الإحصاء، لأنّه يعلم عدم قدرته على إحصائها؛ فيتبادر إلى الذهن في التعداد نِعَمٌ كثيرة من المال والبنين والعافية والأمن وما إلى ذلك من النعم التي يعيشها، غير أنّ نعمة الخوف التي تسكن في نفس كلّ إنسان، لا يكاد أحد ينتبه إلى أنّها نعمة عظيمة؛ فالخوف إن لم يوفّر نِعَمٌ كثيرة؛ فإنّه يحافظ على ما هو متوفّر من النعم لدى الإنسان على الأقلّ.

[400] المرجع السابق، ص 89 ـ 96.

إنّ الخوف من جملة العواطف التي يمتلكها الإنسان، وهي تستثار بمخاطر خارجية تؤدّي إلى بلوغ الموجب إن تمّ حُسْن التصرّف فيها والتعامل معها، ولذا يؤدّي الخوف إلى تغيير المواقف من حالة السلب إلى حالة الإيجاب، وهو يربّط العلاقة الآنيّة مع المستقبل، إذ أنّه في اللحظة الآنيّة يُعدُّ شعورا سالبا تجاه المستقبل، ومن هنا يكون للخوف علاقة مباشرة باليقظة والفطنة والحذر؛ فهو ناقوس يدقّ في عقل الإنسان كلّما كان هناك استقراء للمستقبل؛ فهو استطلاع مستقبلي للمخاطر التي ينبّه عليها الخوف قبل أن تأتي، ممّا يجعل الإنسان يفكّر في إيجاد موانع وحواجز تدفع المخاطر المستقبلية وتمنع وقوعها، وبهذا تكون عاطفة الخوف قد دفعت بالعقل إلى البحث عن الأسباب التي يمكن أن تحقّق ما يُمكّنه من التطلّع إلى الأفضل.

إنّ عاطفة الخوف مثل بقيّة العواطف تبقى قائمة في النفس إلى حين استحضار ما يهدّئها ويعيدها إلى مكمنها عن طرق العقل، ولذا يكون اضطراب النفس مصاحبا لمجاراة العواطف والانفعالات الإنسانية التي لا مناص منها في الأزمات، ومهما جاشت لن تدوم، بل ستخفت وتهدأ بعودتها إلى مكمنها، والذي يدوم هو الحقّائق التي تنكّشف للعقل عن طريق تنبيه الخوف له، فيستلم العقل هذه الحقّائق ويعيد على أساسها البناء النفسي في عملية تهيؤ واستعداد لمواجهة الحدث والتعامل معه، وكون الخوف نقطة صفرية في النفس الإنسانية، فهو لا ينبّه على المكروهات والمخاطر فقط، وإنّما ينبّه على المحبوبات والموجبات، وبهذا ينبّه الخوفُ الإنسانَ على ما يمكن أن يدركه من مخاطر فيلحقّ به الأذى، وينبّه على ما يمكن أن يفوته ممّا يحمل له فائدة ومنفعة، ولذا فالخوف لا يقتصر تحذيره على المساوئ، وإنّما يتعدّى ذلك إلى المحامد والمحاسن خوف فواتها، ولهذا

يثير الخوف العواطف التي تتعلّق بالمكروهات والمحبوبات من المخاطر والمطمئنات، وكلّ عاطفة عبارة عن مجموعة انفعالات.

فعندما يستشعر الخوف المطمئّنات، يستثير مجموعة انفعالات سارة نحو الحدث خوف فواتها ورغبة في الاستحواذ أو الإعجاب أو الشهوة، أو السرور أو الراحة أو الامتنان، فيجيّش عاطفة المحبّة رغبة في ذلك.

وعندما يستشعر المساوئ، يؤجج مجموعة انفعالات غير سارّة تجاه الحدث كالخطر أو الضيق، أو الاشمئزاز أو البغض أو الحقّد؛ فيدفع بعاطفة الكراهية تجاه هذه الأشياء.

ولذا فالخوف تهيؤ وجداني واستعداد فطري يجعل صاحبه قابلا للانفعال، ولاتخاذ موقف معين في السلوك تجاه الموضوع أو الحدث الخارجي الذي نبّه عليه الخوف ضمانا وأمنا للمستقبل.

إنّ الخوف المؤسّس على استقراء المستقبل في اللحظة الآنيّة، يستوجب مترتّبات دفع المخاطر التي نبّه عليها الخوف، لأنّ الخوف في الزمن الآن هو استشعار ما يأتي من الخطر في المستقبل، وهو في زمنه (اللحظة الآنيّة) يكون شعورا سالبا، لأنّه يؤدّي إلى نوع من الاضطراب مصحوبا بالقلق على الرغم من محاولات البحث الجارية التي تؤمّن الاطمئنان المستقبلي.

وهذا الاطمئنان الذي يجدّ العقل في البحث عن مستلزماته، يكون ناتجا عن تلقي المعلومات الواقية التي يستنبطها العقل إمّا من تجربّة يمتلكها سابقا، وإمّا أنّه يستنتجها من تداخل العمليات العقلية في معالجة تجاربّ متعدّدة ويدفعها للإرادة التي تعود بالنفس إلى حالة التوازن والاستقرار، ممّا يسمح باستنهاض بقية الملكات العقلية من الذاكرة عن طريق التذكّر في الموازنة واستنتاج جديد كلّما جاءت معلومة جديدة، وكذلك الملكات

النفسية القائمة على التهيؤ والاستعداد والإعداد والتأهّب، وبهذا يكون الخوف قد دفع قوى الإنسان العقلية والنفسية والروحية في الاتجاه الموجب الذي يحقّق التوازن مع العامل الخارجي الذي نبّه الخوف على مخاطره.

إنّ الخوف جزء من العاطفة عند البشر، وهو شعور متحقّق لدى الإنسان لا نقول إنّه ينتابه عند استشعار المخاطر، وإنّما عند استشعار المخاطر يخرج من مكمنه في النفس الإنسانية كجزء من العاطفة، ولذا يترتّب على الخوف بالنسبة للعقلاء أخذ الحيطة والحذر إلاّ من غفل عن ذلك، وهنا ليس الذنب ذنب الخوف كما يظن البعض، وإنّما مردّ ذلك إلى أمرين:

الأوّل: ضعف الشعور الذي لم يصل بصاحبه إلى مرحلة الاستفزاز.

الثاني: قلّة خبرة العقل وضعف تجربّته التي لم تسعفه تلك التجربّة أو الخبرة التي يحتفظ بها في الذاكرة لأن يرتقي إلى مستوى الحدث الذي يشكّل الخطر.

ذلك أنّ الخوف الذي يكمن في العاطفة والتجربّة التي يحملها العقل هما المسؤولان عن تحديد حجم المخاطر التي يثيرها الخوف داخليا بما حفّزه العقل بداية بمثيرات خارجية من معلومات استنهضت الخوف من النفس، ومن ثمّ تنعكس على النفس وما تحمل من عواطف بحيث تكون هذه العواطف منبّهات للعقل في اتخاذ الإجراء المناسب بما يحمل من معلومات تتمثّل في الخبرة والتجربّة التي يضعها في تصرّف الإرادة وإن كانت الإرادة أحد ملكاته، إلاّ أنّه جانب تخصّصي من مهام الإرادة.

إنّ تجربّة العقل وخبرته هي صاحبة القول الفصل في اتخاذ القرارات للتغلب على المخاطر أو إيجاد أسباب تلافيها، وهذا لا يعني عدم الخوف

بحال من الأحوال، وإنّما تعاظم التجاربّ المخيفة وكثرتها أدّى إلى زيادة الخبرة العقلية، ومن ثمّ الاحتفاظ بهذه الخبرات في الذاكرة، بحيث يستدعيها من الحافظة عن طريق التذكّر واستحضارها لاختيار ما يناسب منها في مواجهة المخاطر المطروحة من قبل الخوف، وإن استنتج العقل أنّ أيّ تجربّة من التجاربّ التي يحتفظ بها لا تقوم في مواجهة الأخطار المتوقّعة؛ فإنّه يلجأ إلى استنتاج آخر يكون نتيجة تجربّتين أو أكثر يقدّر أنّها قادرة على مواجهة الخطر المتوقّع.

ومن بواعث الخوف الموجبة المقدّرة للمخاطر، عندما نادى الله تعالى موسى بقوله تعالى: {وَإِذْ نَادَى ربّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ قَالَ ربّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ}401.

إنَّ طلب موسى من ربّه أن يزودّه بما يكون له عونا على أداء رسالته إلى فرعون وملئه، كان بدافع الخوف المشروع الموجب من أجل تحقّيق الغاية مستقبلا، حيث أنّ خوف موسى أبدى له المخاطر المحتملة عندما قارن إمكاناته مع المهمة التي أمره الله بها، وهذا الخوف نبّهه على أشياء ضرورية للوصول إلى الهدف وتحقّيق الغاية، ولذا طلب من ربّه أن يشرح له صدره، وييسّر له أمره، ويحلل عقدة من لسانه، وأن يجعل له وزيرا من أهله، وهو هارون عليه الصّلاة والسّلام، ولا يمكن لقائل أن يقول إنّ الخوف يقدح في تمام التوكّل عند موسى، لأنّ الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكّل، ولا يكون قادحا فيه بحال، كما أنّ الخوف من المخاطر لا يعني عدم مواجهتها، وإنّما يعني التهيؤ والاستعداد للمواجهة، والخوف ممّا تحمله المخاطر لا يقدح في شجاعة المرء، أو أنّه يُعدّ نقيصة في حقّه، بل هو

401 - الشعراء 10- 14.

فطنة وإدراك وأخذ بالأسباب الموجبة التي توصل إلى الغاية المرادة، وبهذا الخوف يكون قد استكمل عدّة المواجهة في تأدية الموجب، وهذا يدلّ على أنّ الخوف يستلزم فعل الموجب402.

الخوف واقٍ من الألم:

ليس هناك أحد إلاّ وللألم فيه نصيب على التنوّع والتفاوت في هذا الألم، سواء أكان هذا الألم حسيّا أم شعوريا أم إدراكيا، بمعنى جميع أنواع الألم التي لها علاقة بالجسد أو النفس أو العقل، غير أنّ أحدا لا يستطيع أن يحدّد معرفة مركز الألم أو أين يمكن أن يكون؟

الإنسان يتألّم حسيّا في منطقة من الجلد أو في أيِّ منطقة ما من الجسد، ويتألم نفسيا دون وجع عضوي، فمن أين يأتي هذا الألم؟

ويتألّم ذهنيا إمّا بضعف الذاكرة وعدم التذكُّر، وإمّا لعدم الإدراك أو عدم الاستيعاب على التفاوت النسبي بما يُحدث له ألما نسميه عقليا، فهذه الآلام المتنوّعة، نحسّ بعضا منها إحساسا عضويا مادّيا لما لها علاقة بالجسد، وبعضا منها نشعر به شعورا داخليا لا نستطيع أن نعبّر عنه إلاّ بالألم النفسي، والبعض الآخر ما يؤلم في العقل حقّيقة على أنّه إدراك للألم بسبب نقص في العقل باتجاه معين، ولكن أين يوجد مركز الألم؟

هل هو في الدماغ؟

هل هو في الجملة العصبيّة؟

أم أنّه في جهة عصبيّة؟

أم أنّه في النفس التي لا نعلم مركزها؟

---

[402] المرجع السابق، ص 97 . 102.

إلى الآن لم يتوصّل العلم مع تقدم التجاربّ العلمية والمختبريّة وما جرى من أبحاث في هذا المجال إلى تحديد مركز الألم أو معرفة مكانه من هذا الجسم الإنساني، وهل هناك مركز للألم أم لا؟

والألم من حيث المركز والمكان الذي يكمن فيه يتساوى مع الخوف وإن علمنا مكان التألّم وعلمنا ممّاذا نخاف.

الشيء المعروف عن الألم أنّ الإنسان يتألّم، وأنّه يمكننا التعرّف على التألّم من خلال صداع يصيب الإنسان، أو كسر في أحد أطرافه، أو جرح في أحد أعضائه، أو وخز إبرة في موضع من جلده، وكلّ ما ذُكر هو من المؤلمات، أمّا الألم لا يمكن معرفته بشكل مباشر، وكذلك لا يمكن قياسه بشكل كمّي أو نسبي لا بالحجم ولا بالشكل ولا بالوحدات القياسية، غير أنّ الخوف المنبّه على الألم حال حدوثه أو قبل وقوعه يعطي صاحبه نسبة على قدر تحمّله هو، ولذا فكلّ إنسان ألمه على قدر طاقته وخوفه مثل ذلك403.

داوود عبدا شكورا:

الشكور هو الإنسان المؤمن بفضل الله عليه، وهو المكثر من شّكره، وهذه الصفة قد كانت لنبي الله داوود عليه السّلام، فعَنْ أَبِي الْجَلْدِ، عَنْ مَسْأَلَةِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام قَالَ: "إِلَهِي كَيْفَ لِي أَنْ أَشْكُرَكَ وَأَنَا لَا أَصِلُ إِلَى شُكْرِكَ إِلَّا بِنِعْمَتِكَ؟ فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ يَا دَاوُدُ أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الَّذِيَ بِكَ مِنَ النِّعَمِ مِنِّي؟ قَالَ: بَلَى يَا ربّ، قَالَ: فَإِنِّي أَرْضَى بِذَلِكَ مِنْكَ شُكْرًا"404

403 المرجع السابق، ص 103.

404 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 6، 56.

وكان دعاء داوود عليه السّلام كما جاء عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ دَاودَ عَلَيْهِ السّلام: "سُبْحَانَ مُسْتَخْرِجِ الشُّكْرِ بِالْعَطَاءِ وَمُسْتَخْرِجِ الْبَلَاءِ بِالدُّعَاءِ"405، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: "إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام قَالَ فِيهِ يخاطبُ ربّهُ عزّ وجلّ: يَا ربّ، أَيُّ عِبَادِكَ أَحَبُّ إِلَيْكِ؟ أُحِبُّهُ بِحُبِّكَ، قَالَ: يَا دَاوُدُ، أَحَبُّ عِبَادِي إِلَيَّ نَقِيُّ الْقَلْبِ، نَقِيُّ الْكَفَّيْنِ، لَا يَأْتِي إِلَى أَحَدٍ سُوءًا، وَلَا يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، تَزُولُ الْجِبَالُ وَلَا يَزُولُ، وَأَحَبَّنِي وَأَحَبَّ مَنْ يُحِبُّنِي، وَحَبَّبَنِي إِلَى عِبَادِي، قَالَ: يَا ربّ، إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّكَ وَأُحِبُّ مَنْ يُحِبُّكَ، فَكَيْفَ أُحَبِّبُكَ إِلَى عِبَادِكَ؟ قَالَ: ذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِي وبِآلَائِي وَنَعْمَائِي، يَا دَاوُدُ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يُعِينُ مَظْلُومًا أَوْ يَمْشِي مَعَهُ فِي مَظْلَمَتِهِ إِلَّا أَثْبَتُّ قَدَمَيْهِ يَوْمَ تَزِلُّ الْأَقْدَامُ"406

وعليه: الشَّكُورُ "هُوَ الَّذِي يَشْكُرُ الْيَسِيرَ مِنَ الطَّاعَةِ، فَيُثِيبُ عَلَيْهِ الْكَثِيرَ مِنَ الثَّوَابِ، وَيُعْطِي الْجَزِيلَ مِنَ النِّعْمَةِ، فَيَرْضَى بِالْيَسِيرِ مِنَ الشُّكْرِ، قَالَ: وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الثَّنَاءِ عَلَى اللهِ عزّ وجلّ بِالشَّكُورِ تَرْغِيبُ الْخَلْقِ فِي الطَّاعَةِ"407.

وقبل أن ندخل في عالم الاسم الشكور ونستكشف بعضا من أسراره وأنواره ننظر في اللغة لنرى مدلول الاسم على الخالق البارئ الذي له الاسم الشكور بالأصل، وعلى المخلوق الذي له الاسم الشكور بالفيض من الله بحسن السير على المنهج الذي ارتضاه الله لعباده من الأنبياء والصالحين الذين أعدهم للخلافة في الأرض وكذلك من اتبعهم بإحسان منذ ظهورهم إلى يوم الدين ليكون نور الاسم هاديا لمن أراد شكورا.

---

405 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 6، 125.

406 شعب الإيمان، 10، 121.

407 الأسماء والصفات للبيهقي، ج 1، ص 179.

ويندرج تحت الاسم الشكور الاسم الشاكر ويعني في ذات الوقت الخالق والمخلوق فالله له الشكر على وجه الكمال والعبد له الشكر على وجه المثال، فيحاول العبد بكل جوارحه أن يشكر فيكون شاكرا ثم يجتهد في الشكر فيكون شكورا، ويتجلى الله على العبد بالتوفيق فيعمل شاكرا وشكورا وينال بذلك الرضا من الله الشكور.

الشَّكُورُ لُغَةً:

(شكر) الشُّكْرُ عِرْفانُ الإِحسان ونَشْرُه وهو الشُّكُورُ شَكَرَهُ وشَكَرَ له يَشْكُرُ شُكْرا وشُكُورا وشُكْرانا. وحكي اللحياني شكرت الله شكرت لله وشَكَرْتُ بالله وكذلك شكرت نعمة الله وتَشَكَّرَ له بلاءَه كشَكَرَهُ وتَشَكَّرْتُ له مثل شَكَرْتُ له408.

والشُّكْرُ لا يكون إِلاَّ عن يَدٍ والحَمْدُ يكون عن يد وعن غير يد فهذا الفرق بينهما والشُّكْرُ من الله المجازاة والثناء الجميل. والشكر عن يد وغير يد في حقّ العباد ولا يجب في حقّ الله لأنه لا يد لأحد على الله فالله صاحب النعم وموجدها لذا فالشكر منه عطاء صرف وإن بذل العبد قصارى جهده في العمل من أجل الثواب فلله الفضل والمنة في التوفيق لعمل الخير ولله الفضل والمنة في قبوله والثواب عليه409. ورجل شَكورٌ كثير الشُّكْرِ وفي التنزيل العزيز (إِنه كان عَبْدا شَكُورا). والشَّكُور من صفات الله جل اسمه ومعناه أَنه يزكو عنده القليلُ من أَعمال العباد فيضاعف لهم الجزاء وشُكْرُه لعباده مغفرته لهم.

وأَمّا الشَّكُورُ من عباد الله فهو الذي يجتهد في شكر ربّه بطاعته وأَدائه ما وَظَّفَ عليه من عبادته وقال الله تعالى {اعْمَلُوا آلَ داودَ شُكْرا

---

408 لسان العرب، ج 4، ص 424

409 لسان العرب، ج 4، ص 224.

وقليلٌ من عِبادِيَ الشَّكُورُ}410. نصب شُكْرا لأَنّه مفعول له كأَنه قال اعملوا لله شُكْرا وإِن شئت كان انتصابه على أَنّه مصدر مؤكد والشُّكْرُ مثل الحمد إِلا أَنّ الحمد أَعم منه فإِنك تَحْمَدُ الإِنسانَ على صفاته الجميلة وعلى معروفه ولا تشكره إِلا على معروفه دون صفاته.

والشُّكْرُ مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية فيثني على المنعم بلسانه ويذيب نفسه في طاعته ويعتقد أَنه مُولِيها وفي الحديث عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: {لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النّاس}411. معناه أَن الله لا يقبل شكر العبد على إِحسانه إِليه إِذا كان العبد لا يَشكُرُ إِحسانَ النّاس ويَكْفُر معروفَهم لاتصال أَحد الأَمرين بالآخر وقيل معناه أَنّ من كان من طبعه وعادته كُفْرانُ نعمة النّاس وتركُ الشُّكْرِ لهم كان من عادته كُفْرُ نعمة الله وتركُ الشكر له وقيل معناه أَن من لا يشكُر النّاس كان كمن لا يشكُر الله وإِن شَكَرَهُ كما تقول لا يُحِبُّني من لا يُحِبُّك أَي أَن محبتك مقرونة بمحبتي فمن أَحبني يحبك ومن لم يحبك لم يحبني. والشُّكْرُ الثناءُ على المحْسِنِ بما أَوْلاكَ من المعروف يقال شَكَرْتُه وشَكَرْتُ له وباللام أَفصح وقوله تعالى: {لا نريد منكم جزاءً ولا شُكُورا}412 يحتمل أَن يكون مصدرا مثل قَعَدَ قُعُودا ويحتمل أَن يكون جمعا مثل بُرْدٍ وبُرُود وكُفْرٍ وكُفُورٍ والشُّكْرانُ خلاف الكُفْرانِ.413

لذا فالخليفة الحقّ يجب أن يذيب نفسه تفانيا في شكر ربّه وهذا التفاني يكون بالعمل أي بجوارح الإنسان جميعها باليد واللسان والقدم والعين والسمع وغيرها من جوارح وإن أردنا أن نزيد ذلك إيضاحا قلنا

410 سبأ 13.

411 سنن آبي داود، ج 4، ص 463.

412 الإنسان 9.

413 لسا ن العرب، ج 4، ص 224

باليد لا تسرق ولا تسمح لغيرها بالسرقة ولا تبطش بضعيف ولا تسمح لغيرها بذلك وأن تبني وتعمر ولا تهدم ولا تخربّ حتى تكون أداةً في خدمة الخليفة وهنا يتجلى الله عليه كما في الحديث القدسي.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا"414. وهذا جزاء من استعمل الجوارح في الشكر، ثم يزيد على ذلك أن يجعل لسانه ذاكرا لله متحدثا بنعمه مصداقا لقوله تعالى: {وأما بنعمة ربّك فحدث}415. وهذا الأمر لسيد الشاكرين الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيقابل ذلك الفضل العظيم من الله بأن يتفانى في شكر ربّه عملا وقولا ونيّةً، وعليه فمن أراد أن يكون له حظ في الخلافة فعليه بالشكر عملا وقولا ونيّةً للنعم التي أفاضها علينا المنعم وذلك بعبادته وإخلاص العبادة له بتوحيده وتمجيده، وبمقابلة النعمة التي أسداها إلينا بعض النّاس بشكرهم لأن ذلك من شكر الله فلولا الله المنعم الأصلي ما وصلت إليهم تلك النعم وبالتالي ما وصلت إلينا وهنا يكون شكر النّاس جزء من شكر المنعم الحقّيقي وهذا الشكر بالثناء على أصحاب الأفضال من أنبياء وعلماء وآباء ومصلحين وقادة صالحين فيتحول الكون إلى منظومة متناغمة من الشكر والحب من الأدنى للأعلى وزيادة العطاء من الأعلى للأدنى، وهنا تحيط بنا أنوار الاسم الشكور وتتحقّق الرتبة الشكورية في الخلق فيضًا ومن الله عطاءً ورحمةً وزيادةً فضل.

---

414 صحيح البخاري، ج 20 ص 158.

414 مصنف ابن أبي شيبة، ج 8 ص 36.

415 الضحى 11.

والخليفة هو المتخلق بتلك الصفة الحميدة في الظاهر والباطن وهو من يسعى لشكر الله على نعمه بالجوارح الظاهرة كاليد والقدم واللسان وهذا عمل الظاهر ويدخل فيه إقامة الشعائر الدينية من صلاة وصيام وحج وزكاة وجهاد وسعي بين النّاس بالإصلاح وقضاء حوائجهم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وحث وتحريض علي الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا تصديقا لقوله تعالى: {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}416 لذا فالعمل شكرا لله من أفضل الأعمال الظاهرة والباطنة التي تطلب إخلاص النية لواهب النعم عزّ وجلّ فكما يكون الشكر من الخليفة باللسان يكون بالقلب وهذا الشكر هو الإيمان بعينه لأنه كما قال الصادق المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، إن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل"417.

فالخلافة عمل وكد واجتهاد وليست كلمات تلوكها الألسن وإنما أعمال ظاهرة تدفعها نية صادقة مع حسن التوكل على الله، فعلى الخليفة العمل والرغبة في الإصلاح وعلى الله التوفيق، وقد ضربّ النبي مثلا رائعا على التوكل المصحوب بالعمل المكلل بالنجاح والتوفيق وذلك من خلال مخلوق ضعيف في نظر البعض ولكنه في الحقّيقة عظيم بفهمه الفطري لحقّيقة العمل والسعي ومعرفة معنى التوفيق.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: "لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حقّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا"418.

---

416 هود 88.

417 مصنف ابن أبي شيبة، ج 8 ص 257.

418 سنن الترمذي، ج 8، ص 342.

ويكون الشكر في الجهر بالعمل وفي السر بإخلاص النية حينئذٍ يتجلى الله على الخليفة بالشكر التام أي الشكر الرّباني لأن الشكر صفة لله في الأصل وفى الخليفة بالفيض إن أعد نفسه لقبولها والتمسك بأهدابها.

فالشكور اسم وصفة لله متأصلة، وفي عباده متحصله، بمعنى أن التجلي الأعلى للشكورية لله، والاقتباس والالتماس والتقيد بالاستغراق في التعبد قولا وعملا يورث هذه الرتبة في العبادة، وقليل من يتحصل عليها لقوله تعالى: {وقليل من عبادي الشكور}419. وأولئك الذين اختصهم الله بالخلافة ومن أراد أن يصل إلى منزلتهم عليه بالسير على نهجهم وطريقتهم في القول والفعل والنية الصادقة.

ولاكتشاف بعضا من أسرار الاسم الشكور نتلمس ذلك في كتاب الله وتفسيره وفي سيرة الحبيب وهديه، ولأجل ذلك نرى الاسم في أصل مدلوله على الله، وفي فرعه على العباد، وسنحاول أن نبرزه في المظهر الذي يجب أن يكون عليه عند الخليفة الذي أسكنه الله الأرض ليصلح فيها ولا يسفك الدماء بغير حقّ.

الاسم في أصله:

أول ما نلقاه في كتاب الله عن مدلول الاسم الشكور المتصل بالله عزّ وجلّ يقترن بتلاوة كتاب الله وتطبيق ما فيه بإقامة الصّلاة لأن الصّلاة إذا صلحت وُقبِلَتْ قُبِلَ وصلح كل عملٍ من الإنسان استقامة العلاقة بين الخالق والمخلوق وصار يخلفه في أرضه، ومن هذه الخلافة: الخلافة على مال الله الذي بين أيدينا وتحصل الخلافة السوية فيه بحسن صرفه في مصارفه الشرعية سرا، لأن عمل السر أقربّ للتقوى والإخلاص وأبعد عن الرياء وهذه التجارة الرابحة لأننا أودعنا ما استخلفنا الله عليه عند الذي لا

[419] سبأ 13.

تضيع عنده الودائع فتذكو وتنمو عنده الأعمال التي وفقنا للقيام بها فيكون الجزاء منه بتمام الأجر وزيادة الفضل والستر على المعاصي بمغفرتها والشكر بما يليق بربّ غفور شكور فيقول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصّلاة وَأَنْفَقُوا مِمّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}420. ثم نجد في كتاب الله أن من تمام شكره ميراث الكتاب والآن الميراث عند عباد الله من أمة خاتم المرسلين الذي ينعم عليهم الله بإذهاب الحزن وبإدخالهم الجنّة والتنعم فيها بنعم لا يعلم مدى جمالها إلا واهبها وهذا العطاء من فيض الله الغفور الشكور الرّحيم\، أما جزاء من أهمل في حقّ الله ولم يقم بدور الخليفة على الوجه التام فهذا جاحد بنعمة ربّه كفور بها مصيره من جنس عمله فيخلد في النّار ذليلا مهانا وهذا جزاء الكفور.

الشكر قيمة وفضيلة مترتبة على فعل محبب في مرضاة الله تعالى، وهو مجازاة في مقابل اعتراف بأفعال التطابق مع الحقّ، ولأن الله عزّ وجلّ يريد للحقّ أن يُحقّ، ويُريد للباطل أن يُزهق، ويُريد للكافر أن يؤمن بإرادة، فهو بطبيعة الحال شكور لمن أزهق الباطل ولمن آمن وأسلم وجهه إليه واحدا أحدا لا شريك له سبحانه.

قال تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ}421. والبشرى العظمى بالمغفرة والشكر ودخول الجنّة، والجنّة لا تكون إلا لعباد الله الذين آمنوا بالله ربّا وبسيد الخلق رسولا مصطفى والكتاب المنزل عليه منهجا وبالكعبة قبلة أي مقرًا ومركزا رئيسا لتنزل الرحمات والبركات وذلك إيذانا بأن الوجهة المثلى في التوجه للنبي

---

[420] فاطر 29، 30.

[421] فاطر 34، 35.

العربيّ وللبيت الحرام بمكة لأن كل الشرائع السماوية محصورة فيه. فقوله: (إِنَّ ربّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) تعني غفور للمذنبين، وشكور للمطيعين، ولهذا كان أصحاب الجنّة هم الشاكرين لله على فضله عليهم بدخولها، فهي الدار التي لا يمسهم فيها تعب ولا كَلاَل، قال تعالى: {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ}422، ثم تمام ذلك بصلة القربى المحمّدية والقربى الشخصية والقربى الآدمية في جميع بني آدم لأن الذين على الشريعة المحمّدية هم الذين يؤدون حقّ الخلافة على الوجه الصحيح وهم الذين يتمم الله عليهم بزيادة الفضل وتمام المغفرة وكمال الشكر وهذه البشرى العظمى فقال الله تعالى: {ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ}423. كما سبق أن بينا أن الشكر للمطيعين والمغفرة لمن تاب بعد معصية، فالله تعالى هو الشكور على أفعال نتائجها لا تعود عليه بل تعود على فاعليها ومع ذلك فهو الغفور الشكور الرّحمن الرّحيم الملك القدوس سبحانه ربّ العرش العظيم.

وقال تعالى: {إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}424.

أي إن صرفتم المال في أوجه الحقّ، تجازون عليه أكبر الجزاء المرضي لكم وأكثر ممّا تتوقعون بالمضاعفة من الله تعالى، و(الله شكور حليم) لأنه لم يعجل بالعقوبة، ويجازي بالكثير، والله يحذرنا من الفتن المتربّصة بنا ألا وهي الأزواج والأولاد والمال فيأمرنا الله باتقاء هذه الفتنة بالبعد عن الشح،

---

422 الحجر 46، 47.

423 الشورى 23.

424 التغابن 17، 18.

كما يأمرنا بالعفو والصفح والإنفاق وبالتجارة التي لا تبور مع الله جلّ شأنه، ويبشرنا بأن نتيجة ذلك المغفرة والشكر من الله وتمام هذا بالحُلم الإلهي الذي يسع الجميع.

والخليفة لا تمنعه نعمة المال ولا نعمة الولد ولا نعمة الزوجة عن أداء الدور المنوط به في الخلافة فيشكر الله على هذه النعم فتتحول من عوائق عن السير في طريق الخلافة إلى محفزات لأداء دور الخليفة على الوجه الأكمل كما أراده الله، وكيف لا وقد استخلف الله الإنسان على كل شيء في الكون كبيرا كان أم صغيرا وله حقّ الرعاية عليهم وهذه الرعاية ليست لإنسان دون إنسان بل للجميع فالكل راعٍ أي خليفة والكل مسؤول عن رعيته بقدر ما أعطاه الله من مسئوليات تجاه الآخرين، ومن الشكر للمنعم حسن الرعاية لمن هم في حوزته وأداء دور الخليفة على الوجه الصحيح في الرعية كبرت أم صغرت، ويتزايد هذا الدور كلما زادت المسؤولية وكلما اتسعت دائرة المطلوب رعايتهم قال : "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ومسؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"[425].

الرّعاية أمانة تستوجب الصيانة والحفاظ مع تحمّل المسؤوليات المترتبة عليها، ومن تُقدم له الرّعاية ينبغي أن يرتفع خلقا لأن يشكر مع فائق التقدير والاحترام من قدم له رعاية وعناية، وفي هذا الأمر اعتراف بالفضل والجميل الطيب الذي بأسبابه تصبح المحبة في حالة تبادل بين المستخلفين في الأرض، وأن يشكر ربّه عزّ وجلّ على فضله الذي به نال الرعاية.

---

[425] صحيح البخاري، ج 3 ص 414.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله: "يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة وحد يقام في الأرض بحقّه أزكى فيها من مطر أربّعين عاما"426.

ثم تتفرع الرعاية أو الخلافة في كل المجتمع، وبذلك تشمل الخلافة كل مناحي الحياة ولكنها في النهاية لابد أن تكون مجموعة في نموذج واحد وهو الخليفة الذي يؤدّي شكر الله بالقيام بالرعاية الكاملة على الوجه الذي كلفه به المولى عزّ وجلّ، وهذه الرعاية من الخليفة بالرّحمة والشفقة على من يرعاهم وبذلك يؤدّي الخليفة الشكر لله في العباد سلوكا وتوجيها.

والرعاية من الخليفة تلزمها الرّحمة والشفقة والحنو لأن شكر الله يكون برعاية خلقه والشكور في الخليفة فيض من الاسم الشكور الذي هو صفة لله والخليفة متخلق بأخلاق الله على قدر استطاعته لذا فهو عطوف على رعيته يؤدّي الصّلاة التي تصله بالخالق، ويشكر الخالق في خلقه ويخالق الرعية بالخلق الحسن الذي هو خلق الله، قال النبي: "أفضل الأعمال الصّلاة لوقتها وخير ما أعطي الإنسان حسن الخلق ألا وإن حسن الخلق من أخلاق الله عزّ وجلّ"427.

والرّحمة ملازمة للخليفة فهو يؤمن بالله ويتودد إلى النّاس لأنّ هذا التودد من أفضل الأعمال بعد الإيمان فقال: "أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله التودد إلى النّاس"428.

والتودّد إلى الخلق من الشكر بإدخال السرور عليهم أو قضاء دين لمن ضاقت به السبل أو إطعام خبز لجائع بتوفير عمل شريف له أو بتعليمه

426 مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج 2 ص 350.

427 كشف الخفاء، ج 1 ص 152.

428 السابق ص 152.

حرفة يتكسب منها وهذا من باب شكر النعمة التي وهبها الله للخليفة من حكم ورجاحة عقل بتدبير أمر عجز عنه إنسان أقل منه خبرة ودراية وهذا ما حدث مع النبي عندما جاءه سائل يسأله فنصح له وأرشده إلى طريق أفضل من مسألة النّاس وهو العمل والاجتهاد فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قال: "أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ يَسْأَلُهُ فَقَالَ أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ قَالَ بَلَى حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنْ الْمَاءِ قَالَ ائْتِنِي بِهِمَا قَالَ فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ بِيَدِهِ وَقَالَ مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ قَالَ رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ قَالَ مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا قَالَ رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ وَقَالَ اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ عُودًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ"429. وهنا نتذكر الحكمة القائلة: من أعطاك سمكة أطعمك يوما ومن علمك الصيد أطعمك كل يوم.

وتندرج هذه الصفات الودية تحت النفقة المادية بالمال والخبز وما شابه ذلك، والنفقة المعنوية بإدخال السرور ولو بكلمة أو ببشرى طيبة أو بسمة صافية أو بنصيحة مخلصة فيقول الحبيب: "أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سرورا أو تقضي عنه دينا أو تطعمه خبزا"430.

429 سنن أبي داود، ج 4 ص 449.

430 كشف الخفاء، - ج 1 ص 152.

والنصيحة الخالصة لوجه الله تدخل السرور على المؤمن وتقضى عنه الدين وتطعمه الخبز وهذا من شكر الخليفة لنعمة الحكمة ورجاحة العقل والعلم الذي يفيضه على أتباعه، والخليفة من يرث الإيمان الكامل عن علم وعمل ومن هذا الميراث الشكر والصبر فهما لا يحصلان من دون العلم قَالَ رَسُولَ اللَّهِ في فضل العلم: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الجنّة وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السماوات وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ"431.

وبالعلم يرث الخليفة الأنبياء ومن هذا الميراث العلم بأسماء الله وصفاته فيعرف معناها وفوائدها ويتخلق بها فينشر نور العلم في الأرض ويكون في الأرض مثل النجم في السماء.

وخير العلماء من يتعلم لنفسه ولغيره فيحثهم على العلم وعلى السير للوصل إلى الحظ الأوفر من ميراث الأنبياء. وقد ورد في الأثر: حدثنا عفان قال حدثنا أبو عقيل بشير بن عقبة قال: "سمعت الحسن يقول: العلماء ثلاثة: منهم عالم لنفسه ولغيره فذلك أفضلهم وخيرهم، ومنهم عالم لنفسه فحسن، ومنهم عالم لا لنفسه ولا لغيره فذلك شرهم)432.

ونعم الله لا تحصى في الأرض والبحر ولا يعتبر بها ولا تمتلك عليه خلجات نفسه إلا الصبار الشكور وهو الخليفة الذي لا يفتأ عن النظر في ملكوت الله وآياته لأنه عالم بحقّ الاسم الشكور ومن هذا الحقّ الحرص

431 سنن أبي داود، ج 10 ص 49.

432 مصنف ابن أبي شيبة، ج 8 ص 269.

والنظر إلى العلماء للتعلم منهم لأنهم ورثة الأنبياء وورثة المعرفة الكاملة بأسماء الله تعالى.

والاسم الشكور: من أسماء الجمال والرّحمة والبسط واللين لذا فقد جاء مقترنا بالاسم الغفور والاسم الحليم، إلا أنّ الاسم الحليم جاء بعده ليتمم الشكر المفاض على العباد مع العلم بأنّ كل اسم إلهي اسم مكتمل تام في ذاته لأنه من أسماء الله وحاشا أن يلحقّ أسمائه نقص.

والله هو: (الشاكر، الشكور) "الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل ويعفو عن كثير. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره"433

وهنا يتضح أنّ الاسم الشكور يشمل الاسم الشاكر وكلاهما من نبع الشكر الإلهي الذي يفيض مغفرة وعطاء وثوابا وسترا على من يتصف بهذه الرتبة الإيمانية من العباد، ولا تتأتى هذه الرتبة إلا بالصبر المطلق والصبر المطلق كما ورد في القرآن الكريم بصيغة (صبّار) والشكر المطلق الذي ورد في القرآن الكريم بصيغة (شَكُور) ولم يصل إلى الدرجة الأعلى في هذه المنزلة إلا القليل من عباد الله الذين وصفهم بقوله تعالى: (وقليل من عبادي الشكور) وهؤلاء يتمم الله عملهم بالقبول ويزيدهم من فضله بالمغفرة والستر والشكر، وهذا كرم خالص من الله عزّ وجلّ فيفيضون ممّا أفاض الله عليهم بالشفاعة لمن أراد الله أن يخرجه برحمته من الشقاء إلى النعيم وهذا فيض شكوري آخر من الله الشكور وذلك ما ورد في كتب التفسير لقوله تعالى:

{لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}434.
(ليوفيهم أجورهم) التوفية: تمام الأجر وثواب العمل وهو متعلق بلن تبور

---

433 تفسير السعدي، ج 1، ص 948.

على معنى انه ينتفي عنها الكساد وتنفق فلا وقف على لن تبور (ويزيدهم من فضله) أي جوده وتفضله وخزائن رحمته ما يشاء ممّا لم يخطر ببالهم عند العمل ولم يستحقّوا له بل هو كرم محض ومن فضله يوم القيامة نصبهم في مقام الشفاعة ليشفعوا فيمن وجبت لهم النّار من الأقربّاء وغيرهم (إنه غفور) تعليل لما قبله من التوفية والزيادة وهذه مغفرة من غفور شكور.

و(غفور) ستار لكل ما صدر عنهم ممّا من شأنه (شكور) لطاعاتهم أي مجازيهم عليها ومثيب.

أوجه الشّكر:

الوجه الأوّل: الشكر ممن دونه يكون بالطاعة وترك مخالفته. (وهذا من الخليفة إلى الله) فالإنسان بكل المقاييس دون الله لذا وجب عليه أن يشكره ومن ألوان هذا الشكر طاعته فيما أمر وترك ما نهى عنه وفي ذلك صبر أيما صبر وشكر أيما شكر ومن هنا تحصل الخيرية العظمى لكل من يقتدي بهذا السلوك وتتحقّق فيه الخلافة المرجوة وكونه من الأخيار ممن قيل فيهم435. قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}436. قال الزجاج: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ} ظاهر الخطاب فيه مع أصحاب النبي، ولكنه عام في كل الأمة، ونظيره قوله {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام}437، و{كتب عَلَيْكُم القصاص}438

[434] فاطر 30.

[435] تفسير حقّي، ج 11 ص 281

[436] آل عمران، 110.

[437] البقرة 183.

[438] البقرة 178.

فإن كل ذلك خطاب مع الحاضرين بحسب اللفظ، ولكنه أيضا يفيد العام في حقّ الكل439.

وأصل الأمة الطائفة المجتمعة على الشيء الواحد فأمة نبينا هم الجماعة الموصوفون بالإيمان به والإقرار بنبوته، وقد يقال لكل من جمعتهم دعوته أنهم أمته إلا أن لفظ الأمة إذا أطلقت وحدها وقع على الأول، ألا ترى أنه إذا قيل أجمعت الأمة على كذا فهم منه الأول وقال عليه الصّلاة والسّلام: "أمتي لا تجتمع على ضلالة" وقد ورد الحديث بلفظ آخر:

فعن أبي بصرة صاحب رسول الله أنّ رسول الله قال: (سألت ربّي عزّ وجلّ أربّعا فأعطاني ثلاثا ومنعني واحدة سألت الله عزّ وجلّ ألا يجمع أمتي على ضلالة فأعطانيها)440.

وروي أنّه عليه الصّلاة والسّلام يقول يوم القيامة "أمّتي أمّتي" فلفظ الأمّة في هذه المواضع وأشباهها يفهم منه المقرون بنبوته، فأما أهل دعوته فإنه إنما يقال لهم: إنهم أمة الدعوة ولا يطلق عليهم إلا لفظ الأمة بهذا الشرط.

أمّا قوله (أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) ففيه قولان:

الأوّل: أنّ المعنى كنتم خير الأمم المخرجة للنّاس في جميع العصور، فقوله (أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) أي أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت وفصل بينها وبين غيرها.

والثاني: أن قوله (لِلنَّاسِ) من تمام قوله (كُنتُمْ) والتقدير: كنتم للناس خير أمة.

---

439 تفسير الرازي، ج 4 ص 342.

440 مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج 1، ص 107

ثم قال: (تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَتُؤْمِنُونَ بالله). والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية، كما تقول: زيد كريم يطعم النّاس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم، فهاهنا حكم تعالى بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة، ثم ذكر بعد هذا الحكم وهذه الطاعات، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبادات.

وهاهنا ينبغي طرح السؤال الآتي:

من أي وجه يقتضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله كون هذه الأمة خير الأمم مع أن هذه الصفات الثلاثة كانت حاصلة في سائر الأمم؟

الجواب: تفضيلهم على الأمم الذين كانوا قبلهم إنما حصل لأجل أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بأقوى الوجوه وهو القتال لأن الأمر بالمعروف قد يكون بالقلب وباللسان وباليد، وأقواها ما يكون بالقتال، لأنه إلقاء النفس في خطر القتل.

وأعرف المعروفات الدين الحقّ والإيمان بالتوحيد والنبوة، وأنكر المنكرات: الكفر بالله، فكان الجهاد في الدين محملا لأعظم المضار لغرض إيصال الغير إلى أعظم المنافع، وتخليصه من أعظم المضار، فوجب أن يكون الجهاد أعظم العبادات، ولما كان أمر الجهاد في شرعنا أقوى منه في سائر الشرائع، لا جرم صار ذلك موجبا لفضل هذه الأمة على سائر الأمم، وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية: قوله (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) تأمروهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقروا بما أنزل الله، وتقاتلوهم عليه و(لا إله إلا الله) أعظم المعروف، والتكذيب هو أنكر المنكر441.

[441] تفسير الرازي، ج 4، ص 342.

الوجه الثاني من الشكر: الشكر ممّن هو شكله يكون بالجزاء والمكافأة وهذا من إنسان إلى إنسان أي يشكر إنسان لإنسان آخر أسدى إليه معروفا فمن لم يشكر النّاس لمعروفهم لم يشكر الله.

الوجه الثالث من الشكر: والشكر ممن فوقه يكون رضا منه باليسير، وهذا من الله العلي العظيم إلى الإنسان لأن شكر الله أعلى وأجل وأسمى من شكرنا442.

والشكور هو المجازي بالخير الكثير على العمل اليسير والمعطى بالعمل في أيام معدودة نعما في الآخرة غير مجذوذة ومن عرف أنه الشكور شكر نعمته وآثر طاعته وطلب رحمته وشهد منته.

وعطاء الله الشكور– لمن أراد الخلافة – بشروط منها تلاوة القرآن واتخاذه منهجا وشريعة، وإقامة الصّلاة بوصفها وسيلة الاتصال المباشرة بين العبد وربّه، وإقامة بيوت الله التي يذكر فيها اسمه ويسبح بحمده فيها بالغدو والآصال من رجال لا تلهيهم الدنيا بفنائها عن الآخرة بنعيمها ودوامها فهذه التجارة الرابحة التي لا تبور وجزاؤها تمام الأجر وزيادة الفضل وستر الذنب في الدنيا والآخرة والتجلي عليهم بالشكورية الإلهية التي تحوي المغفرة والنعيم الدائم الذي لا يعرف قدره إلا الله. ويقول ابن كثير عن هذا المعنى في تفسير الآية التي تتناول هذه الجزئية: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصّلاة وَأَنْفَقُوا ممّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}443.

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقام الصّلاة، والإنفاق ممّا رزقهم الله في الأوقات

---

442 تفسير حقّي، ج 11 ص 281.

443 فاطر 29، 30.

والأوجه المشروعة ليلا ونهارا، سرا وعلانية، (يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ) أي: يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله. كما جاء عن فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه: "إن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة"؛ ولهذا قال تعالى: (لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم على بال، (إِنَّهُ غَفُورٌ) أي: غفور لذنوبهم، (شَكُورٌ) للقليل من أعمالهم. وقوله: (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ) أي: يغفر الكثير من السيئات، ويكثر من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر444.

والذي يتحلى بالشكر ويكون مصبوغا بهذه الصفة يزيده الله من فضله وهذه الزيادة بالمغفرة ودخول الجنّة لأنه قد مارس عملا من أعمال الخلافة وهو التحلي بالطاعة والخيرية التي تورث الشكر الإلهي وقليل ممن هم على هذه المنزلة، أما من سار في طريق الغي والضلال ولم يتحلى بالطاعات والخيرية التي أرادها الله في الخليفة فجزاؤه من جنس عمله وهل يجازى بالنّار إلا الكفور الجاحد لنعمة الخلافة التي لم يؤد شكرها، وقد وضح الله في منهجه الذي أرساه طريقا للخلافة أنها لا تتحقّق إلا بالعمل بالقرآن تلاوة وتطبيقا، وإقامة الصّلاة اتصالا بالخالق فتكون نورا هاديا للعمل الصالح في الأرض عمرانا، ومع العباد سلوكا طيبا ومعاملة حسنة، وبإنفاق المال في مصارفه الصحيحة لنشر الخيرية الإنسانية بسد حاجة المحتاج وبتوفير الحياة الكريمة لمن استخلفنا عليهم.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصّلاة وَأَنْفَقُوا ممّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا

444 تفسير ابن كثير، ج 6 ص 545.

مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}445.

(إِنَّ الذين يَتْلُونَ كتاب الله) يداومون على تلاوة القرآن (وَأَقَامُواْ الصّلاة وَأَنفَقُواْ ممّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّا وَعَلاَنِيَةً) أي مسرين النفل ومعلنين الفرض يعني لا يقتنعون بتلاوته عن حلاوة العمل به (يَرْجُونَ) خبر «إنّ» (تجارةً) هي طلب الثواب بالطاعة (لَّن تَبُورَ) لن تكسد يعني تجارة ينتفي عنها الكساد وتنفق عند الله {لِيُوَفّيَهُمْ} متعلق ب (لَّن تَبُورَ) أي ليوفيهم بنفاقها عنده (أُجُورَهُمْ) ثواب أعمالهم (وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ) بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم أو بتضعيف حسناتهم أو بتحقّيق وعد لقائه. أو (يَرْجُونَ) أي راجين. واللام في (لِيُوَفّيَهُمْ) تتعلق ب (يَتْلُونَ) وما بعده أي فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصّلاة والإنفاق لهذا الغرض، وإنَّهُ غفورٌ لهم شكور لأعمالهم أي يعطي الجزيل على العمل القليل (والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكتاب) أي القرآن. و(من) للتبيين (هُوَ الحقّ مُصَدّقا) حال مؤكدة لأن الحقّ لا ينفك عن هذا التصديق (لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) لما تقدمه من الكتب (إِنَّ الله بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ) فعلمك وأبصر أحوالك ورآك أهلا

445 فاطر 31 . 37.

لأن يوحي إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب ولتكون مستخلفا به في الأرض دون غيرك.

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب) أي أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من بعدك أي حكمنا بتوريثه (الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا) وهم الخلفاء من أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على النّاس ويكون الرّسول عليهم شهيدا، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله. ثم رتبهم على مراتب فقال (فَمِنْهُمْ ظالم لّنَفْسِهِ) وهو المرجأ لأمر الله (وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ) هو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا (وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات) وهذا التأويل يوافق التنزيل فإنه تعالى قال: {والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين}446. وقال تعالى: {وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ}447. وقال عزّ وجلّ: {وآخرون مُرْجَوْنَ لأمر الله}448.

(فَمِنْهُمْ ظالم لّنَفْسِهِ) والظالم من رجحت سيئاته، والسابق من رجحت حسناته، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته. وسئل أبو يوسف رحمه الله عن هذه الآية فقال: كلهم مؤمنون، وأمّا صفة الكفار فبعد هذا وهو قوله: (والذين كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ) وأمّا الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده، وكلهم راجع إلى قوله (الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا) وهم أهل الإيمان المستخلفون في الأرض والمصلحون فيها. وفي الآية الكريمة السابقة قدم الظالم للإيذان بكثرتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل. وقال ابن عطاء: إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله. وقيل: إنما قدمه ليعرّفه أن ذنبه لا يبعده من ربّه.

[446] التوبة 100.

[447] التوبة 102.

[448] التوبة، 106.

وقال سهل: السابق العالم والمقتصد المتعلم والظالم الجاهل. والمقتصد الذي اشتغل بمعاشه ومعاده، والظالم الذي اشتغل بمعاشه عن معاده. وقيل: الظالم الذي يعبده على الغفلة والعادة، والمقتصد الذي يعبده على الرغبة والرهبة، والسابق الذي يعبده على الهيبة والاستحقّاق. وقيل: الظالم من أخذ الدنيا حلالا كانت أو حراما، والمقتصد من يجتهد ألا يأخذها إلا من حلال. (ذلك) أي إيراث الكتاب (هُوَ الفضل الكبير جنات عَدْنٍ) خبر ثان ل (ذلك) أو خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ والخبر (يَدْخُلُونَهَا) أي الفرق الثلاثة (يَدْخُلُونَهَا) (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ) جمع أسورة جمع سوار (مّن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤا) أي من ذهب مرصّع باللؤلؤ أي يحلون أساور ولؤلؤا (وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) لما فيه من نعومة الملمس والزينة الجمالية مع الذوق الرفيع.

(وَقَالُواْ الحمد للهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن) خوف النّار أو خوف الموت أو هموم الدنيا (إِنَّ ربّنَا لَغَفُورٌ) يغفر الجنايات وإن كثرت (شَكُورٌ) يقبل الطاعات وإن قلت (الذي أَحَلَّنَا دَارَ المقامة) أي الإقامة لا نبرح منها ولا نفارقها يقال أقمت إقامة ومقاما ومقامة (مِن فَضْلِهِ) من عطائه وأفضاله لا باستحقّاقنا (لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ) تعب ومشقة (وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) إعياء من التعب وفترة[449].

ويأتي الاسم الشكور بين المغفرة والحلم كما ورد في الحديث النبوي الشريف الحليم ثم الغفور ثم الشكور ويتناغم القرآن الكريم مع الحديث الشريف فيعطينا لمحة باهرة بأن المغفرة تسبق الشكر، والحلم يحتوي الاثنين ويأتي ذلك باتقاء الفتنة من المال والولد وعلى الخليفة أن يتقي الله بقدر المستطاع وأن يطيع الله ورسوله فيما أمر ونهى وأن ينفق عن طيب خاطر وأن يبتعد عن الشح لكي يكون من المفلحين وأن يقرض الله قرضا حسنا

[449] تفسير النسفي، ج 3 ص 169.

من مال حلال بنفس مطمئنة لما عند الله من ثواب وأجر عظيم وحينئذ يضاعف الله له الأجر والثواب ويشمله بعطاء الغفور الشكور الحليم تقدس في ذاته وعظم في صفاته فيقول في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}450. (إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ) بلاءٌ ومحنةٌ يوقعونَكُم في الإثمِ من حيثُ لا تحتسبون (والله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) لمن آثَرَ محبةَ الله تعالَى وطاعَتَهُ على محبةِ الأموالِ والأولادِ والسعيِ في تدبيرِ مصالحِهِم (فاتقوا الله مَا استطعتم) أي ابذلُوا في تقواهُ جهدَكُم وطاقَتَكُم (واسمعوا) مواعظَهُ (وَأَطِيعُواْ) أوامرَهُ (وَأَنْفِقُواْ) ممّا رزقكُم في الوجوهِ التي أمركُم بالإنفاقِ فيها خالصا لوجهِهِ (خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ) أي ائتُوا خيرا لأنفسِكُم وافعلُوا ما هو خيرٌ لها وأنفعُ وهو تأكيدٌ للحثِّ على امتثالِ هذهِ الأوامرِ وبيانٌ لكونِ الأمورِ المذكورةِ خيرا لأنفسِهِم، أي يَكُنْ خيرا لأنفسِكُم (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون) الفائزونَ بكلِ مرامٍ. (إِن تُقْرِضُواْ الله) بصرفِ أموالِكُم إلى المصارفِ التي عينها (قَرْضًا حَسَنًا) مقرونا بالإخلاصِ وطيبِ النفسِ (يضاعفه لَكُمْ) بالواحدِ عشرةً إلى سبعمائةٍ وأكثرَ. وقُرِئَ يُضَعّفهُ لكُم (وَيَغْفِرْ لَكُمْ) ببركةِ الإنفاقِ ما فرطَ منكُم من بعضِ الذنوبِ (والله شَكُورٌ) يَعطى الجزيلَ بمقابلةِ النزرِ القليلِ (حَلِيمٌ) لا يعاجلُ بالعقوبةِ مع كثرةِ

---

[450] التغابن 15 . 18.

ذنوبِكُم (عالم الغيب والشهادة) لا يَخفى عليهِ خافيةٌ (العزيز الحكيم) المبالغُ في القدرةِ والحكمة451.

في الآيات السابقة نلاحظ أن الاسم الشكور يأتي مقترنا بالإنفاق سرا وعلانيةً وإقامة الصّلاة وتلاوة القرآن وهو ما يعد بمثابة النهج الذي إذا سار عليه العبد كان مستحقّا للمغفرة والشكر من الله إلا أن الآية الآتية فيها أمر آخر وهو المودة في القربى قربى الرّسول أو قربى الإنسان الشخصية أو قربى المسلمين عامة المهم أن تكون المودة حاضرة في قلوب المؤمنين لله وللرسول وللمسلمين وللخلق جميعا لأنهم صنعة الله.

ولا يصل القربى إلا عباد الله الذي يتوجه لهم بتلك الآيات الباهرات وهم من يستحقّون الخلافة إن نفّذوا ما أُمِرُوا به من أوامر واجتنبوا ما نهوا عنه من نواه وهذه المودة إن وصفت بأنها حسنة إلا أنها من أعظم الحسنات عند الله فيزيد الله فيها أحسن منها ويغفر ويشكر لمن قام بها وأداها على الوجه الأكمل، وهذه بشرى عظيمة لهؤلاء العباد الذين يصلون القربى الخاصة بالحبيب، وبذويهم أي القربى الخاصة بكل إنسان ممن تربّطهم به صلة، وبقربى الإسلام في الأرض شرقا وغربًا شمالا وجنوبا وذلك بتمني الخير لكل مسلم والدعاء له ظاهرا وباطنا، والخوف على مصلحة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، والدعوة الصادقة المخلصة إلى طريق الهداية لجميع البشر لأنه توجد قربى غفل عنها الكثير إلا الخليفة لم يغفل عنها وهي قربى آدم وحواء عليهما السّلام في البشر بوجه عام ممن ليسوا على الطريق الصحيح، وهؤلاء بالطبع غير قربى الرّسول أو القربى الخاصة أو القربى العامة من المسلمين، ونقصد بذلك أول قربى من رحم حواء وصلب آدم عليه الصّلاة والسّلام الذي خرجنا جميعا منه وننذرج كلنا فيه، فإن وصلنا هذه القربى تحقّقت فينا الخلافة وكنا أهل لها كلٌ على قدر ما وصل

[451] تفسير أبي السعود، ج 6، ص 334.

منها وهذه المكانة لا تتحقّق إلا في الخليفة الذي يعمر الأرض بفكره وترتفع بساعده وتزهو برؤيته الثاقبة وتوجيهه المستنير وهذا الخليفة هو المتحقّق بالشكر على تمامه ويتجلى الله عليه بالشكر على كماله بالقبول في الدنيا بين بني جنسه والرضا في الآخرة بالجنّة ونعيمها والبعد عن عذاب النّار وجحيمها.

قال الله تعالى:

{ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ}452. يقول تعالى لما ذكر روضات الجنّة، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: (ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أي: هذا حاصل لهم كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به.

وقوله: (قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) أي: قل يا محمّد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه، وإنّما أطلب منكم أن تكفوا شرّكم عني وتذروني أبلغ رسالات ربّي، إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة.

قال البخاري: حدثنا محمّد بن بشار، حدثنا محمّد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاوسا عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: (إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمّد. فقال ابن عباس: إنّ النبي لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: (إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة)453.

---

452 الشورى 33.

453 تفسير ابن كثير، ج 7 ص 199.

وحتى لا يُحْرَمُ إنسانٌ من شرف الانتساب إلى أهل البيت فهناك رأي يدخل الأمة المحمّدية كلها في قربى النبي أليس النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وزوجاته أمهات للمؤمنين؟ قال الله تعالى:

{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}454.

فعليه فكلُّ من آمن بالله ربّا وبسيدنا محمّد نبيا وأحب المسلمين ونصح لهم وعمل على نشر الخير المحمّدي لتتحقّق الخلافة المثلى للإنسان على الأرض فهو من القربى ويؤكد ذلك التفسير الآتي:

(وقيل آل الرّسول أمته الذين قبلوا دعوته قال ابن عطاء لا أسألكم على دعوتكم أجرا إلا أن تتوددوا إلى بتوحيد الله وتتقربّوا إليه بدوام طاعته وملازمة أوامره وقال الحسين كل من تقربّ إلى الله بطاعته وجبت عليكم محبته أي فإن المحب يحب المحب لكونهما محبين لمحبوب واحد وكذا المطيع مع المطيع لشركتهما في الطاعة والانقياد.

(ومن يقترف حسنة) من يكتسب حسنة يكون له الجزاء الأوفى (نزد له فيها) أي في الحسنة (حسنا) بمضاعفة الحسنة والتوفيق لمثلها والإخلاص فيها وبزيادة لا يصل العبد إليها بوسعه ممّا لا يدخل تحت طوق البشر (إن الله غفور) هو صاحب المغفرة ومالك أمرها (شكور) لمن أطاع بتوفية الثواب والتفضل عليه بالزيادة فالشكر من الله مجاز عن هذا المعنى لأن معناه الحقّيقي وهو فعل ينبئ عن تعظيم المنعم لكونه منعما لا يتصور من الله لامتناع أن ينعم عليه احد حتى يقابل بالشكر شبهة الإثابة والتفضل بالشكر من حيث إن كل واحد منهما يتضمن الاعتداد بفعل

---

454 الأحزاب 6.

الغير وإكراما لأجله وفى بحر العلوم أو معتد بالحسنة القليلة حتى يضاعفها فان القليل عند الله كثير455.

ولما طلب النبي ألا يؤذى لقرابته من أهل مكة أو لا يؤذى في أهل بيته أو في أمته فالأحرى بنا ألا نؤذيه في سنته وأن ندفع عنه أذى الجاهلين الذين يحاولون من أمته بكل السبل وذلك نوع من القربّى إلى الله بالبعد عن أذى الله ورسوله وتلك القربّى تأتي من العمل الصالح والطاعة المثلى لله والفرصة واتية للوصول إلى هذه القربّى لنصل إلى تجلي الله علينا بالشكورية الإلهية.

ومن الشكر للنعمة التي أنعم الله علينا بها وهي نعمة إتباع الخليفة الحقّيقي بحبه والدفاع عنه والتأسي بسنته بحب أهل بيته وبحب البشر عموما وبحب الخير وبحب الله وحب كل عمل يقربّنا من الله وهذا الحب من الشكر لأنّ النبي طلب منا ذلك وحثنا عليه قال رسول الله: "أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي"456.

وأهل بيت الرّسول ليس هم آل بيته، ولذا فالفرق كبير بين آل إبراهيم، وآل عمران، وآل يعقوب وآل داود وآل ياسين، وبين أهل محمّد عليهم جميعا الصّلاة والسّلام، فآل إبراهيم يمتدوا حتى يشملوا محمّد عليه الصّلاة والسّلام من حيث الأصل، وأهل محمّد هم الذين آمنوا به رسولا (قربّى وبعدى) من خديجة الكبرى وابوبكر الصديق إلى بلال رضي الله عنهم، وأسرة محمّد القريبة أزواجه أمهات المؤمنين وفاطمة الزهراء رضي الله عنهنَّ هُنَّ من أهله وليس من آله. ولأن صلة الدم ترتبط بالمسمى الذي يُنسب النسل إليه وهو المذكر، ومحمّد لم يبق له أبناء ذكور حتى سن الزواج والإنجاب، وهذا أمر يعلمه الله، لذا جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: {إنما

455 تفسير حقّي، ج 13، ص 80.

456 شعب الإيمان للبيهقي، ج 3، ص 418.

يُريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا}457. جاء في الآية (عنكم) لأجل أن تحتوي المذكر والمؤنث، ومع أنّ بداية الآية الحديث موجه فيها موجه صراحة إلى نساء النبي أمهاتنا الكريمات، إلا أن خاتمة الآية جاءت بالضمير المحتوي للمذكر والمؤنث لتعم الطهارة جميع أهل البيت الكرام. قال تعالى: {رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدا مجيد}458. فأهل البيت هم أصحابه الذين يطوفون ويسعون في ذكر الله موحدين لا مشركين.

يقول القرطبي: "هذه الآية تعطي أن زوجة الرّجل من أهل البيت، فدل هذا على أن أزواج الأنبياء من أهل البيت، فعائشة رضي الله عنها وغيرها من أهل بيت النبي "459. قال تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}460. أهله تعود على الذين آمنوا بسيدنا لوط عليه الصّلاة والسّلام، وهي لا تقتصر على من هم من صلبه أو دمه، ولهذا فالأهل امتزاج انتمائي للقرى أو المدن أو الكتب السماوية وهي أشمل من (آل) التي تقتصر على رابطة الدم من صلب الأبناء. ولهذا فالله يخاطب العموم بكلمة (أهل) ويخاطب الخاصة بكلمة (آل). أهل الكتاب الذين أستهدف به، وأهل الإنجيل هم المستهدفين به، وأهل القرى ساكنيها وأهل المدينة كذلك، وهكذا أهل الذكر هم الذين يعلمون ممّا علمهم الله به.

457 الأحزاب، 33.

458 هود 73.

459 تفسير القرطبي، الجزء التاسع، ص 71.

460 الأعراف، 83.

والأهل تتضمن في معناها أصحاب، أي ذوي العلاقة المباشرة بالموضوع المشترك، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}461 أي إلى أصحابها مباشرة وهم الذين لا شك فيهم.

ولأنّ رسالة محمّد هي الخاتمة وهي للكافة لذا بطبيعة الحال أن يقول الله تعالى: (إنّما يُريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ويقول (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدا مجيد). وعليه لو قال تعالى: (آل محمّد) ولم يقل (أهل محمّد) لكان الإسلام للخاصة مثله مثل الرسالات السابقة على نزوله. ولأنه للكافة جاءت كلمة أهله جامعة لا مانعة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}462. وقوله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}463. ما كان أيها النّاس محمّد أبا زيد بن حارثة، ولا أبا أحد من رجالكم464. هذه الآية الكريمة نزلت في زواج الرّسول من زينب بعد أن طلقها زيد، الذي تبناه رسول الله في صغره وهو لم يكن ولده من صلبه ليقال عنه انه تزوج حليلة ابنه، فنزل قوله تعالى: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}465.

وقد ورد في التفسير في قوله تعالى: (إلاّ المودة في القربّى) أيْ إلا أن تودُّون لقرابتي منكم أو تودُّوا أهل قرابتي، وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لا

---

[461] النساء 58.

[462] سبأ 28.

[463] الأحزاب 40.

[464] تفسير الطبري، ج 20، ص 278.

[465] الأحزاب 5.

أسألُكم أجرا قَطُّ ولكنْ أسألُكم الموَّدةَ، ولهذا فالمودة بين الأهل واجبة، وكذلك المودة فيهم بما يقدمونه من خير وعمل صالح لأجل الهداية للدين الكافة (الرسالة الخاتمة). وفي القُربيّ حالٌ منَها أيْ إلا المودَّةَ ثابتةً في القُربىّ متمكنةً في أهلِها أو في حقّ القرابةِ. والقُربىّ مصدرٌ كالزُّلْفى بمَعْنى القَرَابةِ. وقرابة الأهل متانة العلاقات على الدين الكافة. وفي هذا الأمر يبتعد القريب الذي يعود إلى الآل مثل أبي لهب، ويقتربّ البعيد مثل بلال ابن ربّاح وسلمان الفارسي رضي الله عنهما. وفي هذا الأمر قال تعالى: {تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد}466. وعليه من ينظر إلى هذا الأمر ليس له بدا إلا أن يشكر الله ويوحده باسمه الشكور وأسمه العدل الذي لم يترك للظلم مكانة لتتم فيها مغالبة الحقّ بالباطل حتى لا يتم الانحياز فيه للدم على حساب الأهل الذين يدخلون دائرة الممكن بمعطيات (الأصل والدين والانتماء) أي الأهل تشمل وتحتوي الآل كجزء من الأهل الذين يتكونون تحت مظلة الأصل والدين الكافة وليس أي دين. ولذا فما على العباد إلا أن يتوجهوا بالشكر للشكور المطلق الذي لم يُقرَّ عليهم مغالبة ذو القرى عندما يكونوا مناصرين للباطل أو عندما يكون قولهم أو فعلهم في مواجهة الحقّ، ولهذا كان بلال من أهله ولم يكن أبو لهب منهم وإن كان من آله.

وقيلَ: القُربّى التقربّ إلى الله أيْ إلاَّ أن تودُّوا الله ورسولَهُ في تقربّكم إليهِ بالطاعةِ والعملِ الصالحِ. وقرئ إلا مودَّةً في القُربّى. (وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً) أي يكتسبْ أيَّ حسنةٍ كانتْ فتتناولُ مودَّةَ ذِي القُربّى تناولا أوليا. وعن السُدِّيِّ: أنَّها المرادةُ، وقيلَ: نزلتْ في الصدِّيقِ رضيَ الله عنه ومودَّتهُ فيهم. (نَّزِدْ لَهُ فِيهَا) أيْ في الحسنة (حَسَنًا) بمضاعفةِ الثوابِ.

466 المسد 1 . 5.

وقرئ يَزِدْ أيْ يزدِ الله وقرئ حُسْنَى. (أَنَّ الله غَفُورٌ) لمن أذنبَ. (شَكُورٍ) لمن أطاعَ بتوفيقِه للثوابِ والتفضلِ عليهِ بالزيادةِ467.

وبناء على ما تقدم: فإن أهل البيت هم المستخلفين في الأرض، وليس آل البيت، وذلك لارتباط الآل بصلة الدم كما هي الصلة بأبي لهب، وارتباط الأهل بالدين الكافة كما هو حال النّاس كافة، ولهذا قال تعالى: {ونادى نوح ربّه فقال ربّ إنَّ أبني من أهلي وإن وعدك الحقّ وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين}468. فمع أنه ابن نوح (أي من آله) إلا أنه لم يكن من أهله، وذلك بأسباب الكفر، فأبنه كان يُسر الكفر ويظهر الإيمان ولذا فهو لم يكن من أهله469. ولأن نوح لا يعلم علم الغيب الذي لو كان به عليم لما نادى ابنه بما جاء في قوله تعالى: {ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين}470 ولأن ابنه يعرف أمر نفسه والحال الذي هو عليه قال الله: {قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من الغارقين}471. فقوله (سآوي إلى جبل يعصمني) دليل إثبات عدم الإيمان فلو كان مؤمنا لعرف إنّ الجبل لا يعصمه إن لم يكن الله عاصم له برحمته. فالمؤمن دائما يعلم أنه لا عاصم إلا الله عزّ وجلّ، ولهذا كان الفرق كبير بين قوله (سآوي إلى جبل يعصمني) وبين قول أبيه عليه الصّلاة والسّلام الذي يملأه الإيمان: (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم).

---

467 تفسير أبي السعود، ج 6 ص 80.

468 هود 45، 46.

469 تفسير القرطبي، الجزء الرابع، ص 45.

470 هود 42.

471 هود 43.

إذا فالشكور هو الله عزّ وجلّ والمتخلق بهذا الوصف هو الخليفة الذي يستحقّ الخلافة من العباد وعليه فعلينا أن نستبين صفات الخليفة المتحقّق بصفة الشكور وذلك من خلال آيات الذكر الحكيم ومن هدي سيد الخلق.

الشكور من العباد:

الشكور في الأصل الله عزّ وجلّ وهو بعد الاسم الغفور في الترتيب الوارد عن الرّسول الكريم فالشكور يسع الغفور، والغفور فيه الحفظ، والشكور فيه العطاء والثواب، ويسع الشكور الحليم لأن الله لمغفرته لذنب عبده قد أمهله ليقبله والإمهال من الحلم والحلم من الرّحمة والرّحمة من الله والله يسع الأسماء والأسماء تسع الأفعال والعبد يتقلب في تجليات الأسماء والأفعال ويحتويه الله الرّحيم الحليم، ولكن من الذي تنطبق عليه الشكورية أو مرتبة الشكر أو مرتبة شكر الشكر فقليل ما هم على هذه المنزلة وليس عليها إلا نبي من أولي العزم من الرّسُل، أو ولي كامل عامل بمنهج نبي من أولي العزم، ولم يبق من مناهج أولي العزم إلا منهج المصطفى الذي كان يمارس الشكر وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر لذا فمن أراد أن يكو ن من أهل الشكر فعليه الاقتداء بالنهج المحمّدي. وقد وصف بهذه المرتبة سيدنا نوح عليه الصّلاة والسّلام وطلبت من سيدنا داود وآله عليهم السّلام بقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ

فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}472. (اعملوا آل داود شكرا) أي قولوا. الحمد لله. و" شكرا ": أي اعملوا عملا هو الشكر. وكأن الصّلاة والصيام والعبادات كلها هي الشكر في ذاته، ويبين هذا قوله تعالى: (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقليل ما هم وهو المراد بقوله تعالى: (وقليل من عبادي الشكور).

وقد قيل في تأويل قوله تعالى: {أن اشكر لي}473. ويقال في صحيح البخاري: إن المراد بالشكر الصلوات الخمس. وعَنْ الْمُغِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: "إِنْ كَانَ النَّبِيُّ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حَتَّى تَرِمُ قَدَمَاهُ أَوْ سَاقَاهُ فَيُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا"474.

فظاهر القرآن والسنة أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان، فالشكر بالقلب واللسان والأركان.

قوله تعالى: (وقليل من عبادي الشكور) تدل على أن القلة هي المؤمنة وهي الشاكرة والحامدة لفضل الله مصداقا لقوله تعالى: (أكثرهم لا يعلمون) و(أكثرهم لا يؤمنون) و(أكثرهم فاسقون) و(أكثرهم لا يعقلون) و(أكثرهم يجهلون) و(وأكثرهم لا يشكرون) و(أكثرهم الكافرون) و(أكثرهم لا يعقلون) و(أكثرهم مشركين).

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلا يقول: "اللهم اجعلني من القليل، فقال عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: أردت قوله تعالى: (وقليل من عبادي الشكور)، فقال عمر رضي الله عنه: كل النّاس أعلم منك يا عمر! وروي أن سليمان عليه السّلام كان يأكل الشعير

472 سبأ 10 . 14.

473 لقمان 14.

474 صحيح البخاري، ج 4 ص 292.

ويطعم أهله الخشكار (ما خشن من الطحين – فارسية –)، ويطعم المساكين الدرمك (الدقيق الأبيض) وروي أنه ما شبع قط، فقيل له في ذلك فقال: أخاف إن شبعت أن أنسى الجياع. وهذا من الشكر، ومن القليل475.

والخليفة الذي يرى الشكر من الشكور ويرى وجوده وشكره نعمتين من نعم المنعم ورؤية المنعم والنعمة نعمة أخرى إلى غير نهاية، فَيُعْلَمُ ألا يقوم بأداء شكره ولا يشكره إلا الشكور.

والشكر على ثلاثة أوجه:

1 . شكر بالأقوال.

2 . شكر بالأعمال.

3 . شكر بالأحوال.

فشكر الأقوال: أن يتحدث بالنعم مع نفسه أسرارا ومع غيره إظهارا ومع ربّه افتقارا كما قال تعالى (وأما بنعمة ربّك فحدث).

وشكر الأعمال: أن يصرف نعمة الله في طاعته ولا يعصيه بها ويتدارك ما فاته من الطاعات وبادره من المعاصي كقوله تعالى: (اعملوا آل داود شكرا).

وشكر الأحوال: أن يتجلى المنعم بصفة الشكورية على سر العبد فلا يرى إلا المنعم في النعمة والشكور في الشكر ويرى المنعم في النعم والنعمة من المنعم والشكور في الشكر476.

---

475 تفسير حقّي، ج 1 ص 167.

476 تفسير حقّي، ج 2 ص 29.

قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}477. وأفادت الآية أن خواص الله فيهم قليلة مصداقا لقوله تعالى: (وقليل من عبادي الشكور) وهذا في كل زمان لكن الشيء العزيز القليل أعلى بهاء من الكثير الذليل. فالقليل الشكور هو المستخلف المراد به استعمار الأرض والإصلاح دون سفك دماء فيها بغير حقّ.

ومع أنّ الإنسان لم يُخلق كاملا إلا أنّه خُلق في أحسن تقويم عقلا وصورة ودلالة ظاهرة وباطنة، ولهذا فهو القادر على التمييز والإدراك الواعي مع الإحساس والاستنباط والاستقراء ممّا يؤهله لأن يكون الخليفة، ولكن أكثرهم لا يؤمنون وهذه نقيصة في حقّ من خلق في أحسن تقويم. وهؤلاء ومن هو على مثلهم لا يستطيعون حمل الرسالة التي يُراد لهم الاستخلاف بها.

ويقصد بالإنسان الخليفة الذي ملأ الإيمان قلبه وعرف الباطل فاجتنبه ونهى عنه، وعرف الحقّ فأحقّه وناصره ولهذا كان الأنبياء هم أول المستخلفين فيها، ويأتي من بعدهم خلفاء مهديون يسيرون على منهجهم لعبادة الله وتعمير الأرض والأخذ على يد المفسدين وهؤلاء هم خاصة الله في عباده الذين عليهم العبء الأكبر في عمارة الأرض.

الشكور: المبالغ في أداء الشكر على النعماء والبلواء بان يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته وأغلب أحواله ومع ذلك لا يوفى حقّه

---

477 البقرة 246.

لأن التوفيق للشكر نعمة تستدعى شكرا آخر لا الى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر478.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: "أحسن وجوه الشكر لنعم الله تعالى ألا يستعملها في معاصيه بل في طاعاته". وعن جعفر بن سليمان سمعت ثابتا يقول: (إنّ داود جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتى ساعة من ساعات الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى) وعن النبي عليه الصّلاة والسّلام، إذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا إن داود أشكر العابدين وأيوب صابر الدنيا والآخرة479.

وقوله (قليل من عبادي الشكور) يشير إلى قلة من يصل الى مقام الشكورية وهو الذي يكون شكره بالأحوال. والشكور هو الله تعالى لقوله تعالى: {إن ربّنا لغفور شكور}480 أي أنه هو الذي يغفر للمذنبين، ويشكر المطيعين الشاكرين له سرا وعلانية (تسبيحا وعملا نافعا).

وقد وصف الله سيدنا نوح عليه الصّلاة والسّلام (إنّه كان عبدا شكورا)، وجاء هذا الوصف في القرآن الكريم الذي ارتضاه الله ليكون المنهج الخاتم للإنس والجن ولنرى كيف كان سيدنا نوح عليه الصّلاة والسّلام عبدا شكورا:

قال تعالى: {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}481. قال سبحانه: (وَآتَيْنَآ مُوسَى الكتاب) أي أعطينا موسى التوراة، (وَجَعَلْنَاهُ هُدًى)، يعنى التوراة هدى، (لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ) من الضلالة،

478 تفسير حقّي، ج 11، ص 183.
479 السابق، ج 11، ص 183.
480 فاطر 34.
481 الإسراء، 2، 3.

(أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلا) يعنى وليا، وفيها تقديم. يا (ذُرِّيَّةَ) آدم، (مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) في السفينة، ألا تتخذوا من دوني وكيلا، يعنى وليا، قال سبحانه: (إِنَّهُ كَانَ عَبْدا شَكُورا)، فكان من شكره أنه كان يذكر الله عزّ وجلّ حين يأكل ويشربّ، ويحمد الله تعالى حين يفرغ، ويذكر الله سبحانه حين يقوم ويقعد، ويذكر الله جل ثناؤه حين يستجد الثوب الجديد، ويذكر الله عزّ وجلّ حين يدخل ويخرج، وينام ويستيقظ، ويذكر الله جل ثناؤه بكل خطوة يخطوها، وبكل عمل يعمله، فسماه الله عزّ وجلّ عبدا شكورا482. أي انه المتصف بالشكر لله تعالى. ولهذا كان نوح عليه الصّلاة والسّلام (كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) أي أنّه كثيرَ الشكر في مجامع حالاتِه، وفيه إيذانٌ بأن إنجاءَ مَنْ معه كان ببركة شكرِه عليه الصّلاة والسّلام وحثٌّ للذرية على الاقتداء به وزجرٌ لهم عن الشرك الذي هو أعظمُ مراتبِ الكُفرانِ. وكان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني وإذا شربّ قال: الحمد لله الذي اسقاني ولو شاء أظمأني وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء جردني وإذا تغوط قال: الحمد لله الذي اخرج عنى أذاه في عافية ولو شاء حبسه – روى – أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به فإن وجده محتاجا آثره به وفيه إيذان بأنّ إنجاء من معه كان ببركة شكره عليه السّلام وحث الذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذي هو أعظم مراتب الكفران. فلما بالغ في الشكر سمى شكورا فالله تعالى بالغ في ازدياد النعمة جزاء لمبالغته في الشكر حتى انعم على ذرية من حملهم مع نوح وهم بنو إسرائيل بإيتاء التوراة الهادية إلى التوحيد المنجية من الشرك483.

482 تفسير مقاتل، ج 2، ص 250.

483 حقّي، ج 7 ص 172.

وأوّل الخلفاء هم أوّل العابدين، وأوّل العابدين هم الأنبياء. قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ سُبْحَانَ ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ربّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}484. عن ابن عباس في قوله: (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ) يقول: لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين. وقال قتادة: هي كلمة من كلام العربّ: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} أي: إن ذلك لم يكن فلا ينبغي485.

وقال أبو صخر: (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أي: فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده. وكذا قال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد: (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أي: أول من عبده ووحده وكذبكم486.

والخليفة هو الذي يجتهد لإظهار الحقّ وإرشاد النّاس لطريق النور عملا واقتداءً بما جاء به النبي من هدي ليخرج النّاس من الظلمات إلى النور وهذا الدور نفسه الذي أرسل الله من أجله سيدنا موسى عليه الصّلاة السّلام ولا يفهم ذلك ولا يقتدي به إلا العبد الخليفة الصبار الشكور قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}487.

---

484 الزخرف، 80 . 84.

485 تفسير ابن كثير، ج 7، ص 242.

486 المصدر السابق ص 243.

487 إبراهيم 4، 5.

فالنبي جاء ليخرج النّاس من ظلمات الكفر إلى نور الشكر والتوحيد، والشكر بإثبات النعمة للمنعم الأصلي الذي وهبها والكفر بحجب إثبات تلك النعمة عن خالقها، والله يكفر الذنوب أي يغطيها ولا يكشف ستر العبد لذا فمن أراد العبودية الحقّة فعليه بكشف حقّيقة النعمة التي يتقلب فيها وإظهارها إلى النور بردها إلى الله وشكره عليها وهذا دور الخليفة الذي لا يكل ولا يمل من العمل شكرا لله وحث الآخرين على إتباع ذلك النهج وهو بذلك يخرجهم من ظلم الجحود وظلام إنكار النعمة بإثباتها لغير واجدها وواهبها إلى النور، نور الشكر والاعتراف بأن كل النعم من الله ولا يستحقّ الشكر عليها غيره، ولكن أعوان الضلال يريدون أن يعيش النّاس في ظلمات الكفر، والله يريد أن يخرج النّاس من الظلمات إلى النور لذا أرسل الرّسُل وختمهم بخير رسول وأكمل رسالة وأتم منهج وجعل فيه الخلافة الحقّيقية على الأرض وتعهد بنشر منهجها وعلو نورها على جميع الأنوار فيقول الله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}488.

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب (أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ) أي: ما بعث به رسوله من الهدى ودين الحقّ، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لا بد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه: (وَيَأْبَى اللَّهُ إلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ).

---

488 التوبة، 32، 33.

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحقّ) فالهدى: هو ما جاء به من الإخباريات الصّادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع. ودين الحقّ: هو الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح، عن رسول الله أنّه قال: "إن الله زَوَى لي الأرض مشارقها ومغاربّها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها" 489.

وقال رسول الله: "إنّه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربّها، وإن عمالها في النّار، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة"490.

وقال رسول الله: "ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين، بعزِّ عزيز، أو بِذُلِّ ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر"، فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخيرَ والشرفَ والعزَّ، ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية491.

وقال رسول الله يقول: "لا يبقى على وجه الأرض بيت مَدَر ولا وَبَر، إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعزِّ عزيز، أو بذلِّ ذليل، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها"492.

ومقام الشكر يأتي بالاستغراق في العبادة فرضا ونافلة وبكل الجوارح وبالظاهر والباطن وعلى جميع الأوجه، وبهذا تتحقّق الخلافة الآدمية على الأرض يقول الله تعالى: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى

489 صحيح مسلم، ج 4، ص 328.

490 المسند، ج 5، ص 366.

491 المسند، ج 4، 103، وقال الهيثمي في المجمع، 6، ص 14.

492 تفسير ابن كثير، ج 4، ص 136.

جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ربّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّار}[493].

(الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) نعت لأولى الألباب أي يذكرونه دائما على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين (يتفكرون في خلق السماوات والأرض) يعنى يعتبرون في خلقهما[494].

وفى التفضيل وجهان: أحدهما: أن التفكر يوصلك الى الله والعبادة توصلك إلى ثواب الله والذي يوصلك الى الله خير ممّا يوصلك الى غير الله.

والثاني: إنّ التفكّر عمل القلب والطاعة عمل الجوارح والقلب أشرف من الجوارح فكان عمل القلب أشرف من عمل الجوارح.

ثم شرع في تعليم الدعاء تنبيها على أن الدعاء إنما يجدي ويستحقّ الإجابة إذا كان بعد تقديم الوسيلة وهي إقامة وظائف العبودية من الذكر والفكر فقال (ربّنا) يعنى يتفكرون ويقولون ربّنا (ما خلقت هذا)[495].

والشكر يكون بالعمل لا بالقول فقط وهذا الذي يقوم به الخليفة بصفته الوارث للأخلاق المحمّدية والذي يعمل جاهدا على نشرها اقتداءً بالنبي

فعَنْ زِيَادٍ قَالَ سَمِعْتُ الْمُغِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: (إِنْ كَانَ النَّبِيُّ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حَتَّى تَرِمُ قَدَمَاهُ أَوْ سَاقَاهُ فَيُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)[496].

---

[493] آل عمران 191.

[494] »كشف الخفاء، ج 1، ص 310.

[495] المصدر السابق، ج 2، ص 374.

وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّة الصّلاة لِلشُّكْرِ، وَفِيهِ أَنَّ الشُّكْر يَكُون بِالْعَمَلِ كَمَا يَكُون بِاللِّسَانِ كَمَا قَالَ اللَّه تَعَالَى (اِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا) وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ: ظَنَّ مَنْ سَأَلَهُ عَنْ سَبَب تَحَمُّله الْمَشَقَّة فِي الْعِبَادَة أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْبُد اللَّه خَوْفًا مِنْ الذُّنُوب وَطَلَبًا لِلْمَغْفِرَةِ وَالرّحمة فَمَنْ تَحَقّقَ أَنَّهُ غُفِرَ لَهُ لَا يَحْتَاج إِلَى ذَلِكَ، فَأَفَادَهُمْ أَنَّ هُنَاكَ طَرِيقًا آخَر لِلْعِبَادَةِ وَهُوَ الشُّكْر عَلَى الْمَغْفِرَة وَإِيصَال النِّعْمَة لِمَنْ لَا يَسْتَحقّ عَلَيْهِ فِيهَا شَيْئًا فَيَتَعَيَّن كَثْرَة الشُّكْر عَلَى ذَلِكَ، وَالشُّكْر الِاعْتِرَاف بِالنِّعْمَةِ وَالْقِيَام بِالْخِدْمَةِ، فَمَنْ كَثُرَ ذَلِكَ مِنْهُ سُمِّيَ شَكُورًا، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ سُبْحَانه وَتَعَالَى: (وَقَلِيل مِنْ عِبَادِي الشَّكُور). وَفِيهِ مَا كَانَ النَّبِيّ مِنْ الِاجْتِهَاد فِي الْعِبَادَة وَالْخَشْيَة مِنْ ربّه، قَالَ الْعُلَمَاء: إِنَّمَا أَلْزَم الْأَنْبِيَاء أَنْفُسهمْ بِشِدَّةِ الْخَوْف لِعِلْمِهِمْ بِعَظِيمِ نِعْمَة اللَّه تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَأَنَّهُ اِبْتَدَأَهُمْ بِهَا قَبْل اِسْتِحقّاقهَا. فَبَذَلُوا مَجْهُودهمْ فِي عِبَادَته لِيُؤَدُّوا بَعْض شُكْره، مَعَ أَنَّ حقّوق اللَّه أَعْظَم مِنْ أَنْ يَقُوم بِهَا الْعِبَاد497.

وهذه مرتبة الشكورية عند الأنبياء وعلينا أن نقتدي بهم ونعمل بهديهم؛ وقد ذكر الله في كتابه صفات الشكور التي سبقها صفة (صبار) فلنقطف من بساتين القرآن لنتذوق ما قيل في هذا الموضوع حول الشكور من العباد من غير الأنبياء قال الله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}498.

(لّكُلّ صَبَّارٍ) على بلائه (شَكُورٍ) لنعمائه، وقيل: لكل مؤمنٍ، والتعبيرُ عنهم بذلك للإشعار بأن الصبرَ والشكرَ عنوانُ المؤمن أي لكل مَن يليق بكمال الصبرِ والشكر أو الإيمان، فإن من تذكّر ما فاض أو نزل عليه

496 فتح الباري لابن حجر، ج 4، ص 110.

497 السابق، ص 110.

498 إبراهيم 5.

أو على مَنْ قبله من النعماء والبلاءِ وتنبّه لعاقبة الشكر والصبر أو الإيمان لا يكاد يفارقهما، وتقديمُ الصبَّار على الشكور لتقدم متعلَّقِ الصبر أي البلاء على متعلّق الشكر أي النعماء وكون الشكر عاقبة الصبر499.

قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آَيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآَيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ}500.

(إِنَّ فِي ذلك لآيات لّكُلّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) تعليلٌ لما قبله أيْ إنَّ فيما ذُكر لآياتٍ عظيمةً في ذاتِها كثيرةً في عددِها لكلِّ مَن يُبالغ في الصَّبرِ على المشاقِّ فيتعبُ نفسَه في التفكرِ في الأنفسِ والآفاقِ ويبالغُ في الشُّكرِ على نعمائِه وهما صِفتا المؤمنِ فكأنَّه قيلَ لكلِّ مؤمنٍ (وَإِذَا غَشِيَهُمْ) أي علاهُم وأحاطَ بهم (مَّوْجٌ كالظلل) كما يظل من جبلٍ أو سحابٍ أو غيرِهما. (دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين) لزوالِ ما ينازعُ الفطرةَ من الهوَى والتَّقليدِ بما دهاهم من الدَّواهي والشَّدائدِ (فَلَمَّا نجاهم إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ) أي مقيمٌ على القصدِ السويِّ الذي هو التَّوحيدُ أو متوسطٌ في الكُفر لانزجارِه في الجُملةِ (وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ) غدَّارٍ فإنَّه نقصٌ للعهدِ الفطريِّ أو رفضٌ لما كان في البحرِ. والخترُ أشدُّ الغدرِ وأقبحُه. (كَفُورٍ) مبالغٌ في كفرانِ نعمِ الله تعالى501.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ) أي فيما ذُكر من قصَّتهم (لآيَاتٍ) معجزات عظيمةً (لّكُلّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) أي شأنه الصَّبرُ عن الشَّهواتِ ودواعي الهوَى وعلى

499 تفسير أبي السعود، ج 4، ص 18.

500 لقمان 31.

501 تفسير أبي السعود، ج 5، ص 30

مشاقِّ الطَّاعاتِ والشُّكرُ على النِّعمِ. وتخصيصُ هؤلاء بذلك لأنهم المنتفعون بها502.

(لِّكُلِّ صَبَّارٍ) كل صبور على أمر الله، (شَكُورٍ) لله تعالى في جميع الأحوال وعلى كل النعم503.

والإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر لا ينزل هذه المنزلة إلا المؤمن الذي ارتضاه الله للخلافة وذلك الخير كله؛ وفي ذلك يقول الخليفة الأمثل السراج المنير والهادي إلى الطريق المستقيم سيدنا محمّد.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: "عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ لَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْرًا وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا"504.

وفي الحديث أيضا: "وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ يُعَلِّمُنَا كَلِمَاتٍ نَدْعُو بِهِنَّ فِي صَلَاتِنَا أَوْ قَالَ فِي دُبُرِ صَلَاتِنَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ وَأَسْأَلُكَ عَزِيمَةَ الرُّشْدِ وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا وَلِسَانًا صَادِقًا وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ"505

حَدَّثَنَا عَبْد اللَّهِ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ حَدَّثَنَا أَبُو وَكِيعٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحمن عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الْأَعْوَادِ أَوْ عَلَى هَذَا الْمِنْبَرِ: "مَنْ لَمْ يَشْكُرْ الْقَلِيلَ لَمْ

---

502 تفسير أبي السعود، ج 5، ص 369

503 تفسير مقاتل، ج 3، ص 210.

504 مسند أحمد، ج 38، ص 401

505 مسند أحمد، ج 34، ص 497.

يَشْكُرْ الْكَثِيرَ وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ النّاس لَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ وَتَرْكُهَا كُفْرٌ وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ"506.

(صبَّار) مبالغ في الصبر على طاعة الله وعلى البلايا (شكور) مبالغ في الشكر على النعم والعطايا كأنه قال لكل مؤمن كامل إذ الإيمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر507.

وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم: "لينظر العبدُ في نعم الله عليه في بدنه وسمعه وبصرِه ويديه ورجليه وغير ذلك، ليس من هذا شيءٌ إلاَّ وفيه نعمةٌ من الله – عزّ وجلّ –، حقّ على العبد أنْ يعملَ بالنِّعم التي في بدنه لله – عزّ وجلّ – في طاعته، ونعمة أخرى في الرزق، حقّ عليه أنْ يعمل لله عزّ وجلّ، فمن عمل بهذا، كان قد أخذ بحزم الشُّكر وأصله وفرعه"508.

ورأى الحسن رجلا يتبختر في مشيته، فقال: للهِ في كُلِّ عُضوٍ منه نعمة، اللهمَّ لا تجعلنا ممن يتقوّى بنعمك على معصيتك.

والشكر المستحبُّ هو أنْ يعملَ العبدُ بعد أداءِ الفرائض، واجتنابِ المحارم بنوافل الطَّاعات، وهذه درجةُ السَّابقين المقرّبين، وهي التي أرشد إليها النَّبيُّ، وكذلك كان النَّبيُّ يجتهد في الصّلاة، ويقوم حتَّى تتفطَّر قدماه، فإذا قيل له: أتفعلُ هذا وقد غَفَرَ الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: "أفلا أكونُ عبدا شكورا؟"509.

506 مسند أحمد، ج 37، ص 403.

507 تفسير حقّي، ج 6 ص 300.

508 جامع العلوم والحكم، ج 27، ص 20.

509 تفسير حقّي ج 6، ص 300.

والله ما خلقنا ليعذبنا فإن عذابنا لا ينفعه ولا يضره ولكننا بالشكر له وبالإيمان به يشكر الله لنا بمغفرته وحسن ثوابه، والشكر يحتاج إليه العبد لأنه بالشكر يأمن غضب الله وعذابه ويزيده من واسع فضله؛ والله غني عن شكرنا ولا يفيده ذلك الشكر ولا يزيد في ملكه شيء، ولا ينقص من ملكه شيء بعدم الشكر، لكن الله تعالى يقابل الشكر بالشكر والثواب الجزيل510. يقول سبحانه وتعالى: (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا) أيتشفى به من الغيظ، أم يدرك به الثأر، أم يستجلب به نفعا، أم يستدفع به ضررا كما يفعل الملوك بعذابهم وهو الغنيّ الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك. وإنما هو أمر أوجبته الحكمة أن يعاقب المسيء، فإن قمتم بشكره على نعمته وآمنتم به فقد أبعدتم عن أنفسكم استحقّاق العذاب (وَكَانَ الله شاكرا) مثيبا موفيا أجوركم (عَلِيما) بحقّ شكركم وإيمانكم. فإن قلت: لم قدم الشكر على الإيمان؟ قلت: لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع، فيشكر شكرا مبهما، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكرا مفصلا511. فكان الشكر متقدما على الإيمان، وكأنه أصل التكليف ومداره.

ومن فضل الشكر الرّحمة والمغفرة ومنح الذرية وإن انتفت أسبابها وذلك كما حدث مع نبي الله زكريا عليه الصّلاة والسّلام قال تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ

510 المصدر السابق، ج 1 ص 167.

511 الكشاف، ج 1، ص 482.

قَالَ ربِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النّاس ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ ربّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}512. فقيل إنّه صام عن الكلام إلا الشكر لله عزّ وجلّ، وحبس لسانه عن كلام النّاس ليخلص في هذه المدّة لذكر الله ولا يشغل لسانه بغيره، توفرا منه على قضاء حقّ تلك النعمة الجسيمة، وشكرها الذي طلب الآية من أجله، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر513.

وعن الشكر بين المهاجرين والأنصار وتوجيه النبي لهم حتى يكونوا قدوة في الشكر: عن أنس بن مالك قال: "قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قيل، ولا أحسن بذلا من كثير، كفونا المؤنة وأشركونا في المهني، حتى لقد خشينا أن قد ذهبوا بالأجر كله. قال: لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم لهم. قال أبو بكر: فَلَو كانَ يَستَغني عَنِ الشُّكرِ ماجِدٌ ... لِعِزَةِ مُلكٍ أَو عُلُوِّ مَكانِ لَما أَمَرَ اللهُ العِبادَ بِشُكرِهِ ... فَقالَ: اشكُروا لي أَيُّها الثَقلانِ. وعن جعفر بن محمّد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال لجليس له يوما: اشكر المنعم عليك، وأنعم على الشاكر لك، فإنه لا نفاد للنعم إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت، والشكر زيادة في النعم، وأمان من الغِير"514.

هكذا تنقلنا بين الاسم الشكور على الخالق سبحانه وتعالى، وعلى المخلوق الذي يفترض فيه التفاني في الشكر ليصل إلى مرتبة الشكورية لينعم الله عليه بالتجلي بالاسم الشكور الذي فيه توفية العبد لما قدم من عمل وزيادة تليق بربّ العالمين وليكون أهلا للخلافة في الأرض.

---

512 مريم 38. 41.

513 السابق، ج 1، ص 274.

514 فضيلة الشكر لله على نعمته، ج 1 ص 9.

اللهم أجعلنا من الحامدين الشاكرين الذين يقولون الحقّ ويعملون عليه ويعملون به، ويجتنبون الباطل ويعملون على إزهاقه، ويصلحون في الأرض ولا يسفكون الدماء فيها بغير حقّ واستغفر الله العظيم عن أية مخالفة أو خطأ أو ذنب ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

اللهم لك الحمد والشكر على ما خلقت وأنعمت وحفظت وهيمنت ورحمت وعفوت وسلَّمت من الشرور والأضرار ومن الحاجة والفاقة ومن الألم والعناء يا خالق الأرض والسماوات العلا وما بينهما وما تحت الثرى، اللهم لك الشكر على خلقك وإحيائك وإماتتك وبعثك لنا مسلمين مؤمنين بك واحدا أحدا لا شريك لك سبحانك جل جلالك، اللهم لك الشكر على خلقك للجنة والنّار ليكون الفوز للمتقين بالجنّة وتكون لهم عقبى الدار (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)515.

حكمة داوود والاستخلاف في الأرض:

الحكمة فضيلة خيّرة لا تكون إلّا من خيّرٍ قدوة، وفي الحكمة تكمن الحلول، ومنها تستمدّ الثقة، وبها تتعاضد القوّة. إنّها نتاج المعرفة الواعية والخبرة الرشيدة والتجربّة الواسعة. وفِي الحِكْمَةِ يقول نبي الله دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام: "الْعِلْمُ فِي الصَّدْرِ كَالْمِصْبَاحِ فِي الْبَيْتِ"516، يفهم من هذه الحكمة أنّ العلم نور، والجهل ظلمة؛ ومن أراد أن ينير الله عقله وقلبه فعليه بالعلم النافع، ومن أراد تقدما فعليه بالعلم النافع، ومن أراد تحديا موضوعيا

---

515 الرعد 23 . 25.

516 جامع بيان العلم وفضله، 1، 246.

فعليه بالعلم النافع والصّالح. ولهذا فكل الحِكَم لا تكون إلّا من حكيم، ولا حيكم بالمطلق إلّا الحكيم المطلق، أنّه مصدر النور والعلم والمعرفة واليقين والموعظة والعبرة.

وحكمة داوود عليه السّلام مستمدّة من صفة الله الحكيم المطلق. ولهذا فالحكمة واسعة، وتتطلّب توضيح واسعٍ. والاستخلاف واسع ويتطلب الاقتداء الحسن ومعرفة الآتي:

أنَّ الحكيم هو "الذي يضع الأشياء في مواضعها، فيضع الفضل في أهل الطّاعة، ويضع العذاب في أهل الكفر والمعاصي، هذا فضله سبحانه وعدله"517. والحكيم: بمعنى الحاكِم وهو القاضي وهو الذي يُحْكِمُ الأَشياءَ ويتقنها518.

والحكيم اسم من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته، وهو الذي تستمدّ الحكمة منه التي باستمدادها يصبح الإنسان خليفة كما هو حال نبي الله داوود، ولذلك فالخليفة الحكيم هو الخليفة المتدبر لأمره وأمر من له علاقة به، قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرّسول وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا}519 وقال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبّونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ

---

[517] كتب العقيدة، ج 16، ص 31.

[518] لسان العرب، ج 12، ص 140

[519] النساء 82، 83.

اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}520. إنّه من الحكمة أن يتدبر الإنسان أمره بحكمة، يفكر في وجوده ويتذكر ما مضى من حياته ويتساءل:

هل في الوجود ظلم؟ إذا كانت الإجابة بنعم. ألا ينبغي عليه أن يتساءل:

لما لا يقضى على الظلم؟ وعليه أن يتذكر أنّ ما يقع من ظلم على العباد شر ومفسدة ومهلكة تؤلم النّاس وتجعلهم في حاجة لمن يسندهم لإزالة الألم عنهم. ومن حقّه أن يتساءل:

لما لا يتوحّد المظلومون ليزيحوا الظلم عنهم؟

وعليه ألا يغفل عن التفكير في الظلم وما يتركه من مآسٍ وأن يفكر بروية في تساؤله:

ألا نتعرّض يوما إلى هذا الظلم؟ وإذا تدبر هذا الأمر قد يطرح سؤالا:

ألا يكون من الأفضل أن نشارك من وقع عليهم الظلم في مقاومته قبل أن يصبح حالنا وأولادنا من بعدنا كحالهم. وإذا بلغ النتيجة الموجبة ألا يكون قد وصل إلى التي بعدها وهي إنه من الوجوب الحقّ إحقّاق الحقّ.

وعليه من الحكمة أن نعرف أنَّ الله واحد، وأن الحقّ واحد، وأنّ الظلم واحد فلا نغفل وعلينا أن نتبيَّن ونسأل حتى بلوغ المعرفة التي بها يحقّ الحقّ ويزهق الباطل. وفي هذا الشأن يقول الشاعر:

---

[520] محمد 24. 29.

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنّه واحد[521]

وبناء على ذلك كن حكيما فيما تقول وتذكر ما قلت حتى لا تضيع منك فرصة الاستغفار، وذكر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين قال تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}[522].

وقال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}[523].

بناء على ما جاء في الآيات المتقدمة من سورتي الذاريات والغاشية فإن الحكمة مؤسسة على تدبر والتدبر مؤسس على التذكر والتفكر، ولذا فإن أمر الحكمة يستوجب فطنة والفطنة تتطلب إيمانا لا مشاركة فيه، واتباع طاعة لا إكراه فيها.

الحكيم هو من يعلم بحال الشيء ويملك حقّ التصرف وفقا لميزان العدل دون مظلمة أو ميل لأحد على حساب آخر، ولذا فالحكيم يتصرف وفقا للزمان والمكان والظرف دون مخافة أحد في سبيل قول الحقّ أو فعل الحقّ.

الحكيم هو من يجازي المستغفرين بالتوبة والتائبين بالجنّة، وهو الذي يمهل ولا يهمل كبيرة ولا صغيرة حتى ولو كانت أقل من حبة خردل

---

[521] تفسير الرازي، ج 1، ص 7.

[522] الذاريات 55 . 60.

[523] الغاشية، 21 . 26.

قال تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصّلاة وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}524.

والحكيم العليم هو الخبير بحالنا وأحوال غيرنا، له الحمد لقد ميزنا بحسن الخلق والتقويم وفضلنا على العالمين في استخلاف الأرض، وجعل لكل واحد منا خصوصية تميزه عن بقية بني جنسه وعلى هذه القاعدة جعل لكل نوع خصوصية وجعل داخل كل خصوصية خصوصية. ولذا فإنّنا نلحظ أنّ أجسام العالم متساوية في ماهية الجسمية، ومختلفة في الصفات، وهي الألوان والأمكنة والأحوال، ويستحيل أن يكون اختصاص كل جسم بصفته المعينة لأجل الجسمية أو لوازم الجسمية، وإلا لزم حصول الاستواء، فوجب أن يكون ذلك لتخصيص مخصص وتدبير مدبر، وذلك المخصص إن كان جسما عاد الكلام فيه، وإن لم يكن جسما فهو المطلوب، ثم ذلك الموجود إن لم يكن حيا عالما قادرا، بل كان تأثيره بالفيض والطبع عاد الإلزام في وجوب الاستواء، وإن كان حيا عالما قادرا فهو المطلوب، إذا عرفت هذا فقد ظهر أنّ كل واحد من ذرات السماوات والأرض شاهد صادق، ومخبر ناطق، بوجود الإله القادر الحكيم العليم، وإن لله تعالى في كل جوهر فرد أنواع غير متناهية من الدلائل الدالة على القدرة والحكمة والرّحمة، وذلك لأنّ كل جوهر فرد فإنه يمكن وقوعه في أحياز غير متناهية على البدل، ويمكن أيضا اتصافه بصفات غير على البدل، وكل واحد من تلك الأحوال المقدرة فإنه بتقدير الوقوع يدل على

524 لقمان 16 . 19.

الافتقار إلى وجود الصانع الحكيم الرّحيم، والعارفون المحقّقون لحظوا فيها مباحث عميقة، وأسرارا دقيقة،525 والله سبحانه وتعالى أَحْكَمُ الحاكمِينَ وهو الحَكِيمُ له الحُكْمُ سبحانه وتعالى " والحُكْمُ والحِكْمَةُ: العَدْلُ والحِلْمُ. والخليفة الحَكِيْمُ يَرُدُّ نَفْسَه عن هَواها. والحَكِيْمُ: المتَيَقِّظُ" 526.

الحَكَمُ والحَكِيمُ والحاكِمُ من صفاته ومعاني هذه الأَسماء متقاربّة والله أعلم بما أَراد بها وعلينا الإيمانُ بأَنّها من أَسمائه والحَكَمُ والحَكِيمُ هما بمعنى الحاكِم وهو القاضي، وقيل: الحَكِيمُ ذو الحِكمة. وهي مصدر الحكمة، وبالتالي هي صفة من صفاته.

والحَكْمَةُ: عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمنْ يُحْسِنُ دقائق الصِّناعات ويُتقنها حَكِيمٌ، قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}527.

والحَكِيمُ العالِم، قال الله تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقوّة وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صبيا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرّحمن مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ ربّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا

525 تفسير الرازي، ج 1، ص 7.

526 المحيط في اللغة، ج 1، ص 175.

527 البقرة 269.

وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}[528]. كانت حكمة يحي عليه الصّلاة والسّلام هي:

1 . أعطاه الكتاب الملىء بالحكم.

2 . وهب له الحنان الذي فاض به على من له علاقة به.

3 . من الحكمة أنه كان تقيا.

4 . من الحكمة أنه كان بارا بوالديه.

5 . كان طائعا لله ولوالديه في غير معصية.

6 . لم يكن جبارا.

7 . كان مؤمنا ولم يكن عصيا.

8 . كان مرضيا عنه حتى نال سلام الله عليه ومباركته له في ثلاثة مباركات:

أ . مباركة وسلام عليه يوم ميلاده.

ب . مباركة وسلام عليه يوم موته.

ج . مباركة وسلام عليه يوم بعثه.

ومثل هذه المباركات تعددت المباركات في هذه السورة لمريم عليها الصّلاة والسّلام، وكذلك كانت المباركات تتعدد لجميع الأنبياء والرّسُل الذين اختتموا المهمة برسالة محمّد عليه الصّلاة والسّلام الذي بعث للكافة.

---

[528] مريم 12 . 25.

وفي بعثة محمّد عليه الصّلاة والسّلام للناس كافة حِكم:

1 . التأكيد على إنّ الله واحد.

2 . التأكيد على أن الدين من عند الواحد واحد.

3 . التأكيد على إنّ الرّسُل كلهم واحد ولا فرق بينهم ولا يجب التفريق، مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُولُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبّنَا وربّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[529].

وقال تعالى: {قُلْ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرّسول حقّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنّاس أَجْمَعِينَ

[529] البقرة 135 . 140.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}530.

ولأنّ الحكمة تستمد من الحكيم، فهي تؤتى لمن يشاء من حكيم عليم قال تعالى: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}531. الحديث المحمول في الآيات الكريمة السابقة محمول في مضمون موجه للخليفة ليكون على صبر ولا يخاف، ويتقي الله ربّه فيما يقول وفيما يعمل ويفعل، فما يقال من الحاسدين والمرتدين والضالين لا يؤتي ثماره في شيء وفي قصة سيدنا داوود عليه الصّلاة والسّلام مواعظ كثيرة فقد أعطاه الحكيم الحكم بأسباب صبره على ما يقولون ولذا يجب على الخليفة أن يصبر على ما يقولون فإن الله معه مادام على الحقّ اليقين. قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}532.

والحِكْمَةُ: العدل، وهو ما يجب أن يكون عليه الخليفة بالشكر والحمد لأنعم الله، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}533. ما

---

530 آل عمران 84 . 91.

531 ص، 17 . 20.

532 النحل 127، 128.

533 لقمان 12.

أجمل الحكمة أن تكون بأسباب الشكر، وما أجمل الشكر أن يقال لأهل الفضل، وما أجمل الفضل أن يكون في أهله.

وعليه الحكمة لا تستمد إلّا من حكيم عليم، يعلم بالأمر وبحاله وبما يجب أن يكون عليه قبل أن يكون، ولذا فالحكيم مصدر لكل معاني الحكمة ودلائلها التي بها يتم الاتعاظ وأخذ ما يجب أخذه وترك ما ينبغي تركه في المكان والزمان المناسبين. إنّه من يعلم الأمور وأحوالها ويخبر الكيفية التي يجب أن يتم التعامل بها ويهدي إليها.

الحكيم هو من وضع الموازين لما ينبغي أن يقال ويدرك ويؤخذ به ويفعل بكل تفهُّم، وبهذا تكون الحكمة تقنينا للكلمة والجملة كي لا تخرج عن السيطرة المنطقية التي بها تعقل الحقّائق وتدرك وتتهيأ للامتداد من عقل لعقل وهي تاركة الأثر الطيب الذي يولد المعلومة من المعلومة ويرشد للحقّ.

والحكمة التي تستمدّ من الحكيم هي تضمين لما يُفيد بما يفيد به، وذلك لأخذ العبر التي تسهم في صناعة تاريخ الخليفة بالمعلومة المركزة في المحتوى الذي يحمله التعبير المنطوق لأجل تفطين العقل من الغفلة وتنويره بما يضيء دربّ الخليفة في إصلاح الأرض وإعمارها بما ينبغي أن تعمر به.

وعندما تقال الحكمة قد يظهر الاستغراب لدى البعض وقد يحدث الاستفهام ويطرح التساؤل وكأنها تحمل المفاجأة لأوّل مرّة وبهذا يتم اقتباس الحكمة من قائلها ويهتدى بها في صناعة المستقبل.

الحكمة تستوقف العقل لتمده بما يدرك الحقّيقة دون تغليف وهي تظهر الدلالة في المعنى وتفتح الآفاق أمام امتداد الفكرة من عقل لعقل.

والحكيم المطلق جعل في كل آية من آياته الكريمة حكمة تحتوي الإعجاز فيها حتى تستوقف العقل وتلفته لما كان غافلا عنه في الوقت

الذي لم يكن يعتقد أنّ الأمر كان كذلك، ومن كل حكمة من حكم الحكيم المطلق تؤخذ حكم تغذي العقل وتطمئن النفس وتحفِّز الخليفة على الإقدام تجاه ما يحقّق له الأمل. إنّها المرشد للحقّ والنّاهي عن الظلال والموقظ من الغفلة.

والحكيم بالإضافة هو من يستمدّ حكمته من الحكيم المطلق، ويبقيها حية بالمعلومة في المنازل بين الأسر وفي المدارس والجامعات بين التلاميذ والطلبة ويبقيها آية بين الجيران أقاربٌ وأباعد، وبين من تربّطهم به علاقات دم وعرف ودين ومكان وزمان بين المشارق والمغاربّ وأثناء الحركة والسكون.

ولهذا فالأب الحكيم يكون طائعا لوالديه في غير معصية الله، ويكون راعيا لأبنائه وراشدا لهم حتى الهداية التي تمدهم بالتقوى وتعزهم بالطاعة لله تعالى، وتقوي لحمتهم على إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل. والمدرس الحكيم هو من يشد المتعلمين إلى الدرس الذي يقدمه لهم حتى يتمكنوا من الوقوف على الحقّيقة التي يود توصيلها إليهم، والطالب الحكيم هو من لا يغفل أثناء الدرس، والمربّي الحكيم هم من يوعظ بالحكمة، والمتربّي الحكيم هو من يتعظ بها.

ومن حِكم الحكيم المطلق ما هو معلوم وما هو مجهول، فالمعلوم منها هو المحمول في الآيات الكريمة في الكتاب الذي لا يدخله الباطل من خلفه ولا من بين يديه. والمجهول منها هو ما نستدل عليه استدلالا بالفعل لا بالكلمة، فنحن بنو آدم لا نعلم لماذا علم أبانا الأسماء كلها واستخلفه في الأرض ولم يعلمها للملائكة الكرام ويستخلفهم في الأرض؟ ألا يكون في ذلك حكمة لا يعلمها إلّا هو؟

ونحن ننتقل من حكمة لحكمة نستدل على أنّ خلق الإنسان من تراب حكمة، وفي هذه الحكمة إثبات لقوّة الأمر كن فكان أبونا آدم من التراب على أحسن التقويم حكمة، قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}534، وقال تعالى: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا}535.

أمّا الحكمة من خلق الإنسان في الأرحام تُبرهن على أنّ من خُلق من تراب في خلقه حكمة الاستكثار للنوع الذي به يتم الاستخلاف في الأرض، وبه تترسّخ عاطفة الأبوة والأمومة لتكون الطاعة فضيلة بين النّاس لطاعة الله وحده لا شريك له وهو الخالق من التراب وطاعة الوالدين في غير معصية الله طاعة حقّ. قال تعالى: {وَقَضَى ربّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرّحمة وَقُلْ ربّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ربّيَانِي صَغِيرًا}536، وقال تعالى: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاة وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي

---

534 آل عمران 59.

535 الكهف 37.

536 الإسراء 23، 24.

الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}537.

وعليه فالحكمة تؤخذ بأحد أربّع أو ببعضها أو بها:

1 . بالقول تعطى الحجّة فتؤخذ. قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}538، وقال تعالى: {قَالَ فَمَنْ ربّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ ربّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}539.

2 . بالفعل تترسَّخ الحكمة فتُدرك. قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ}540.

وقال تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصّلاة وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ}541.

3 . بالعمل تتجسد الحكمة فترُى. قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}542.

---

[537] لقمان 14 . 19.

[538] النساء 165، 166.

[539] طه، 49، 50.

[540] المؤمنون 1 . 4.

[541] الأنبياء 73.

[542] التوبة 105، 106.

وقال تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ ربّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرّحمة أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}543.

4 . بالسلوك تمتدّ الحكمة فتكون القدوة. قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}544.

وقال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}545.

بناء على ما تقدم فإن الحكيم لا يعاقب إلا عن حكمة، ولا يجازي إلا عن حكمة، ولا يغفر إلا عن حكمة، ولا يتوب على أحد إلا عن حكمة، ولهذا جاءت من وراء الزكاة حكمة ومن وراء الصّلاة حكمة ومن وراء الصوم حكمة ومن وراء الحج حكمة ومن وراء الجهاد حكمة. ولذا فالتسيير والتخيير حكمة. اللهم إنك تؤتي الحكمة من تشاء فأتِ لنا الحكمة فإنك من تؤتيه الحكمة فقد آتيته خيرا كثيرا، {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}546.

---

[543] الأنعام 54، 55.

[544] الزخرف 23 . 25.

[545] الجن 26 . 28.

[546] البقرة 269.

الحكمة في نيل العلم الذي يمنع عن ارتكاب الباطل، فالحكمة هي العلم بحقّائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ}547. فالمراد به حجة العقل على وفق أحكام الشريعة، وقيل: الحكمة إصابة الحقّ بالعلم والعمل، فالحكمة من الله معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام.

وقد تعني الحكمة الحِلم: وهو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وبذلك يكون في مضمون الحكمة رحمة.

وتكون بمعنى (النبوّة) والرّسالة في قوله تعالى: {ويعلمه الكتاب والحكمة}548. وقوله تعالى: {وَآتَاهُ اللَّهُ الملك وَالْحِكْمَةَ}549، وقوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ}550. فمن هذه الآيات الكريمة عرف الخليفة أن الحكمة تُعلم فيعمل على تعليمها لبنيه ويبشر بها حتى الهداية، وهي أيضا تؤتى من حكيم خبير.

والحكمة أيضا تأتي بمعنى القرآن والتوراة والإنجيل، وذلك كما في قوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا}551؛ لتضمن كل منها الحكمة المنطوق بها وهي أسرار الحقّيقة الإلهية، فالمراد به تأويل القرآن وإصابة القول فيه.

ولا يكون الوصول للحكمة إلا بأمور منها:

---

547 لقمان 31.

548 آل عمران 48.

549 البقرة، 251.

550 ص 20.

551 البقرة 269.

الأوّل: التفكر في عظمة الله تعالى، وجلاله، وجبروته، وملكوته، وآياته في سماواته وأرضه وهو أرفع أنواع التفكير وأجلها.

الثاني: التفكير بالقلب عند الأمر والنّهي، فيمتثل ما أمر به، ويترك ما نهى عنه، ويقف عما أشكل عليه وهو دأب الخلفاء في أرضه. ويجعل نصب عينيه قول الشاعر الحكيم:

عجبت من ربّي وربّي حكيم ... أن يَحرِم العاقل فضل النّعيمْ 552.

الثالث: التذكر الذي يربّط الحاضر بالماضي حتى تستمدّ العبر من قصص الأولين وتجاربّهم في الحياة.

والحكيم المطلق هو الله جلّ في علاه ولذلك لما نفت الملائكة العلم عن أنفسهم أثبتوه لله تعالى على أكمل أوصافه، قال تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}553، وأردفوه بالوصف بالحكمة لما تبين لهم ما تبين وأصل الحكمة المنع عن الاعوجاج.

فمعنى الحكيم ذو الحكمة، وقيل: المحكم لمبدعاته، وهو على الأوّل صفة ذات، وعلى الثاني صفة فعل، والمشهور أنّه إن أريد به العليم كان من صفات الذات أو الفاعل لِمَا لا اعتراض عليه كان من صفات الفعل. وقدم سبحانه الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة لمناسبة ما تقدم {فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}554 و{سبحانك لاَ عِلْمَ لَنَا} في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

552 معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ج 1، ص 52.

553 البقرة 32.

554 البقرة 31.

خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}555؛ إذن في اصطفاء آدم حكمة، وفي تعليمه الأسماء كلها حكمة، والأسماء كلها تعني: علّمه الأسرار التي هي جزء من غيبه عزّ وجلّ، فبعد أن خصَّ آدم بها أصبحت بالنسبة لآدم لم تعد في علم الغيب، أمّا بالنسبة للملائكة فهي علم غيب إلى أن أعلم آدم بها، ولهذا فالقدرة على الإبداء حكمة والقدرة على الكتمان حكمة، وعلمنا بأنّه يعلم ما كانوا يبدون وما كانوا يكتمون حكمة، وعلمنا بأنّه علام الغيوب التي لا نعلمها حكمة، وكذلك عدم علمنا بعلم الغيب حكمة.

ويأتي اسم الحكيم مقترنا مع أسمائه الأخرى من باب التناسب كما في قوله تعالى: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}556، فإنّ قوله: (وإن تغفر لهم) إذا أمعن النظر علم أنه يجب أن تكون ما عليه التلاوة لأنّه لا يغفر لمن يستحقّ العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه، فهو العزيز لأنّ العزيز في صفات الله هو الغالب من قولهم: عزه إذا غلبه، ووجب أن يوصف بالحكيم أيضا، لأنّ الحكيم من

---

[555] البقرة 30 . 33.

[556] المائدة 118 . 120.

يضع الشيء في محله، والله تعالى كذلك إلا أنّه قد يخفي وجه الحكمة في بعض أفعاله فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة، فكان في الوصف بالحكيم احتراس حسن، أي وإن تغفر لهم مع استحقّاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد في ذلك، والحكمة فيما فعلته[557]. ولأنّ الأفضال من الله تعالى نفع تدعو إليه الحكمة وهو تعالى يفضل لا محالة لأن الحكيم لا يخالف ما تدعو إليه الحكمة وهو كالإنعام في وجوب الشكر عليه، وأصله الزيادة في الإحسان والتفضل التخصص بالنفع الذي يوليه القادر عليه وله ألا يوليه، والله تعالى متفضل بكل نفع يعطيه إياه من ثواب وغيره، فإن قلت: الثواب واجب من جهة أنه جزاء على الطاعة فكيف يجوز ألا يفعله؟

فقوله: (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) في هذه الآية الكريمة حِكم منها:

إيمان عيسى عليه الصّلاة والسّلام بربّ العزّة إيمانا مطلقا جعله يظهر ما هو يبطن بأمر التسليم وهو اعتراف بأنّه لم يتدخل وذلك لعدم إمكانية التدخل فيما يريده الله أن يكون أو يحدث، وفي هذا الاعتراف الإيماني تظهر حكمة التسليم بالمشيئة.

الحكمة الأخرى ألا يتمّ التدخل في علم الغيب فهذا الأمر يستوجب التسليم فكان عيسى عليه الصّلاة والسّلام مسلم بالمطلق وذلك اعترافا بعدم الاختصاص.

الحكمة الأخرى أيضا: اتقاء عيسى عليه الصّلاة والسّلام ربّه عزّ وجلّ، بإظهار مخافته واتقائه فيما يريد أن يفعل وذلك لأنّ أمر التقدير لله تعالى وليس لعيسى عليه الصّلاة والسّلام.

---

[557] الإيضاح في علوم البلاغة، ج 1، ص 112.

جاءت في الآية السابقة كلمة (إن) وهذه احتمالية الدلالة في تقديرين:

التقدير الأول: إن عيسى عليه الصّلاة والسّلام يؤكد يقينا بأن الأمر لم يكن بيده، وتظهر يقينا عدم علمه بما يجب أن يكون.

التقدير الثاني: يظهر يقينا لا ظنا ولا شكا فيه بأن أمر العلم بيد الله وأمر القرار فيما يخص العذاب المقصود في الآية السابقة هو قرار الله، وفي هذا الاتقاء حكمة الإيمان.

والحكمة التي تستوجب من الخليفة الأخذ بها هي ألا يصدر حكما مطلقا فيما لا يعلم، فإن أصدر حكما محتملا فيما لا يقين له فيه كان على يقين، وإن أصدر حكما يقينا فيما لا يعلم يقينا كان على غير اليقين.

وفي الفروق اللغوية هناك تفريق بين لفظة الحكيم والعالم: فمعنى الحكيم يأتي على ثلاثة أوجه:

أحدهما: بمعنى المحكم مثل البديع بمعنى المبدع والسميع بمعنى المسمع.

والثاني: بمعنى محكم وفي القرآن الكريم: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}558 أي محكم، وإذا وصف الله تعالى بالحكمة من هذا الوجه كان ذلك من صفات فعله.

والثالث: الحكيم بمعنى العالم بأحكام الأمور فالصفة به أخص من الصفة بعالم، وإذا وصف الله به على هذا الوجه فهو من صفات ذاته559.

---

[558] الدخان 4.

وعلى الإنسان أن يحمل هذه الصفة ولا يستطيع حملها إلّا من كان أهلا للخلافة، ولما كانت الحكمة مشتملة على الخير والبركة فلا يعطي الله الحكمة إلّا لخلفائه فعليه أن يبنى أحكامه وأفعاله على أصول العدل ذاهبا على أنّ الصّانع حكيم تعالى جل في علاه لا يكون في أفعاله عبث بل يقدس وكل فعله حكمة وصواب مفعول لغرض صحيح، لأنّ الله ما خلق الإنسان إلا لغرض الطاعة في توحيده والإيمان بما أمر ونهى والإصلاح والفلاح والإحسان في الأرض، وحين ركب فيه الشهوة الحاملة على فعل ما يجب تركه والنفرة الحاملة على ترك ما يجب فعله وأودع عقله المضادة لحكميهما حتى تنازعته أيدي الدواعي والصوارف فوقفت به حيث الحيرة لا متقدم له عنه ولا متأخر تحمله الحيرة على ما لا يورثه إلا العناء إذا اتبع العقل وقع من النفس المشتهية النافرة في عناء، وإذا اتبع النفس وقع من العقل الناهي الآمر في عناء لا مخلص هناك ممّا أوقعه في ورطة تلك الحيرة سفها ولا عبثا {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا}[560]؛ وإنما فعل ذلك لغرض الإحسان وهو التكليف ليتمكن من اكتساب ما لا يحسن فعله في حقّه ابتداء من التعظيم العظيم مع الدوام في ضمن التمتيع من أنواع المشتهيات بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال أحد من نعم لا يشوبها منغص ما، فيكتسبه إن شاء لا بالقسر، ولذلك وضع زمام الاختيار في يده ممكنا إياه من فعل الطاعة والمعصية مريدا منه أن يختار ما يثمر له تلك السعادة الأبدية مزيحا في ذلك جميع علله. وهو العالم بالذات الذي لا يخفى عليه خافية يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون قائلا خلق الله الخلق لعبدوه ولعلهم يتقون، وعليه قول ربّ العزة علام الغيوب: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

[559] الفروق اللغوية، ج 1، ص 195.

[560] الإسراء 43.

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}561. إذا رأيت عاقلا قد أحسن إلى إنسان ثم آذاه ذلك أنّه قد أحسن إليه ليؤذيه ومن ذلك قوله علت كلمته {فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}562.

والله تعالى قادر بحكمته أن يغير سلوك الإنسان من سلوك مشين إلى طريق حسن قويم ولنأخذ من المجتمع العربّي مثلا فقد كَانَتْ العربّ قبل الإسلام فِي جاهليتها عَلَى إرثٍ من إرث آبائهم فِي لُغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقَرابينهم، فلما جاءَ الله جلّ ثناؤه بالإسلام حالت أحوالٌ، ونُسِخَت دِيانات، وأبطلت أمورٌ، ونُقِلت من اللغة ألفاظ من مواضعَ إِلَى مواضع أخَر بزيادات زيدت، وشرائع شُرِعت، وشرائط شُرطت. فَعفَّى الآخرُ الأوّلَ، وشُغِل القوم بعد المغاورات والتّجارات وتَطَلُّب الأربّاح والكدْح للمعاش فِي رحلة الشتاء والصَّيف، وبعد الأغرام بالصَّيْد والمعاقرة والمياسرة بتلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بَيْنَ يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، وبالتَّفقُّه فِي دين الله عزّ وجلّ، وحفظ سنن رسول الله صلى الله تعالى عَلَيْهِ وسلّم، مع اجتهادهم فِي مجاهدة أعداء الإسلام. فصار الَّذِي نشأ عَلَيْهِ آباؤهم ونشأوا عَلَيْهِ كَأَن لَمْ يكن وحتى تكلَّموا فِي دقائق الفقه وغوامض أبواب المواريث وغيرها من علم الشريعة وتأويل الوحي بما دُوّن وحُفِظ حَتَّى الآن. فصاروا – بعدما ذكرناه – إِلَى أن يُسأل خليفة من خلفائه وإمامٌ من الأئمة وهو يخطب عَلَى منبره عن فريضة فَيُفْتي ويَحْسُبُ وعلى سرعة وبداهة حاضرة. مثلما حدث مع عليّ رضي الله عنه حين سُئل عن ابنتين وأبوين وامرأة: "صار ثُمْنُها تُسعا" فسميت: المنبريَّة563. وغيرها ممّا هو أغْمَضُ وأدقُّ. فسبحان من نقل

561 البقرة 21.

562 القصص 8. مفتاح العلوم، ج 1، ص 168.

563 الصاحبي في فقه اللغة، ج 1، ص 14.

أولئك فِي الزمن القريب بتوقيفه، عمّا ألفوه ونشأوا عَلَيْهِ وغذوا بِهِ، إلى مثل هَذَا الَّذِي ذكرناه. وكلّ ذَلِكَ دليل عَلَى حقّ الإيمان وصحة نُبوة نبيّنا محمّد صلى الله تعالى عليه وسلم وعمله بشروط الخلافة بصدق النية وجدية العمل. وأنَّ العربّ إنَّما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان هو التصديق. ثُمَّ زادت الشريعة شرائطَ وأوصافا بِهَا سُمِيَ المؤمن بالإطلاق مؤمنا وفِي هذه حِكم تستوجب الوقوف عندها والأخذ بها. وكذلك الإسلام والمسلم، إنّما عَرَفت منه إسلامَ الشيء ثُمَّ جاء فِي الشَّرع من أوصافه مَا جاء وفي هذه حكم. وكذلك كَانَتْ لا تعرف من الكُفر إلاَّ الغِطاء والسِّتْر. فأما المنافق فاسمٌ جاء بِهِ الإسلام لقوم أَبْطنوا غير مَا أظهروه، وَكَانَ الأصل من نافقاء اليَربّوع. وَلَمْ يعرفوا فِي الفِسْق إلاَّ قولهم: "فَسَقَتِ الرُّطبة" إذَا خرجت من قِشرها، وجاء الشرع بأن الفِسق الفحاش فِي الخروج عن طاعة الله جلّ ثناؤه. وممّا جاء فِي الشرع الصّلاة وأصله فِي لغتهم: الدُّعاء. وَقَدْ كانوا عَرفوا الركوعَ والسجودَ، وإن لَمْ يكن عَلَى هَذِهِ الهيئة، وهذا وإن كَانَ فإن العربّ لَمْ تعرِفه بمثل مَا أتَت بِهِ الشريعة من الأعداد والمواقيت والتَّحريم للصلاة، والتَّحليل منها. وكذلك الصيام أصله عندهم الإمساكُ، ثم زادت الشريعة النِّية، وحَظَرَت الأكلَ والمباشَرَة وغير ذَلِكَ من شرائع الصوم. وكذلك الحَجُّ، لَمْ يكن عندهم فِيهِ غير القصد، وسَبْر الجِراح. ثم زادت الشريعة مَا زادته من شرائط الحج وشعائره. وكذلك الزّكاة، لَمْ تكن العربّ تعرفها إلاَّ من ناحية النَّماءِ، وزاد الشرع مَا زاده فِيهَا. وَعَلَى هَذَا سائر مَا تركنا ذِكرَه من العُمْرة والجهاد وسائر أبواب الفِقه[564].

ولما كان قادرا على تغيير سلوك الإنسان فإنّ قدرته على توجيه سلوك الجمادات والحيوانات من باب أولى لأنّه أسهل وأخف إذ العناد من طبيعة البشر فقد جعلها تسبح بحمده دونما نعلم بذلك، قال الله تعالى:

[564] الصاحبي في فقه اللغة، ج 1، ص 15.

{تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}565 الحِكم التي لا نعلمها في هذه الآية الكريمة بالرغم من إعلامنا بأنها تسبح هي حكم تفوق تقديراتنا العقلية وذلك بأسباب معرفتنا التامة بأن الجماد ساكن لا يأكل ولا يشربّ ولا يسرق ولا يكذب كما يسرق البعض من الذين يتحركون ويجوعون ويأكلون من بني آدم الذين أصطفى الله الرّسُل منهم وجعلهم خلائف الأرض وجعلهم الوارثين، كل ما خلق اللهُ يسبِّحُ بحمده، وإنَّ صَريرَ السَّقْف وصرير الباب من التسبيح، أقول إنه من الحكمة أن نسلم طائعين لله فيما قال ونحن واثقون بأنها تسبح مع أننا لا نفقه ولا نسمع ولا نشاهد ما يدل على ذلك وهذا لا يعني أنها لا تسبح ولكنه يعني الإيمان التام بقوله تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}566 وقال تعالى: {آمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ربّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ربّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ربّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}567.

565 الإسراء 44.

566 النور 51 . 53.

567 البقرة 285، 286.

(ولكن لا تفقهون تسبيحهم)، هذه حكمة من حكيم خبير بحالنا وما نحن عليه فجاء التقدير التام لما نحن عليه من عدم مقدرة على معرفة الكيفية التي بها تسبح الجبال والأنهار والبرق والرّعد والطير والنبات وكل شيء مخلوق هو يسبح بحمد ربّه تعالى ونحن لا نفقه التسبيح، والتفقه هو بلوغ الأسرار التي عليها حالة المسبح بحمده من غير المستخلفين فيها.

وقوله تعالى: (وإنْ مِنْ شيء إلا يسبِّحُ بحمده)، أي ما من شيء إلا وفيه دليل أن الله عز جلّ خالقه، وأنَّ خالِقه حكيمٌ مُبَرّأٌ من الأسواء، ولكنكم لا تفقهون تسبيحه وذلك لعدم كمالكم وهذه حقّيقة ندركها ونؤمن بها بأنه لا كمال إلا لله تعالى، وغيره منقوص حتى وإن خلق في أحسن تقويم وهذه حكمة والحمد لله ربّ العالمين.

وعليه أتساءل:

هل يمكن لمخلوق أن يسبح بحمد خالقه لو لم يكن يدركه؟

وبما أن التسبيح دليل اعتراف وطاعة ألا يكون المتعرف والطائع في غاية الإيمان؟

وإذا كان في غاية الإيمان ألا يكون للمؤمن أن يسبّح ويجلّ ويعزّ من آمن به؟

وبما أنّنا لا نفقه تسبيح غيرنا من المخلوقات ألا يكون هذا دليل إثبات أنّ غيرنا لا يفقه تسبيحنا؟

وإذا كان الأمر كذلك إذن بطبيعة الحال نحن بدون أي استغراب لن نفقه تسبيح من لا يفقه تسبيحنا. ولنا من باب الحكمة أن نقول اعترافا وإثباتا علميا: إن الأرض تتحرك بسرعة معلومة ونحن لا يمكن لنا الإحساس بحركتها ولو لم يثبت العلم ذلك يقينا لكانت الحالة في تشابه مع

عدم معرفتنا بتسبيح ما لا نفقه تسبيحه. ولأنّه خلقنا في أحسن تقوم فنحن المعنيون بالحكمة التي بها ندرك بمقارنة عقلية ما جاء إعجازا في القرآن الكريم، ولذا فنحن بأمهات عقولنا ندرك حقّيقة أنها تسبح وندرك حقّيقة أننا لا نفقه تسبيحها.

فالله تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحقّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الحقّ وَلَهُ الملك يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}568، فهو عالم ما تعاينون أيها النّاس، فتشاهدونه، وما يغيب عن حواسكم وأبصاركم فلا تحسونه ولا تبصرونه (وهو الحكيم)، في تدبيره وتصريفه خلقه من حال الوجود إلى العدم، ثم من حال العدم والفناء إلى الوجود، ثمّ في مجازاتهم بما يجازيهم به من ثواب أو عقاب. قال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}569.

ولأنّه تعالى لم يخلق أكرم من الإنسان على وجه الأرض وجعله خليفة ليس للفساد ويعاقب كل من يفسد فيها وأنّ هذا العقاب ليس عبثا وفي ذات الوقت ليس محتاجا إلى عقابنا أو ثوابنا إلا لأنّه كرمنا بأن فضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا وقد خلق الخليفة في أحسن تقويم حتى إنّ الملائكة تساءلت: هل هناك من هو أكرم منها؟ وظنت أنها تعلم كل ما يدور حولها، وأنّه مهما خلق فلن يخلق من هو أكرم أو أعلم منها، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}570، وكانت الدهشة والتسليم الفوري بأن

568 الأنعام 73.

569 البقرة 28.

570 البقرة 30.

قالت: {لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم}571، فرد الله تعالى عليهم: {يا آدم أنبئهم بأسمَائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقلْ لكم إني أعلمُ غيبَ السماوات والأرض وأعلم ما تُبدُون وما كنتم تكتمون}.

(ألم أقل لكم إنّي أعلم غَيبَ السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون)، قال: أمّا ما أبدَوْا فقولهم:(أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء)، وأمَّا ما كتموا فقول بعضهم لبعض: (نحن خير منه وأعلم). وفي قوله:(إني جاعل في الأرض خليفةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)، من هذه الآية نعلم أن من لا يعلم بالشيء بالرغم من وجوده يظن أنه غير موجود أو أنه موجود وليس على الحالة التي تقال عنه وهذا أمر جهل بالحقّيقة التي عليها حالة الشيء، وخير مثال ما كان يجهله الملائكة عن خلق الإنسان وتفضيل الحكيم له على كل ما خلق، وبعد أن علم الملائكة الصديقون سجدوا اعترافا بالحقّيقة بعد معرفتها وطاعة لله وأمره لهم بالسجود.

وبهذا ظهر لهم علوه المطلق بغلبته وقهره وعلمه وحكمته فهو الغالب عباده، قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآَنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آَلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}572. أي الله الغالب عبادَه بما لا يستطيعوا بلوغه ومعرفته، وفي هذه المغالبة حكمة تظهر القدرة الكمالية لدى الخالق وتظهر القصور لدى المخلوق، فهو فوقهم بقهره

571 البقرة 31.

572 الأنعام 18، 19.

إياهم، وهم دونه وهو الحكيم في علِّوه على عباده، ومن لا يرى في ذلك حكمة فليظهر غير ذلك لتكون له حكمة، ولأنّ هذا الأمر خارج دائرة الممكن بالنسبة للمخلوق فإنّ أمر بلوغه غير ممكن، والله تعالى خبير بحالهم وبكلّ حال فكان القاهر فوقهم بحكمته وخبرته وعلمه وخلقه ووحدانيته، إنّه مالك الملك والأمر بما فيه من قوّة وهيمنة وعزة ورحمة ومغفرة وتوبة سبحانه لا إله إلا هو.

فقد خلق الإنسان وصوره في الرحم كيفما شاء دون تدخل من أحد في ربّوبيته فهو الذي يدبر خلقه بعدله كيف يشاء دونما شريك أو نديد، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}573، فهو يخلقكم كما يشاء في الأرحام من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد (لا إِلَهَ إلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أي: هو الذي خلق، وهو المستحقّ للألوهية وحده لا شريك له، وله العزّة التي لا ترام، والحكمة والأحكام. وهذه الآية فيها تصريح بأنّ عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله تعالى صوره في الرحم وخلقه، كما يشاء، فكيف يكون إلها كما زعمته النصارى وقد تقلب في الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال، كما قال تعالى: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الملك لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}574 في هذا القول تنزيه من الله تعالى ذكره لنفسَه أن يكون له في ربّوبيته ندّ أو مِثل، أو أن تَجوز الألوهة لغيره، ولجميع من ادّعى مع الله معبودًا، أو أقرّ بربّوبية غيره. ثم أخبر جل ثناؤه خلقه بصفته، وعيدًا منه لمن عبد غيره، أو أشرك في عبادته أحدًا سواه، فهو العزيز الذي لا ينصر من أرادَ الانتقام منه أحدٌ، ولا ينجيه منه وَأْلٌ ولا

573 آل عمران 6.

574 الزمر 6.

ملَجَأٌ، وذلك لعزّته التي يذلُّ لها كل مخلوق، ويخضع لها كل موجود والحكيم في تدبيره وإعذاره إلى خلقه، ومتابعة حججه عليهم، ليهلك من هلك منهم عن بيّنة، ويحيا من حيَّ عن بينة.

قال تعالى: {لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النّار وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}575. الحكمة في هذه الآيات الكريمة أن يكون المثل السوء للذين لا يؤمنون بالآخرة وهذه حكمة بينة ظاهرة، وفي مقابل ذلك كان المثل الأعلى للحكيم الأعلى عزّ وجلّ، ولولا حمد الله وحكمته وفضله لكان العقاب واقعا في وقت وقوع الذنب أو الجريمة أو الكفر أو الضلال، ولكن لحكمة وفضل من الله أجَّل ذلك إلى أجلا مسمى، أي معلوم وهو يوم الآخرة، ليعطي الفرصة لمن خلق في أحسن تقويم لعله يستغفر ويتوب لله وحده فيجده غفورا رحيما وما ربّك بظلام للعبيد قال تعالى: {وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آَذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ}576.

---

[575] النحل 60 . 64.

[576] فصلت 45 . 47.

فالله ذو العزّة التي لا يمتنع عليه معها عقوبة هؤلاء المشركين، ولا عقوبة من أراد عقوبته على معصيته إياه، ولا يتعذّر عليه شيء أراده وشاءه؛ لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، الحكيم في تدبيره، فلا يدخل تدبيره خَلَل في تصريفهم فيما أراد من إحياء وإماتة، وبعث ونشر، وما شاء. {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النّاس مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[577]، وهو العزيز الذي لا يمتنع ممّا أراده من ضلال أو هداية من أرادَ ذلك به والحكيم في توفيقه للإيمان من وفَّقه له، وهدايته له من هداه إليه، وفي إضلاله من أضلّ عنه، وفي غير ذلك من تدبيره بحكمته، فالحمد لله على ما أولى من منحه، وأفاض من نعمه، فلولا هدايته ما وصل أحد إلى هدى أو رشاد، فلما أراد بحكمته أن يهدي خلفاءه إلى الصراط المستقيم أنزل عليهم القرآن الذي جاء فيه: {الم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلاة وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}[578]، أي هذه آيات الكتاب بيانا ورحمة من الله، رحم به من اتبعه، وعمل به من خلقه، وهم الذين أحسنوا في العمل بما أنزل الله في هذا القرآن، فهذا الكتاب الحكيم هدى ورحمة للذين أحسنوا، فعملوا بما فيه من أمر الله ونهيه فالذين يقيمون الصّلاة المفروضة بحدودها وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ من جعلها الله له المفروضة في أموالهم وَهُمْ يفعلون ذلك وهم بجزاء الله

[577] إبراهيم 1 . 5.

[578] لقمان، 1 . 4.

وثوابه لمن فعل ذلك في الآخرة يوقنون. {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}579 هؤلاء الخلفاء هم المهتدون بالطاعة والعمل الصالح في الأرض يقولون حقّا ويفعلون الخيرات ويكثرون ذلك رحمة من الرّحمن الرّحيم. ولذلك فقد وعد الله تعالى خلفاءه وعد الصدق مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حقّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}580، أي إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بالله فوحدوه، وصدّقوا رسوله واتبعوه وَعمِلُوا الصَّالحَاتِ، فأطاعوا الله، فعملوا بما أمرهم في كتابه وعلى لسان رسوله، وانتهوا عما نهاهم عنه لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيم هؤلاء الخلفاء لهم جنات النعيم خالدين فِيها ماكثين وهذا ما وعد الرّحمن ووعد الرّحمن حقّ والحمد لله ربّ العالمين.

قال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}581، فبحكمته تعالى أنّه خَلَقَ السماوات السبع بغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، وكلمة بغير عمد تدل على أنه بالقطع لا توجد عمد ترفع السّماء عن الأرض، وكلمة (ترونها) عندما تتصل تصبح الآية ذات ثلاثة دلائل في دائرة الممكن المتوقّع:

المدلول الأوّل: أنها ذات أعمدة ولكنكم لا ترونها وهذا متوقّع.

والمدلول الثاني: أنها بدون أعمدة ولو كانت ذات أعمدة لرأيتموها وهذا متوقع.

---

579 البقرة 5.

580 لقمان 9.

581 لقمان 10.

المدلول الثالث: إنّ المقصود من كلّ ذلك إدراك الحكمة في خلق السماوات والأرض وكيفية خلقها سواء كانت بأعمدة أو بدونها وفي دائرة المتوقّع قد يكون هذا المقصود وهذه حكمة بذاتها لا يعلم سرها إلا هو عزّ وجلّ.

وكل ذلك يحتاج إلى تدبر ونظر والذي يكون نتاجه الحكمة التي يمنحها لمن يشاء من عباده وخلفائه وقد جاء في الكتاب العزيز كيف منح الله لقمان الحكمة بعدما كان نجارا وذلك عندما أخلص العبادة لله وحده فوصل إلى معرفة ما أراد الله له من المعارف التي تستدعي الحكمة والنظر ليكون خليفة في أرضه، فقال الله تعالى في كتابه العزيز: {وَلَقَدْ آَتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[582] لننظر في هذه الآية لنرى كيف يوزع حكمته على عباده، فقد كان لقمان رجلا صالحا، ولم يكن نبيا، قيل: كان لقمان الحكيم عبدا حبشيا، غليظ الشفتين، مصفح القدمين، قاضيا على بني إسرائيل. وقيل كان لقمان الحكيم أسود من سودان مصر. وقيل: كان لقمان عبدا أسود حبشيا نجارا فأتاه رجل، وهو في مجلس أناس يحدّثهم، فقال له: "ألست الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، والصمت عما لا يعنيني"[583]. وبهذا وصل لقمان عليه السّلام إلى ما وصل من الحكمة وهذا الذي يجب أن يكون عليه الخليفة في الأرض وإلا فهو في خسران مبين، وعلى الخليفة أن يحمد الله على هذه النّعم التي لا تحصى لأنها من موجبات الرضى الإلهي والفوز بالخلافة في الدنيا والتي يكون نتاجها الجنّة بإذنه فإن {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ

[582] لقمان 12.

[583] تفسير الطبري، ج 20، ص 135.

الْخَبِيرُ}584، فالشكر الكامل والحمد التام كله للمعبود الذي هو مالك جميع ما في السماوات السبع وما في الأرضين السبع دون كل ما يعبدونه، ودون كل شيء سواه لا مالك لشيء من ذلك غيره، وله الشكر الكامل في الآخرة كالذي هو له ذلك في الدنيا العاجلة؛ لأن منه النعم كلها على كل من في السماوات والأرض في الدنيا، ومنه يكون ذلك في الآخرة، لأن النعم كلها من قبله لا يشركه فيها أحد من دونه وهو الحكيم في تدبيره خلقه وصرفه إياهم في تقديره، خبير بهم وبما يصلحهم، وبما عملوا وما هم عاملون، محيط بجميع ذلك.

وعلى الخليفة الحكيم أن يكون متبصرا بما يدور حوله فيصلح ما استطاع من ذلك وليبسط حكمته على مستخلفيه بما يقدمه لهم من النصائح الرّبانية والتي لابد وأن تنتج مجتمعا حكيما متبصرا عارفا بأمور الدنيا والدين، والحكيم أن يدرس التوقعات المستقبلية والتي يستطيع بها أن يتوقى الأعداء من الطبيعة والبشر؛ لأن الحكيم بالإضافة يتلقى حكمته من الحكيم المطلق الذي يعلم مسبقا ما كان وما سيكون وهذه من خصائص الحكيم لأنه لو لم يكن عليما ما كان حكيما ولذلك على الحكيم المستخلف في الأرض أن يعمل ويصلح وأن يكثر من الدعاء ليوفقه الحكيم المطلق في أعماله ودراساته الحالية والمستقبلية وأن يلهمه النظرة الصائبة لتحقّيق ذلك وكل خير في مرضات الله تعالى.

وليعلِّم الخليفة المستخلفين في الأرض موجبات الحمد وأن يعلمهم أنّ الخير بيده تعالى ولا أحد يمنعهم من ذلك إذا أراد لهم ذلك لأنّه هو العزيز القادر وهو الحكيم في كل أمر؛ قال تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

584 سبأ 1.

الْحَكِيمُ}585. ولنكون خلفاء على حقّيقة بينة وصدق في العقيدة والمنهج كما كان يفعل لقمان عليه السّلام فإنه تعالى مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ وخير فَلا مُمْسِكَ لَهَا ولا يستطيع أحد حبسها وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ لهذه الرّحمة من بعده وَهُوَ العزيز في نِقمته ممن انتقم منه من خلقه بحبس رحمته عنه وخيراته، الحكيم في تدبير خلقه وفتحه لهم الرّحمة إذا كان فتح ذلك صلاحًا، وإمساكه إياه عنهم إذا كان إمساكه حكمة586. وذلك عليه هين لأنه تعالى الواحد الأحد في سماواته وأرضه ويدير كل ذلك بحكم وعلم ومعرفة ودراية فقد قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}587؛ لأنّه يُعبد في السماء، ويُعبد في الأرض. وهو العليم بمصالحهم. ولذلك وجب على الخليفة القول للمتكبرين لعلهم يرجعون عما هم فيه من الغواية والضلال: {ربّ السَّمَاوَاتِ وَربّ الأَرْضِ ربّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}588. فَلِلَّهِ الْحَمْدُ على نِعمه وأياديه عند خلقه، فإياه فاحمدوا أيها النّاس الذين استخلفكم في أرضه، فإن كلّ ما بكم من نعمة فمنه دون ما تعبدون من دونه من آلهة ووثن، ودون ما تتخذونه من دونه ربّا، وتشركون به معه ربّ السَّمَاوَاتِ وَربّ الأَرْضِ يقول: مالك السماوات السبع، ومالك الأرضين السبع ومالك جميع ما فيهنّ من أصناف الخلق، وبذلك يكون له الكبرياء في السماوات والأرض الْحَكِيمُ في تدبيره لخلقه وتصريفه إياهم فيما شاء كيف شاء وله العظمة والسلطان في السماوات والأرض دون ما سواه من الآلهة والأنداد وَهُوَ

585 فاطر 2.

586 تفسير الطبري، ج 20، ص 437.

587 الزخرف 84.

588 الجاثية 36،37.

الْعَزِيزُ القاهر كل ما دونه، ولا يقهره شيء589. فإقرار منا بحكمته وعلمه زيادة على القدرة والجبروت يجب أن نسبح له لعزته وجبروته ولعلوه وحكمته وقدرته الذي سبح له جميع من في السماوات والأرض فقد قال تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}590. يعني تعالى ذكره بقوله: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ) أن كلّ ما دونه من خلقه يسبحه تعظيما له، وإقرارا بربّوبيته، وإذعانا لطاعته، كما قال جلّ ثناؤه: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}. وقوله: (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أي: عزيز في انتقامه ممن عصاه، فخالف أمره ممّا في السماوات والأرض من خلقه والحَكِيمُ في تدبيره أمرهم، وتصريفه إياهم فيما أحبّ. {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ}591. لأنه يتولاكم بنصره أيها المؤمنون وَهُوَ الْعَلِيمُ بمصالحكم الْحَكِيمُ في تدبيره إياكم، وصرفكم فيما هو أعلم به. وبذلك كان دعا خلفائه لمستخلفيهم {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ

589 تفسير الطبري، ج 22، ص 88.

590 الحديد، 1 . 3.

591 التحريم 1 . 3.

فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}592. (وَيُزَكِّيهِمْ) تعني يظهرهم على العالمين ويباركهم ويطهرهم من الضلال والكفر والشرك، فيكونوا طائعين بالعمل والعبادة. وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ تعني شيئين:

الشيء الأوّل: يعلمهم ما جاء في القرآن الكريم: ليكون الدين بينهم معاملة حسنة، وتعليم الكتاب لأجل إظهار الآيات العظام التي جاء بها الرّسول وحيا من الملك المتعال مبشرا ونذيرا وداعيا للخير ومحرضا عليه وسراجا منير.

الشيء الثاني: يعلمهم الحكمة: تعني يعلمهم أساليب المعاملة الرفيعة في الأخذ بالأوامر والنواهي التي جاءت في الكتاب الحكيم وإتباع الرّسول الحكيم في أقواله وأعماله وهديه للتي هي أحسن مصداقا لقوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ ربّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ربّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}593، وقال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ

---

592 البقرة 129 . 34.

593 النحل 125 . 128.

حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}594.

وهذه التزكية وهذا التعليم للكتاب والحكمة يأتي ليوضح لهم الحلال والحرام على يدي مستخلفيه في أرضه كما في قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا}، وقوله تعالى: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا} يحتمل أن يكون من تمام الكلام ردًا عليهم، أي: قالوا ما قالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكما، وهو الحكيم العليم السميع لما يدور من حوار ونقاش وجدال الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقّائق الأمور ومصالحها، وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم فينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة برضيعها؛ ولهذا قال: {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ ربِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ}595 أي من بلغه نهي الله عن الرّبا فانتهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة، لقوله: {عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ}596 ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية، بل عفا عمّا سلف لحكمة يراها ويعلمها الحكيم .

وعليه فإنّ الحكمة تأتي على نوعين:

1- حكمة موهوبة من الله.

2- حكمة تعليمية والتي تكون نتاج المحكّات والتجاربّ، كمعرفة العدو من الصديق من الحيوان والإنسان، ومعرفة ما يجب والإقدام عليه ومعرفة ما لا يجب الإقدام عليه فيحجم عنه.

---

[594] فصلت 33 . 36.

[595] البقرة 275.

[596] المائدة 95.

وأساليب الحكماء على نوعين:

1- حكمة يعطى جوابها مباشرة.

2- وحكمة غير مباشرة وخاصة في الردود فيوضح الحكيم الإجابة عن الأسئلة بما يعرف في علم البلاغة بأسلوب الحكيم فيعطي الحكمة من وجود الشيء أو علته وسببه، دون الحاجة إلى الدخول في تفاصيل عن الشيء ليعلم خلفاءه كيف يكون الرد، وكذلك إظهار الإعجاز القرآني بما يتناسب وعقول من أرسل إليهم وخاصة العربّ وما تميزوا به من الفصاحة والبلاغة وليكون معجزا لهم، ومثال ذلك ما جاء في قوله تعالى: {يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأهلة}، فالأهلة جمع هلال، وسمي به القمر في ليلتين من أول الشهر، أو في ثلاث، والسؤال يحتمل:

1- أن يكون عن الغاية والحكمة.

2- أو أن يكون عن السّبب والعلّة.

فعلى الأوّل: يكون الجواب بقوله تعالى: {قُلْ هي مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج} مطابقا مبينا للحكمة الظاهرة اللائقة بشأن التبليغ العام المذكرة لنعمة الله تعالى ومزيد رأفته سبحانه وهي أن يكون معالم للناس يوقتون بها أمورهم الدنيوية ويعلمون أوقات زروعهم ومتاجرهم ومعالم للعبادات الموقتة يعرف بها أوقاتها كالصّلاة والصيام والإفطار والزكاة والحج، فإنّ الوقت مراعى فيه أداءا وقضاءا ولو كان الهلال مدورا كالشمس أو ملازما حالة واحدة لم يكد يتيسر التوقيت به، ولم يذكر الحكمة الباطنة لذلك مثل كون اختلاف تشكلاته سببا عاديا أو جعليا، لأنّه ممّا لم يطلع عليه كل أحد.

وعلى الثاني: يكون من الأسلوب الحكيم، ويسمى القول بالموجب وهو تلقي السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله فيكون في هذا الجواب إشارة إلى أن الأولى على

تقدير وقوع السؤال أن يسألوا عن الحكمة لا عن السبب لأنه لا يتعلق به صلاح معاشهم ومعادهم، والنبي إنما بعث لبيان ذلك للناس كافة فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فما ربّك بظلام للعبيد.

ومن المعلوم أنّ الحكمة لا تقتضي أن يؤمر بالفعل من لا يقدر على الامتثال وممّا يقتضي أن أفعال الله تعالى وأحكامه لا بدّ فيها من حكمة ومصلحة وهو مسلم لكن لا نسلم أنه لا بدّ أن تظهر هذه المصلحة لنا إذ الحكيم لا يلزمه اطلاع من دونه على وجه الحقّيقة وحينئذٍ فما المانع من أن يقال هناك مصلحة لم نطلع عليها، ويجاب بأنا لم ندع سوى أن الله تعالى قد راعى الحكمة فيما أمر وخلق تفضلا ورحمة لا وجوبا وهذا ثابت بقوله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}597، الجبال التي لا نفقه تسبيحها لا نرى حركتها مع أنها في حالة حركة، ولهذا لا يعني أن ما لا نراه على كيفية نعرفها هو ليس على الكيفية التي قيلت لنا من عالم السر والعلل والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، ولكن الخليفة الذي يؤمن بالمطلق بالحكيم المطلق يسلم بذلك إيمانا تاما لا شك فيه وهو بذلك سميع عليم بما جاء في الكتاب الحكيم وهو أمر مطاع من خالق عظيم.

وقوله سبحانه: {ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرّحيم الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي

[597] النمل 86 . 88.

خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}598. ولأنّ الله أحسن كل شيء خلقه، فإنّ من حُسن الخالق أن يكون الرّقي في كل ما خلق حتى وإن تفاوتت الفروق بين المخلوقات العظيمة، التي في جميع خلقها إعجاز وتخصيص من حكيم خبير.

والحكمة قد تظهر في حينها وقد لا تظهر ومن أمثله ذلك:

1 - قوله تعالى: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}599. وزمام ذلك بيد الحكيم العليم فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والعزيز هو الغالب الذي لا يغالب فيما قضى به، وقيل: القادر على انتقامه من الكفار بأيدي المؤمنين وفي إجراء هذا الوصف هنا عليه تعالى إيذان بعلة اختصاص النصر به سبحانه.

الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها ويفعل على ما تقتضيه الحكمة في سائر أفعاله ومن ذلك نصره للمؤمنين بواسطة إنزال الملائكة، وفي الآتيان بهذا الوصف رد على من أنكر ما نطقت به الظواهر فسبحانه من عليم حكيم وعزيز حليم لا يعجزه الظهور بما شاء وكيف شاء، والحكيم الذي ستر نصره بصور الملائكة لحكمة وهو أن يَقْطَعَ ويهلك طَرَفا مّنَ الذين كَفَرُواْ وهم أعداء الله تعالى، أَوْ يَكْبِتَهُمْ ويخزيهم ويذلهم فَيَنقَلِبُواْ خَائِبِينَ، فيرجعوا غير ظافرين بما أملوا600.

قال تعالى: {وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم}601، أي فإن تغفر لهم فإنّك مالك العزّة وأنت لم تكن في حاجة لهم، ولذا فإن

---

598 السجدة 6 . 11.

599 آل عمران 126.

600 تفسير الألوسي، ج 3، ص 210.

601 المائدة 118.

غفرانك لهم حكمة أنت تعلمها ظاهرة وباطنه ونحن لا نعلمها إلا ظاهرة سبحانك إنّك العزيز الحكيم الذي يتكبر عن النقيصة والولد والحاجة والصاحبة إنك القوي الذي لم يكن في حاجة لمساندة سبحانك فأنت المساند لكل خلقك على مغالبة الصعاب. فلو علموا بذلك أو عرفوا لعرفوا لا غالب إلا أنت ولا قاهر إلّا أنت ولا سميع ومجيب إلّا أنت ولا قادر على كل أمر إلا أنت.

2 - في قوله تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}[602]. فربّما يخطر للإنسان أن القسمة لو وقعت على غير هذا الوجه كانت أنفع وأصلح كما تعارفه أهل الجاهلية حيث كانوا يورثون الرجال الأقوياء ولا يورثون الصبيان والنسوان الضعفاء فأنكر الله تعالى عليهم ما عسى أن يخطر ببالهم من هذا القبيل، وأشار إلى قصور أذهانهم فكأنه قال: إن عقولكم لا تحيط بمصالحكم فلا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم فاتركوا تقدير المواريث بالمقادير التي تستحسنونها بعقولكم ولا تعمدوا إلى تفضيل بعض وحرمانه، وكونوا مطيعين لأمر الله تعالى في هذه التقديرات التي قدرها سبحانه فإنه العالم بمغيبات الأمور وعواقبها، ووجه الحكمة فيما قدره ودبره وهو العليم الحكيم، والنفع على هذا أعم من الدنيوي والأخروي وانتفاع بعضهم

[602] النساء 11.

ببعض في الدنيا يكون بالإنفاق عليه والتربّية له والذب عنه مثلا، وانتفاعهم في الآخرة يكون بالشفاعة.

ويوصيكم الله تستوجب الأخذ بما أوصى به عدلا بين الأخوة والوارثين ممّا لهم نصيب فيه، وفي هذا الأمر إكرام لبني آدم من ذكر وأنثى لا فرق بينهم في الحقّوق والواجبات وحمْل المسؤوليات كلهم لآدم وآدم من تراب.

فَهُوَ ذو الحكمة البالغة والعليم بالأشياء على ما هي عليه والإتيان بالأفعال على ما ينبغي، والمبالغ في الأحكام وإتقان التدبير وإحسان التقدير والخبير العالم بما دق من أحوال العباد وخفي من أمورهم. فالنّاس كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ النّاس إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ ربّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ}603، أي على الفطرة التي فطر الله النّاس عليها متوجهين إلى التوحيد متنورين بنور الهداية الأصلية فاختلفوا بمقتضيات النشأة واختلاف الأمزجة والأهواء والعادات والمخالطات (وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن ربّكَ) وهو قضاؤه سبحانه الأزلي بتقدير الآجال والأرزاق (لَقُضِىَ بيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) بإهلاك المبطل وإبقاء المحقّ، فحكمة الله تعالى اقتضت أن يبلغ كل منهم وجهته التي ولى وجهه إليها بأعماله التي يزاولها هو وإظهار ما خفي في نفسه وسبحان الحكيم العليم.

3 - اللغة والتي تتكون من الاسم والفعل والحرف أنواع ثلاثة داخلة تحت جنس الكلمة، فعند البحث عن ماهية الكلام وحده وخواصه، فإنّنا نجد ألفاظا أخرى شبيهة بالكلمة، وهي: الكلام، والقول،

---

603 يونس 19، 20.

واللفظ، واللغة، والعبارة، لا شك أنّ هذه الكلمات إنما تحصل من الأصوات والحروف، فعند ذلك يجب البحث عن حقّيقة الصوت، وعن أسباب وجوده ولا شك أن حدوث الصّوت في الحيوان يختلف عن الإنسان وما الحكمة في كون الإنسان هو الناطق الوحيد وفق مخارج مخصوصة في الحلق واللسان والأسنان والشفتين، والتي لا تتمّ دلالتها إلّا عند الوقوف على علم التشريح. ولاشك أنّ ذلك يساعده على أداء مهام رسالة الخلافة والأمانة التي حملها دون سائر المخلوقات فهذه اللغة لم يأت بها بمجرد كلام بل جاءت الحكمة في وضع الألفاظ للمعاني؛ لأنّ الإنسان خلق بحيث لا يستقل بتحصيل جميع مهماته لوحده فاحتاج إلى أن يعرف غيره ما في ضميره ليمكنه التوسل به إلى الاستعانة بالغير، ولا بدّ لذلك التوضيح من طريق، والطرق كثيرة مثل الكتابة والإشارة والتصفيق باليد والحركة بسائر الأعضاء، إلا أنّ أسهلها وأحسنها هو تعريف بما في القلوب والضمائر بهذه الألفاظ، وأنّ هذه المعاني تحصل من غير كلفة ومعونة، بخلاف الكتابة والإشارة وغيرهما، فلهذا قضت العقول السليمة، بأنّ أحسن ما يعرف به ما في القلوب هو الألفاظ. ثم أودع في هذا النطق والكلام حكما عالية وأسرارا باهرة عجزت عقول الأولين والآخرين عن الإحاطة بقطرة من بحرها وشعلة من شمسها، فسبحان الخالق المدبر بالحكمة الباهرة والقدرة غير المتناهية.

ومن حكمه أن جعلها الرابط بين أفراد العائلة الواحدة ومن ثم بين أفراد المجتمع والعالم بأسره كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}604. إنّها لحكمة لو كنتم تعلمون، فلو تعلمون علم اليقين لتعارفتم على المحبة والمودة وتعاونتم بكل صدق على

---

604 الحجرات 13.

إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل ولتآخيتم في الله، وقد جعل الله ختام هذا التعارف التقوى والسير على نهج الحقّ وفق شروط الخلافة الإلهية. فقد كان من حكمته أن جعل كمال الإنسان في معرفة الحقّ لذاته، ويعرف الخير لأجل العمل به، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرّسول لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا}605، وقال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}606. ولنا أن نفرق بين العلم والحكمة، فالعلم ينير العقول، والحكم تنير القلوب، فهي توقظ من الغفلة وبها يتم الاتعاظ، والعلم به يتم صناعة المستقبل بعد تخطيط وإعداد عدّة.

ولذلك قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}607. تقويم الجسم فجعله يمشي سويا على اختلاف مع من يمشي مكب على وجهه، وجعله عاقلا ليكون عليما حكيما بعلم الله وحكمته، وجعل له قلب في جوفه وجعل له مودة، ولذا أمر بالطاعة فكان مجيبا. وقال تعالى: {الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}608. تدل هذه الآية الكريمة على الإتقان الذي عليه خلق الإنسان وسوي وعُدِّل، ثم إن المقدر الحكيم والمدبر الرّحيم جعل هذا الأمر المطلوب على سبيل التجهز لحمل أسباب الخلافة، وبما تفضل به عليه دون سائر المخلوقات، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ

605 النساء 39 . 42.

606 الزلزلة 7، 8.

607 التين 4.

608 الانفطار 7.

عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}609. وهذا التكليف لم يكن إلا برضا الإنسان وموافقته على حمل أثقال الخلافة وما لها من شروط وواجبات ومهمات التي رفضت سائر المخلوقات والجمادات حملها كما جاء في الكتاب العزيز: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}610.

4 – ومن حكمته أن جعل عجز النفس لأنه السبيل إلى الوصول إلى قدرة الرّب، ولأنّه لا وسيلة إلى القربّ من حضرة الله إلا بالعجز والانكسار، فمن عرف نفسه بالضعف والقصور عرف ربّه بأنه هو القادر على كل مقدور، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربّه بالفضل والعدل، ومن عرف نفسه باختلال الحال عرف ربّه بالكمال والجلال. ثم إن الإقدام على الطّاعات لا يتيسر إلا بعد الفرار من الشيطان وأعمال الفساد في الأرض، قال تعالى: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ}611. وذلك بالاستعاذة منه بالله، وجعل بفضله وكرمه هذه الاستعاذة نوع من أنواع الطاعة، فإن كان الإقدام على الطاعة يوجب تقديم الاستعاذة عليها افتقرت الاستعاذة إلى تقديم استعاذة أخرى ولزم التسلسل، وإن كان الإقدام على الطاعة لا يحوج إلى تقديم الاستعاذة عليها لم يكن في الاستعاذة فائدة، فقد شاهدت عجزك واعترفت بقصورك فأنا أعينك على الطاعة وأعلمك كيفية الخوض فيها فقل: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم). وأنّ من أجل الأمور التي يلقي الشيطان وسوسته فيها قراءة القرآن، لأنّ من قرأ القرآن ونوى به عبادة الرّحمن وتفكر في وعده ووعيده وآياته وبيناته ازدادت رغبته في الطاعات ورهبته عن المحرمات؛ فلهذا

---

609 الإسراء 70.

610 الأحزاب 72.

611 الذاريات 50.

السبب صارت قراءة القرآن من أعظم الطاعات، فلا جرم كان سعى الشيطان في الصد عنه أبلغ، وكان احتياج العبد إلى من يصونه عن شر الشيطان أشد، فلهذه الحكمة اختصت قراءة القرآن بالاستعاذة. والشيطان عدو الإنسان كما قال تعالى: {إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّا}612. والرّحمن مولى الإنسان وخالقه ومصلح مهماته ثم إنّ الإنسان عند شروعه في الطاعات والعبادات خاف العدو فاجتهد في أن يتحرى مرضاة مالكه ليخلصه من زحمة ذلك العدو، فلما وصل الحضرة وشاهد أنواع البهجة والكرامة نسي العدو وأقبل بالكلية على خدمة الرّب المطلق، فالمقام الأول: هو الفرار وهو قوله: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وفي هذه حكمة تحض الخليفة من الوسوسة والحياد عن الطاعة أو المخالفة.

والمقام الثاني: وهو الاستقرار في حضرة الملك الجبار فهو قوله: (بسم الله الرّحمن الرّحيم). هذه القراءة وهذا التقربّ ليس سهلا بل يتطلب وضعا خاصا، قال تعالى: {لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون}613. منعا من التطفل والعبث بكلام الله العزيز، وكذلك القلب قد يحصل له تعلق بغير الله واللسان قد ينشغل بغير ذكر الله فيحصل فيه نوع من اللوث، فلا بدّ من استعمال الطهور، فلما قال: أَعُوذُ بالله حصل الطهور، فعند ذلك يستعد للصلاة الحقّيقية وهي ذكر الله تعالى فقال: بِسْمِ اللَّهِ وقد جعل الله للإنسان عدوان أحدهما ظاهر والآخر باطن، وأنت مأمور بمحاربّتهما قال تعالى في العدو الظاهر: {قاتلوا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله}614. وقال في العدو الباطن: {إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّا}615. فكأنه تعالى قال:

612 فاطر 6.

613 الواقعة 79.

614 التوبة 29.

615 فاطر 6.

إذا حاربّت عدوك الظاهر كان مددك الملك، كما قال تعالى: {يُمْدِدْكُمْ ربّكُمْ بِخَمْسَةِ ءالافٍ مّنَ الملائكة مُسَوِّمِينَ}616. وإذا حاربّت عدوك الباطن كان مددك الملك كما قال تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلِيهم سلطان}617. وأيضا فمحاربّة العدو الباطن أولى من محاربّة العدو الظاهر؛ لأن العدو الظاهر إن وجد فرصة ففي متاع الدنيا، والعدو الباطن إن وجد فرصة ففي الدين واليقين، وأيضا فالعدو الظاهر إن غلبنا كنا مأجورين، والعدو الباطن إن غلبنا كنا مفتونين، وأيضا فمن قتله العدو الظاهر كان شهيدا، ومن قتله العدو الباطن كان طريدا، فكان الاحتراز عن شر العدو الباطن أولى، وذلك لا يكون إلا بأن يقول الرجل بقلبه ولسانه (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم والحمد لله ربّ العالمين) .

ولأنّ القلب بيت الإيمان والاطمئنان فهو بهذا هو أشرف البقاع، فلا تجد ديارا طيبة ولا بساتين عامرة ولا رياضا ناضرة إلا وقلب المؤمن أشرف منها، بل قلب المؤمن كالمرآة في الصفاء وهو في التشبيه أصفى، وذلك لأنّ قلب المؤمن لا يحجبه السماوات السبع والكرسي والعرش كما قال تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ}618. بل القلب مع جميع هذه الحجب يطالع جلال الرّبوبية ويحيط علما بالصفات الصمدية، وأنه تعالى حكي كيفية نزول العبد في بستان الجنّة فقال: {في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}619.

5 - خلق الله العالم مطابقا لمصالح العباد موافقا لمنافعهم فكان غاية في الإحكام والإتقان الظاهرين في العالم الأعلى والعالم الأسفل، قال

---

[616] آل عمران 125.

[617] الحجر 42.

[618] فاطر 10.

[619] القمر 55.

تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النّاس مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ}620.

ولما كان فاعل الفعل المحكم المتقن عالما منزها عن الحيز والمكان، والحلول في المحل، فالعالم يدل على كونه في نهاية القدرة ويدلّ على كونه في نهاية العلم ويدل على كونه في نهاية الحكمة. فكل ما في العالم من محنة وبلية وألم ومشقة فهو وإن كان عذابا وألما في الظاهر إلا أنه حكمة ورحمة في الحقّيقة، فالمقصود من التكاليف تطهير الأرواح عن العلائق الجسدانية وفي هذه حكمة كما قال تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا}621. والمقصود من خلق النّار صرف الأشرار إلى أعمال الأبرار، وجذبها من دار الفرار إلى دار القرار، كما قال تعالى: {فَفِرُّوٓاْ إِلَى اللهِ}622. وأقربّ مثال لهذا الباب قصة موسى والخضر عليهما الصّلاة والسّلام، فإن موسى كان يبني الحكم على ظواهر الأمور فاستنكر تخريق السفينة وقتل الغلام وعمارة الجدار المائل، وأمّا الخضر فإنّه كان يبني أحكامه على الحقّائق والأسرار فقال: { أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً

---

620 لقمان 20.

621 الإسراء 7.

622 الذاريات 50.

مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا}623. فظهر بهذه القصة أنّ الحكيم المحقّق هو الذي يبني أمره على الحقّائق لا على الظاهر، فإذا رأيت ما يكرهه طبعك وينفر عنه عقلك فاعلم أن تحته أسرارا خفية وحكما بالغة، وأنّ حكمته ورحمته اقتضت ذلك، وعند ذلك يظهر لك أثر من أسرار قوله الحكيم الخبير. ومن الأمور ما نعرف وجه الحكمة فيها على الجملة بعقولنا: كالصّلاة والزكاة والصوم؛ فإنّ الصّلاة تواضع محض وتضرع للخالق، والزكاة سعي في دفع حاجة الفقير، والصوم سعي في كسر الشهوة. ومنها ما لا نعرف وجه الحكمة فيه: كأفعال الحج فإننا لا نعرف بعقولنا وجه الحكمة في رمي الجمرات والسعي بين الصفا والمروة، ثم أنّه كما يحسن من الله تعالى أن يأمر عباده بالنوع الأول فكذا يحسن الأمر منه بالنوع الثاني، لأنّ الطاعة في النوع الأوّل لا تدل على كمال الانقياد لاحتمال أن المأمور إنما أتى به لما عرف بعقله من وجه المصلحة فيه، أمّا الطاعة في النوع الثاني فإنه يدل على كمال الانقياد ونهاية التسليم، لأنه لما لم يعرف فيه وجه مصلحة البتة لم يكن إتيانه به إلّا لمحض الانقياد والتسليم، فإذا كان الأمر كذلك في الأفعال، فلِمَ لا يجوز أيضا أن يكون الأمر كذلك في الأقوال؟ وهو أن يأمرنا الله تعالى تارة أن نتكلم بما نقف على معناه، وتارة بما لا نقف على معناه، ويكون المقصود من ذلك ظهور الانقياد والتسليم من المأمور للآمر، بل فيه فائدة أخرى، وهي أنّ الإنسان إذا وقف على المعنى وأحاط به سقط وقعه عن القلب، وإذا لم يقف على المقصود مع قطعه بأن المتكلم بذلك أحكم الحاكمين فإنه يبقى قلبه متلفتا إليه أبدا، ومتفكرا فيه أبدا، ولباب التكليف إشغال السر بذكر الله تعالى والتفكر في كلامه، فلا يبعد أن يعلم الله تعالى أن في بقاء العبد ملتفت

---

623 الكهف 79 . 83.

الذهن مشتغل الخاطر بذلك أبدا مصلحة عظيمة له، فيتعبده بذلك تحصيلا لهذه المصلحة.

6- عدم الخطأ في وضع موازين الأشياء من ذلك:

جعل لكلّ مخلوق مهنته فالمزارع مزارع والنجار نجار والبحار بحار؛ حتى تكون منظمة وفق ما يراها هو، وتبعا للنواميس التي وضعها لهذا الكون العجيب والذي جعله يخدم بعضه بعضا وفي دقة متناهية فتبارك الله أحسن الخالقين، وكل ذلك يصب في هدف واحد – وهو الذي نراه نحن – هو خدمة بني البشر، وخاصة خلفائه الذين لهم السعادة في الدنيا والآخرة بما ألهمهم الله من الحكمة وقدرة التمييز، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا}624.

7- جعل لكل شيء موسما ووقتا خاصا ومكانا خاصا فإذا حاول الإنسان تغيير ذلك خسر فيه وقد لا يظهر له في حينه فيظن أنه نجح في ذلك، ومن ذلك:

1- غرس الأشجار في غير أماكنها سواء أكانت مثمرة أو غير مثمرة ومع ذلك فإن كل شيء مفيد ونافع لحِكمة نعلمها من علم الله وحِكم نحن لا نعلمها هو عزّ وجلّ يعلمها، إنه لا يخلق شيئا عبثا، ولا تبديل لنعم الله، ولهذا فقد ينقل الإنسان شجرة مثمرة من مكان إلى مكان فإن لم يناسبها ذلك المكان الذي نقلت إليه طبيعة ومناخا وتربّة فلا تثمر فيه أو أنها تتبدل وتتغير فلا تظل كما شاء لها أن تكون عليه، وقد تموت.

فالفاكهة التي تنبت في المناطق الحارة لا تفيد بالدرجة الأولى إلا أهلها، وهكذا الباردة؛ لأنّ الله خلقها في ذلك المكان وعلى تلك الصفة إلا لتخدم الإنسان في ذلك المكان، فلا يجوز أن ننقلها إلى مكان غيره

[624] الأنبياء 24.

تعسفا إن لم تكن الحاجة وتعود بما ينفع ويفيد العباد، وذلك لأن كل شيء وضع لحكمة هو يعلمها، وهذه الحكمة التي جعلها في قلوب الذين استخلفوا ليميزوا الخبيث من الطيب فيعرفون ما يصلح بهم وبمستخلفيهم، فيأمرون به أو ينهون عنه.

2- تغيير خلق الله ذلك بأن يحاول التغيير في الأشياء أو تحسينها كأن يلعب بمورثات الحيوانات أو النباتات الجينية كمحاولات الاستنساخ التي تجري اليوم في النبات والحيوان، وقد تطول البشر، فقد ظهرت عيوبها من أول يوم تغيرت فيه، فالفاكهة مثلا التي تم تعديلها تغيرت من حيث طعمها ورائحتها وفائدتها وبذلك لم يقبلها النّاس لأنّها لم تكن كما خلقها الله، بل عبث بها من عبث وبالتالي اختل ميزانها ونتج عنها غير المطلوب تحقّيقه، ويرجع السبب في ذلك إلى قصور إدراك بني البشر إلا في حدود معينة التي جعلها الله خاصة لحكمائه، ومع ذلك علينا أن نقول سويا وقل ربّي زدني علما حتى يكون الصواب فيما نفعل ونعمل ونبتكر أو نخترع ونصنع أو نستكشف بعلم من علمه إنه السميع العليم، ولهذا فنحن لا نحرم ما أحله الله ولا نحلل ما حرمه وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ولا أود أن استدرج في الشرح فموضوع الاستنساخ موضوع علمي بالتأكيد سيتطور وتتحسن أحوال التجاربّ وتكون النتائج أفضل وأحسن ومع ذلك لا تبديل لخلق الله قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ضَربّ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس

لَا يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصّلاة وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}625.

3- تغيير أوقات النّوم بأن يسهر الليل وينام النهار فإن في ذلك أكبر عبث بتركيبة الجسم البشري وله آثار ضارة قد لا تظهر في حينها فسهر الأطفال على سبيل المثال قد يجعل الطفل قاصر التفكير عندما يتقدم إلى عمر الشباب، وقد يورث له المرض والعلة، ويؤخره عن الصّلاة في وقتها؛ ويصبح كسولا غافلا عن مواقيت العبادة والعمل الصالح، ويكون في منعزل عن مخالطة النّاس الذين لهم في ممّارسة الحقّوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات. وفي ذلك قال تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا}626.

وعليه كل شيء يُغيَّر يتغير إلّا خلق الله ثابت، لذلك أرسل الله الرّسُل وأيدهم بالحكمة ليكونوا له من الشاكرين فقد آتى الله لقمان الحكمة حين جعله شاكرا في نفسه وحين جعله واعظا لغيره، وهذا لأنّ علو مرتبة الإنسان لا يكون كاملا في نفسه إلا وهو مكملا لغيره فقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصّلاة وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ

625 الروم 27 . 32.

626 النبأ 10، 11.

لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ }627، أنّ الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي عليه الصّلاة والسّلام الذي فيه أرشد الأباعد والأقاربّ، ثم إنّه في الوعظ والحكمة ذكر نتاج حكمته وما كان أساسا لها وما يصلح به أمر خلفائه في أرضه فأعطى زبدة ما توصل إليه وأهم عناصر هذه الوصية التي تكون سراجا ومنهاجا للخلفاء عامة في أرضه والتي تمثلت في الوصايا الآتية:

1- النّهي عن الشّراك: مصداقا لقوله تعالى: (يا بني لا تشرك بالله إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) الشرك إثم والإثم ظلم، والظلم اعتداء في غير محله، وأكبر المظالم وأعظمها الشرك بالله وهذا الأمر في قاموس الخليفة وقيمه وفضائله منهي عنه، وكيف يصح الظلم والله تعالى يقول: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}628 وعليه فالشرك أن تجعل المعبود غير الخالق، والقاعدة تقول: (لا عبادة لغير الخالق) ولانّ الخالق واحد فلا ينبغي أن تشرك معه أحدا، ولهذا فإن أمر الشرك أمر عجاب مخالف للقاعدة التي تهدي للتي هي أقوم. ولو كان فيها أكثر من إله لفسدت السماوات والأرضين وانعدمت المغفرة والرّحمة قال تعالى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ

627 لقمان 13 . 19.

628 الإسراء 70 . 75.

عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ أَمِ اتَّخَذُوا آَلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ ربّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الحقّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ}629.

فالإشراك أن توضع المعبودية في غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبودا أصلا. قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}630، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنّاس أَجْمَعِينَ}631.

2- الشكر لله تعالى: مصداقا لقوله تعالى: (أَنِ اشْكُرْ لِي) وشكر الله لا يتم إلا اعترافا وإيمانا به واحد أحد لا شريك له فله الحمد والشكر على نعمائه وما خلق فينا من حسن خلق وما خلق لنا من نعم ظاهرة وباطنة إنه بنا رءوف رحيم. ولذا فمن الحكمة أن يشكر العبد ربّه عزّ وجلّ. قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ ربّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}632، وقال تعالى: {وَمَا محمّد إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرّسُل أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}633.

---

629 الأنبياء 19 . 24.

630 البقرة 39 .

631 البقرة 161.

632 إبراهيم 7.

633 آل عمران 144، 145.

3 . طاعة الوالدين في غير معصية الله والشكر لهما: قال تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) جاء شكر الوالدين بعد شكر الله تعالى مباشرة، فـ(أن أشكر لي) تعود على شكر العبد لله تعالى، ولوالديك يكون الشكر التالي تقديرا للوالدين اللذين يسهران الليل ويكدان اليوم من أجل توفير حياة طيبة للأبناء، فحمل الأم لجنينها لا يكون إلا وهنا على وهن، وفي هذا الأمر مكابدة ومعاناة اللهم أرضا وأرضيهما عنا. قال تعالى: {وَقَضَى ربّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرّحمة وَقُلْ ربّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ربّيَانِي صَغِيرً}634 لذا فإنّ طاعة الوالدين في غير معصية الله واجبة وشكرهم على ما فعلوه وما يفعلون خير في ذاته فلا ينبغي أن يغفل الخليفة عن هذه الطاعة وهذا الشكر الحميد. وفي هذا الأمر قال تعالى {وَإِذْ تَأَذَّنَ ربّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}635. وحرصا على احترام الوالدين فهما والدين حتى ولو كانا من غير المستخلفين فيها فهم والدين لهما الشكر والتقدير ولا طاعة لهما في معصية الله، قال تعالى: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

4 – إتباع سبيل الخليفة: وهذه جاءت نصا من قول الله تعالى: (واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)، تعني خذ قدوتك الذي أطاعني (طاعة الله التامة) فإن أخذتها تهتدي إلى سبيل الرشاد المحمود، ثمّ جاء قوله تعالى: (ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أي بعد أن تتخذوا قدوتكم الحسنة

---

634 الإسراء 23، 24.

635 إبراهيم 7.

الذين آمنوا بي واهتدوا إلى سبيل الحقّ، بعدها سيكون جزاؤكم عليَّ والضمير عائد على الله تعالى، ولهذا فمن اتَّبَعَ السبيل الذي يرضي الله يُتبَع سبيله.

وعليه فالخليفة يخلفه خليفة، وهذا هو السبيل الرشاد الذي يرتضيه الحكيم المطلق، وبعد الاهتداء (أخذ القدوة الحسنة) سيكون اللقاء بالمستخلفين بإتباع القدوة الحسنة، وحينها ينبئهم الله بما عملوا من سيئات وينبئهم بما غفر لهم، أي ينبئهم بأسباب المغفرة والتوبة وينبئهم بأسباب وجوب إتباع القدوة الحسنة الهادية للحقّ.

إذن (واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ) إتباع طاعة وإرادة واختيار وهذا الأمر يسترشد به بسلوك الرّسُل والأنبياء القدوة (المستخلفون الأوائل) صلوات الله وسلامه عليهم، ثم إتباع الصالحين والمصلحين الأفاضل، والطائعين العظام وهم المبشرين والمنذرين والمحرضين على فعل الخيرات والإكثار من الحسنات المؤمنين في يومهم وفي غدهم مع الوارثين.

5 . إدراك علم المستقبل والتنبيه إليه: قال تعالى: (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)، ينبه لقمان ابنه بأن لا يقصر نظره وتفكيره على رؤاه فقط بل يعلم أن خالق الكون هو مدبره، ولهذا فعليه أن يفكر حتى يتعظ، ولا يستغربّ بحدوث ما لم يدركه، فخالق الكون حكيم عليم خبير، ولهذا لم يخلق كل شيء ووقف، إنّه خلق ولا زال يخلق وهو على كل شيء قدير، وحتى حدود ما تم خلقه لن يكون جميعه بين أيدي البشر فهذا الأمر يتعلق بيد الله العليا، وليس بأيدي من لم يبلغوا الكمال. قال تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ

أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}636، وقال تعالى: {أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}637.

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجنّة خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}638. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصّلاة وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}639.

6 – إقامة الصّلاة: تأكيدا على أهمية الطاعة لله تعالى أوصى لقمان ابنه بإقامة الصّلاة، وإقامة الصّلاة تعني: العمل بها والعمل على ترسيخها لدى الخلائف، وإقامة الصّلاة تعني أيضا المحافظة عليها طاعة لله قال تعالى: {وَأَقِمِ الصّلاة إِنَّ الصّلاة تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}640. يفهم من هذه الآية الكريمة إن الصّلاة فعل خير وعبادة خيرة ولذا فإقامتها طاعة لأمر الله، وطاعة الله تنهي عن الفحشاء والمنكر، وذلك لأن إقامتها ذكر لله ومن يكون قضاء وقته في ذكر الله ليس لديه وقت للفحشاء والمنكر، ولهذا فإن ذكر الله أكبر والحمد لله.

---

636 الأنعام 56.

637 آل عمران 162 . 164.

638 الأحقّاف 13، 14.

639 البقرة 277.

640 العنكبوت 45.

قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصّلاة وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}641، وقال تعالى: {لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصّلاة وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا}642.

ارتبطت إقامة الصّلاة بإيتاء الزكاة، والإيتاء لا يكون إلّا ممّن يملك ويعطي دون منة ولا ينتظر مقابل إلّا في مرضات الله، ولا يؤتي الزكاة إلّا خليفة يؤمن بالأمر المطلق من الحكيم المطلق ويعمل على إظهاره، ولذا فالإيتاء فعل إرادي دون أية إكراه أو إجبار، وهو إظهار حقّ لصاحب حقّ، قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلاة وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}643.

7 – الأمر بالمعروف: قال لقمان يا بني وهو يوصيه بإقامة الصّلاة: (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ) والأمر بالمعروف هو الأمر المحبب المألوف لدى الخليفة، والأمر المألوف هو الأمر الذي يحتكم الخليفة به ويحتكم إليه، وهو نتاج القيم العرفية المتفق عليها برضاء النّاس عنها، ولهذا فالأمر المعروف ينال الرضاء والاتفاق ويحقّق اللحمة والوحدة بين من يتعلق الأمر بهم وهو يتفق بالتمام مع كل ما يرضي الله، ولهذا من الحكمة أن يأمر الخليفة بالمعروف ولا يأمر بمعصية ولا مكروه وبدعة يختلقها وهي لا تفيد العباد ولا ترضي الله تعالى.

---

641 البقرة 110.

642 النساء 162.

643 المائدة 55، 56.

قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}644. وقال تعالى: {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}645، وقال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النّاس وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا وَمَنْ يُشَاقِقِ الرّسول مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}646.

وعليه من الحكمة أن يأمر بني آدم بالمعروف، وذلك فمن يأمر بغيره لا يطاع، ومن يأمر بما لا يطاع يأمر بمكروه، والمكروه رذيلة لا ينبغي أن تسود بين النّاس. قال تعالى: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}647.

8 . النّهي عن المنكر: المنكر هو ما لا يطيقه ولا يقبله النّاس وينكروه لتعارضه من القيم والفضائل الحميدة التي ينبغي أن تسود بين المستخلفين فيها. ولذا فالنهي عن المنكر نهي عن ممّارسة الفساد في الأرض التي قال فيها الله تعالى: {إِنَّ ربّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ

---

644 آل عمران 104.

645 البقرة 263.

646 النساء 114، 115.

647 البقرة 231.

اللَّهُ ربّ الْعَالَمِينَ ادْعُوا ربّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}648، وقال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ ربّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النّاس أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}649. إذن الإصلاح في الأرض المستخلفة بني آدم فيها هو العمل الصالح، والفساد وسفك الدماء فيها بغير حقّ هو المنكر المنهي عنه، فمن انتهى كان في طاعة الله الحكيم الخبير ومن عصى كان على المنكر الذي لا يرتضيه الخالق ولا المخلوق المستخلف في الأرض. وبطبيعة الحال من ينتهي فهو خيرا له قال تعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُربّى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آَتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}650.

قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصّلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآَمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}651. يستنبط من هذه الآيات الكريمة أنّ كثير من العمل المنكر الموقع للعداوة المنهي عنها هي أعمال شيطانية فمن يتقي ربّه

648 الأعراف 24 . 26.

649 الأعراف 85.

650 الحشر 7.

651 المائدة 91 . 93.

تعالى لا يدخلها وينهى عنها ما استطاع إليه سبيلا، ويسعى إلى إصلاح كل ما من شأنه أن يؤدّي إلى فساد في الأرض أو عداوة بين المستخلفين فيها، ولهذا النهي عن المنكرات عمل صالح يستوجب الإقدام عليه ولا يستوجب أي تأخير عنه. ولذلك يقول الله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}652 وقال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}653.

9 . الصبر على المصاب: قال تعالى: (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) يقول الطبري في تفسيره: "وانه النّاس عن معاصي الله ومواقعة محارمه واصبر على ما أصابك من النّاس في ذات الله، إذا أنت أمرتهم بالمعروف، ونهيتهم عن المنكر، ولا يصدّنك عن ذلك ما نالك منهم"654. إذن الصبر على المصيبة التي من أسبابها أنك أقمت الصّلاة وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، فإن هذا الصبر في مواجهة ما يلاقى في سبيل إحقّاق الحقّ هو صبر على خير وليس صبر على شر، فاصبر وما صبرك إلا بالله قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}655، وقال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ

---

652 فصلت، 64.

653 الجاثية 15.

654 تفسير الطبري مجلد 20، ص 142.

655 النحل 125 . 128.

الْفَاسِقُونَ}656، وقال تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى}657.

الصبر قبول بما يُفعل حتى ولو كان لهذا الصبر ثمن، ولذلك فإن الصبر على الحقّ حقّ على من كان صابرا، وواجب على من اهتدى إلى الاستخلاف في الأرض والوراثة في الجنّة، وفي الصبر مسؤولية تجاه ما تم الإيمان به بأنه الحقّ المطلق، ولهذا فقبول دفع الثمن في محله يؤدّي إلى الفوز بالنتيجة المترتبة عليه وهي النتيجة المنتظرة أو المرتقبة.

10 . النّهي عن تصعير الخد للناس: قال تعالى: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) التصعير التفات، وتصعير الخد للناس يدل على عدم احترامهم، ولهذا فيه من التكبر الذي هو معيب ولا ينبغي أن يكون سلوكا في المعاملة بين النّاس، إنه تقليل من شأن وتنقيص من مكانة بني آدم الذين خلقهم الله في أحسن تقويم، وأرادهم أن يكونوا كذلك بإصلاح الأرض وفلاحها ونهاهم عن الإفساد فيها، ولهذا فقد نهى الله عنه كما جاء على لسان لقمان وهو يعظ ابنه إلى ما يجب أن يكون عليه، وفي هذا الأمر تكون القدوة الحسنة بالتواضع للناس لا بالتكبر عليهم، ولأن في تصعير الخد التفات وعدم مبالاة وإهمال لمن صُعِرَ الخد من أجله، ولأن الله كرَّم بني آدم في البر والبحر، ولأنّ الله استخلف الإنسان في الأرض ويريده أن يعمل صالحا فيها حتى يرث الجنّة، فإن هذه المكارم تستوجب التفات وانتباه واهتمام لا تستوجب تقيل من شأن من كرَّمه الله وحملهم في البر والبحر مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا يَوْمَ نَدْعُوا

[656] الأقحاف 35.

[657] طه 130.

كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْممّاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}658، وقال تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا وَقُلِ الحقّ مِنْ ربّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا}659.

11 . النهي عن المشي في الأرض مرحا: مصداقا لقوله تعالى: (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) المشي في الأرض مرحا، سوء تقدير لما يجب عليه أن يكون المشي، وبالتالي سوء التقدير مخالفة تلفت الانتباه وقد تحسس الآخرين بالقلق أو تخيفهم ممن يمشي مرحا وكأنّه المالك الوحيد للأرض، وهذه معيبة منهي عنها، وهي دليل عدم الاتزان الحركي وقد تكون بأسباب عدم الاتزان العقلي، ولهذا فهي تدل على أن أسباب غامضة وراء السلوك المتحرك بغير اتزان وتقدير، ولذا فالمخافة تتولّد في نفوس المشاهدين للمارح في الأرض بغير تقدير موضوعي.

658 الإسراء 70 . 75.

659 الكهف 28، 29.

وفي تفسير ابن عبد السّلام: "(مُخْتَالٍ) منان، أو متكبر، أو بطر. (فَخُورٍ) متطاول على النّاس بنفسه، أو مفتخر عليهم بما يصفه من مناقبه، أو الذي يعدد ما أعطى ولا يشكر الله تعالى فيما أعطاه"660.

إذن المشي المرح في الأرض فيه تكبُّر وتطاول على الآخرين، فالله يحب المتواضعين ولا يحب المتكبرين الذين يمشون في الأرض مرحا دون أن يحترموا النّاس الذين يمشون عليها هونا وفقا لما هو مأمور به.

وعليه أوصى لقمان ابنه بالتواضع والاتزان والاعتدال على الأرض التي استخلفه الله فيها بحكمته وخبرته. قال تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ ربّكَ مَكْرُوهًا}661.

الحكمة من عدم التكبر والتبختر إشارة إلى المكارم التي هي صفة الملائكة فإن عدم التكبر والتبختر صفتهم. ولذلك يخشى لقمان من أمرين أحدهما: التكبر على الغير، والثاني: التبختر في النفس بسبب كونه كاملا في نفسه فقال: (وَلاَ تُصَعّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) تكبرا (وَلاَ تَمْشِ في الأرض مَرَحًا) تبخترا (إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ) يعني من يكون به خيلاء وهو الذي يرى النّاس عظمة نفسه وهو التكبر (فَخُورٌ) يعني من يكون مفتخرا بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه، وفي الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال (أَقِمِ الصّلاة) ثم قال: (وَأْمُرْ بالمعروف) وفي النهي قدم ما يورثه التكميل على ما يورثه الكمال حيث قال: (وَلاَ تُصَعّرْ خَدَّكَ) ثم قال: (وَلاَ تَمْشِ في الأرض مَرَحًا).

---

660 تفسير ابن عبد السلام، مجلد 4، ص 477.

661 الإسراء 37، 38.

12 . القصد في المشي: قال تعالى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) والقصد في المشي اتزان واعتدال به ينال الماشي تقدير المشاهد واحترامه، وهو توسط واعتدال في مرضات الله تعالى.

والقصد مفضل في الأمور كلها: قال تعالى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) أي كن وسطا بين الطرفين المذمومين، وقال تعالى: {وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ}662، وقال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ ربّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}663، وقال تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}664.

وعليه القصد في المشي يبقي السّلامة ويبلغ الغايات، وعدم القصد فيه لا يطول بالمشوار، ولذا في القصد هداية واتزان، وفي المبالغة مظهرية لا تليق بالسلوك الإنساني، وهذا لا يعني زمن الأوقات المقطوعة لممّارسة الرياضة، التي تقوي العضلات وتسهم في متانة البنية وسلامتها من الأمراض، ولأن لنفسك عليك حقّ فأعط نفسك حقّها من ممّارسة المناشط في أماكنها الخاصة بها، حتى تقدر من الآخرين، وأمشي متزنا معتدلا مقتصدا حتى لا تكون في دائرة النقد نشاز.

13 . غض الصّوت: قال تعالى: (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) ويقصد بإغضاض الصوت: تلطيفه بما يليق أن

662 لقمان 32.

663 الإسراء 29، 30.

664 فاطر 32.

يكون الحديث، وعدم رفعه بما يزعج المستمعين، ولذا فقوله تعالى: (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) تعني أنقصه حتى يتلاءم مع ما يليق بالاستماع المفضل. ومع أنّ الحمير من حيوانات الزينة والركوب مصداقا لقوله تعالى: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[665] إلا أنّ صوتها من أنكر الأصوات، ولأنها لا تعقل فهي لا تقدر المستمع من يكون، ولهذا فصوتها الذي به لا يقدر الآخرون صوت مزعج منكور.

وغض الصوت يعتبر من باب العمل بالمكارم، وقد يتساءل البعض: هل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد في المشي؟ فنقول: نعم، سواء علمناها نحن أو لم نعلمها وفي كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ولا يصيبه عد، ولا يعلمه أحد وقوله: (واقصد في مَشْيِكَ واغضض مِن صَوْتِكَ) إشارة إلى المكارم، ثم قال تعالى: (إِنَّ أَنكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الحمير) ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشي، لأنّ رفع الصوت يؤذي السامع وأما السرعة في المشي فلا تؤذيه وإن كانت تضيق بالنفس لدى بعض المشاهدين ولهذا كان النهي.

اللَّهُمّ يا الحكيم أجعلنا على الحكمة التي بها نستَعينك ونَسْتَهديك، ونعوذُ برضاكَ من غَضَبِك، فاغفر لَنا وارْحَمنا وتبْ علينا إنّك أنْتَ التَّوّابُ الرّحيم. اللهم يا الحكيمَ لا تجعلنَا من الذين فرَّقُوا دِينَهم وَكانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون. اللّهُمَّ اجعلنا مسلمِينَ لك، وَافِين لك بالميثاق الذي أخذتَ علينا وأن نكون قوّامين بالقِسْط شُهَداءَ على النّاس، اللهُمَّ يا الحكيم أهدنا صراطَك المستقيم، صراطَ الذين أنعمت عليهم من النبيّين والصِّدِّيقين والشُّهَداء، الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا، وعلموا أنّك أنت الجبّارُ الذي خَضَعتْ لجبَرُوتِه الجبَابرة، والعزيزُ الذي ذلّتْ لعزّته الملوكُ الأعِزَّة، وخَشَعت لمهَابة سَطْوتِه ذوُو المهابة، اللهم يا الحكيم ثبتنا بالقول

---

[665] النحل 8.

الثابت واغفر لنا وارحمنا أنت مولنا فنعم المولى ونعم المصير، {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}666.

صبر داوود والاستخلاف في الأرض:

عن عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عُمَرَ قَالَ: "أَوْحَى اللهُ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام: يَا دَاوُدُ إِذَا رَأَيْتَ لِي طَالِبًا فَكُنْ لَهُ خَادِمًا، يَا دَاوُدُ، اصْبِرْ عَلَى الْمَئُونَةِ تَأْتِيَكَ الْمَعُونَةُ"667. ولذا؛ ففي فضيلة الصبر تنصهر كلّ الصّفات الحسنى، ومن هنا يتمّ تناول هذا الموضوع وفقا للآتي:

الصبور: "المعتاد الصبر القادر عليه واسم من أسمائه تعالى ومعناه أنّه لا يعاجل العصاة بالانتقام مع القدرة عليه"668

الصَّبُورُ في صِفَة اللهِ عزّ وجلّ: "الحَليمُ الَّذِي لا يُعاجِلُ العُصاةَ بالنِّقْمَةِ بل يَعْفُو أو يُؤَخِّرُ"669.

في أَسماء الله تعالى الصَّبُور هو "الذي لا يُعاجِل العُصاة بالانْتقامِ، ومعناه قَرِيب من مَعْنَى الحَلِيم، والفرْق بينهما أَن المذِنب لا يأْمَنُ العُقوبة في صِفَة الصَّبُور كما يأْمَنُها في صِفَة الحَلِيم"670.

وأما صبر العبد فلا يخلو عن مقاساة لأن معنى صبره هو ثبات داعي الدين أو العقل في مقابلة داعي الشهوة أو الغضب فإذا تجاذبه داعيان متضادان فدفع الداعي إلى الإقدام والمبادرة ومال إلى باعث التأخير

666 إبراهيم 27.

667 شعب الإيمان، 12، 337.

668 المعجم الوسيط، ج 1، ص 1049.

669 تاج العروس، ج 1، ص 3046.

670 لسان العرب، ج 4، ص 437.

سمي صبورا إذ جعل باعث العجلة مقهورا وباعث العجلة في حقّ الله سبحانه معدوم فهو أبعد عن العجلة ممن باعثه موجود ولكنه مقهور فهو أحقّ بهذا الاسم بعد أن أخرجت عن الاعتبار تناقض البواعث ومصابرتها بطريق المجاهدة671.

اسم من أسماء الله يدلّ في معناه على التأني وينفي صفة العجلة والتسرع عن الخالق عزّ وجلّ، والذي يعطينا معنى تأخير العقوبة على من يستحقّها من البشر على ما قدموه في الحياة الدنيا، أي أن هذا التأخير بأجل محدود ومقدّر لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى، قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}672، فتأخير العقاب على مستحقّيه لا يعني إسقاطه عنهم بل وجوب وقوعه عليهم في وقت معلوم ومحدد من الخالق لا دخل للإنسان بهذا التوقيت ولا علم له به، ولولا صبر الله المطلق على المجرمين والعصاة لكان العقاب فوريا، لكنّه لا يعجّل إنزال العقاب عليهم ليمهلهم.

الصبور: مصدر لكل صبر، يستمد الصبر منه وهو لا يستمد من شيء سبحانه، ولذا فالصبر دليل قوّة العزيمة وسلامة الرأي والقرار والفعل والعمل وذلك لأنّه المستمد من الصبور المطلق، ومن اتصف به كان من المستخلفين فيها.

والصبر في حقّ الله تعالى يكون درسا في التوازن والنظام، أي أنه سبحانه وتعالى لا تحمله العجلة على تقديم ما لا يجب تقديمه، أو تأخير ما لا يجب تأخيره بل حكمته هنا تتدخل لتعمل على تسيير أمور خلقه

---

671 الغزالي، المقصد الأسنى، ص 149.

672 النحل 61.

وفق نظام وسنن ثابتة، لا يمكن أن تتبدل هذه السنن أو تتغير لتعجل أو تسرع في أمر من أمور عباده.

والصبور سبحانه وتعالى بقدرته فهو القادر وبقوته فهو القوي يستطيع أن يفعل ما يشاء، في الوقت الذي يشاء، قال تعالى: {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}673، فصبره دائما على حكمة مطلقة وبالغة فهو يأمر بالكاف والنون ولكنّه يُمهل ويصبر بشكل متوازن وعادل دون أي خلل في ذلك، وكيف يكون ذلك وهو المنزه عن كل نقص أو عيب من شأنهما أن يسببا أي ضعفٍ أو خلل؟

وكلّ شيء عنده بميزان وبمقدار وبميعاد، قدرّه الخالق مسبقا مع التوافق بسرعته في تسيير الأمور، وهنا نجد أن السرعة المتوازنة صائبة لا خلل فيها ولا عيب، فمثلا نجد أنّ الله سبحانه وتعالى في مواطن كثيرة من حياتنا يعطينا ما نطمح إليه ونحتاجه في وقته، وفي أحيانٍ أخرى يمسك تلك الحاجة فيمهلها أو يؤخرها علينا، وكأنه عزّ وجلّ يدلنا على أصوب الطرق للصبر الذي علينا أن نستمده منه.

فالصبور تبارك وتعالى يعلّمنا ماهية الحكمة في العطاء وفي منع هذا العطاء، ويُشعرنا بهيمنته الكاملة على كل شيء في الحياة والكون بصفة عامة، وأن بيده كل الأمور يقلّبها ويدبّر بها حسب علمه المطلق وحكمته البالغة، قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}674، إذن هو الصبور بالرغم من استطاعته وقدرته وقوته على كل شيء مطلقا فهو الكامل في صفاته وأفعاله الجليلة العظيمة الحكيمة، وصبره نابع من ذلك الكمال كله، ولو تأملنا جيدا في هذا الاسم لوجدناه الخير كله يجمعه

673 البروج 16.

674 يس 82، 83.

ويوزعه على الخلق بكرمه ورحمته وحكمته، بالرغم من أنه يصبر على العباد إلا أنه في أحيانٍ أخرى قد ينزّل عقابه سريعا ويرسله كعبرة للبشر وموعظة، قال تعالى: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ}675، وهنا صفة الصبر لا تنتفي مع تنزل العقاب والعذاب ليكي يُحدث التوازن في إحقّاق الحقّ والانتقام من الظالمين الذين لن يرتدعوا بأية وسيلة، ولا نجد أي نوع من التناقض في ذلك أو الظلم، قال تعالى: {كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ}676، فعلمه المطلق عزّ وجلّ والمسبق أدرك مسبقا أنّ الخير والنفع للعباد سيكون على هذا الشكل، فالصبور بصير بعباده وعليم بهم وبما يكتمون ويُظهرون.

الصبور: هو من لا قلق فيه، وهو الذي يعلم بالأمر ويعلم ما يقوله ويفعله ويظنه الظانون، وهو بكل شيء عليم، ومع ذلك يترك الأمر إلى حين، ولهذا قال: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}677.

الصبور في صبره إبداع، وفي إبداعه صبر عظيم، فهو الخالق المبدع لكل شيء منذ أمره بنشأة الحياة والكون، فهو سبحانه دائم الخلق والإبداع حيث أنّه الخلاق، قال تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} 678، فكم من أعدادٍ للبشر جاءوا ورحلوا عن هذه الأرض؟

---

[675] هود 67، 68.

[676] القمر 42.

[677] الروم 60.

[678] يس 81 . 83.

وكم من أنواع للنباتات والدواب والطيور جميعها كانت سواء في الفناء، فنستشعر هنا بالصبور الذي لا يكلّ ولا يملّ ولا يتعب، إذ أنّه بواحديته المختص الأوحد في فعل كل ذلك سبحانه الأحد الصمد، الذي لا يشاطره أي شيء آخر في قدرته وخلقه، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}679، ففي الآية الكريمة السابقة جعل الله تعالى قدرته على الخلق دون تعبٍ أو مشقة درسا ومثلا لتعليمه أنبيائه ورسله الصبر على صعاب الأمور، وكأنه يقول للبشر ما هو الأمر الأصعب من الخلق وتكوين هذا الكون؟ وبالرغم من ذلك فقد نفذ أمره دون ملل أو تعب، فعلى الخليفة الذي استخلفه الخالق في الأرض أن يكون صابرا على أموره وثابتا لا يهزمه الملل ولا يقضي عليه التعب والضيق.

ولله المثل الأعلى: فالإنسان عادةً ما يقوم بعملٍ ما أو يكون مسؤولا عنه نجده في يومٍ من الأيام متذمرا منه ضائقا به، ولابد أن تمر عليه لحظة يشعر فيها بالملل والتعب والضجر منه، فيؤثر ذلك على سير عمله بالاختلال أو النقص، فيضطر للاستعانة بغيره لمساعدته على ضبط العمل والعودة إلى سرعة الإنتاج وتجاوز الخلل الذي سبق وأن حدث، لكنّ الخالق عزّ وجلّ منزه عن كل نقصٍ أو عيب أو خلل فلا يكابده التعب أو الضجر لقدرته الكاملة لاستيعاب كل شيء في آن واحد، فهو الصبور بقوته ومتانته وجبروته عزّ وجلّ، فنلاحظ اجتماع أكثر من صفة في حقّ المولى عزّ وجلّ، حيث أنه:

679 ق 38، 39.

. ذو الجلال والإكرام الصبور المستمر في الخلق والإبداع وإحقّاق الحقّ بعدله المطلق، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النّاس شَيْئًا وَلَكِنَّ النّاس أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}680.

. المنتقم من الظالمين على مرّ الزّمان، قال تعالى: {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}681.

. الرّحيم بعباده دون انقطاع لهذه الرّحمة، قال تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرّحمن الرّحيم}682 .

. الودود الذي لا يمل من تقديم الود والحب لعباده، قال تعالى: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}683.

. الغفور لذنوب عباده المذنبين، فلا يتعب من كثرة ذنوبهم ولا يملل من الغفران وقبول التوبة، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}684.

. الخالق في استمراره الدائم للخلق ومراقبتهم وتسجيل أعمالهم تجسيد عظيم للصبر، فقد قال عزّ وجلّ: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}685.

---

680 يونس 44.

681 إبراهيم 47.

682 البقرة 163.

683 البروج 14.

684 الملك 1، 2.

685 الأنعام 59.

إذن فالخالق الصمد هو وحده الصبور في ملكوته على القيام بكل شيء وباستمرار دون انقطاع أو خلل، فكيف لا يلجأ إليه العبد الضعيف الذي لا تنقطع حاجته إليه.

فالله هو الصبور وهو الواحد الأحد وهو الملجأ الوحيد لكل عباده، فلا يكون مثله أحد في صمديته ووحدانيته، قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[686]، فقد يسّر الله كل هذا الكون لخدمة خليفته في الأرض، فكان هذا النسق وهذا النظام البديع في الكون بأسره، قال تعالى: {لَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحمن مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ}[687]، فبهذا يختص سبحانه وتعالى بالوحدانية التي ترتبط بالصبر لذلك فهو الصبور لقيامه وحده بكل ذلك وبالشكل المتقن الدائم المستمر، كل عمل يتناسب والوضع والزمان والمكان ومن هنا نستطيع القول أنه الصبور في أحكامه لأنه يعلم كيف وأين ومتى يفعل وينفذ، ولا شيء ولا أحد يستطيع أن يغيّر شيء قدّره الواحد الأحد.

إنّه الصّبور على ما يقولون وعلى ما يفعلون، وصفة الصبر تنبع منه أساسا، حيث أن كل شيء إيجابي وكل ما هو حقّ وكل ما هو جميل، منبعه منه أولا وأخيرا عزّ وجلّ.

وتكمن صفة القوّة في الصبر، حيث أنّه لا قوّة بلا صبر، ولا صبر إلّا عند قوي متين، فالصبر الحقّيقي يكون متحدا وملازما للقوّة، تلك القوّة التي تحتاج إليها عملية الخلق، فكان حقّ لله على خلقه توحيده

[686] الإخلاص 1 . 4.

[687] الملك 3، 4.

وعبادته، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ}688.

والصبور في حقّ الله له أكثر من دعامة يرتكز عليها منها:

1- صبره عزّ وجلّ عن قوّة وقدرة مطلقين:

فصبر الخالق المطلق على عباده يدعمه القوّة والقدرة لا الضعف والحاجة، فما حاجة الله لنا وهو المالك لكل شيء وبأمره (كن) يفعل ما يريد، قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}689، فمن يملك كل هذه القدرة بالتأكيد هو بغنى عن كل ما خلق وصوّر، قال سبحانه وتعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}690، فبما أنه عزّ وجلّ الغني عنا فهو القوي القادر على كل شيء وبالتالي من يملك هذه القدرة المطلقة لا يمكن أن يكون صبره عجزا أو ضعفا أو حاجة، فهو المنزه عن النقائص والعيوب عزّ وجلّ، ولا يمكن أن يكون إلا الكمال له في صفاته.

ولكن بالرّغم من قدرته المطلقة إلّا أنّه صبورٌ على أخطائهم مفسحا لهم المجال للرجوع عن ذنوبهم والتوبة منها إذ أنّه عزّ وجلّ لا يمكن أن يظلم أحدا بسبب خطيئة غيره، قال سبحانه وتعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}691.

2- صبره عن علم لا عن غفلة:

---

688 الذاريات 56. 58.

689 النحل 40.

690 لقمان 26.

691 الأنفال 33.

قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}692، فالله تعالى ينتفي عن نفسه صفة الغفلة والنسيان والتلاهي عن أي أمر، وصبره لا يعني أنه غافلا عما يفعله العباد وطول الفترة لا يعني نسيان أمرهم، بل صبره فيه تأخير لهؤلاء البشر وذلك لحكمته المطلقة وعلمه اللذان يقدّمان ويؤخرّان الأمور حسب مشيئته وإرادته عزّ وجلّ، فالغفلة تتنافى مع علم الله المطلق بكل شيء، وما صبره المطلق بعباده إلا لعلمه المطلق بما هو نافعٌ وضار بهم.

وفي الآية الكريمة السابقة توضيح لعدم غفلة الله بدليل تحضير العقاب المناسب لهم والذي استحقّوه بظلمهم، فمن كان على علم بالعقاب كيف يكون غافلا عن العمل المستحقّ لهذا العقاب؟

الله بعلمه المسبق والمطلق على علمٍ بكل شيء لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لهذا فقد كان جزاؤه وعقابه حاضرين وهذا يدل على انتباهه لأصغر وأدق الأمور، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرّحيم الْغَفُورُ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ}693.

3- صبره عزّ وجلّ على عباده لا يعني إسقاط العقاب:

---

692 إبراهيم 42.

693 سبأ 1، 5.

العقاب قائم بإذنه تعالى على من يستحقّه كما سبق وأخبرنا الله تعالى بذلك في كثير من الآيات القرآنية الكريمة، قال تعالى: {مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}694، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}695، إذن فالعقاب قائم رغم عدم وقوعه عليهم في الدنيا بصبر الله تعالى عليهم، ولكن هذا الصبر لم يكن بمثابة عفوٍ أو إسقاطٍ لهذه العقوبة.

فقد حذّر الله تعالى عباده من العقاب الشديد الذي ينتظرهم جزاء ما اقترفوه من ذنوبٍ وشرور وفساد، كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النّار وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النّار}696، وهذا تأكيد على أن العقوبة قائمة رغم الصبر عليهم، فلا يلغي الصبر على كفر الكافرين العقاب الشديد، الذي يستحقّونه دون نقصٍ أو زيادة.

بذلك لابد أن نفرّق بين صبر الله تعالى وصبر العباد لأن صبر الصبور يكون عن قدرة مطلقة كاملة، وأيضا لا يكون صبره لقضاء حاجة له عند عبيده في الأرض، وكذلك لا يكون صبره حاملا الألم والحزن لعدم تمام ما يريد أو تأخيره، قال تعالى: {وربّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرّحمة إِنْ يَشَأْ

---

694 آل عمران.

695 آل عمران 90، 91.

696 البقرة 174، 175.

يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آَخَرِينَ}697، أما الإنسان فقد يكون صبره عن ضعف وعدم استطاعة، أو لقضاء غاية والوصول إليها عند غيره من البشر، ويكون في صبره شعورا يحرّك الألم والحزن في داخله، وقد يؤدّي به إلى اليأس والإحباط.

من مظاهر صبر الصبور سبحانه وتعالى على عباده، منع الله تعالى للطبيعة عن معاقبة الكافرين، قال تعالى: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}698، وكذلك قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آَتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}699، فما الذي يمسك عقاب الطبيعة للمجرمين؟

واسم الله الصبور على الخلق جميعا مسلمهم وكافرهم، عاصيهم ومطيعهم، تائبهم ومذنبهم، فقد اجتمع البشر مسلمهم وكافرهم، وفقيرهم وغنيهم، وصحيحهم ومريضهم في الابتلاءات لكنهم اختلفوا عن بعضهم في الصبر الذي استحقّ الثواب.

---

[697] الأنعام 33.

[698] إبراهيم 46.

[699] فاطر 40 . 42.

والله هو الصبور على جميع الخلق، ولكن رحمة الله بصبره وحلمه على العباد العصاة، بالرّغم من شدة كفر هؤلاء النّاس وإشراكهم به عزّ وجلّ، هو الصبور الذي يُخفي بين طياته الكرم والرّحمة، فصبره هو الذي أخّر هذا العقاب الدنيوي للكافرين جزاءا لهم على كفرهم وعنادهم، فصبر الصبور هنا تمثّل في المنع عن تنفيذ العقاب الفوري لأولئك الكافرين وهذا ما ترغب به السماء والأرض من شدة كفرهم وطغيانهم إلا أنّ الصبور يمسكهما بصبره وحلمه عزّ وجلّ.

فعلى خليفة الله أن يكون صابرا امتثالا لأمر الخالق في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}700، لأنّ الصبر فيه حكمة التصرف والتحكم في النفس ليصل الإنسان إلى أفضل وأسلم النتائج.

الصبور : يهب الصبر لمن يشاء من عباده بعلمه وخبرته بهم، ويجعلهم يتحلون به ليعينهم على تحمل ما يلاقونه من مشاق ومصاعب في الحياة الدنيا، فيكون صبرهم سندهم في تكملة طريقهم في الدنيا الذي رضي المولى عن سلوكه، وقد وهبهم الله الصبر لحبه فيهم مظهرا لهم مكانتهم عنده فيبادلونه هذا الحبّ الكبير برضاهم بقضائه وقدره وطاعتهم له سبحانه وتعالى، قال عزّ وجلّ في كتابه الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}701، من هنا تتضح مكانة العبد الصالح المخلص عند الله فهو مخلوقٌ غالي على الخالق استخلفه في الأرض وأكرمه أكثر من جميع خلقه، علما بأن الخالق بعلمه المسبق وخبرته بخلقه جميعا يعلم أنهم سيفسدون ويسفكون الدماء ولكنه

700 آل عمران 200.

701 البينة 7، 8.

أيضا علم أنه من عباده الصالحين المصلحين فصبر على الظالمين وقربّ المخلصين وأثابهم وأعطاهم أكثر ممّا يمكن أن نتصوره ليستطيع أن يتحمَّل العبء المنوط به، فيكفي الإنسان أن يتأمل في اسم الصبور ليستشعر بينه وبين نفسه أنّه مخلوق مكرّم وغالي عند ربّه، والدليل على ذلك أنه حين يخطئ أو يُذنب أو ما شابه ذلك يجد الخالق أحيانا ساترا له لا يفضحه بين النّاس بل يستره، وهذا لا يكون إلا بوجود الحب والمودة بينه وبين خلقه، وصبره على خطيئة العبد مع القدرة والاستطاعة على العقاب فلا لشيء إلا لتقدير الخالق لهذا المخلوق.

لذلك فلابد لخليفة الله تعالى أن يكون عاشقا لله مستشعرا بمكانته عنده، فلا يفرّط فيها ولا يجب أن تنقص بل يجب أن تزيد، ومكانة هذا الخليفة لا تزيد إلّا بالعمل الصالح والطّاعة لله تعالى وخشيته والإخلاص له والصبر على حكمه، قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[702]، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}[703].

والصبر ليس شعورا يزرعه الصبور فينا فقط، بل هو منهج حضاري راقٍ يصل بالبشرية إلى الهدف الأسمى وهو سيادة المحبة والعدل والنظام، والدليل على ذلك يتطلب من الإنسان أن يتأمل في الكون من حوله ليدرك مظاهر الصبر الظاهرة فيه، فالشمس مثلا تشرق رويدا رويدا وتغربّ كذلك لا عجلة في حركتها بل تتحرك وهي مقدرة بنظام ودقة، وكذلك فقد خلق الله السماوات والأرض على مراحل وأيام ولم يكن خلقها في

---

[702] النحل 96، 97.

[703] الملك 12.

لحظة مع إمكانية تحقّيق ذلك بالنسبة لقدرة الله تعالى، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}704، وكذلك قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}705، فالسماء والأرض كان في خلقهما آية للناس في الصبر مع توفر القدرة لخلقهما في لحظة واحدة، وكذلك لو تأملنا إلى خلق الإنسان نفسه منذ بداية تكونه جنين في رحم أمه، فينمو شهرا بعد آخر ولا يتم تكوينه في يوم واحد بل يكون في تكوينه تجسيدا لنوعين من الصبر أولهما صبر الأم تسعة أشهر ممزوجة بالمعاناة والألم والتعب، وكذلك رضاعته لم يجعلها الله أياما أو ساعات بل امتدت لعامين كاملين، قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}706.

والنوع الآخر صبر يتمثل في تكوين الإنسان نفسه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاس إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا}707، إذن فالصبر له

---

704 الأعراف 54.

705 الحديد 4 ـ 6.

706 لقمان 14.

707 الحج 5.

صور متعددة وواضحة في حياتنا ولكننا لا نلتفت إليها ولا نتخذها مسلكا ومنهجا لنا.

فوائد الصبر:

أ – قهر الشّهوات والتحكم فيها:

خلق الله الإنسان وخلق فيه الشّهوة والرغبة، وقد تباين البشر في إتباع شهواتهم، فمنهم من كان عبدا لها تأمره فيطيع، لا يستطيع الصبر على ما يشتهيه فيسرع إليه دون إعطاء الفرصة لنفسه أن يحاورها عن مدى صحة أو خطأ هذه الطاعة لشهوته، فلا يتأنى ولا يصبر على زينة ومتاع الدنيا اللذان من شأنهما أن تدمران حياته، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}708، فالشهوات متعددة في الدنيا وكثيرة وكل نوع منها يحتاج إلى إرادة قوية يدعمها الصبر والجلد، والصبر لا يأتي إلّا بالطمع فيما عند الله تعالى ومدّ البصر إلى النعيم الأخروّي الذي ينتظر الصابرين في الدنيا والمتمسكين بصبرهم أمام إغراءاتها المتنوعة.

ومنهم الخليفة الذي كان مالكا لشهواته مسيطرا عليها بصبره وجلده، لعلمه بأنها خُلقت لكي تكون عونا للإنسان في نيل رضا ربّ العالمين، ولا تكون فتنة ودمار للإنسان في الدنيا والآخرة، فالخليفة المحب لله تعالى تجده صابرا على هذه الزينة البالية لعلمه بأنّ صبره عليها هو أكثر فائدة ومتعة من الغرق فيها، فالعلم يمنح الإنسان اتساعا في مداركه وفهمه للأمور وإذا توصل هذا الإنسان للفهم الصحيح لأمور دينه ودنياه وصل إلى معرفة قيمة الصبر وفائدته العظيمة التي تجعل منه إنسانا مترفعا عن

---

708 آل عمران 14.

الرذائل مسيطرا على نفسه ومعتزا بها، فيصل إلى حدود حب الله وطلب رضاه وعفوه.

ب- التوكل على الله واللجوء إليه:

في هذه الحياة نقابل الكثير والعديد من الامتحانات لما كانت عليه حال الدنيا من أنها دار ابتلاء وامتحان كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[709]، وبالصبر فقط نستطيع أن نجتاز هذه الامتحانات والابتلاءات، فكثيرا ما نجد أنّه في موقف نعيش فيه أشد لحظات الحزن بفقد أعز النّاس لدينا، فنشعر بالعجز وعدم القدرة على تحمل الألم وصعوبة الفراق، ولكن بالرغم من ذلك نجد أننا نتجاوز هذه الساعات والأيام ونكمل حياتنا العادية، فكيف يحدث ذلك؟

يحدث ذلك بأنّ الله تعالى خلق الحزن وخلق معه الصبر وأعطاه لمن طلبه، فمن المستحيل أن يطلب الإنسان العون والصبر من الله على ما أصابه ولا يستجيب الله تعالى له، فهو الصبور المطلق الذي يهدي صبره لمن يستحقّه ويطلبه، فلا يستعين الإنسان المؤمن بأي وسيلة أخرى للنسيان وتجاوز محنته وحزنه، كما يحدث مع بعض النّاس الذين يبتعدون عن الله فيبتعد عنهم الله، نجدهم يلجئون إلى وسائل أخرى للغرق فيها ونسيان ما هم فيه، كأن يتجه بعضهم لشربّ الخمر أو تعاطي المخدرات أو محاولة الانتحار أو اللجوء للسحرة والدجالين للتخفيف عنهم وغيره من أشكال البدع والخرافات والفساد والضياع، لأنّه في مكان يبتعد فيه عن الصبور الذي يمنحه الصبر الجميل فتسير حياته على نسقٍ مرتب وتقوى

[709] المائدة من 48.

نفسه على المصاعب فيكون مستحقّا لحمل أمانة الخالق له وهي إصلاح الأرض، ولا أروع من الاحتذاء بالرّسول الكريم فقد كان دائم لطلب الصبر والعون من الله على ما مر به من محن ومصاعب في سبيل تبليغ رسالته للبشرية، فها هو مع صديقه أبو بكر الصديق في غار ثور عندما أوشك المشركين اللحاق والفتك بهم، فقد استعان بالله وتوكل عليه فألهمه الله الصبر والثبات ونجا منهم، وكذلك في خروجه للطائف وتحمله الأذى العنيف من أهل الطائف لم يكن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام مستعينا إلا بخالقه يتصبر بحبه له على ما بلاه، وقد كان الصبر أمرا لازما لكل الرّسُل ليستعينوا به على شدائد الأمور، قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرّسُل وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}[710].

فلتكن يا خليفة الله في الأرض صابرا متوكلا على الله الذي لا يمنحك الصبر غيره فممن تطلبه إلا منه عزّ وجلّ الذي جعلك خليفته في الأرض لتصلح فيها ولا تفسد ولا تسفك الدماء بغير حقّ.

فلابد إذن أن تفرد الله وحده بالرجاء والأمل والعون، فهو الدافع للضر والماسك للخير والمعطي له إذا أراد، قال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}[711]

ج – الصبر يأتي بالنصر:

بما أنّ حياة الإنسان كلها كانت ابتلاء وامتحان من الله كان لابد أن يخلق معه الصبر، ولا يكون الصبر إلا بالحقّ وللحقّ، فعندما يدرك

---

[710] الأحقّاف 35.

[711] يونس 107.

الإنسان المؤمن أنه على حقّ يستمد قوته على التحمل وصبره على الأذى ليقينه بأنه على حقّ ولهذا فإن الله سينصره لأنّ الحقّ دائما هو المنتصر ولو بعد حين، فالصبر إذن يأتي بالنصر أي لا نصر إلا مع الصبر والأمثلة على ذلك كثيرة فمن كان يصدق أنّ رسول الله والصحابة رضي الله عنهم سيفتحون العالم وهم قلة وتجلجل دعوته في الآفاق لولا صبرهم على الشدائد والمصائب كما حدث حينما قام أهل مكة بمقاطعة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام وإخراجه إلى شعاب مكة مع قطع التعامل معهم لسنوات وهم صابرون لم يتراجعوا عن الحقّ المتمثل في الدعوة إلى توحيد الله عزّ وجلّ، وقد كانت نتيجة صبرهم هو ما نراه الآن من انتشار الإسلام في كلّ بقاع الأرض وانتصارهم على جبابرتها.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يستمد حبه لانتصار الحقّ من صبره على الوصول والنضال فيكون بذلك عبدا صبورا منتصرا على الظلم والباطل والفساد، لأن من شأن الخليفة أن يكون معمّرا للأرض ولا يتحقّق ذلك إلا بانتصار الحقّ وزوال الباطل والشر من عليها وهذا يتطلب منه الصبر الكثير والقربّ الشديد من الخالق عزّ وجلّ.

واسم الصبور ينطوي على أسماء وصفات لله تعالى مثل:

الصبور عليم:

صبر الخالق على عباده منبعه علمه المطلق بهم فهو خالقهم والعالم به، فيؤخر عنهم العذاب لعلمه المطلق بما هو أصلح وأنفع، وعلمه يتعدى الظواهر إلى البواطن والخفايا، قال تعالى: {إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى}712، لذلك فقد كان صبره على عباده على أساس ثابت ومتوازن ووفق قانون إلهي عادل، فعلم الخالق بعباده الصادق منهم والمنافق، الكافر

---

[712] الأعلى 7.

منهم والمؤمن، العاصي منهم والمذنب علمٌ حقّ فيوزع على حسب علمه صبره على كل منهم ما يستحقّه بلا زيادة ولا نقصان، وهو بالتالي يعلم مقدما من الذي من عباده سيصمد ويثبت أمام الشدائد ومن هو الذي سينهار ويضيع.

وبالرّغم من علم الخالق المطلق بعباده إلّا أنّه لا يعجّل لهم العقاب أو الثواب، فشدة جحود الكافرين وعصيانهم وظلمهم لم تجعل العليم يغير في توقيت وقوع عقوبته عليهم، وكذلك حبه القوي لعباده المؤمنين الصالحين لم يجعل الخالق يتعجل في منحهم الثواب والخير الكبير والنعيم الدائم، فكان صبره على جميع العباد ولكنهم افترقوا في نتيجة هذا الصبر فمنهم من كان عاقبته سيئة ومنهم من كان عاقبته خير ونعيم، قال تعالى: {فَمِنْهُمْ مَنْ آَمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا}713.

فعلى خليفة الله أن يصبر على تلقي العلم المفيد الذي من شأنه أن يجعله مدركا للأمور وعواقبها، عالما بما هو نافعٌ له في دينه ودنياه، فلا يغفل عن السعي لطلب العمل، ولا يتكاسل عن تنمية حب المعرفة والفائدة، فلا يمكن أن يصل الإنسان إلى التحلي بالصبر وهو جاهلٌ بمزاياه ونتائجه، فالإنسان يصل بالعلم إلى حدود فهم الصبر فهما صحيحا فينأي بنفسه عن العجلة والتهور، لأنّ علمه يكون رادعا له عن التسرع المذموم، ولكن بالعلم نصبر على الأمور وبالعلم نصل إلى معرفة هذا الخلق الكريم،

---

[713] النساء 55 . 57.

ومن هنا كان لابدّ للخليفة أن يصبر على تلقي العلم مهما كانت طريقه صعبة وغير ميسرة له.

الصبور حكيم خبير:

الله الصبور سبحانه وتعالى على ما يصدر من عباده من ذنوب وأخطاء أحيانا يتبادر إلى أذهاننا فورا أنّه سبحانه يترك عبده المسيء الظالم دون أن يعاقبه على ما يقترفه، ولكن في حقّيقة الأمر فإن الله تعالى بصبره يعطينا درسا رائعا في التعامل مع بعضنا البعض، فهو يترك العبد أحيانا يسيء ويخطي في حقّه عزّ وجلّذ ومع ذلك نجده عزّ وجلّ يعطيه ويهب له وذلك لأمرين:

أولهما كي يتمادى في كفره وعصيانه فيستحقّ بذلك العذاب الأشد، كما حدث مع قارون إذ أنّ الله أعطاه من المال والخيرات ما لم يعطه لغيره، ولكنه بدل أن يشكر الله على ذلك ويحمده فقد تجبَّر وأخذه الغرور وجحد نعمة الخالق عليه، ولكن الله لم يمنع عنه نعمته مباشرة بل صبر عليه وتركه يزيد في غروره وظلمه إلى أن علم المولى عزّ وجلّذ بخبرته في تسيير أمور العباد أنه لابد من إنزال عقوبته به، قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي القوّة إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قوّة وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ

فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}714، فالعطاء هنا كان بخبرة الخبير المطلق لكي يفصل بين من تمنوا ما أنعم الله على قارون ورأوا فيه الإنسان المحظوظ وبين من صبروا على عدم امتلاكهم لهذه النعمة، فالصبر فرّق بين الفريقين وخبرة الخبير المطلقة أوضحت هذا الفرق عند حلول العقاب ووقوع الجزاء عليه في الدنيا، ولا يستطيع أن يقوم بذلك إلا من كانت له القدرة الكافية لتدبير الأمور بخبرة وحكمة.

ثانيهما: كي يرجع هذا المخطئ عن خطئه ويتوب:

الخالق عزّ وجلّ بخبرته المطلقة يعلم أنّ من عباده من هو قابل للتوبة والرجوع عن الخطأ إذا أتيحت له الفرصة لذلك، قال سبحانه وتعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}715، فيصبر بخبرته على هؤلاء المذنبين متيحا الفرص لهم، وقد يعود البعض إلى ارتكاب الذّنوب والأخطاء فيصبر عليه الله عزّ وجلّ لعلمه المسبق بما سيكون عليه حال هذا الإنسان بعد حين، لذلك كان صبر الخبير على عباده المذنبين.

فصبر الصبور المطلق ترافقه الحكمة المطلقة لما كان ذلك علاج لأمور كثيرة، فالله المثل الأعلى: فقد نجد إنسانا صبورا لكنه بالرغم من ذلك لا يرى أبعد من أنفه، فلا يستطيع أن يحسب الأمور بشكل صحيح وواضح، فلا يصل لنتيجة مع نفسه أو مع غيره ترضيه وتجعله راضيا أو مدركا، ولكنّ الصبور المطلق هو الذي يرى ويحسب ويدقق ويدرك الأمور

---

[714] القصص 76 . 82.

[715] الشورى 25.

بروية تامة لا تأخذه العجلة ولا التسرع، لذلك لابد أن يجتمع في نفس خليفة الله بالإضافة الصبر الممزوج بالحكمة والوعي التام والعلم المفيد الذي يدعم الحكمة في الإنسان.

فالإنسان الحكيم تجده يعالج أموره من زوايا عدة فلا يضعها تحت زاوية واحدة فقط، بل إنه يقلّبها حيث يجد الأفضل والأنسب لها، إذن فهو هنا يعالج المشكلة بحكمة ولابد أن يصل إلى أفضل الحلول والنتائج، فقد يضطر الإنسان أحيانا في المجتمع أن يقف أمام مشكلة ما بعد أن يستنفذ جميع المحاولات لعلاجها والوصول إلى حل واضح وإيجابي، فلابد وقتها لهذا الإنسان أن يصبر أكثر وأكثر لأن علاجها يكمن في المزيد من الصبر، فتأخذ المشكلة وقتها وتبدأ بالانتهاء، وبذلك تبدأ هذه المشكلة بالتلاشي بعد أن كانت ذات تأثير كبير في نفوسنا، ومثال ذلك حينما يتوفى الله تعالى أحب النّاس إلى قلوبنا، هذا الأمر يكون صعب الاحتمال لشعور الإنسان وقتها أن الموت أمر يصعب تحمله للإحساس المذهل ساعة الفراق، ولكن هذا الأمر الذي كان عظيما كبيرا نشعر أنه مع طول الفترة الزمنية يبدأ بالتضاؤل والصغر في النفوس شيئا فشيئا، وذلك باحتساب الأجر والثواب عند الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الحزن ساعة الموت هو من أكبر الأشياء التي نمر بها في حياتنا الدنيا ويأتي الصبر لكي نقوى عليها ونتجاوزها، فما بالك بمشاكل وهموم الحياة الأخرى.

إذا من الأكيد أنّنا لو استعنا بالصبر والحكمة لاستطعنا حل كافة المشاكل الاجتماعية التي تحيط بنا، ولأمكننا القضاء على الكثير من الأمراض الاجتماعية التي طغت على حياتنا في مجتمعاتنا الإسلامية الحديثة، ولكانت لدينا القدرة لمواجهة أيّ ظاهرة اجتماعية سلبية، فمثلا لو أخذنا بعض الأحداث المنحرفين سلوكيا وقمنا بدراسة حالاتهم بصبرٍ وحكمة وخبرة لكل الدوافع لهم التي من شأنها أن تدفع بهم للوصول لذلك

لكنا قد وصلنا إلى حلول أكثر إيجابية من تلك الموجودة الآن، لأن الصبر على المعرفة والبحث والتقصي هو من أروع وأفضل أنواع العلاج الرادع الذي سيغنينا عن الكثير من المؤسسات الاجتماعية، بل سيكون لدينا طاقات فردية في داخل المجتمع الإسلامي هائلة تفيده وترقى به إلى مكانة مرموقة بين باقي المجتمعات الأخرى، وكذلك نلحظ في حالات كثيرة بين الطلاب في المدارس أنهم يملكون مواهب وقدرة على الإبداع إذا أُتيحت لهم الفرصة لذلك، وذلك لا يحتاج من المربّيين والمشرفين إلا قليل من الصبر والمراعاة لأولئك الطلبة المميزين، لكي نجد أمتنا المسلمة مبدعة منتجة، وهذا من شأنه أن يجعلنا ندرك ما للصبر من جوانب إيجابية ومفيدة تعود على الإنسان وعلى من حوله.

الصبور رحيم:

نستشعر أنّ في صبره رحمة لعباده منهم الكافر والمسيء والمذنب، فبالصبر تتولّد الكثير من الفرص للعباد لمراجعة النفس ومحاسبتها لعلها ترجع إلى الحقّ أو تتوب عما كانت فيه، فتكسب بذلك آخرتها، حتى مع عباده المؤمنين فإن في تعليمهم للصبر والثبات رحمة لهم، إذ أنّه ما من صابرٍ على ابتلاء ومحتسب أمره لله إلّا وكانت الجنّة جزاءا له على صبره، فتتجلى هنا رحمة الخالق بعباده الصابرين، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}716، فقد خلق الله الصبر ليكون عونا للمؤمن فيرضى بنصيبه ويعلم بأن ما من شيء يصيبه إلا فيه خير لا يدركه هو بعقله المحدود، فالصبور سبحانه وتعالى لا يمكن أن يظلم

[716] البقرة 155 . 157.

أحدا من عباده بل هو العادل في حكمه وبين خلقه، فلا يصيب المؤمن إلّا ما فيه الخير، فرحمة الله في صبره تتجلى فيم يلي:

1 . عدم تعجيل العقوبة على العصاة والكافرين:

تبارك في علاه يتجلى لنا المعنى العظيم والعميق لهذا الاسم في أنّه لا يعاجل في عقابه وانتقامه كل مستحقّ لهما، مهما كانت درجة الخطأ والجحود، فقد وصل الأمر ببعض البشر بالتطاول عليه عزّ وجلّ في تشكيكهم في وجوده أصلا مثل الملحدين وأصحاب النظريات التي تُرجع وجود هذا الكون للطبيعة منكرةً بذلك وجود الخالق عزّ وجلّ، والبعض الآخر من العباد الظالمين لأنفسهم والكافرين الذين نسبوا إلى الله الأبناء وافتروا عليه الكثير من الأكاذيب على مر الزمان، قال سبحانه وتعالى: {أَفَأَصْفَاكُمْ ربّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا}717، وكذلك قوله تعالى: {قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ}718، وبالرغم من ذلك فقد أرسل الصبور الرّسُل والأنبياء لهدايتهم وإرجاعهم للحقّ ولكي يصلوا إلى اليقين المثبت في حقّ الله تعالى، مع قدرته سبحانه وتعالى على أن يخسف بهم الأرض في أي وقت، لكنه فتح لهم باب التوبة والتراجع بإعطائهم الفرص المتتالية للإصلاح.

وقد وصلت درجة كفر الكفرة إلى مرحلة يستحقّون معها أن يسخطهم الله في حينها وينزّل عليهم عقابه في وقتها، قال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ

[717] الإسراء 40.

[718] يونس 68، 69.

عِقَابِ}719، وكذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}720، فالخالق عزّ وجلّ قادر على أخذ الكفار في أيّ وقت يشاء ولكن حكمته المطلقة ورحمته وصبره عليهم يؤخر عقابه عنهم في الدنيا، ومن يتمادى في كفره فإن عذاب جهنم ستكون له بالمرصاد، ولن يغفر لهم ولن يعفو عنهم بصبره بل يمهلهم الوقت من رجع للحقّ كان له الفوز والنجاة، فقد نلاحظ حتى في أيامنا هذه أن الكثير من الأوروبيين أو أصحاب الديانات الأخرى يعتنقون الإسلام ويتركون ما كانوا عليه من الباطل، قال تعالى: {وَرَبّكَ الْغَفُورُ ذُو الرّحمة لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}721.

2- خلق الفرص للتوبة لمن أذنب:

هناك الكثير من المسلمين الذين يقترفون الذنوب والكبائر في حياتهم، ويمضي بهم العمر وهم غافلون عن ضياع حياتهم سدىً، ومع ذلك فإنّ الرّحيم بصبره عليهم وعدم تعجيل عقابه لهم على ذنوبهم يمنحهم الفرص المتكررة للتوبة والتكفير عما صنعوه، قال تعالى: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}722، فبصبر الصبور المطلق يريد الخالق أن يصحّح من سير المسلمين ويغفر لهم بحبه الذي يمنحهم الوقت لمراجعة أنفسهم والعودة لطريق الحقّ والصواب، فيأتي صبر الخالق عليهم في

---

719 الرعد 32.

720 الأعراف 182، 183.

721 الكهف 58، 59.

722 النساء 27، 28.

مواجهة إغراءات الدنيا ووسوسات الشيطان الرجيم، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}723، وقوله عزّ وجلّ أيضا في كتابه الكريم: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}724، فكم من ناجٍ من العذاب بسبب صبر الله تعالى عليه مانحا له الفرصة لتغيير مسار حياته أحيانا بكلمة أو موقف أو فعل أو ابتلاء فينجو من عذاب الحريق بالعودة عما كان فيه والتوبة من ذنوبه.

3- ضربّ الأمثال للعباد بصبر رسله:

من كرمه تعالى على عباده أنّ أمرهم بالصبر علاجا لما قد يتعرض له الإنسان من ضيق وبلاء بأشكاله المتباينة، وقد جعل الله عزّ وجلّ الرّسُل صلوات الله عليهم وسلامه أمثلة للصبر على الابتلاءات والمحن، فما من رسولٍ أو نبيٍ إلا وكان الصبر من صفاته، ومن شأن هذا أن يدعّم فينا هذه الصفة، حيث أن الصبر كان وسيلة من ضمن الوسائل التي لجأ إليها المصطفين والأخيار في مشوار دعوتهم ومسيرة تبليغهم لرسالات الخالق عز، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}725، وقوله تعالى أيضا: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا}726، وكأنّ أمر الله بالصبر لرسله علاجا يتعامل به مع الكفرة والعاصين، وليس مجرد

---

[723] المائدة 39، 40.

[724] التوبة 102.

[725] النحل 127، 128.

[726] المزمل 10.

توقيت فيه تأخير أو مماّطلة، وهو عبارة عن مبدأ اعتمد عليه الرّسُل والأنبياء يرتكزون عليه في تحمل معاناة تبليغ الرسالة لتوحيد الخالق سبحانه وتعالى، ولولا ذلك لما بلغت الدعوة إلى توحيد الله هذا المدى بإذنه تعالى، فصبرهم كان سلاحا قويا يدعم شعور النصر فيهم وليس شعور بالضعف والاستسلام والهزيمة، بل أن صبرهم على الشدائد والأذى حتى من أقربّ النّاس إليهم كان نابعا من حبهم لله سبحانه وتعالى وحرصهم على رضاه، فهذا كان حد مبتغاهم مرضاته عزّ وجلّ، ونستطيع أن نذكر هنا أنّ الرّضا متبادل بين الصبور وعباده الصالحين، قال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}727، فهنا يتجلى لنا الحب المتبادل وهو أرقى درجاته وأسمى أنواعه، هذا الحبّ الخالص الذي لا يمكن لإنسان أن يعبد الله تعالى ويصل بحبه له هذه الدرجة من الحبّ إلّا وتجد الله تعالى قد أهداه بين جنبيه قلبا صابرا على الشدائد ممّا يجعل المؤمن صابرا لا يتذمر لعلمه أن صبره في الله لهذا الخالق الذي يحبه ويعظمه، والحبيب يسعى دائما لإرضاء حبيبه، والله لن يضيع صبره أبدا، قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجنّة وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}728، من هنا يتضح لنا حب الله لعباده الصابرين، ومن هنا أيضا نستطيع أن ندرك مصدر القوّة التي يتحلى بها عباده الصابرين، وهو الحب النقي الصادق.

[727] المجادلة 22.

[728] آل عمران 142.

فعلى خليفة الله أن يكون حبه لله دافعا لصبره، محتذيا بالصالحين والأنبياء والرّسُل من قبله، فلا ينكسر أمام حزنه أو يستسلم أمام فشله، أو يضعف أمام مصيبة أو بلاء قد يحلان به، بل عليه أن يستحضر الصابرين في سبيل الله ليشد عزيمته وأن يكون على يقين بأن الله يزيد من محبته لعباده الصابرين، فيكون مضربّ مثل بصبره فلا يستطيع أيٍ كان أن يخترق هذا الحصن المنيع الذي لا يبنيه ولا يعمّره إلا الرضا والقبول بقدر الله ولا يأتي هذا الرضا إلا بحبه.

لذلك فخليفة الله هو عنوان الصبر في الأرض، يتعامل مع أمور دينه ودنياه بالصبر الجميل الذي من شأنه أن ينصره على نفسه أولا وعلى من يؤذيه ثانيا فلا يشعر باليأس لمجرد امتناع حاجة من الحاجات عنه أو نقصها بل أنه يرى في ذلك حب الله له فيكون رده على هذا الحب بالصبر الذي يرتضيه الله لخليفته في الأرض.

الصبور صمد:

الله هو الصّمد وهي صفة دائمة لله تعالى تنطوي تحتها علمه وحكمته وصبره وحلمه، فهو الذي يعطي كل محتاج حاجته بتعجيلها أو بتأخيرها فالعطاء سواء كان عاجلا أم آجلا هو دائما لخير العبد ومصلحته، قال تعالى :{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}729، وبما أنّه الصمد الذي لا يشاركه أحد في ملكه فهو القادر على كشف الضر والأذى عن الإنسان، بالرّغم من أن الكثير من البشر يفتقدون إلى الوصول إلى هذا الحدّ من اليقين الذي يخلق الصبر في نفوسهم قال تعالى: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ وَإِذَا

[729] الإخلاص 1 . 4.

مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}730.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يكون معينا لغيره وملجأ لهم عند حلول الأزمات، ليستشعر غيره بما للصبر من فضائل وفوائد تعين الإنسان نفسه وتجعله معينا لغيره.

واسم الله الصبور يعطينا معنى التسليم له عزّ وجلّ بكلّ شيء، لأنّ الإنسان حينما يصبر على مكروه أو أذى فهو بذلك يسلّم أمره بالكامل لله القوي العزيز، وهنا تتجلى طاعة العبد لخالقه، وكذلك لرسله وأنبيائه المكلفين بتبليغ رسالاته للبشرية، لما كانوا عليه من صبر وحب لله تعالى ويحضرني هنا كمثل لطاعة وحب الله والصبر على الشدائد قصة سيدنا إسماعيل عليه الصّلاة والسّلام مع أبيه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، فبمجرد رؤية رآها سيدنا إبراهيم بأنه يذبح ولده بأمرٍ من الله تعالى وبالرغم من حبه الشديد لابنه إسماعيل إلا أنه أخبره بما رأى وامتثل ابنه لأمر الله، ففي هذا الموقف نستشعر مدى عظمة الصبر والتضحية، وعظمة مكافأة الصبور لهما جزاء صبرهما على ذلك الأمر، قال تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فأنظر مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}731، أحب سيدنا إبراهيم ولده إسماعيل حبا كبيرا لكنّه أحبّ الله أكثر فصبر على أمره وأطاعه، وصبر سيدنا إسماعيل على مصيره لعلمه برحمة الله وحبه،

730 يونس 11، 12.

731 الصافات 102 . 111.

فكان الله رؤوفا رحيما بهما مكافأ لهما على صبرهما فهو الكريم الذي لا يظلم أحدا أبدا.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يسلّم أمرّه لله تعالى، ليتعلم كيفية الصبر على البلاء، لأنّ نفوسنا البشرية أحيانا تخوننا عند حلول الأزّمة أو وقوع البلاء، فإن لم يستطع الإنسان الصبر فعلى الأقل يجب أن يحاول التصبر، وأن يدربّ النفس على الصّبر ويهيئها لتحمل الشدائد والمصاعب، فلو أنّ كل مسلم تعرض للأذى والبلاء على يد غيره من أعداء الإسلام قد استسلم وانهار لما امتلأت الأرض بالمجاهدين والشهداء والمدافعين عن الإسلام، فمثلا لو أنّ أهل بيت المقدس تركوها من شدة المعاناة والضغط عليهم من اليهود لما وجدنا أثرا للإسلام هناك ولا مطالبا بعودتها للمسلمين، ولكن بصبر أهلها وجلدهم وإيمانهم بالله تعالى جعل الأمر أسهل على قلوبهم لتسليمهم الأمر لله خالقهم وطاعتهم له في كل شيء.

فلو أنّ كل إنسان عوّد نفسه على الاستسلام لله فقط والطمأنينة والراحة في ظله عزّ وجلّ لأراح نفسه من مسألة الغير والاعتماد على بعض النّاس في حل أموره، فيصبح بذلك حرا معتزا بنفسه راضيا بنصيبه، ولما كنا سند هذه الدرجة من القلق والتوتر اللذان يسودان المجتمعات المسلمة هذه الأيام، فنجد الخوف يتصاعد في النفوس وعدم الإحساس بالأمان وتصاعد القلق النفسي بين الشباب بصفة خاصة مع أنه لابد أن يكونوا مثالا للصبر والجلد والقدرة على الاحتمال.

وقد حبا الله عباده المتقين بصفة الصبر، تلك الصفة النبيلة الكريمة التي إذا انغرست في النفس البشرية تنبِت صفة الإيثار والتضحية، فالإنسان يصبر أحيانا على أذىً يأتيه من أحب النّاس إلي قلبه وأقربّهم إليه، ويتقبله برحابة صدر وطيبة خاطر ليعلّم هذا المخطئ أن يكون متسامحا عطوفا، فيقابل هو بدوره الأذى بإحسان، فكثيرا ممن يسيئون لأقربّائهم وفي المقابل

حين احتاجوا أولئك المسيئين للعون وجودوا من أساؤوا إليهم يمدون يدّ المساعدة والعون لهم على طبق من الحب والتسامح، والأمثلة في الدنيا وبين البشر على ذلك كثيرة، فمثلا أروع ما يمكن أن نضربّ به المثل في هذه الحالة هي الأم، فهي تفني أيام عمرها وزهرة شبابها في تلبية متطلبات أبنائها وخدمتهم أطفالا وكبارا على السواء، ولكن في كثير من الأحيان والأحوال يقابل هذا الآن الحب والعطاء والتضحية بالنكران والقسوة والجحود، فيتجسد الصبر على هذا الشعور في شخص الأم، في احتمالها لهذا الأذى النفسي الذي من شأنه مثل هذا الرد أن يسبب صدمة نفسية عليها، حيث إن ولدها جزءٌ منها لا يمكن الاستغناء عنه، سواء كان بيولوجيا أو عاطفيا، فتصبر الأم وتصبر مع اختلاط صبرها بدعواتها بالخير والصلاح والهداية له، وأن يرزقه الله ويوفقه ويعطيه من نعمه، فهنا الأم تجسد الصبر على شديد الاحتمال وصعب التحمُّل فيصبح الصبر هنا قمة العطاء وقمة التضحية، فبذلك نخلص إلى أن صبر الأم على أبنائها نابعٌ من شدة الحب الذي يحمله قلبها لأبنائها هو منبع السكينة والرضا على أذى من تحب، إذن الصبر هنا يعكس فوائده الصحية على نفس الأم التي لولا صبرها الذي منحها الله به لكان عقلها لا يحتمل هذا الجحود، لأنّه من الصعب أن تعيش الأم صدمتها في أغلى النّاس على قلبها في الدنيا، فهذا الصبر أحدث التوازن النفسي الذي منع الضرر الصحي والعقلي أن يصيب أي أم تعاني من هذا الأمر الذي أصبح أكثر شيوعا في عصرنا هذا.

فالصبر بالأساس هو عنوان التضحية والإيثار على النفس والدافع هنا راقٍ جدا، فكم من صابر في الدنيا على كثير من أذى الأحبة لأنّه يؤثرهم على نفسه، والصبر هو الذي أعطاه هذا الارتياح والرضا، فيصبح إنسانا متصفا بالكرم والعطاء ألّا محدود، ويجعله واثقا بالله عزّ وجلّ

فيستشعر بقربّه منه دائما ودعمه له ممّا يمنحه القوّة والمناعة ضد أي مرض نفسي يؤدّي في نهايته للدمار أو الفساد أو الضياع، كما نلاحظ في المجتمعات الأوروبية بصفة عامة تزايد نسبة الانتحار، إذ أنّهم يصلون لمرحلة يأس وضيق ووحدة لا يمكن أن يشغلها إلّا حبّ الله والقربّ منه، على عكس عباد الله الصالحين الذين حتى مع ضيق الحال تجدهم أصحاب عطاء وتضحية وتسامح وحب، مثلما ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}732، فطبيعة البشر تجعلهم من محبي المال والدنيا ولا يكتفون من حب المال رغم سعة الحال عليهم، ولكن من كان يبتغي وجه الله وهم عباده المخلصون فإنهم بالرغم من ضيق الحال تجدهم يكرمون غيرهم ويؤثرونهم على أنفسهم لما تحلوا به من صبر على ضيق الحال.

ومن هنا نستطيع أن ندرك أن الصبر يجعل الفرد يشعر بقيمة أخيه في المجتمع بعطائه وحبه، والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

إن أبا بكر الصّديق رضي الله عنه كان معطاءا كريم النفس، لا يبخل حتى ولو كان ما يعطيه هو آخر ما عنده أو هو بحاجة إليه، فعندما هاجر مع الرّسول- فسأله الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ماذا أبقيت لأهلك؟ قال رضي الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله. مع علمه بما في نفوس مشركي مكة من حقّد وضغينة على الرّسول عليه السّلام وعلى من اتبعه، ولكن نفسه الصادقة وروحه الطيبة المؤمنة صبرت على ذلك وتحملت في سبيل حبه لله ورسوله الأذى الشديد.

---

732 الحشر 9.

وخليفة الله في الأرض عليه أن يصل بتفكيره إلى أنّه إذا كان الله تعالى هو الصبور مع قدرته وغناه عن الخلق، ومع هذا فهو الذي يصبر على أذاهم وعصيانهم وتجبرهم، فما بالك بالإنسان.

فلو كل إنسان استوعب هذا الاسم بالشكل الصحيح لتخلق بأحسن خلق ولحمل أروع قلب وأصفى نفس ولكان معلما لغيره، فيسود الصّفاء والنقاء بين الأفراد ولأصبحنا وسط كون فاضل وليس مجرد مدينة فاضلة كالتي نادى بها بعض من الفلاسفة، ولكن لنقص فهم وإدراك الكثير من البشر لهذا الاسم الفاضل، فإن اسم الصبور لابدّ أن يكون موعظة لنا ودرسا في الحياة، فلو استوعبت الأمة هذا الدّرس جيدا وصبر كل فرد على أذى الآخر فبذلك يعطيه الفرصة للندم والتراجع عن ذلك، بل وقد يصبح صديقا له على مدى الأيام، قال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}[733]، فالفرد هو مخلوق يحمل بين جنباته قلبا ولابد أن يكون في داخل هذا القلب ولو نقطة نور وضياء بجانب الكثير من السلبيات والظلام، فمن الممكن أن يكون صبرنا عليه بمثابة فرصة لاتساع هذه النقطة إلى أن تعم القلب بأكمله، ولا ضرر من المحاولة، ولكن أصبح لدينا نحن المسلمون بفضل هذا الاسم العظيم مجتمعا متسامحا متحابا لا مكان للعداوة والبغضاء، فيزرع المسلم الصبر ويحببه في قلوب المسلمين عندما يصبر على أذاهم ولا يستطيع أن يصل المسلم لهذه الدرجة إلّا بالتقربّ إلى الله تعالى بالصّلاة والطاعات والصدقات، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاة وَممّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ

[733] فصلت 34، 35.

حقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}734، وكذلك قوله تعالى: {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاة وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}735، فمن الأمور التي تعودنا الصبر هي :

أ- حب الله:

إذا انغرس حب الله في نفس المؤمن فإنه يستطيع أن يواجه العالم بأسره وينتصر، وقد بشّر الصبور المطلق الصابرين لعلمه بصعوبة الصبر، فوعد الصابرين بالجزاء العظيم مكافأةً لهم على ما كابدوه وعانوه ليصلوا إلى إمكانية الصبر، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}736، فكم من مبتلٍ في هذه الدنيا منحه حبه لله الصبر على معاناته ومحنته، وأروع مثال على ذلك صبر آل ياسر على أذى وعذاب كفار قريش، فقد تجلى فيهم أروع صورة للصبر والتضحية في سبيل الله، إذ أنّ الله تعالى بشّرهم بموعدٍ في جنة الخلد على لسان رسوله الكريم حين خاطبهم قائلا وهم تحت وطأة العذاب: (صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنّة)، فاستحقّوا بصبرهم هذا الوعد وهذا التكريم من الصبور الذي

734 الأنفال 2 . 4.

735 الرعد 20 . 24.

736 البقرة 155 . 157.

أمدهم بالصبر والثبات في قلوبهم، فانتصروا بهذا الثبات على جميع كفرة قريش وجبابرتها.

وعندما يصبر الإنسان فمعنى ذلك أنه قد فوّض أمره لله تعالى وتوكل عليه، ولابدّ أن يكون الخالق عند حسن ظن عبده به، فإذا سأله النصر أعطاه، قال تعالى: {بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ}737.

ب- الصّلاة:

فالمداومة على الصّلاة من شأنها أن تعوّد المؤمن الصبر، فلا يتذمر من تكرار الصّلاة ولا يتثاقل عنها ولا يكسل بل يقوم إليها بحب ويصبر على كل أمور الدنيا لكي لا يتلهى عنها، بعكس المنافق الذي لا يملك حبها أو الصبر عليها، قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصّلاة قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النّاس وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}738، فالصّلاة من الأمور التي من شأنها أن تعوّد النفس على الخشوع والطاعة لأمر الله وتقربّ بين العبد وربّه، وهذا القربّ هو الذي يولّد الصبر في النفس المؤمنة الراضية بقضاء الله، فالصّلاة إذن هي بمثابة تمرين للنفس على الصبر والخشوع، وقد أوصى لقمان ابنه بالمداومة على الصّلاة لما وهبه الله من حكمة وصواب رأي وبعد نظر فكان حكيما صائب الرّأي، قال تعالى: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصّلاة وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}739.

---

[737] آل عمران 150.

[738] النساء 142، 143.

[739] لقمان 17.

ج- الصّوم:

من المعروف أنّ الإنسان محب للطعام ومستحقّ له، والتنوع في الأطعمة جعلت الإنسان يشتهي ويتلذذ بها، بل ويكثر من طلبها كحاجة ضرورية له، وقد فرض الله عزّ وجلّ الصيام وهو ترك الطعام من الفجر إلى غروب الشمس، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}740، وهذا بالتأكيد توقيت طويل بالنسبة للإنسان الذي اعتاد الأكل في أكثر من مرّة في اليوم، وهذا الركن فيه تعوّد وتصبير لشهوة الطعام في الإنسان، إذ بصبره على الأكل حبُ لله وطاعةُ لأمره مع الاحتفاظ بهدوء النفس وعدم التذمر والضيق والعصبية، ففي كلمة (اللهم إني صائم) عند مواجهتنا لأمر يستفزنا من شأنها أن تعوّد أنفسنا على مقابلة الإساءة والصبر عليها باللجوء إلى المولى عزّ وجلّ، فننأي بأنفسنا عن الانحطاط الأخلاقي، ولذا فقول الصائم عندما يرى ما قد يضعفه (اللهم إنّي صائم) تعني التمسك بقرار الصبر على إتباع الحقّ، وذلك لأجل الفوز بما هو أعظم.

ففي الصيام تدريب جسدي ونفسي للصبر، فلابدّ أن نصبر على الطعام طاعةً لأمر الله تعالى، وأن نصبر على أذى غيرنا يكبح النفس عن رد الإساءة، وكذلك الصبر على شهوة الجنس طوال ساعات عديدة، قال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ

740 البقرة 183، 184.

الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}741، فالصبر الجنسي من شأنه أن يعوّد المؤمن على كبح شهواته والتحكم فيها، فمن يستطيع أن يكتم ويسيطر على شهوته ورغبته الجنسية طوال ساعات وأيام يستطيع أن يصبر العمر كله أمام مغريات الشهوة.

الصبور المطلق: هو معطي الفرصة لمن انحرف عما يقول وقوله الحقّ، والصبور بالإضافة هو الذي خلقه الله قوّة وخلق فيه الحاجة التي تضعفه إن لم يتحصّن بالصبر، فبالرغم من خلقه له في أحسن تقويم، إلّا أنّه خلقه على الحاجة التي تتعدد وتتنوع وتتطور، أي خلقه في حاجة للهواء والماء والأكل والجنس، وغيرها كثير، ويريده أن يكون صبورا، من أجل بلوغه الهواء الذي له الحقّ فيه، والماء الذي له الحقّ فيه، والأكل الذي له الحقّ فيه، والزواج الذي له الحقّ فيه فسبحانه الصبور الذي جعلنا على الصبر وبالصبر نبلغ غاياتنا ونحن في عزّة وعلى مكرمة منه .

د- الصدقات:

في الإنفاق عدة مزايا تعود على صاحبها وعلى غيره، فالمتصدق يعوّد نفسه على حب الله أكثر من أي متاع آخر من متاع الحياة الدنيا، فيتحرر بالإنفاق والتصدق من سيطرة حب المال والشح عليه، ومتحررا من هذا النوع من العبودية كان صابرا في حال فقدانه لما يملك من أموال ومدخرات، فلا نراه فاقدا للعقل أو متزعزع الثقة بالله عند حلول هذا الأمر عليه، بل نراه ثابتا محتسبا أمره لله لعلمه أنها أمانة ووديعة تركها الخالق لديه وأراد استرجاعها، فبتعوّده على الإنفاق يسهل عليه المال فلا يتعلق به،

---

741 البقرة 187.

قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}742، فالخالق يحبّب عباده المخلصين في الإنفاق بأن يضاعف لهم الحسنات ويدخلهم نعيمه الدائم.

فالصدقات وحب الإنفاق من شأنها أن تعوّد الإنسان على الصبر على فقدان ما يملكون من مال دون أن يكون ذلك له أثر سلبي في نفوسهم التي امتلأت بحب الله الذي يمنحهم الصبر على فقدان متاع الحياة الدنيا.

وهناك نوعان من الصبر، منه الصبر الطيب الذي يملأ القلب بالرضا والطاعة للخالق عزّ وجلّ، قال تعالى: {فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا}743، فمن شأن هذا النوع من الصّبر أن يُشعر الإنسان بالراحة النفسية والطمأنينة، فيصبر الإنسان على ما يصيبه وهو راضٍ ومطيع، فالصبر الطيب هو الذي لا يصحبه حزن أو هم ولا يرافقه اليأس أو الإحباط، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}744.

وقد كان الله صبورا على أفعال البشر الإيجابية والسلبية، فلو أخذنا مثلا صبره على أفعال عباده الإيجابية لوجدنا أنه عزّ وجلّ يقابل كل ما هو طيب صادر عن عباده من قول أو فعل بالجزاء الأوفى، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}745، وذلك

---

[742] التغابن 16 . 18.

[743] المعارج 5.

[744] النحل 127.

[745] هود 11.

درسٌ وعبرة لخليفة الله لكي يصبر فيكون في صبره هذا شكر للمولى عزّ وجلّ، فيجتمع هنا الصبر مع الشكر، حيث قال الله تعالى: {اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}746، لأنه من الصعب اجتماع الصبر مع الشكر في قلب الإنسان العادي الذي تشغله الدنيا فيسعى خلفها لاهيا غافلا لا يهمه إلا الحصول على مبتغاه، ولكن عند خليفة الله في الأرض يجتمع الصبر مع الشكر فيقوى الإيمان، حيث أن الخليفة يصبر على الشدائد وهو شاكر لله فضله يكون بذلك قد نأى بنفسه وارتقى بها إلى أعلى درجات الحب والطاعة للخالق تعالى، وهذا الأمر الذي يشق على كثير من المسلمين وخاصة في وقتنا هذا، ولكن الشكور المطلق يكون أكثر كرما من الإنسان وأكثر عطاءا إذ أنّه يرد على شكر الخليفة وصبره بالنعيم الخالد الذي كان يتمناه في الدنيا، بالرغم من غنى الصبور عن شكر وصبر الإنسان، لكنّه كريم صبور في عطاياه ورد الشكر للخليفة، فعطاؤه لا ينتهي فهو إذن صبور في تكرار واستمرار منح وعطاء ورد الشكر والمحبة.

هذا هو النّوع من الصبر الذي يجتمع فيه الأمل بالفرج والرغبة في المحاولة للوصول إلى ما يطمح إليه الإنسان ولا سبيل لأن يصل إلى مبتغاه إلا بالتوكل على الله والصبر الجميل، قال تعالى: {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}747، فقد قرن الله تعالى في الآية الكريمة السابقة بين الاستعانة به والصبر وبين خلافة الإنسان للأرض الذي هو الهدف الأساسي لخلق الإنسان في الأرض، فبالصبر والتوكل على الخالق عزّ وجلّ نكون قد حقّقنا الغاية من خلقنا وبذلك تكون حياتنا كما أرادها الخالق عزّ وجلّ، فيكرمنا من عنده بمدنا

---

746 سبأ 13.

747 الأعراف 128.

بالصبر والجلد، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ : "مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَا أَجِدُ لَكُمْ رِزْقًا أَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ"748.

وهناك نوع من الصبر يكون مصحوبا بالتذمر والضيق، أي يكون على عدم رضا من الإنسان فيضيق صدره بما حل به أو نقص عليه، فتراهم لا يحتملون الشدائد ولا المحن التي من الطبيعي أن يمر بها النّاس في حياتهم الدنيا وكأنهم الوحيدون الذين أصابهم الحزن والهم.

وقد خص الله تعالى الصابرين الراضين والمطيعين بمزايا منها:

1- ينزّل الله رحمته عليهم فيصيبهم بالأمن والطمأنينة، قال تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}749، فرحمة الله تعالى تكون بمثابة الطمأنينة والسكينة التي تسكن قلوب الصابرين حبا في الله.

2- استحقّاق البشرى:

فبصبرهم استحقّوا بشراه كهدية لهم جزاء صبرهم، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}750، فطوبى لمن استحقّ بشرى الخالق، لما فيها من مكرمة ورفعة للإنسان عند ربّه، فالصبور لا يمنح بشراه إلا لأقربّ عباده.

3- مد الله الصابرين بالعون والمساعدة، قال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا

[748] مسند أحمد، ج 2، ص214.

[749] البقرة 156، 157.

[750] البقرة 155.

اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}751.

4- الجزاء الكبير المجزي:

فقد خص الله تعالى عباده الصابرين بالجزاء العظيم، قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}752.

5- تعليمهم الدعاء:

قال سبحانه وتعالى: {وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}753.

فيجب على خليفة الله أن تكون حياته صبرا جميلا يملؤه الأمل في أن يكون ممن استحقّوا بشرى الخالق بالجنّة والنعيم الدائم، فينتصر على اليأس بإيمانه بالقدر والقضاء من عند الله تعالى، فيتقبل الفرح والحزن والضيق والفرج بكل حب وطاعة، فلا يأخذه الغرور عند العطاء ولا يأخذه الحزن واليأس عند الضيق والنقص، فيكون ممن ذكرهم الله في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ

---

751 آل عمران 146 . 148.

752 النحل 96.

753 الأعراف 126.

يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}754.

6- زرع الطمأنينة في قلب الصابر:

الإنسان بطبيعته عجول لا يحب الانتظار ولا يطيق أن يطول به الوقت عند عزمه لقضاء أمرٍ ما، وبطبيعته أيضا أنه مخلوق لا يهدأ ولا يستكين بسهولة ولا تنقطع متطلباته في الدنيا، فلا يقنع بأي شيء ولا يرضى بأي حال، قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}755، لكنّ المؤمن الحقّ لا تكون من صفاته الخوف والجزع واليأس بل يهبه الله تعالى الصبر والرضا ويملأ فؤاده بالطمأنينة التي يبحث عنها ملايين النّاس الذين يبتعدون عن خالقهم فيبتعد هو بالتالي عنهم، فلا يأتي الشعور بالأمن والطمأنينة من إنسان مشغول قلق كل همه جمع ما يرغب في الدنيا متناسيا أنّها زائلة وفانية، فيتملكه اليأس والجزع لضياع ما كان له وكأنه تناسى أنه من عند الله الخالق القادر على كلّ شيء.

أنواع الصبر:

أوّلا: صبر على ممّارسة الطّاعات والعبادات:

قد يتبادر على ذهن المؤمن أنّ في المداومة على القيام بالعبادات اليومية كالصّلاة والاستغفار وقيام الليل والحمد والصيام هو أمر هيّن على كل النفوس المسلمة ولكن هذا غير صحيح لأنّ من شأن هذه العبادات والطاعات أن تجعل من بعض المسلمين في ضيق وملل منها، فنرى البعض يهملها أحيانا أو يقوم بها وكأنّها عادة يومية أو غرض عليه الخلاص منه،

754 الرعد 21 . 24.

755 المعرج 19 . 21.

فتكون صلاته عبارة عن عبارات وحركات يؤدّيها في اليوم ويكررها، ولكن في الوقت نفسه نجد هناك من المؤمنين من يقوم بها بكل صبر وحب في نيل رضا الله تعالى عليه، فيسارع إلى القيام بكل ما عليه من فروض وواجبات دينية ويتعداها إلى النوافل بل ويداوم عليها حبا في الله ورسوله الكريم – – فلا يؤخره هطول المطر عن الخروج لصلاة الفجر ولا يتكاسل عن قيام الليل بحجة النعاس أو التعب أو البرد الشديد، وهذه الأعمال تحتاج إلى الصبر الطيب للمداومة عليه وعدم قطعها.

ثانيا: الصبر عن الخطيئة:

حياة البشر في الدنيا مليئة بالإغراءات التي من شأنها أن تؤدّي بالإنسان إلى الهلاك، وبخاصة أنّه مخلوق ضعيف أمام الشهوات والأهواء لوجود الشيطان الذي يزيّن له هذه الأمور ويحببها لنفسه، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}756، فمن النّاس من يسيطر عليه حب المال فلا يملك الصبر لفراقه أو الإنقاص منه، يفوق حبه في قلب صاحبه عن كل حب، وأحيانا نجد من يضعف أمام النساء فلا يملك نفسه أمام إحداهن فيقع في الرذيلة، قال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ

[756] آل عمران 14.

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}757، مع أنّه لو صبر وثبت لكان الله أثابه ووهب له الخير الكثير، وتارة نجد من يعشق اكتناز الذّهب والفضة وكأن حياته موقوفة على ذلك، فلا يبحث عن الأمان والهدوء إلا في ظل وجودها، لذلك فقد كانت حياة المؤمن تعدد وتكرار لامتحانات وابتلاءات عليه تجاوزها بالصبر والجلد عليها، فيكون الإنسان في جهة ورغبته في جهة أخرى يعارضها ويقف أحيانا ضدها إذا أمرته بالسوء والفساد، ولا يسيطر المؤمن عليها إلّا إذا كان متعادا على الصبر ومتمرس على الجلد والثبات في وجه كل مفسدة ولا يدعم هذا الموقف الثابت إلا حب المؤمن لخالقه وسعيه لطلب رضاه ومغفرته.

ثالثا: صبر على القضاء والقدر:

القضاء والقدر أمر من الله يقع على الإنسان، ولكلّ إنسان قدره وقضاؤه يقدّره الله عليه حسب علمه المسبق وحكمته المطلقة في خلقه، لذلك لا يجب على المؤمن أن يوقع نفسه في مقارنة بينه وبين أي مؤمن آخر أعطاه الله ومنحه من نعمه الكثير الكثير، فلابد أن يكون الإنسان المؤمن على يقين بأن الله تعالى عادل في توزيع نعمه وعطاياه على خلقه، سواء كانت صحة أو مال أو جمال أو قوّة أو سلطان أو غيرها، فالصبر على القضاء والقدر يُخلق في نفس المؤمن ويكون من دعائم ثبات الإيمان واليقين بحب الله ورحمته بنا، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}758، فيكون الرضا هنا نابع من طاعتهم لله وإيمانهم بحبه لهم، آملين في نيل رضاه وجنته، ونستطيع أن نرى

---

757 النساء 25، 26.

758 البقرة 155 . 157.

تجسيد هذا النوع من الصبر في أسرى المسلمين الذين يقبعون في سجون الأعداء يلاقون أشد أنواع التنكيل والعذاب، لا ذنب لهم إلا أنّهم يدافعون عن الحقّ ويتمسكون به، فنراهم أكثر صمودا من غيرهم وأشد صبرا على البلاء، فلا يضيق صدرهم ولا يتنازلون عما آمنوا به، بل نلاحظ أنّ إيمانهم يزداد ويكبر في ظل هذه الظروف فيزدادوا شدة وصبرا وقوّة منبعها أنّ هذا هو قدرهم الذي كتبه الله عليهم.

والخليفة يكون صبره لشيئين عما يحب ويرغب، وصبره عما يبغض ويكره، وهناك فرق بين النوعين، لأن الصبر عما نحب يستوجب منا جهدا نفسيا شديدا وجهادا صعبا لا يحتمله إلا أصحاب القلوب الشديدة الإيمان والمطواعة لله، كأن يصبر المؤمن على فقدان أعز أحبابه سواء بالموت أو حتى في الحياة، وهناك النوع الآخر من الصّبر وهو الصّبر على ما نكره إذ لا خيار لنا إلّا الصبر كأن نصبر مثلا على المرض والنقص وغيرهما، ولا يمكن للخليفة في الأرض أن يسلك طريق الجنّة بسهولة ويسر ذلك لأن طريقها مليء بالشدائد والمصاعب والابتلاءات، فالمحب لهذه الجنّة ومن يرغب في الوصول إليها منحه الله الصبر على تخطي هذه الطريق، لأنه بدون الصبر والثبات لما استطاع إنسان أن يصل إلى جنّة الخلد.

وخليفة الله عليه أن يكون ثابتا صابرا، لكي يحيا بسلام وأمن فلا يصاب أي هزة نفسية أو عقلية عند تعرضه لمحنةٍ ما فيُهْزم أمامها وينحني، بل عليه أن يسلك طريق الصابرين ويتعلم من الخالق الصبر الحقّ الذي يملك معه المقدرة والقوّة ولكنه يلجأ إلى الصبر في علاج أغلب الأمور، وعلى خليفة الله أن يكون بعيدا كل البعد عن العجلة والتسرع لأنهما طريقا الشيطان ينتهيان به إلى الندم والدمار، فلا مبرر للعجلة ولا مبرر لوقوع ضررها عليه، كالذي يبرر وقوعه في الزنا لتأخيره في الزواج، قال

تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا}[759]، فلو كان هناك مبررا لوقوعه فيه لما استحقّ عقاب الله عليه، وكذلك من يزهق حياة إنسان بحجة العصبية والتهور والغضب، وغيرها من الشرور التي يقع الإنسان فيها بسبب التهور والعجلة، والمتهور دائما ضعيف بعكس الإنسان الصّبور الذي يمتلئ بالقوّة والثبات، لأنّ الإنسان الضعيف سينتهي حتما بالفشل والدمار، لأنه لم يستطع التحمل وانسحب من مواجهة الحياة والقدر وحتى من مواجهة نفسه.

من هنا يتضح لنا نتاجه النفسي بأنه يحقّق التوازن النفسي بأن يصبح الفرد لديه قدرات هائلة، لأن الصبر بحد ذاته طاقة جبارة علينا أن نستفيد منها داخل أنفسنا لتشكل في المجتمع النفوس السليمة الصحيحة السوية، التي تبعد كل البعد عن اليأس والإحباط، الذي من شأنه أن يدمر الأفراد ويزداد في بعد العبد عن خالقه عزّ وجلّ.

وخليفة الله في الأرض هو من أدرك أن الصبر من مكارم الأخلاق ومتمّماته، فلا يكمل الخُلُق إلا إذا تحلى المرء به، وجعله رأس خُلُقه وبذلك من المستحيل أن تفسد روحه أو تضيع في الحياة الدنيا، فلا ضير من أن يحبس الإنسان شهوته في غير وقتها أو أن يسيطر على نفسه فيمتلكها ويستطيع البذل كأن يكون قائدا لها يقودها إلى النصر في كل معركة يدخل فيها مع المحن والشدائد والبلاء.

والصبر في حقّ الخالق ليس محدودا في الدنيا ومقتصرا عليها، بل إنّه صبور حتى يوم يقوم الحساب، إذ أنه سيحاسب كل من خلق منذ بدء

---

[759] الفرقان 68، 69.

الحياة إلى منتهاها، ولن يكون الحساب جماعيا بل أن كل فرد مسؤول أمام الله عن أقواله وأفعاله مهما صغرت أو كبرت، قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}760، أي أنّه صبور في حسابه لا يعجّل العقاب على مذنب إلا بعد حسابه حسابا دقيقا، ويُدخل جنان الخلد من وعدهم بها إذ أنّ وعده هو الحقّ.

وهو صبور حيث إنّه ستّار يستر زلات المسلمين يوم القيامة، كما ستره في الحياة الدنيا فكم من عظمة وقوّة تتجلى في صبره المطلق!

لذلك لابد أن يكون ذلك دافعا لخليفة الله في الأرض أن يتميز عن باقي البشر بالصبر الطيب في كل تفاصيل حياته اليومية، بدءا من التعامل مع زوجته وأبنائه وجيرانه ورحمه وصولا إلى تعامله مع أصدقائه في العمل ورؤسائه فيه، فيكون صبره نابعا حقّا من عمق إيمانه فيعزز ويقوّي الخليفة في كل أوجه الحياة، لأنه يكون قد وصل إلى درجة الإبداع في الأرض لما يملكه من علو الهمة، ويشكّل صبره وقتها حافزا ودافعا قويا للوصول إلى أهدافه، فلا تقهره الحياة فلولا الصبر على التعب لما أحسسنا بروعة الراحة ولما وصلنا إليها، ولولا الصبر على المرض لما أدركنا نعمة الصحة، ولولا الصبر على الحزن لما انبثق النور في جنباتنا من مفاجأة الفرحة لنا، ولولا الصبر على جهد ومشقة العمل اليومي لما توفر لدينا المعيشة الكريمة، ولولا الصبر على نعم الخالق في حياتنا لما استطعنا شكره وحمده على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}761، وكلما زادت النعم تطلب ذلك من الإنسان الشكر والحمد الكثير، على عكس ما تُحْدثه هذه النعم في نفوس

---

[760] الأنبياء 47.

[761] النحل 18.

كثير من البشر، إذ أنها تلهيهم وتجعلهم متجبرين وظالمين بها لغيرهم، وهذا منبعه الجهل باسم الصبور وبصفة الصبر، التي هي رأس المكارم فلا يصل المؤمن إلى مكرمة أو مكانة سامية إلا بالصبر الطيب الذي من شأنه إعمار وإصلاح كل نفس فتصلُح بذلك الأرض ونصل إلى رضا المولى عزّ وجلّ علينا بتحقّيق الغاية السامية من خلقنا.

والصبر لا يكون فقط على أصحاب الحاجة أو من نقصت عليهم نعمة من النعم، بل الصبر يكون حتى على أصحاب النعم والخيرات، ولعلهم أشد احتياجا للصبر من ذوي الحاجات، ذلك مثل ما هو آتي:

1 . الفقر والغنى:

الفقير الذي يحتاج إلى عون غيره لكي يستطيع العيش فعليه بالصبر على حاجته للناس، إذ أنّه لا يمكن أن يستغني عنهم لعدم قدرته على الاعتماد على نفسه، وهذا بحد ذاته يتطلب صبرا كبيرا يعينه على تحمل هذا الوضع، لأنّ البشر ليسوا سواء في حب الإنفاق والتصدق، ومن هنا كان لابد للفقير من أن يصبّر نفسه عن ارتكاب الجرائم أو اللجوء للطرق غير الصحيحة للعيش أو حتى أن يكون حاسدا للغني على غناه، بل عليه أن لا يتذلل للخلق ويصبر على قدره، قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَربًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النّاس إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}[762]، فبالصبر يتمكن حتى الإنسان الفقير المحتاج إلى كسب احترام النّاس ورضا الله الكريم الخبير، في حين أنّه في حالة الإنسان الذي أكرمه الله تعالى بالمال والخير الوافر فهو يحتاج إلى الصبر أكثر من الفقير.

[762] البقرة 273.

لذلك فإنّ الغني أشد احتياجا للصبر من الفقير، نظرا لامتلاكه أسباب التمتع واللهو في الدنيا، فعلى خليفة الله في الأرض ولو أنه امتلك المال والجاه والسلطان أن يتذكر صبر الله على عباده مع امتلاكه القدرة والسلطة والهيمنة عليهم، فيصبر بذلك الخليفة ويجعل من هذه النعم طريقا ممهدا أخضرا يوصله لفضيلة الصبر لا الجبروت والتكبر والظلم.

2. المرض والصحة:

في العادة الإنسان لا يشعر بقيمة صحته إلا إذا المَّ المرضٍ به، فيتذكر شكر الله على ما كان فيه من نعمة كبيرة، ولا يكون أمام المرء عند نزول المرض به إلا الدعاء لله والرجاء بزوال هذا المرض عنه، وأن يمنحه الصبور الصبر من عنده لتحمُّل الآلام والمعاناة، فالمرض من شأنه أن يعوّد الإنسان على الصبر والأمل في فرج الله تعالى، ولذلك يكون الإنسان الصحيح بحاجة إلى الصبر أكثر من العليل ذاته، فيكون صابرا على مداومة شكر الله على الصحة فلا ينقطع ولا يغفل عن ذلك.

فالمرض والصحة كلاهما بحاجة للصبر والثبات، وخليفة الله بالإضافة هو من كان صابرا على الألم مستحضرا سيدنا أيوب ورحلة معاناته مع الألم الذي رافقها الصبر والثبات عليه، ومستحضرا جزاء الخالق له، وكذلك أن يكون شاكرا للمولى عزّ وجلّ على دوام الصحة وحامدا له عليه ليل نهار.

3. الضعف والقوّة:

البشر يتفاوتون بين ضعيف وقوي، سواء كان هذا الضعف في الجسد أو في المكانة الاجتماعية، فالإنسان الضعيف جسديا يحتاج إلى الصبر على من هو أقوى منه على أن يكون هذا الصبر خالي من التذلل والمسكنة، فيستعين بالله على من ظلمه وقهره، ويصبر على هذا الأذى

حتى يأتيه الفرج من الله تعالى، وفي حالة الإنسان القوي جسديا فإنّه يحتاج إلى الصبر أكثر من الضعيف نفسه، لأنه يملك القوّة التي يستطيع أن يظلم بها ويتجبر ويتكبر، لذلك فهو بحاجة إلى الصبر لكي لا يستعمل قوته الجسدية في أذية الآخرين حتى دون أن يقصد، فمثلا كما نعلم في قصة سيدنا موسى الذي عُرف عنه قوته البدنية فبخطأ دون قصد تسبب في موت إنسان، قال تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ ربّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم قَالَ ربّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ}763، فالقوّة الجسدية أحيانا تجعل من الإنسان إذا أساء استعمالها يصل إلى التعدي على غيره فهي بذلك بحاجة إلى الصبر الشديد على كبح جماحها والسيطرة عليها واستعمالها في وجوه الحقّ والخير.

وكذلك الأمر بالنسبة لمن يملك قوّة الجاه والسلطان فالعبء يكون عليه أكثر من فاقدها، لأنّ الأوّل يكون لديه ما يستطيع أن يكون متحكما ومسؤولا عن غيره الذين هم أقل منه سلطة وجاه، ومثال ذلك فرعون ملك مصر الذي أعطاه الله السلطان والملك والمال، فلم يكن مستوعبا لهذه النعم ولم يستطع الصبر على استغلالها فظلم نفسه، قال

---

[763] القصص 14 . 17.

تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الْآَيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}764، فقد طغى لوجود كل تلك النعم التي كان عليه أن يكون حامدا شاكرا لله عليه.

ومن مزايا الصبر إذا انغرس في نفس المؤمن أن يجعله متوكلا على الله وحده، الذي لا يخيّب ظن عباده به، فهناك رابط بين الصبر والتوكل على الصبور المطلق، حيث أنه سبحانه وتعالى وكيلنا نحن المسلمون، قال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاس إِنَّ النّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}765، فهو سبحانه وتعالى وليّنا ووكيلنا الذي نوكله بكل أمورنا ونحن مطمئنون وراضون بحكمه وقضائه، ولو أن كل مسلم وكّل أمره للخالق وفي نفس الوقت بذل كل طاقاته في الحياة فبالتأكيد سيمدنا البصير المطلق الذي يرانا ويعلم ويقدّر أمورنا بالنّجاح والأمل والفرج من كل ضيق.

فهو الوهاب لعباده بصبره لأنه يعلم ما تكابده نفس العبد وهي صابرة محتسبة أمرها له عزّ وجلّ، قال تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}766، فيهب الوهاب لمن استحقّ كرمه سواء في الدنيا أو في الآخرة، وعلى قدر صبر المؤمن تكون درجة الرضا في نفسه والسعادة التي

---

764 النازعات 15 . 26.

765 آل عمرا 173، 174.

766 المائدة 7.

أصبحت حلم يراود الكثير من المسلمين في وقتنا هذا، إذ أنهم يبحثون عنها وكأنها كنز ثمين وهو لا يدركون أنها قد تكون في ساعة صبر على ابتلاء أو في توكله على خالقه والتقربّ منه، فلن يجد السعادة كل من كان بينه وبين الله قطيعة أو جفاء، أو من كان عجولا على متاع الدنيا ولا يعنيه أمر الآخرة، فكلما حصل على شيء من أمور الدنيا زادت لهفته على متاعٍ آخر وتدور حياته داخل دائرة الشهوات والرغبات الفانية التي لا تستطيع أن تغنيه عن رضا المولى عزّ وجلّ عليه، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}767، وكذلك قوله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ}768، فالصبر طريق للوصول للسعادة والطمأنينة والأمان، وهو جدار أمام التوتر والقلق واليأس، لأن الصبر الإيجابي الطيب هو الذي لا يشوبه إحباط أو يأس بل يكون مفعما بالأمل في المولى عزّ وجلّ، ومليء بالقوّة والعزة.

فكيف يكون صبرنا مختلطا باليأس ونحن نستمده من الخالق، ونطيع أمره في التحلي به، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}769، فلا يمكن أن يتصف الله بصفة نقص أو عيب لأنه الكمال والتمام في صفاته وأفعاله.

لذلك فعلى خليفة الله أن يكون صبورا عن قوّة وأمل لا عن ضعف وهزيمة، فليس من الخلفاء في الأرض من كان مهزوما مقهورا بل إن الله مع صبره قوي عزيز، والخليفة لابد أن يكون مع صبره قويا، إذ أنّه في بعض الحالات يكون العقاب فيها مسموح كما جاء في قوله تعالى: {ادْعُ

[767] البقرة 103.

[768] القصص 60.

[769] النحل 127.

إِلَى سَبِيلِ ربّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ربّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}770، فقد وضّح الله أنه قد يكون هناك أكثر من طريقة للتعامل ولكن الصبر هو أفضلها وفيه الخير للمعاقِب والمعاقَب، فليكن خليفة الله في الأرض ملازما للصبر في صغير أموره قبل كبيرها لأنه من تعوّد الصبر على صغائر الأمور فقد أدرك الصبر على كبائرها، لأنّ الصبر جزء واحد لا يمكن تجزئته أو الفصل بينه.

قال تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}771، العجول دائما قلق، ولهذا لا يدرك الأمور كما هي عليه، سريع التصرف، ولهذا لا يحسنه، فكثير من الأمور تحتاج إلى تأني وصبر، وذلك لأجل التدبر الحسن والتصرف الأحسن، ولهذا قال تعالى: (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) فالذي يكرهه البعض بأسباب الاستعجال والقلق، قد يكون فيه الخير الكثير، ولذا قال (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ) أي لماذا هذا الاستعجال الذي بأسبابه قد تضيع ما هو أهم.

وقوله تعالى: (وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) أي ليس دائما كل ما تحبونه نافع ومفيد، فقد يكون ما تحبونه فاسدا أو يؤدّي إلى المفاسد، وقد يكون شرا وأنتم بحكمكم المستعجل ظننتم أنه محبب ومفضل، ولهذا فتبينوا قبل أن تقرروا، وعليه فالصبر كما يقولون هو (مفتاح الفرج). والحمد لله ربّ العالمين.

---

770 النحل 125، 126.

771 البقرة 216.